التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة الروم وسورة لقمان وسورة السجدة

إعداد
القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر (سابقا)

الإشراف العام
الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف



المجلد الرابع والعشرون

الدرر السنية
www.dorar.net

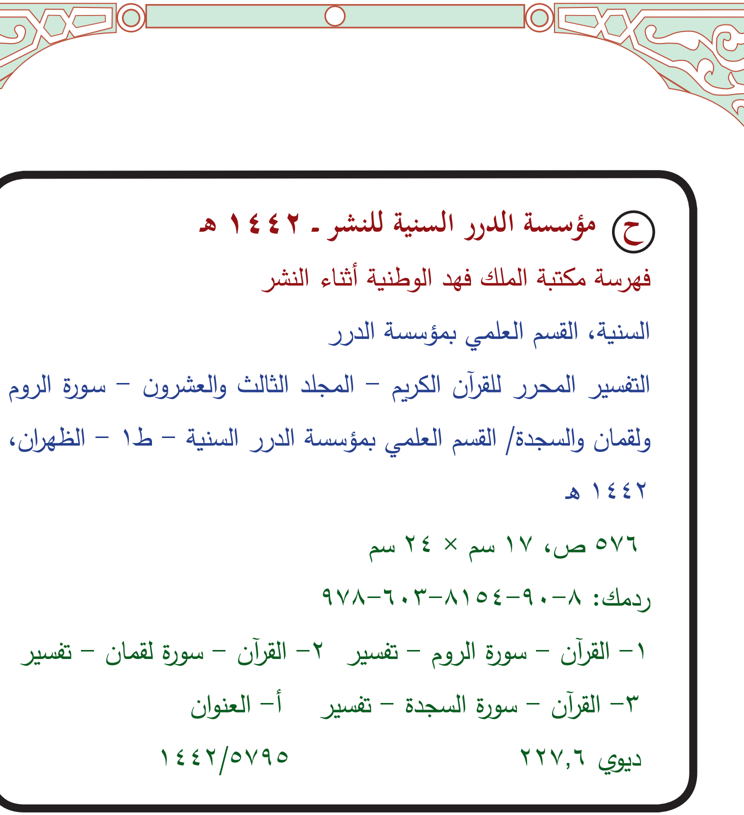




التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَرِيمِ

(سورة الروم وسورة لقمان وسورة السجدة)



ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السنية، القسم العلمي بمؤسسة الدرر

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد الثالث والعشرون - سورة الروم ولقمان والسجدة/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - ط١ - الظهران، ١٤٤٢ هـ

٥٧٦ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٨-٩٠-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - سورة الروم - تفسير ٢- القرآن - سورة لقمان - تفسير

٣- القرآن - سورة السجدة - تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٢/٥٧٩٥

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٥٧٩٥

ردمك: ٨-٩٠-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١ م





التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الروم وسورة لقمان وسورة السجدة)

إعْدَادُ

القِسمِ العِلميِّ بمُؤسَّسةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

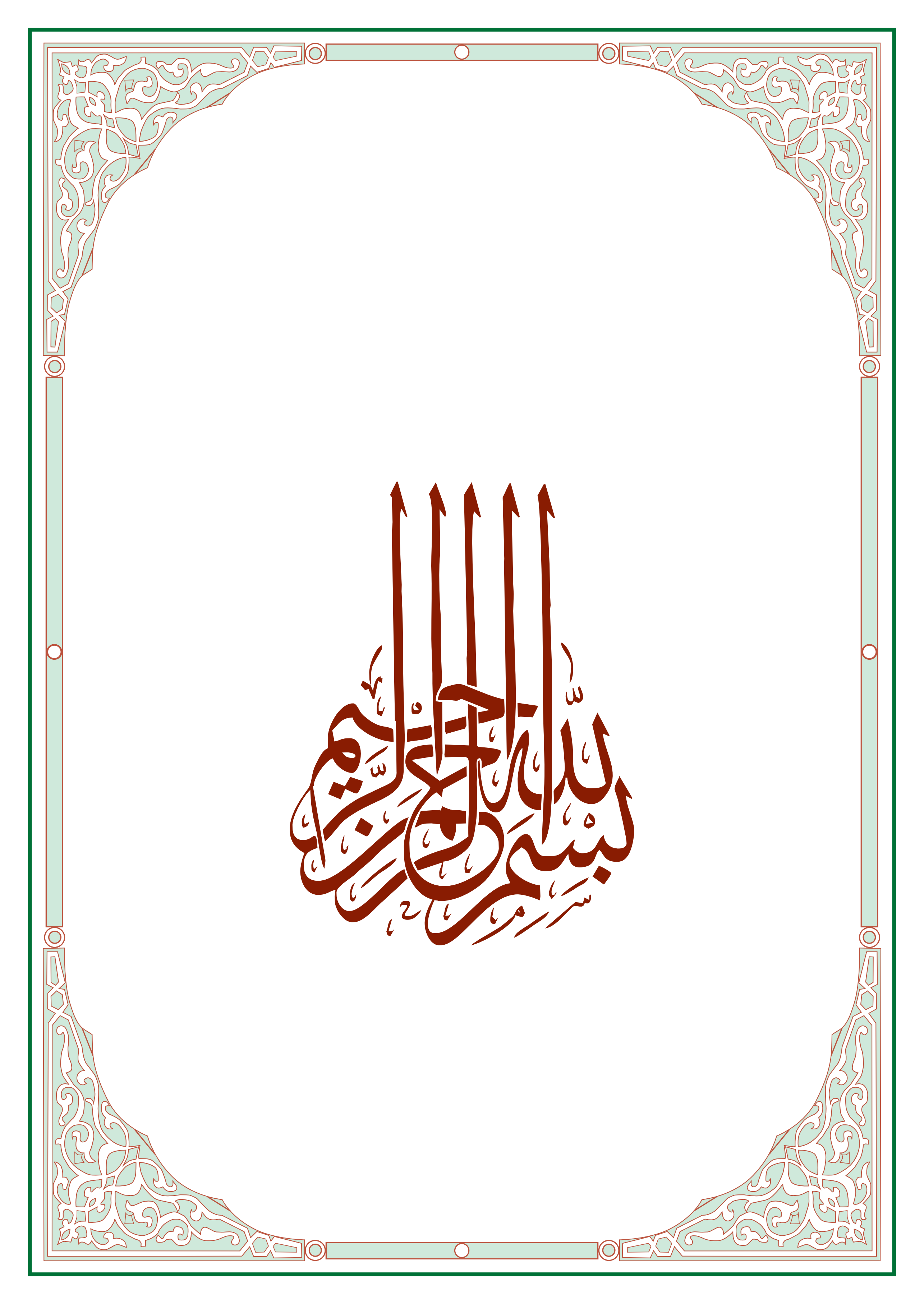
الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشرافُ العامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السَّقَّاف

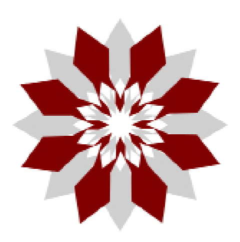
المجلد الرابع والعشرون

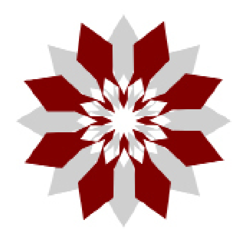


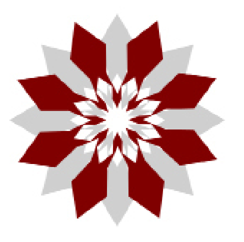

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ

سُورَةِ الرُّومِ







سورةُ الرُّومِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسورةِ (الرُّومِ)(١):

فعن أبي رَوحٍ رَضِيَ الله عنه ((أنَّه صلَّى مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الصُّبحَ فقرَأ بالرُّومِ، فترَدَّد في آيةٍ، فلمَّا انصرَف قال: إنَّه يَلْبِسُ علينا القرآنَ أنَّ أقوامًا منكم يُصَلُّون معنا لا يُحْسِنونَ الوُضوءَ، فمَن شَهِد الصَّلاةَ معنا فلْيُحْسِنِ الوُضوءَ))(٢).

بيانُ المَكِّي والمَدَنيِّ:

سورةُ الرُّومِ مَكِّيَّةٌ(٣)، ونقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ من المفَسِّرينَ(٤).

---

(١) سُمِّيت سورةَ الرُّومِ؛ لِما فيها مِن ذِكرِ غَلَبةِ الرُّومِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٦٥).

(٢) أخرجه أحمد (١٥٨٧٤) واللَّفظُ له، وابنُ أبي شَيْبةَ في ((المصنف)) (٣٤).
حَسَّنه الألباني في ((صحيح الترغيب)) (٢٢٢)، وشعيب الأرناؤوط في تحقيق ((مسند أحمد)) (٢٥/ ٢١١). وقال المُنْذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (١/ ١٣٨): رجاله محتجٌّ بهم في الصَّحيح. وقال الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (١/ ٢٤٦): رجالُه رجالُ الصَّحيحِ.
وبنحوه أخرجه النَّسائيُّ (٩٤٧)، وأحمد (١٥٨٧٣) من حديثِ شَبيبٍ أبي رَوْحٍ، عن رجُلٍ من أصحاب النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.
حسَّنه الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٩٤٧)، وحسَّن إسنادَه ابنُ كثير في ((التفسير)) (٦/ ٣٢٩)، وشعيب الأرناؤوط في تحقيق ((مسند أحمد)) (٢٥/ ٢٠٩).

(٣) وقيل: مكِّيَّةٌ إلَّا قولَه تعالى: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ [الروم: ١٧]؛ فمَدَنيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٦).

(٤) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، وابنُ الجوزي، والقرطبي، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٦٥)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٣٤٨).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أبرزِ مقاصِدِ سورةِ الرُّومِ:

١- بَسْطُ دَلائلِ وحدانيَّةِ الله، وإبطالُ الشِّركِ[١].

٢- تقريرُ البَعثِ والجزاءِ في الآخرةِ[٢].

موضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أبرزِ الموضوعاتِ الَّتي تناولَتْها سورةُ الرُّومِ:

١- الإخبارُ عن حربِ الرُّومِ والفُرسِ وانتهائها بانتصارِ الفُرسِ، والوَعدُ بأنَّ الرُّومَ سيَنتصرونَ بعدَ ذلك عليهم.

٢- حثُّ الكُفَّارِ على التَّفَكُّرِ فيما خلَقَ اللهُ مِن السَّمَواتِ والأرضِ وما بيْنَهما، والسَّيرِ في الأرضِ؛ لِيَنظُروا كيف كان مَصيرُ الأُمَمِ قَبْلَهم، وتوعُّدُهم بسوءِ المصيرِ.

٣- ذِكرُ قَضيَّةِ الخَلقِ والإعادةِ، وأنَّها لله وحْدَه، وإليه يُرجَعُ جميعُ المخلوقاتِ.

٤- بيانُ بَعضِ ما يجري يومَ القيامةِ، ومصيرِ المؤمنينَ والكُفَّارِ.

٥- تَعدادُ بَعضِ آياتِ الله العَظيمةِ الَّتي تدُلُّ على وَحدانيَّته تعالى.

٦- الحَثُّ على التَّمسُّكِ بالدِّينِ الحقِّ واتِّباعِه، والنَّهيُ عن اتِّباعِ طَريقِ المُشرِكين.

٧- الإخبارُ عن أحوالِ النَّاسِ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، والدَّعوةُ إلى التَّعاطُفِ والتَّراحمِ، والتَّحذيرُ مِنَ الرِّبا.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١).

٨- الإخبارُ بأنَّ اللهَ تعالى هو مَن يَخلُقُ ويَرزُقُ، ويُحيي ويُميتُ، وأنَّ ما يتَّخِذُه المُشرِكونَ مِن شُرَكاءَ لا يَملِكونَ مِن ذلك شَيئًا.

٩- الإخبارُ عن ظُهورِ الفَسادِ في البَرِّ والبَحرِ، وتوضيحُ أنَّ سَبَبَ ذلك هو ما كَسَبتْه أيدي النَّاسِ.

١٠- تَسليةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بسَبَبِ تكذيبِ قَومِه، بأنَّ هذا هو حالُ الأنبياءِ، وأنَّ الله انتقَمَ اللهُ مِنَ الَّذين أجرَموا، وتكفَّل بنَصرِ المؤمِنينَ.

١١- بيانُ أطوارِ حياةِ الإنسانِ الرَّئيسةِ، وذِكرُ بعضِ أهوالِ يومِ القيامةِ.

١٢- الإخبارُ عن تعنُّتِ الكفَّارِ، وأمْرُ الله تعالى نبيَّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالصَّبرِ والثَّباتِ.



الآيات (١-٧)

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾.

المعنى الإجماليُّ:

افتُتِحَت هذه السُّورةُ بالحروفِ المقطَّعةِ؛ لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ إذ تُبرِزُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضتِه بالإتيانِ بشَيءٍ مِن مِثْلِه، مع أنَّه مرَكَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّة الَّتي يَتحدَّثون بها.

ثمَّ يخبِرُ الله تعالى عن المعركةِ الَّتي دارَتْ بيْنَ الفُرسِ والرُّوم وانتهَتْ بهزيمةِ الرُّوم، ويُبشِّرُ المؤمنينَ بانتصارِ الرُّوم بعدَ ذلك، فيقولُ: غَلَبَ أهلُ فارسَ المُشركونَ الرُّومَ مِن أهلِ الكِتابِ في أدنى الأرضِ، والرُّومُ مِن بعدِ هزيمتِهم مِنَ الفُرسِ سيَنتَصِرونَ عليهم خِلالَ بِضْعِ سنينَ، لله وحْدَه الحُكمُ والتَّقديرُ والأمرُ النَّافذُ من قَبلِ انتصارِ الرُّوم على الفُرسِ، ومِن بَعدِ انتصارِهم عليهم، ويومَ يَنتَصِرُ الرُّومُ على الفُرسِ يفرَحُ المؤمِنونَ بنَصرِ الله؛ ينصُرُ اللهُ مَن يَشاءُ مِن عبادِه، وهو الغالِبُ القاهِرُ لأعدائِه، الرَّحيمُ بعِبادِه المؤمنينَ.

وعَدَ اللهُ المؤمِنينَ بانتصارِ الرُّوم على الفُرسِ وعْدًا لا بُدَّ مِن وُقوعِه، لا يُخلِفُ اللهُ وعْدَه، ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ. يَعلَمونَ ما يَتعلَّقُ بشُؤونِ دُنياهم فحَسْبُ، وهم عن أمرِ آخرتِهم غافِلونَ، لا يُفكِّرونَ في شأنِها، ولا يَعمَلونَ لأجْلِها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿الٓمٓ ١﴾.

هذه الحروفُ المقطَّعةُ الَّتي افتُتِحَت بها هذه السُّورةُ وغيرُها، تأتي لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ حيث تُظهِرُ عجزَ الخَلْقِ عن مُعارَضتِه بمِثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ من هذه الحروفِ العربيَّةِ الَّتي يَتحدَّثونَ بها[١].

﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢﴾.

أي: غَلَب أهلُ فارسَ المُشرِكونَ، الرُّومَ أهلَ الكِتابِ، وقَهَروهم[٢].

﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣﴾.

﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: انتصَر الفُرسُ على الرُّومِ في أدنى الأرضِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦).
قال ابن كثير: (نزلَتْ هذه الآياتُ حينَ غلَب سابورُ ملكُ الفُرسِ على بلادِ الشَّامِ وما والاها مِن بلادِ الجزيرةِ وأقاصي بلادِ الرُّومِ، واضطَرَّ هِرَقلَ ملكَ الرُّومِ حتَّى ألْجأه إلى القُسْطَنْطينيَّةِ، وحاصَره فيها مدَّةً طويلةً، ثمَّ عادَتِ الدَّولةُ لهِرَقْلَ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٧).
وقال القاسمي: (اتَّفق المؤرِّخون مِنَ المسلمينَ وأهلِ الكتابِ على أنَّ مَلِكَ فارسَ كان غزا بلادَ الشَّامِ، وفتَحَ دِمَشْقَ وبيتَ المَقْدِسِ: الأُولى سنةَ ٦١٣، والثَّانية سنةَ ٦١٤. أي: قبْلَ الهجرةِ النَّبويَّةِ بسَبْعِ سِنينَ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٤٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٧٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٦)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣). =

﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾.

أي: والرُّومُ مِن بعدِ أن غلَبَهم أهلُ فارسَ سيَغلِبونهم[1].

﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤﴾.

﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾.

= قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾: في أقرَبِ أرضِ الرُّوم إلى بلادِ العرب. ومِمَّن قال بهذا القول: البقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٣).

وقال البيضاوي: (﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أرضِ العرَبِ منهم؛ لأنَّها الأرضُ المعهودةُ عندَهم، أو في أدنى أرضِهم مِن العربِ، واللَّامُ بدَلٌ مِن الإضافةِ). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠١). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٦، ٢٤٧).

وقيل: المعنى: أقرَبُ أرضِ الشَّامِ إلى بلادِ فارسَ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، ومكِّي، والبغوي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٥٨، ٤٦٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٩٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦٥٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٧٠).

وقال الألوسي: (المرادُ بالأرضِ أرضُ الرُّوم على أنَّ «أل» نائبةٌ مَنابَ الضَّميرِ المُضافِ إليه، والأقربيَّةُ بالنَّظرِ إلى أهلِ مكَّةَ؛ لأنَّ الكلامَ معهم. أو المرادُ بها أرضُ مكَّةَ ونواحيها؛ لأنَّها الأرضُ المعهودةُ عندَهم، والأقربيَّةُ بالنَّظرِ إلى الرُّوم. أو المرادُ بالأرضِ أرضُ الرُّوم؛ لذِكْرِهم، والأقربيَّةُ بالنَّظرِ إلى عدُوِّهم -أعني: فارسَ- لحديثِ المَغلوبيَّة. وقد جاء مِن طرُقٍ عديدةٍ أنَّ الحربَ وقعتْ بيْنَ أَذْرِعاتَ وبُصْرَى. وقال ابنُ عبَّاسٍ، والسُّدِّيُّ: بالأُرْدُنِّ وفِلَسْطينَ. وقال مجاهدٌ: بالجزيرةِ، يعني: الجزيرةَ العُمَريةَ، لا جزيرةَ العربِ). ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٥٨، ٤٦٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٤).

قوله: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ غَلَب مصدرٌ، يقال: غَلَبْتُه غَلْبًا وغَلَبَةً وغلَبًا، وهي مِن بابِ إضافةِ المصدرِ إلى المفعولِ، أي: غلبةِ غيرِهم عليهم، وإنَّما أضاف الغلبةَ إليهم؛ لاتصالِها بهم، واتصالُ الغلبةِ بهم وُقوعُها عليهم، والمعنى: وهم من بعدِ غلبِ فارسَ إيَّاهم سيغلبون فارسَ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٩٥)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٦١١)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥).

أي: سيقَعُ انتِصارُ الرُّومِ على الفُرسِ فيما بيْنَ ثلاثِ سِنينَ إلى تِسعٍ[(١)].

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾، قال: ((غُلِبَت وغَلَبت؛ كان المُشرِكون يُحِبُّون أن يظهَرَ أهلُ فارسَ على الرُّومِ؛ لأنَّهم وإيَّاهم أهلُ أوثانٍ، وكان المُسلِمونَ يُحِبُّونَ أن يظهَرَ الرُّومُ على فارسَ؛ لأنَّهم أهلُ كتابٍ، فذَكَروه لأبي بكرٍ، فذكره أبو بكرٍ لِرَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، قال: أمَا إنَّهم سيَغْلِبونَ، فذكره أبو بكرٍ لهم، فقالوا: اجعَلْ بيْنَنا وبيْنَك أجَلًا؛ فإنْ ظهَرْنا كان لنا كذا وكذا، وإنْ ظهَرْتُم كان لكم كذا وكذا، فجعَل أجَلًا خمسَ سِنينَ، فلمْ يَظهَروا، فذكَر ذلك للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، قال: ألَا جعَلْتَه إلى دُون -قال: أُراه العَشر- قال الرَّاوي: والبِضعُ ما دونَ العَشرِ- قال: ثمَّ ظهَرَت الرُّومُ بعدُ. قال: فذلك قَولُه تعالى: ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ إلى قَولِه: ﴿يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ * بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ [الروم: ٤، ٥]))[(٢)].

وعن نِيَارِ بنِ مُكْرَمٍ الأسلَميِّ رَضِيَ الله عنه، قال: (لَمَّا نزلت: ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ١٢٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦).

قال الواحدي: (أجمَع المفسِّرونَ أنَّ الرُّومَ غَلَبت فارسَ بعدَما أخبَرَ الله بهذه الآيةِ أنَّهم سيَغلِبونَ، في السَّنةِ السَّابعةِ). ((البسيط)) (١٨/ ١٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٠، ٤٥).

وقال ابنُ عاشور: (اتَّفقت الرِّواياتُ على أنَّ غَلَبَ الرُّومِ للفُرسِ وقَع بعدَ مُضِيِّ سَبْعِ سِنينَ من غَلَبِ الفُرسِ على الرُّومِ، الَّذي نزلتْ عندَه هذه السُّورةُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٠).

ونسَبه الثعلبيُّ إلى قولِ أكثرِ المفسِّرينَ. ينظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٩٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٣١٩٣)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٣٨٩)، وأحمد (٢٤٩٥).

قال التِّرمذيُّ: حسَنٌ صحيحٌ غريب. وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣١٩٣)، وقال ابن القيم في ((الفروسية)) (ص: ٩٢، ٢٠٧): إسنادُه على شرطِ الصَّحيحِ. وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٤/ ١٦٨).

ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴾ [الروم: ١ - ٣]، فكانت فارسُ يومَ نزلت هذه الآيةُ قاهرينَ للرُّوم، وكان المُسلِمونَ يُحِبُّون ظُهورَ الرُّوم عليهم؛ لأنَّهم وإيَّاهم أهلُ كتاب، وفي ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ * بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم: ٤، ٥]، فكانت قُرَيشٌ تُحِبُّ ظُهورَ فارِسَ؛ لأنَّهم وإيَّاهم ليسوا بأهلِ كتابٍ، ولا إيمانٍ ببعثٍ، فلمَّا أنزَل الله تعالى هذه الآيةَ خرَج أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ يَصيحُ في نواحي مكَّةَ: ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ * فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ١ - ٤]، قال ناسٌ مِن قُرَيشٍ لأبي بكرٍ: فذلك بيْننا وبيْنكم، زَعَم صاحِبُك أنَّ الرُّومَ ستَغلِبُ فارِسَ في بِضعِ سِنينَ، أفلا نُراهِنُك على ذلك؟ قال: بلى -وذلك قبْلَ تحريمِ الرِّهانِ- فارتَهَن أبو بكرٍ والمُشرِكونَ وتَواضَعوا الرِّهانَ، وقالوا لأبي بكرٍ: كم تجعَلُ؟ البِضعُ ثلاثُ سِنينَ إلى تسعِ سِنينَ، فسَمِّ بيْنَنا وبيْنَك وسَطًا تنتهي إليه، قال: فسَمَّوا بيْنَهم سِتَّ سِنينَ، قال: فمَضَت السِّتُّ سِنينَ قبْلَ أن يَظهَروا، فأخَذ المُشرِكون رَهنَ أبي بكرٍ، فلمَّا دخلَتِ السَّنَةُ السَّابِعةُ ظَهَرت الرُّومُ على فارِسَ، فعاب المُسلِمونَ على أبي بكرٍ تَسمية سِتِّ سِنينَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾، قال: وأسلَمَ عندَ ذلك ناسٌ كثيرٌ)[(١)].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٩٤) واللفظ له، والطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (٧/ ٤٤٢).

قال الترمذي: صحيحٌ حسَنٌ غريبٌ. وحسَّن الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣١٩٤).

وقال ابن القيم: (قولُه: «وذلك قبل تحريمِ الرِّهانِ» مِن كلام بعضِ الرُّواة؛ ليس مِن كلامِ أبي بكرٍ، ولا مِن كلامِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ). ((الفروسية)) (ص: ٩٥).

قال ابنُ تيميَّةَ: (هذه المُراهَنةُ هي مِثلُ المراهَنةِ في سِباقِ الخَيلِ، والرَّمي بالنُّشَّاب، وكانت جائزةً؛ لأنَّها مَصلحةٌ للإسلام؛ لأنَّ فيها مَصلحةَ بيانِ صِدقِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم فيما أخبَرَ به مِن أنَّ الرُّومَ سيَغلِبونَ بعدَ ذلك، وفيها ظُهورُ أقرَبِ الطَّائِفتَينِ إلى المسلِمينَ على =

﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾.

أي: لله وَحْدَه الحُكمُ والتَّدبيرُ والتَّقديرُ والتَّصرُّفُ في خَلقِه بما يَشاءُ مِن قَبلِ أن تَغلِبَ الرُّومُ فارِسَ، ومِن بعدِ غَلَبَتِهم لهم؛ فغَلَبةُ أحَدِهما الآخَرَ واقِعةٌ بأمرِ اللهِ وقَضائِه وقَدَرِه، فحينَ غَلَبتْ فارسُ الرُّومَ كان الأمرُ لله، وحينَ تَغلِبُ الرُّومُ فارِسَ يكونُ الأمرُ لله، فاللهُ وحْدَه هو الَّذي يَحكُمُ في خَلقِه بما يَشاءُ، ويَنصُرُ مَن يَشاءُ[1].

كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ...﴾.

= أبعَدِهما، وهذا فَعَله الصِّدِّيقُ رضي الله عنه، وأقَرَّه عليه رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ولم يُنكِرْه عليه، ولا قال: هذا مَيسِرٌ وقِمارٌ، والصِّدِّيقُ أجَلُّ قَدْرًا من أن يقامِرَ؛ فإنَّه لم يَشرَبِ الخَمرَ في جاهليَّةٍ ولا إسلامٍ، وهي أشهى إلى النُّفوسِ مِن القِمارِ! وقد ظَنَّ بَعضُهم أنَّ هذا قِمارٌ، لكِنَّ فِعْلَه هذا كان قبْلَ تحريمِ القِمارِ، وهذا إنَّما يُقبَلُ إذا ثبت أنَّ مِثلَ هذا ثابتٌ فيما حَرَّمه اللهُ من المَيسِرِ، وليس عليه دليلٌ شرعيٌّ أصلًا، بل هي مجرَّدُ أقوالٍ لا دليلَ عليها، وأقْيِسةٌ فاسِدةٌ يَظهَرُ تناقُضُها لِمَن كان خبيرًا بالشَّرعِ). ((المستدرك على مجموع الفتاوى)) (٤/ ٦٩).

وقال ابن القيم: (وَقد اختلف أَهلُ العلمِ فِي إحكامِ هذا الحديثِ ونسخِه على قوليْن: فادَّعت طَائِفَةٌ نسخَه بنهيِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم عن الغرَرِ والقمارِ... وإلى هذا القولِ ذهَب أصحابُ مالكٍ وَالشَّافعيُّ وأحمدُ. وَادعت طائِفَةٌ أنَّه مُحكَمٌ غيرُ منسوخ وأنَّه ليس معَ مدَّعي نسخِه حجَّةٌ يتَعَيَّنُ المصيرُ إليها... وإلى هذا ذهب أصحابُ أبي حنيفةَ وشيخُ الإسلامِ ابْنُ تيميةَ). ((الفروسية)) (ص: ٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٥٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٦، ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٦).

قال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ حينَ غلَبَت الرُّومُ فارِسَ، وهذا قولُ الجميعِ). ((البسيط)) (١٨/ ١٣).

أي: ويَومَ يَنتَصِرُ الرُّومُ على الفُرسِ يَفرَحُ المؤمِنونَ بنَصرِ اللهِ للرُّومِ أهلِ الكِتابِ على الفُرسِ المُشرِكينَ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٧).

قال السمعاني: (إنَّما فَرِحوا بذلك؛ لصِدقِ وَعدِ الله تعالى، ولأنَّهم قالوا: كما نصَرَ اللهُ أهلَ الكتابِ على غيرِ أهلِ الكتابِ، كذلك ينصُرُنا عليكم). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٩٧).

وقال الزمخشري: (يفرَحُ المؤمِنونَ بنَصرِ الله وتغليبِه مَن له كتابٌ على مَن لا كتابَ له، وغَيظِ مَن شَمِت بهم مِن كُفَّارِ مكَّةَ. وقيل: نَصْرُ الله: هو إظهارُ صِدقِ المؤمنينَ فيما أخبَروا به المُشرِكينَ مِن غَلَبةِ الرُّومِ. وقيل: نَصرُ الله أنَّه ولَّى بعضَ الظَّالِمينَ بَعضًا، وفرَّقَ بيْنَ كَلِمِهم حتَّى تفانَوا وتناقَصوا، وفَلَّ هؤلاءِ شوكةَ هؤلاء، وفي ذلك قوَّةٌ للإسلامِ). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٧).

وقال ابن عطية: (ويشبهُ أنْ يعلَّلَ ذلك بما يَقتضيه النظرُ مِن محبةِ أنْ يغلبَ العدوُّ الأصغرُ؛ لأنَّه أيسرُ مؤنةً، ومتى غلَبَ الأكبرُ كثُر الخوفُ منه، فتأمَّلْ هذا المعنى معَ ما كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ترجَّاه مِن ظهورِ دينِه وشرعِ الله الذي بعَثه به، وغلبتِه على الأُممِ، وإرادةِ كفَّارِ مكَّةَ أنَ يرميَه الله بملكٍ يستأصلُه ويريحُهم منه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٨). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٦).

وقال ابن كثير: (قد كانت نُصرةُ الرُّومِ على فارسَ: يومَ وَقعةِ بَدرٍ، في قولِ طائفةٍ كبيرةٍ مِن العُلَماءِ؛ كابنِ عبَّاسٍ، والثَّوريِّ، والسُّدِّيِّ، وغيرهم.. وقال آخَرون: بل كان نُصرةُ الرُّومِ على فارِسَ: عامَ الحُدَيبيَةِ؛ قاله عِكْرِمةُ، والزُّهْريُّ، وقَتادةُ، وغيرُهم.. والأمرُ في هذا سَهلٌ قريبٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٣، ٣٠٤).

وقال ابن القيم: (وهذه الغلبةُ مِن الرومِ لفارسَ كانت عامَ الحُديبيةِ بلا شكٍّ، ومَن قال: كانت عامَ وقعةِ بدرٍ فقد وهِم؛ لما ثبت في «صحيح البخاري»...). ((الفروسية)) (ص: ٢٠٧، ٢٠٨).

وقال السعدي: (أي: يَفرَحونَ بانتصارِهم على الفُرسِ، وإن كان الجميعُ كُفَّارًا، ولكِنَّ بَعضَ الشَّرِّ أهوَنُ مِن بَعضٍ، ويَحزَنُ يومَئذٍ المُشرِكونَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦).

وقال ابن عاشور: (﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: بنَصرِ اللهِ إيَّاهم على الَّذين كانوا غَلَبوهم مِن قَبلُ، وكان غَلَبُهم السَّابقُ أيضًا بنَصرِ اللهِ إيَّاهم على الرُّومِ؛ لحِكمةٍ اقتَضَت هذا التعاقُبَ، وهي تهيئةُ أسبابِ انتصارِ المُسلِمينَ على الفريقَينِ إذا حاربوهم بعدَ ذلك؛ لِنَشرِ دينِ اللهِ في بلادِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٧).

﴿... يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾.

﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾.

أي: يَنصُرُ اللهُ مَن يَشاءُ مِن عبادِه على مَن يشاءُ منهم، وَفْقَ ما تَقتَضيه حِكمَتُه سُبحانَه، كما نَصَرَ فارِسَ على الرُّومِ، ثمَّ الرُّومَ على فارِسَ، ثمَّ نَصَر المؤمِنينَ على فارِسَ والرُّومِ الكافِرين[1].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو الغالِبُ القاهِرُ القَويُّ المُنتَقِمُ مِن أعدائِه بلا مانِعٍ يمنَعُه مِن ذلك، وهو الرَّحيمُ بعبادِه المُؤمِنينَ[2].

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾.

أي: وَعَدَ اللهُ المؤمِنينَ بانتِصارِ الرُّومِ على الفُرسِ وَعدًا لا مَحالةَ مِن وُقوعِه[3].

﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾.

أي: لا يُخلِفُ اللهُ ما وَعَد به عِبادَه، سواءٌ فيما يَتعلَّقُ بنَصرِ الرُّومِ أو بِغَيرِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٠)، ((البسيط)) الواحدي (١٨/ ١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣٢).
قال ابن كثير: (لأنَّ اللهَ قد جرتْ سُنَّتُه أن يَنصُرَ أقرَبَ الطَّائِفَتينِ المقتَتِلَتينِ إلى الحَقِّ، ويجعَلَ لها العاقِبةَ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٥).

مِن الأُمورِ، فما أخبَرَ بوقوعِه لا بدَّ مِن تحقُّقِه؛ لِكَمالِ قُدرتِه، وكَمالِ صِدقِه سُبحانَه[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

أي: ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ ما لله مِن صِفاتِ الكَمالِ، ومِن ذلك أنَّ وَعْدَه حَقٌّ لا يُخلَفُ؛ فهم يَجهَلونَ حِكمَتَه وقُدرَتَه، وصِدقَ خَبَرِه، ويُكَذِّبونَ بآياتِه[2].

﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ٧﴾.

﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾.

أي: أكثَرُ النَّاسِ يَعلَمونَ ما يَتعلَّقُ بشُؤونِ دُنياهم فحَسْبُ؛ كعُمرانِهم، وتدبيرِ مَعايشِهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣٢، ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣٣، ٣٤).

قال البقاعي: (﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: ليس لهم علمٌ أصلًا؛ ولذلك لا نظَرَ لهم يؤدِّي إلى أنَّه وعدٌ، وأنَّه لا بدَّ مِن وقوعِ ما وعَدَ به في الحالِ الَّتي ذكرَها؛ لأنه قادرٌ وحكيمٌ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٧).

قال ابنُ عثيمين: (أثبت لهم العِلمَ، ولكِنَّه عِلمٌ قاصرٌ من وجهَين:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّهم يَعلَمونَ ظاهرًا مِن الحياةِ الدُّنيا لا باطنًا، وكم مِن الأمورِ الخفيَّةِ في هذه =

كما قال تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۞ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠].

﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾.

أي: وهم عن أمرِ آخِرتِهم غافِلونَ؛ فلا يُفكِّرونَ في شَأنِها، ولا يَعمَلونَ لأجْلِها[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ فيه أدَبٌ عَظيمٌ للمُسلِمينَ؛ لِكَيْلا يُعلِّلوا الحوادِثَ بغيرِ أسبابِها، ويَنتَحِلوا لها عِلَلًا تُوافِقُ الأهواءَ، كما كانت تَفعَلُه الدَّجاجِلةُ مِن الكُهَّانِ وأضرابِهم[٢].

= الحياةِ لا يعلَمُها أولئك الكُفَّارُ... الوجهُ الثَّاني: أنَّهم يَعلَمونَ ظاهِرًا مِن الحياةِ الدُّنيا وليس كلَّ ظاهرٍ... يعني: أنَّهم لا يَعلَمونَ كُلَّ ظاهرٍ، إنَّما يَعلَمونَ ظاهِرًا منها فقط، وأنَّ هناك ظواهِرَ أُخرى لا يَعلَمونَها أيضًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الروم)) (ص: ٣٥، ٣٦).

وقال ابن جزي: (﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا﴾ قيل: معناه: يعلمون ما يُدرَكُ بالحواسِّ دونَ ما يُدرَكُ بالعقولِ، فهم في ذلك مثلُ البهائمِ، وقيل: الظاهرُ ما يُعلَمُ بالنَّظرِ بأوائلِ العقولِ، والباطنُ ما يُعلَمُ بالنَّظرِ والدَّليلِ، وقيل: هو مِن الظُّهورِ بمعنى العلوِّ في الدُّنيا، وقيل: ظاهرٌ بمعنى زائلٍ ذاهبٍ، والأظهرُ أنَّه أراد بالظاهرِ: المعرفةَ بأمورِ الدُّنيا ومصالِحها؛ لأنَّه وصَفهم بعدَ ذلك بالغفلةِ عن الآخرةِ، وذلك يقتضي عدمَ معرفتِهم بها). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣٠).

وقال ابنُ عطيةَ: (قال ابنُ عبَّاس والحسنُ والجمهورُ: معناه ما فيه الظهورُ والعلوُّ في الدنيا من إتقانِ الصناعاتِ والمباني ومظانِّ كسبِ الأموالِ والفلاحاتِ ونحوِ هذا). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣٦-٣٨).

قال البقاعي: (فلذلك لا يُصَدِّقونَ الوَعدَ بإدالةِ الرُّومِ؛ لِما رسَخَ في نفوسِهم مِن أنَّ الأمورَ تجري بيْنَ العِبادِ على غيرِ قانونِ الحِكمةِ؛ لأنَّهم كثيرًا ما يَرَونَ الظَّالِمَ يموتُ ولم يُقتَصَّ منه، وهم في غفلةٍ عن أنَّه أُخِّرَ جزاؤُه إلى يوم الدِّينِ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٧).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ ذَمٌّ للَّذين يَتكالَبونَ على العُلومِ الدُّنيويَّةِ مع غَفلتِهم عن الآخِرةِ[1]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ مَدحٌ لِمَن يُقبِلونَ على الآخِرةِ ويَحرِصونَ عليها وإنْ فاتهم شَيءٌ مِن أمورِ الدُّنيا؛ لأنَّه إذا ذَمَّ مَن كان على العَكسِ فذَمُّ الضِّدِّ مَدحٌ لضِدِّه؛ فالَّذين يُقْبِلُون على الآخرةِ -وإنْ كان ليس عندَهم إلَّا علومٌ قليلةٌ مِن الدُّنيا- أكملُ بكثيرٍ مِن الَّذين يُقبِلُون على الدُّنيا ويَغفُلونَ عن الآخِرةِ، وهذا ما تدُلُّ عليه هذه الآياتُ[2].

٤- الغَلَبةُ لا تَدُلُّ على الحَقِّ، بل اللهُ قد يَزيدُ ثوابَ المؤمِنِ، فيَبتليه ويُسَلِّطُ عليه الأعاديَ، وقد يختارُ تَعجيلَ العذابِ الأدنى دُونَ العذابِ الأكبَرِ قبْلَ يومِ المَعادِ؛ قال الله تعالى: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[3].

٥- قال الله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ قد توجَّهَت قلوبُهم وأهواؤُهم وإراداتُهم إلى الدُّنيا وشَهَواتِها وحُطامِها، فعَمِلَت لها وسَعَتْ، وأقبَلَتْ بها وأدبَرَتْ، وغَفَلتْ عن الآخرةِ؛ فلا الجنَّةُ تَشتاقُ إليها، ولا النَّارُ تخافُها وتخشاها، ولا المَقامُ بيْنَ يدَيِ اللهِ ولِقائِه يُرَوِّعُها ويُزعِجُها، وهذا عَلامةُ الشَّقاءِ، وعُنوانُ الغَفلةِ عن الآخِرةِ[4]!

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ يجِبُ على كُلِّ مُسلمٍ في هذا الزَّمانِ أن يتدَبَّرَ آيةَ «الروم» هذه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦).

تدَبُّرًا كثيرًا، ويُبَيِّنَ ما دلَّت عليه لكُلِّ مَن استطاع بيانَه له مِنَ النَّاسِ. وإيضاحُ ذلك أنَّ مِن أعظَمِ فِتَنِ آخِرِ الزمانِ الَّتي ابتلى اللهُ بها ضِعافَ العُقولِ مِن المُسلِمينَ شِدَّةَ إتقانِ الإفرنجِ لأعمالِ الحياةِ الدُّنيا، ومهارتَهم فيها على كَثرتِها واختلافِ أنواعِها، مع عَجزِ المُسلِمينَ عن ذلك! فظَنُّوا أنَّ مَن قَدَر على تلك الأعمالِ أنَّه على الحَقِّ، وأنَّ مَن عجَزَ عنها متخَلِّفٌ، وليس على الحَقِّ! وهذا جَهلٌ فاحِشٌ، وغَلَطٌ فادِحٌ! وفي هذه الآيةِ الكريمةِ إيضاحٌ لهذه الفِتنةِ، وتخفيفٌ لشأنِها، أنزَلَه اللهُ في كتابِه قبْلَ وُقوعِها بأزمانٍ كثيرةٍ، فسُبْحانَ الحكيمِ الخبيرِ! ما أعلَمَه! وما أعظَمَه! وما أحسَنَ تعليمَه! فقد أوضَح جَلَّ وعلا في هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ، ويَدخُلُ فيهم أصحابُ هذه العلومِ الدُّنيويَّةِ دُخولًا أوَّليًّا؛ فقد نفَى عنهم جلَّ وعلا اسمَ العِلمِ بمعناه الصَّحيحِ الكامِلِ؛ لأنَّهم لا يَعلَمونَ شَيئًا عَمَّن خَلَقَهم، فأبرزَهم مِنَ العَدَمِ إلى الوجودِ ورزَقَهم، وسوف يُميتُهم ثَمَّ يُحييهم، ثمَّ يجازيهم على أعمالِهم، ولم يَعلَموا شيئًا عن مَصيرِهم الأخيرِ الَّذي يُقيمونَ فيه إقامةً أبديَّةً في عذابٍ فظيعٍ دائمٍ! ومَن غَفَل عن جميعِ هذا فليس معدودًا مِن جِنسِ مَن يَعلَمُ كما دلَّت عليه الآياتُ القُرآنيَّةُ المذكورةُ، ثَمَّ لَمَّا نفَى عنهم جلَّ وعلا اسمَ العِلمِ بمعناه الصَّحيحِ الكامِلِ، أثبَت لهم نوعًا مِن العِلمِ في غايةِ الحقارةِ بالنِّسبةِ إلى غيرِه، وعاب ذلك النَّوعَ المذكورَ مِن العِلمِ بعَيبينِ عَظيمَينِ:

أحدُهما: قِلَّتُه وضِيقُ مجالِه؛ لأنَّه لا يُجاوِزُ ظاهِرًا من الحياةِ الدُّنيا، والعِلمُ المقصورُ على ظاهرٍ مِن الحياةِ الدُّنيا: في غايةِ الحقارةِ وضِيقِ المجالِ بالنِّسبةِ إلى العِلمِ بخالقِ السَّمَواتِ والأرضِ جَلَّ وعلا، والعِلمِ بأوامِرِه ونواهيه، وبما يُقَرِّبُ عَبْدَه منه، وما يُبعِدُه عنه، وما يُخلِّدُ في النَّعيمِ الأبَديِّ والعذابِ الأبديِّ مِن أعمالِ الخَيرِ والشَّرِّ.

والثَّاني منهما: هو دناءةُ هَدَفِ ذلك العِلمِ، وعدَمُ نُبلِ غايتِه؛ لأنَّه لا يَتجاوَزُ الحياةَ الدُّنيا، وهي سريعةُ الانقِطاعِ والزَّوالِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ فيه سؤالٌ: ما الحِكمةُ في افتِتاحِ هذه السُّورةِ بحُروفِ التَّهجِّي؟ **الجوابُ**: أنَّ هذه السُّورةَ ذُكِرَ في أوَّلِها ما هو مُعجِزةٌ، وهو الإخبارُ عن الغَيبِ؛ فقُدِّمَت الحروفُ الَّتي لا يُعلَمُ معناها؛ لِيتنَبَّهَ السَّامِعُ، فيُقبِلَ بقَلبِه على الاستِماعِ، ثمَّ تَرِدَ عليه المُعجِزةُ، وتَقرَعَ الأسماعَ[٢].

٢- تأمَّلْ سِرَّ: ﴿الٓمٓ﴾ كيفَ اشتمَلت على هذه الحروفِ الثَّلاثةِ، فالألفُ إذا بُدِئ بها أوَّلًا كانت همزةً، وهي أوَّلُ المخارجِ مِن أقصَى الصدرِ، واللامُ مِن وسطِ المخارجِ، وهي أشدُّ الحروفِ اعتمادًا على اللسانِ، والميمُ آخرُ الحروفِ، ومخرجُها مِن الفمِ، وهذه الثلاثةُ هي أصولُ مخارجِ الحروفِ؛ أعني الحلقَ واللسانَ والشفتينِ، وترتَّبَتْ في التنزيلِ مِن البدايةِ إلى الوسطِ إلى النِّهايةِ. فهذه الحروفُ تعتمِدُ المخارجَ الثلاثةَ التي يتفرَّعُ منها ستةَ عشرَ مخرجًا، فيصيرُ منها تسعةٌ وعشرونَ حرفًا عليها مدارُ كلامِ الأممِ الأوَّلينَ والآخرينَ، معَ تضمُّنِها سرًّا عجيبًا، وهو أنَّ الألفَ البدايةُ، واللامَ التوسُّطُ، والميمَ النهايةُ، فاشتملت الأحرفُ الثلاثةُ على البدايةِ والنهايةِ والواسطةِ بينهما، وكلُّ سورةٍ استُفْتِحتْ بهذه الأحرفِ الثلاثةِ فهي مشتملةٌ على بدءِ الخلقِ ونهايتِه وتوسطِه، فمشتملةٌ على تخليقِ العالمِ وغايتِه وعلى التوسطِ بينَ البدايةِ والنهايةِ من التشريعِ والأوامرِ، فتأمَّلْ ذلك في (البقرةِ) و(آلِ عمرانَ) و(تنزيل السجدةِ) وسورةِ (الرومِ)[٣].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧٩، ٨٠).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٧٣).

٣- لو حَصَل نزاعٌ، وكان المتنازِعانَ مُبطِلَينِ -كأهلِ الكِتابِ والمُشركينَ إذا تجادَلوا أو تقاتَلوا- كان المشروعُ نصْرَ أهلِ الكتابِ على المُشركينَ بالقَدْرِ الَّذي يُوافِقُهم عليه المؤمِنونَ، إذا لم يكُنْ في ذلك مَفسَدةٌ تُقاوِمُ هذه المصلَحةَ؛ فإنَّ ذلك مِن الحَقِّ الَّذي يَفرحُ به المؤمِنونَ، كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ * فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ * بِنَصۡرِ ٱللَّهِ﴾[1].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ فيه سؤالٌ: أيَّةُ فائدةٍ في ذِكرِ قَولِه تعالى: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾، مع أنَّ قَولَه: ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾ بعدَ قَولِه: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ لا يكونُ إلَّا مِن بَعدِ الغَلَبةِ؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوجهُ الأوَّلُ: الفائِدةُ فيه إظهارُ القُدرةِ، وبيانُ أنَّ ذلك بأمرِ اللهِ؛ لأنَّ مَن غَلَب بعدَ غَلَبِه -أي: هزيمتِه- لا يكونُ إلَّا ضعيفًا، فلو كان غلَبَتُهم لِشَوكتِهم لكان الواجِبُ أن يَغلِبوا قبْلَ غَلَبِهم، فإذا غَلَبوا بعدَما غُلِبوا، دَلَّ على أنَّ ذلك بأمرِ اللهِ، فذُكِرَ ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾؛ لِيتفكَّروا في ضَعفِهم، ويَتذكَّروا أنَّ ذلك إنَّما كان بأمرِ اللهِ تعالى[2].

الوجهُ الثاني: التَّنبيهُ على عِظَمِ تلك الهزيمةِ عليهم، وأنَّها بحيثُ لا يُظَنُّ نَصرٌ لهم بعْدَها[3].

٥- قال الله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ *

(١) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٤/ ١٩٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٤).

﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ في هذا الإخبارِ دَليلٌ على نُبوَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ الرُّومَ غَلَبَتْها فارِسُ، فأخبَرَ اللهُ عزَّ وجَلَّ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ الرُّومَ ستَغلِبُ فارِسَ في بِضعِ سِنينَ، وأنَّ المؤمنينَ يَفرَحونَ بذلك؛ لأنَّ الرُّومَ أهلُ كتابٍ، فكان هذا مِن عِلمِ الغَيبِ الَّذي أخبَرَ الله عزَّ وجَلَّ به ممَّا لم يكُنْ عَلِموه[(١)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ رَدٌّ على القدَريَّةِ الَّذين يقولونَ باستِقلالِ العَبدِ بفِعلِه؛ فهم يقولون: «إنَّ العبدَ مُستقِلٌّ بفِعلِه، وليس لله تعالى فيه تقديرٌ ولا أمْرٌ، ولا إنشاءٌ ولا مَشيئةٌ»[(٢)]!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ جوازُ فَرَحِ المؤمِنينَ بانتِصارِ بَعضِ الكُفَّارِ على بَعضٍ، إذا كان في ذلك مَصلحةٌ للإسلامِ[(٣)].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ حُجَّةٌ على المُعتزِلةِ والقدَريَّةِ في بابِ الوعيدِ؛ لأنَّه جَلَّ جلالُه قد أكَّدَ في إنجازِ وعدِه، وأخبَرَ عن الوفاءِ به في غيرِ مَوضِعٍ مِن كتابِه، ولم يفعَلْ ذلك في بابِ الوعيدِ؛ لأنَّ تَرْكَ إنجازِه كَرمٌ لا خُلْفٌ[(٤)].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ سَمَّاه وَعدًا؛ نظرًا لحالِ المؤمِنينَ الَّذي هو أهَمُّ هنا، وهو أيضًا وَعيدٌ للمُشرِكينَ بخِذلانِ أشياعِهم ومَن يفتَخِرونَ بمُماثَلةِ دينِهم[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((النُّكَت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٨).

١٠- قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ عن الحسَنِ رَضيَ الله عنه في الآيةِ قال: (لَيبلُغُ مِن حِذْقِ أحَدِهم بأمرِ دُنياه أنَّه يُقَلِّبُ الدِّرهَمَ على ظُفرِه، فيُخبِرُك بوَزنِه، وما يُحسِنُ يُصَلِّي!)[١].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ دَلالةٌ على أنَّ العِلْمَ الحقيقيَّ هو العِلْمُ بالله تعالى وأسمائِه وصفاتِه، لا العِلمُ بالدُّنيا؛ لقولِه: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ﴾، ثمَّ قال في الآيةِ الَّتي بعدَها: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا ﴾، فنفَى العِلْمَ عنهم؛ لأنَّ عِلْمَ الدُّنيا في الحقيقةِ ليس بعِلْم، فالعِلْمُ الحقيقيُّ الَّذي يُمدَحُ عليه المرءُ هو العِلْمُ بالله وأسمائِه وصِفاتِه وأحكامِه[٢].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ يُفيدُ أنَّ للدُّنيا ظاهِرًا وباطِنًا؛ فظاهِرُها ما يَعرِفُه الجُهَّالُ مِن التمَتُّعِ بزخارِفِها والتَّنَعُّمِ بمَلاذِّها، وباطِنُها وحقيقتُها أنَّها مَجازٌ للآخرةِ، يُتزوَّدُ إليها منها بالطَّاعةِ والأعمالِ الصَّالحةِ[٣].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ مَحطُّ الذَّمِّ هو جملةُ ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾، فأمَّا مَعرِفةُ الحياةِ الدُّنيا فليست بمذَمَّةٍ؛ لأنَّ المؤمِنينَ كانوا أيضًا يَعلمونَ ظاهِرَ الحياةِ الدُّنيا، وإنَّما المذمومُ أنَّ المُشرِكينَ يَعلَمونَ ما هو ظاهِرٌ مِن أمورِ الدُّنيا، ولا يَعلَمونَ أنَّ وراءَ عالَمِ المادَّةِ عالَمًا آخَرَ هو عالَمُ الغَيبِ[٤].

١٤- في الآياتِ دَلالةٌ على قُصورِ عِلْمِ المرءِ؛ لقولِه تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا

---

(١) أخرجه ابنُ المُنْذِرِ وابنُ أبي حاتم وابنُ مرْدَوَيْه كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٤٨٤).
وأخرجه أبو حاتم في ((الزهد)) (ص: ٦٣) بنحوه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٠).

﴿مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، ليس كلَّ الظاهرِ، وليس الباطنَ، فالمرءُ عِلْمُه قاصرٌ حتَّى في أمورِ الدُّنيا أيضًا؛ فلا يُمكِنُ للمرءِ الإحاطةُ بِعلمِ الدُّنيا[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴾

- قولُه: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴾ خَبرٌ مُستعمَلٌ في لازمِ فائدتِه على طَريقِ الكِنايةِ، أي: نحن نَعلَمُ بأنَّ الرُّومَ غُلِبَت؛ فلا يَهْنِكُم -أي: يسرَّكم- ذلك، ولا تُطاوِلوا به على رُسولِنا وأوليائِنا؛ فإنَّا نَعلَمُ أنَّهم سيَغلِبون مَن غَلَبوهم بعدَ بِضعِ سِنينَ بحيث لا يُعَدُّ الغلَبُ في مِثْلِه غَلَبًا؛ فالمقصودُ مِن الكلامِ هو جُملَةُ ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ * فِي بِضۡعِ سِنِينَ ﴾ [الروم: ٣، ٤]، وكان ما قبْلَه تَمهيدًا له[٢].

- وفي قولِه: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴾ أُسنِدَ الفِعلُ إلى المجْهولِ؛ لأنَّ الغرَضَ هو الحديثُ على المغلوبِ لا على الغالِبِ، ولأنَّه قد عُرِفَ أنَّ الَّذين غَلَبوا الرُّومَ هم الفُرْسُ[٣]. وقيل: الحِكمةُ -واللهُ أعلَمُ- في حذْفِ الفاعلِ لسَببينِ: السَّببِ الأوَّلِ: لِيَكونَ ذلك أعظَمَ إهانةً للفُرْسِ، وأنَّهم لَيسوا أهلًا للذِّكْرِ. السَّببِ الثَّاني: لِيَكونَ هذا أخْفى بالنِّسبةِ لذُلِّ الرُّومِ وخِذلانِها، أي: تَهوينًا للأمْرِ على الرُّومِ؛ لأنَّه إذا قيلَ للإنسانِ: أنت غُلِبْتَ، أهْوَنُ من أنْ يُقالَ له: غَلَبَك فُلانٌ؛ فإنَّه إذا قيل له: غَلَبَك فُلانٌ، فمعناهُ: أنَّه ذليلٌ لهذا الرَّجلِ المذكورِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤١، ٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين -سورة الروم)) (ص: ١٤).

٢- قَولُه تعالى: ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾

- حُذِفَ مَفعولُ ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾؛ للعِلْمِ بأنَّ تَقديرَه: سيَغلِبون الَّذين غَلَبوهم، أي: الفُرسَ[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ لفْظُ (بِضْع) كِنايةٌ عن عدَدٍ قليلٍ لا يَتجاوَزُ العَشَرةَ، وحِكْمةُ إبهامِ عدَدِ السِّنينَ أنَّه مُقْتضى حالِ كلامِ العظيمِ الحكيمِ: أنْ يَقتصِرَ على المقصودِ إجمالًا، وألَّا يَتنازَلَ إلى التَّفصيلِ؛ لأنَّ ذلك التَّفصيلَ يَتنزَّلُ مَنزِلةَ الحشْوِ عندَ أهْلِ العقولِ الرَّاجحةِ، ولِيَكونَ للمسلمينَ رجاءٌ في مدَّةٍ أقرَبَ ممَّا ظهَرَ؛ ففي ذلك تَفريجٌ عليهم[٢].

وقيل: فائدةُ هذا الإبهامِ: التَّفخيمُ وإدخالُ الرَّهبةِ في قُلوبِ المشركينَ في كلِّ وقْتٍ، والإشعارُ بأنَّ زهْوَهم بأنفُسِهم واعتدادَهم بقوَّتِهم ليس إلَّا إلى حِينٍ، يَطولُ أو يَقصُرُ، ولكنَّه آيِلٌ إلى الانتهاءِ، ومُفْضٍ إلى العاقبةِ الحتميَّةِ، وهي الارتدادُ والانتكاسُ[٣].

- قولُه: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ﴾ تَقديمُ المجرورِ ﴿لِلَّهِ﴾؛ لإبطالِ تَطاوُلِ المشركينَ الَّذين بهَجَهم غلَبُ الفُرْسِ على الرُّومِ؛ لأنَّهم عَبَدةُ أصنامٍ مِثْلُهم؛ لاستِلزامِه الاعتقادَ بأنَّ ذلك الغلَبَ مِن نصْرِ الأصنامِ عُبَّادَها؛ فبيَّنَ لهم بُطلانَ ذلك، وأنَّ التَّصرُّفَ للهِ وحْدَه في الحالَينِ، كما دلَّ عليه التَّذييلُ بقولِه: ﴿يَنصُرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤٧٢).

مَن يَشَآءُ ﴾[١] [الروم: ٥].

٤- قَولُه تعالى: ﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

- قولُه: ﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِ ﴾ أُضِيفَ النَّصرُ إلى اسمِ الجَلالةِ؛ للتَّنويهِ بذلك النَّصرِ، وأنَّه عِنايةٌ لأجْلِ المسلمينَ[٢].

- وقولُه: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ﴾ استِئنافٌ مُقرِّرٌ لمَضمونِ قولِه تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ ﴾[٣]. وأيضًا جُملةُ ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ﴾ تَذييلٌ؛ لأنَّ النَّصرَ المذكورَ فيها عامٌّ بعُمومِ مَفعولِه، وهو ﴿مَن يَشَآءُ ﴾؛ فكلُّ مَنصورٍ داخلٌ في هذا العُمومِ، أي: مَن يشاءُ نصْرَه لحِكَمٍ يَعلَمُها؛ فالمشيئةُ هي الإرادةُ، أي: يَنصُرُ مَن يُريد نصْرَه، وإرادتُه تعالى لا يُسأَلُ عنها، ولذلك عقَّبَ بقولِه: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ﴾؛ فإنَّ العَزيزَ المُطلَقَ هو الَّذي يَغلِبُ كلَّ مُغالِبٍ له، وعقَّبَه بـ ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ عِزَّتَه تعالى لا تَخْلو مِن رَحمةٍ بعِبادِه، ولولا رَحمتُه لَمَا أدالَ للمَغلوبِ دَولةً على غالِبِه، مع أنَّه تعالى هو الَّذي أراد غَلَبَةَ الغالِبِ الأوَّلِ؛ فكان الأمْرُ الأوَّلُ بعِزَّتِه، والأمْرُ الثَّاني برَحمتِه للمَغلوبِ المنْكوبِ، وترتيبُ الصِّفتَينِ العِلِّيَّتَينِ مَنظورٌ فيه لمُقابَلةِ كلِّ صِفَةٍ منهما بالَّذي يُناسِبُ ذِكْرَه مِن الغَلبينِ، فالمُرادُ رَحمتُه في الدُّنيا[٤].

وقيل: إنْ نَصَرَ اللهُ المحِبَّ فلِعِزَّتِه واستغنائِه عن العَدُوِّ، ورَحمتِه على المحِبِّ؛ وإن لم يَنصُرِ المحِبَّ فلِعزَّتِه واستغنائِه عن المحِبِّ، ورحمتُه في الآخِرةِ واصِلةٌ إليه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٦، ٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٧، ٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨١).

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فيه تَقديمُ وصْفِ العِزَّةِ على وصْفِ الرَّحمةِ؛ لتَقدُّمِه في الاعتبارِ[1].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قدَّمَ المصدرَ ﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِ﴾ على الفعلِ ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾، وفي سُورةِ (الأنفالِ) قدَّمَ الفِعلَ على المصدرِ في قولِه: ﴿أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ﴾ [الأنفال: ٦٢]؛ وذلك لأنَّ المقصودَ هاهنا بَيانُ أنَّ النُّصرةَ بيَدِ اللهِ؛ إنْ أرادَ نَصَرَ، وإنْ لم يُرِدْ لا يَنصُرُ، وليس المقصودُ النُّصرةَ ووُقوعَها، والمقصودُ هناك إظهارُ النِّعمةِ عليه بأنَّه نصَرَه؛ فالمقصودُ هناك الفِعلُ ووُقوعُه؛ فقدَّم هناك الفِعلَ، ثمَّ بيَّنَ أنَّ ذلك الفِعلَ مصدرُه عندَ اللهِ، والمقصودُ هاهنا كونُ المصدرِ عندَ اللهِ؛ إنْ أراد فعَلَ، فقدَّم المصدرَ[2].

٥- قَولُه تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ في إضافةِ الوعْدِ إلى اللهِ: تلْويحٌ بأنَّه وَعدٌ مُحقَّقُ الإيفاءِ؛ لأنَّ وعْدَ الصَّادقِ القادرِ الغنيِّ لا مُوجِبَ لإخلافِه[3].

- وجُملةُ ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ بيانٌ للمقصودِ من جُملةِ ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾؛ فإنَّها دلَّت على أنَّه وعْدٌ مُحقَّقٌ بطريقِ التَّلويحِ؛ فبيَّنَ ذلك بالصَّريحِ بجُملةِ ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾. ولكَونِها في مَوقِعِ البَيانِ فُصِلَت ولم تُعطَفْ على الَّتي قَبْلَها، وفائدةُ الإجمالِ ثمَّ التَّفصيلِ: تقريرُ الحُكْمِ؛ لِتأْكيدِه، ولِمَا في جُملةِ ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ من إدخالِ الرَّوعِ على المشركينَ بهذا التَّأكيدِ. وسمَّاهُ وعْدًا؛ نظَرًا لحالِ المؤمنينَ الذي هو أهمُّ هنا. وهو أيضًا وَعيدٌ للمشركينَ بخِذلانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٨).

أشياعِهم ومَن يَفتخِرون بمُماثَلةِ دِينِهم[١].

- قولُه: ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ فيه إظهارُ الاسمِ الجليلِ في مَوقعِ الإضمارِ؛ لتَعليلِ الحُكْمِ وتَفخيمِه. والجُملةُ استئنافٌ مُقرِّرٌ لِمَعنى المَصدرِ[٢].

- ومَوقعُ الاستدراكِ في قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ هو ما اقتَضاهُ الإجمالُ وتَفصيلُه؛ مِن كونِ ذلك أمْرًا لا ارتيابَ فيه، وأنَّه وعدُ اللهِ الصَّادقِ الوعدِ، القادرِ على نصْرِ المغلوبِ، فيَجعَلُه غالبًا؛ فاستَدرَكَ بأنَّ مُراهَنةَ المشركينَ على عدَمِ وُقوعِه نشأَتْ عن قُصورِ عُقولِهم، فأحالوا أنْ تكونَ للرُّومِ بعدَ ضَعْفِهم دَولةٌ على الفُرْسِ الَّذين قهَرُوهم في زمَنٍ قصيرٍ هو بِضْعُ سِنينَ، ولم يَعلَموا أنَّ ما قدَّرهُ اللهُ أعظَمُ، فالمُرادُ بـ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ ابتداءً المشركونَ؛ لأنَّهم سَمِعوا الوعدَ وراهَنوا على عدَمِ وُقوعِه، ويَشمَلُ المرادُ أيضًا كلَّ مَن كان يَعُدُّ انتصارَ الرُّومِ على الفُرْسِ في مِثلِ هذه المدَّةِ مُستحيلًا؛ فلذلك عبَّرَ عن هذه الجَمهرةِ بـ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ بصِيغَةِ التَّفضيلِ. والتَّعريفُ في ﴿ٱلنَّاسِ﴾ للاستغراقِ[٣].

- ومَفعولُ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿سَيَغۡلِبُونَ * فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٣، ٤]، والتَّقديرُ: لا يَعلَمون هذا الغلَبَ القريبَ العجيبَ. ويجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ تَنزيلَ الفِعلِ مَنزلةَ اللَّازمِ؛ بأنْ نُزِّلوا مَنزلةَ مَن لا عِلْمَ عندَهم أصْلًا؛ لأنَّهم لَمَّا لم يَصِلوا إلى إدراكِ الأمورِ الدَّقيقةِ وفَهْمِ الدَّلائلِ القياسيَّةِ، كان ما عِندَهم مِن بعضِ العِلْمِ شَبيهًا بالعدَمِ؛ إذ لم يَبلُغوا به الكَمالَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٨، ٤٩).

الَّذي بلَغَه الرَّاسِخونَ أهْلُ النَّظرِ؛ فيَكونَ في ذلك مُبالغةٌ في تَجهيلِهم، وهو ممَّا يَقْتَضيهِ المَقامُ[١].

٦- قَولُه تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ بَدَلٌ مِن قولِه: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ﴾، وفي هذا الإبدالِ مِن النُّكتةِ: أنَّه أبدَلَه منه، وجعَلَه بحيث يقومُ مَقامَه ويَسُدُّ مَسدَّه؛ لِيُعلِمَك أنَّه لا فرْقَ بيْنَ عدَمِ العِلْمِ الَّذي هو الجهْلُ، وبيْن وُجودِ العِلْمِ الَّذي لا يَتجاوَزُ الدُّنيا؛ فأصْلُ الكلامِ: ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ يَعلَمون ظاهِرَ ما يتعيَّشون به في الدُّنيا مِن التِّجاراتِ والمكاسِبِ، ولا يَعلَمون باطِنَها مِن تِجاراتِ الآخرةِ والفوزِ بالفَلاحِ؛ فوُضِعَ ﴿لَا يَعْلَمُونَ ﴾ -وهو مُطلَقٌ، فيُفِيدُ سلْبَ العِلْمِ رأسًا- مَوضِعَ ﴿يَعْلَمُونَ ﴾، ونُكِّرَ ﴿ظَٰهِرًا ﴾، ووُضِعَ مَوضِعَ ﴿لَا يَعْلَمُونَ ﴾ بإظهارِ قولِه: ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾؛ لِيُفيدَ تلك الفوائدَ[٢].

- وقيل: إنَّ جُملةَ ﴿يَعْلَمُونَ ﴾ جُملةٌ استئنافيَّةٌ لبَيانِ مُوجِبِ جَهلِهم بوَعْدِ اللهِ؛ فالمعنى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أنَّ وعْدَ اللهِ حَقٌّ، وأنَّ للهِ الأمْرَ مِن قَبْلُ ومِن بعْدُ، وأنَّه يَنصُرُ المؤمنينَ على الكافرينَ، ويَقذِفُ بالحقِّ على الباطلِ فيَدْمَغُه؛ لِيَكونَ الدِّينُ كلُّه للهِ؛ لأنَّهم يَعلَمون ظاهرًا مِن الحياةِ الدُّنيا، وهم عن أسْرارِ اللهِ -مِن أنَّه تعالى ما خلَقَ الخلْقَ لِلَّهْوِ واللَّعِبِ، بلْ خلَقَهم لِيَعرِفوه ويَعبُدوه، ويَتزوَّدوا لدارِ القرارِ- غافلونَ. ومِن ثَمَّ أتبَعَ ذلك بقولِه: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥١).

﴿مُّسَمًّى﴾ [الروم: ٨]، وختَمَه بقولِه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ﴾[١].

- وفي تَنكيرِ ﴿ظَٰهِرًا﴾: أنَّهم لا يَعلَمون إلَّا ظاهرًا واحدًا مِن جُملةِ الظَّواهرِ[٢]. وقيل: بلْ تنكيرُ ﴿ظَٰهِرًا﴾ للتَّحقيرِ والتَّخسيسِ، دونَ الواحدةِ -كما تُوهِّمَ- أي: يعلمونَ ظاهرًا حقيرًا خَسيسًا مِن الدُّنيا، وقيل: هو بمعنى الزَّائلِ الذَّاهبِ، أي: يعلمونَ أمرًا زائلًا لا بقاءَ له، ولا عاقبةَ مِن الحياة الدُّنيا، ﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ التي هي الغايةُ القصوى والمطلبُ الأسنى ﴿هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ لا تخطرُ ببالِهم، فكيفَ يتفكَّرونَ فيها، وفيما يؤدِّي إلى معرفتِها من الدُّنيا وأحوالِها[٣]؟! وقيل: فيه تَقليلُ مَعلومِهم، وتقليلُه يُقرِّبُه من النَّفي حتَّى يُطابِقَ المُبدَلَ منه، وهو قولُه: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾[٤]. وقيل: أي: يعلمونَ ظواهرَ ما في الدُّنيا، أي: ولا يَعلَمون دقائقَها، والكلامُ يُشعِرُ بذَمِّ حالِهم، ومَحطُّ الذَّمِّ هو جُملةُ ﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾[٥].

- قولُه: ﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ اقتصَرَ في تَجهيلِهم بعالَمِ الغيبِ على تَجْهيلِهم بوُجودِ الحياةِ الآخِرةِ اقتِصارًا بَديعًا، حصَلَ به التَّخلُّصُ مِن غرَضِ الوعْدِ بنصْرِ الرُّومِ إلى غرَضٍ أهَمَّ، وهو إثباتُ البعثِ، مع أنَّه يَستلزِمُ إثباتَ عالَمِ الغَيبِ، ويكونُ مثالًا لِجَهْلِهم بعالَمِ الغيبِ، وذمًّا لجَهْلِهم به بأنَّه أوقَعَهم في وَرطةِ إهمالِ رَجاءِ الآخرةِ، وإهمالِ الاستعدادِ لِمَا يَقتَضيهِ ذلك

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢١٢، ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٠، ٥١)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٣/ ٤٦٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٠).

الرَّجاءُ؛ فذلك مَوقعُ قولِه: ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾. وعبَّرَ عن جَهْلِهم الآخِرةَ بالغفْلةِ كِنايةً عن نُهوضِ دَلائلِ وُجودِ الحياةِ الآخِرةِ، لو نَظَروا في الدَّلائلِ المُقْتضيةِ وُجودَ حياةٍ آخِرَةٍ؛ فكان جَهْلُهم بذلك شَبيهًا بالغفلةِ؛ لأنَّه بحيث يَنكشِفُ لو اهتَمُّوا بالنَّظرِ[١].

- وإيرادُ جُملةِ ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ اسميَّةً؛ للدَّلالةِ على تَمكُّنِهم من الغَفلةِ عن الآخِرةِ، واستِمرارِ غَفْلتِهم ودوامِها[٢].

- قولُه: ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ فيه ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالتَّعطُّفِ -وهو إعادةُ اللَّفظةِ بعَينِها في الجُملةِ-؛ فقد ردَّدَ (هم)؛ للمُبالَغةِ في تأْكيدِ غفْلَتِهم عن الآخرةِ[٣].

- و(هم) الثَّانيةُ يجوزُ أنْ يكونَ مُبتدأً، و(غافِلون) خبَرَه، والجُملةُ خبرَ (هم) الأُولى، وأنْ يكونَ تَكريرًا للأُولى، و(غافِلون) خبرَ الأُولى، وهو على الوَجهينِ مُنادٍ على تمَكُّنِ غَفْلتِهم عن الآخِرةِ المُحقِّقةِ لمُقْتضَى الجُملةِ المُتقدِّمةِ؛ تَقريرًا لِجَهالتِهم، وتَشبيهًا لهم بالبهائمِ المقصورِ إدراكاتُها من الدُّنيا على ظواهِرِها الخَسيسةِ، دونَ أحوالِها الَّتي هي مَبادئُ العلْمِ بأُمُورِ الآخِرةِ، وإشعارًا بأنَّ العِلْمَ المذكورَ وعدَمَ العلمِ رأْسًا سِيَّانِ[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٠، ٥١).

الآيات (٨-١٠)

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ۝٨ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٩ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ۝١٠ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾: أي: وَقْتٍ مُعَيَّنٍ مُحَدَّدٍ، وأصلُ الأجَلِ: غايةُ الوَقتِ، والمُدَّةُ المضروبةُ للشَّيءِ، ومُسَمًّى: أي: مُثبَتٌ مُعَيَّنٌ[(١)].

﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾: أي: حَرَثوها، وقلَّبوها للزِّراعةِ، والإثارةُ: تحريكُ الشَّيءِ حتَّى يرتَفِعَ تُرابُه، وأصلُ (ثور): يدُلُّ على انبعاثِ الشَّيءِ[(٢)].

﴿وَعَمَرُوهَا﴾: العِمارةُ: نَقيضُ الخرابِ، وأصلُ (عمر): يدُلُّ على بقاءٍ وامتِدادِ زَمانٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩، ٨٨٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٦).

﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾: فُعلَى مِنَ السُّوءِ، تأنيثُ الأسوأِ، وهو: الأقبحُ، وقيل: هي مصدرٌ بمنزلةِ الإساءةِ، وقيل: هي اسمٌ لجهنَّمَ، سمِّيتْ سُوأى؛ لِكَونِها تَسوءُ صاحِبَها، أو لقُبحِ منظرِها، أو هي عبارةٌ عن كلِّ ما يَقبحُ، والسُّوءُ: كلُّ ما يغُمُّ الإنسانَ مِن الأمورِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ، وأصلُ (سوء): القبحُ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى منبِّهًا على التَّفكُّرِ في مخلوقاتِه، الدَّالَّةِ على وحدانيَّتِه: أوَلم يَتفَكَّروا في أنفُسِهم فيَعلَموا أنَّ اللهَ وَحْدَه خالِقُ السَّمَواتِ والأرضِ وما بيْنَهما بالحَقِّ، إلى وقتٍ محدَّدٍ عِندَه تعالى، ثمَّ تَفنى يومَ القيامةِ، وإنَّ كثيرًا من النَّاسِ كافِرونَ بوُقوعِ البَعثِ بعدَ الموتِ.

ثمَّ ينبِّهُ الله تعالى على صدقِ رُسلِه فيما جاؤوا به، فيقولُ: أوَلم يَسِرْ في الأرضِ هؤلاء المكَذِّبونَ بالبَعثِ، فيَنظُروا كيف كان عاقِبةُ الَّذين مِن قَبْلِهم، فيَعتَبِروا؟! فقد كان هؤلاء الَّذين مِن قَبلِهم أشَدَّ منهم قوَّةً وتصَرُّفًا في الأرضِ، وجَعَلوها أكثَرَ عُمرانًا ممَّا فعَلوا، وجاءَتْهم رُسلُهم بالبَيِّناتِ فكَذَّبوا، فأهلكهم اللهُ، ولمْ يكُنْ سُبحانَه ليُهلِكَهم قبْلَ إرسالِ الرُّسلِ إليهم وإقامةِ الحجَّةِ عليهم، ولكِنْ كانوا يَظلِمونَ أنفُسَهم بالكُفرِ والتَّكذيبِ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله سبحانه المصيرَ السَّيِّئَ الَّذي حلَّ بهؤلاء الكافرين، فيقولُ: ثمَّ كان عاقِبةَ الَّذين أساؤوا أنْ حلَّ بهم عذابُ اللهِ؛ بسبَبِ تكذيبِهم بآياتِ اللهِ سُبحانَه، واستِهزائِهم بها.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤١)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٩).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أنكَر المشركون الإلهَ بإنكارِ وعْدِه، وأنكَروا البعثَ كما قال: ﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧]- أردَف هذا أنَّ الأدلَّةَ مُتظاهِرةٌ في الأنفُسِ والآفاقِ على وُجودِه وتفَرُّدِه بخَلْقِها، وأنَّه لا إلهَ غيرُه، ولا ربَّ سِواه[(١)].

﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾.

أي: أوَلم يتفكَّرْ أولئك الَّذين يَعلَمونَ ظاهِرًا مِن الحياةِ الدُّنيا وهم غافِلونَ عن الآخرةِ، في أنفُسِهم[(٢)]، فيَعلَموا أنَّ اللهَ وحْدَه خالِقُ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما بالحَقِّ؛ لِيَعبُدَه النَّاسُ ويُطيعوه فيما يأمُرُهم ويَنهاهم، ثمَّ هو يَبعَثُهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢١/ ٣٠).

(٢) اختلف المفسِّرون في قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِم﴾: هل النَّفْسُ هنا هي محلُّ التَّفكُّرِ، أو آلةُ التَّفكُّرِ؟ فقيل: المرادُ: التَّفكُّرُ في خلْقِ أنفُسِهم. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والواحديُّ، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٧).

وقيل: قولُه تعالى: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِم﴾ ظرفٌ للتَّفكُّرِ، وليس بمفعولٍ، فلم يُؤمَروا بالتَّفكُّرِ في خلْقِ أنفُسِهم، كأنَّه قال: أوَ لم يَتفكَّروا بعُقولِهم فيَعلموا أنَّ اللهَ ما خلَق السَّمواتِ والأرضَ إلَّا بالحقِّ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، وهو اختيارُ ابنِ جُزَي، وظاهِرُ اختيارِ ابنِ كثير، ومال إليه ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣٩، ٤٠).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٨، ٤٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥١، ٥٢).

لِمُجازاتِهم ثَوابًا أو عِقابًا؟! فما خلَقَ الكَونَ باطِلًا وعَبَثًا بلا غَرَضٍ صحيحٍ، وحِكمةٍ بالغةٍ، وإنَّما خَلَقَه مُقتَرِنًا بالحَقِّ، مَصحوبًا بالحِكمةِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾.

أي: ويَعلَموا أنَّ للسَّمواتِ والأرضِ وَقتًا محدَّدًا عندَ اللهِ، تَنتهي إليه، وتَفْنى فيه، وهو يومُ القيامةِ الَّذي يَبعَثُ اللهُ فيه العِبادَ للحِسابِ والجزاءِ[(٢)]؟

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾.

أي: وإنَّ كثيرًا مِنَ النَّاسِ كافِرونَ بوُقوعِ البَعثِ بعدَ الموتِ، جاحِدونَ لحُصولِ الجزاءِ يومَ القيامةِ[(٣)].

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٩)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أقام اللهُ تعالى على المشركينَ الدَّليلَ؛ أتبَعه التَّهديدَ والتَّهويلَ[(١)].

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

أي: أوَلم يَسِرْ في الأرضِ[(٢)] هؤلاءِ المكَذِّبونَ بالبَعثِ، الغافِلونَ عن الآخِرةِ؛ فيَنظُروا كيف كان آخِرُ أمرِ الَّذين مِن قَبلِهم، فيَعتَبِروا ويتَّعِظوا حينَ يَرَوا آثارَ إهلاكِ اللهِ لهم؛ بسَبَبِ كُفرِهم وشِرْكِهم، وتكذيبِهم رُسُلَهم[(٣)]؟!

﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾.

أي: قد أُعطِيَ أولئك مِنَ القُوَّةِ[(٤)] ما لم يُعطَوها هم[(٥)].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٠).

(٢) قال ابن عطية: (ولا يَتوجَّهُ للكَفَرةِ أن يُعارِضَ منهم مَن لم يَسِرْ، فيَقولَ: لم أَسِرْ؛ لأنَّ كافَّةَ مَن سار مِنَ النَّاسِ قد نَقَلَت إلى مَن لم يَسِرْ؛ فاستَوَتِ المعرفةُ، وحصَل اليقينُ للكُلِّ، وقامت الحُجَّةُ، وهذا بيِّنٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٦).

(٤) قيل: المرادُ بالقوَّةِ هنا: قوَّةُ الأبدانِ. ومِمَّن قال بذلك: الرازيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٣). وقيل: المرادُ: قوَّةُ الأبدانِ والعُقولِ. ومِمَّن قال بذلك: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥١).

قال ابن عاشور: (القوَّةُ: ... مجموعُ صِفاتٍ يكونُ بها بقاءُ الشَّيءِ على أكمَلِ أحوالِه، كما في قَولِه: ﴿نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ﴾ [النمل: ٣٣]؛ فقوَّةُ الأمَّةِ مجموعُ ما به تَدفَعُ العَواديَ عن كِيانِها، وتَستبقي صلاحَ أحوالِها؛ مِن عُدَدٍ حَربيَّةٍ، وأموالٍ، وأبناءٍ، وأزواجٍ. وحالةُ مُشركي قُرَيشٍ لا تُداني أحوالَ تلك الأُمَمِ في القوَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٧).

(٥) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨).

﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾.

أي: وقَلَّبوا الأرضَ[١] وجَعَلوها أكثَرَ عُمرانًا مِمَّا فَعَلوا هم[٢].

كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [غافر: ٨٢].

﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾.

---

(١) قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾: حرَثوها وقَلَّبوها لزراعتِها. ومِمَّن قال بذلك: السمعانيُّ، والبغوي، وابن الجوزي، والقرطبي، وابن جُزَي، والعُلَيمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٧١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣١)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٥٣).

ومِمَّن قال بهذا القولِ من السَّلَف: مجاهِدٌ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٦)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٤٨٥).

وقيل: المرادُ: قَلَّبوها لاستنباطِ المياهِ، واستِخراجِ المعادِنِ، وزَرعِ البُذورِ، وغيرِ ذلك، فأخرَجوا ما فيها مِنَ المنافِعِ. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ عطيَّة، والبيضاوي، والبِقاعي، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨).

وقيل: الأقرَبُ أن يكونَ (أثاروا) هنا تمثيلًا لحالِ شِدَّةِ تصَرُّفِهم في الأرضِ وتغَلُّبِهم على مَن سِواهم، بحالِ مَن يُثيرُ ساكِنًا ويُهيجُه. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨).

قال ابن عاشور: (ومعنى: عِمارةِ الأرضِ: جَعْلُها عامرةً غيرَ خلاءٍ؛ وذلك بالبناءِ والغَرسِ والزَّرعِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٧).

وقال ابن عثيمين: (عَمَروا الأرضَ بالتِّجارةِ والبناءِ والمصانعِ وغيرِها). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٥٤).

أي: وجاءتْهم رُسلُهم بالبيِّناتِ الدَّالَّاتِ على الحقِّ، وعلى صِدقِهم وصِحَّةِ ما جاؤوهم به مِن عندِ الله تعالى، فكذَّبوهم، فلمْ يَقدِروا على الامتِناعِ مِن عذابِ اللهِ مع شِدَّةِ قُواهم، فما نفَعَتْهم قوَّتُهم، ولا أغنَتْ عنهم إثارتُهم الأرضَ وعِمارتُهم لها[1]!

﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾.

أي: فلمْ يكُنِ اللهُ ليُعَذِّبَهم بلا ذنْبٍ أتَوه، ولم يكُنْ لِيُهلِكَهم مِن قَبلِ إرسالِ الرُّسلِ إليهم، وإقامةِ الحُجَّةِ عليهم[2].

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.

أي: ولكنْ كانوا يَظلِمونَ أنفُسَهم؛ بالكُفرِ باللهِ، والإشراكِ به، وتكذيبِ رُسُله، ومَعصيتِه[3].

﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠﴾.

أي: ثمَّ كان آخِرَ أمرِ أهلِ السُّوءِ[4] ....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨).

(٤) قيل: المعنى: أساؤوا بكُفرِهم وشِركِهم. ومِمَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جرير، والزجَّاج، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٧٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٩).

وقال الشوكاني: (أي: عَمِلوا السَّيِّئاتِ من الشِّركِ والمعاصي). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٨).

أنْ حلَّ بهم عذابُ اللهِ[١]؛ بسبَبِ تكذيبِهم بآياتِ اللهِ سُبحانَه، واستِهزائِهم المستَمِرِّ بها[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ فيه الحثُّ على التَّفكُّرِ، وتوبيخُ مَن أعرَضَ عنه، فدلَّ ذلك على أهمِّيَّةِ التَّفكُّرِ؛ لأنَّ اللهَ لا يَحُثُّ على شَيءٍ ويُوَبِّخُ على تركِه إلَّا لِمَا فيه مِن الفائدةِ والمصلحةِ[٣]، فالتَّفكُّرُ في الأنفُسِ وفي خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ ونحوِ ذلك يدُلُّ على كمالِ قُدرةِ الصَّانعِ، وكمالُ قُدرتِه دالٌّ على

---

(١) قيل: السُّوأى: هي النَّارُ في الدَّارِ الآخرةِ. ومِمَّن قال بذلك: الزجَّاجُ، وابن أبي زمنين، والسمعاني، والزمخشري، والرازي، والشنقيطي، ونسَبَه الواحديُّ للأكثرينَ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٧٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٣٥٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٩٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٧١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٩).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٦).

وقيل: المرادُ: الدَّمارُ والهلاكُ في الدُّنيا، وعذابُ النَّارِ في الآخرةِ. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ جرير، ومكِّي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣).

ومِمَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ، قال: العذابُ في الدُّنيا والآخرةِ. يُنظر: ((تفسير الماوَرْدي)) (٤/ ٣٠١).

وقيل: السُّوأى بمعنى الإساءةِ، أو الحالةِ السَّيِّئةِ الشَّنيعةِ، فيكونُ المعنى: أنَّهم أساؤوا بذُنوبِهم وعِصيانِهم حتَّى وقَعوا في آخِرِ الأمرِ في التَّكذيبِ بآياتِ الله، والاستهزاءِ بها. ومِمَّن قال بهذا المعنى: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨).

ومِمَّن قال بنحوِ هذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عُيَيْنَةَ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٦، ٤٦٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الرُّوم)) (ص: ٤٤).

عَظَمتِه، ومُلاحظةُ عظَمتِه داعٍ إلى طاعتِه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ فيه إشارةٌ إلى البَعثِ والنُّشورِ، وفسادِ بِنْيَةِ هذا العالَمِ[٢].

٢- قال تعالى: ﴿ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ في التَّنصيصِ على ذِكرِ ما بينَ السَّمواتِ والأرضِ دليلٌ على أنَّ ما بيْنَهما أمرٌ عظيمٌ يُقارَنُ بنفْسِ السَّمواتِ والأرضِ، حيثُ استحقَّ أنْ يُجعلَ قَسيمًا لهما، فهذه ثلاثةُ أشياءَ: (السَّمواتُ، والأرضُ، وما بينهما)، ومِن المعلومِ عِظَمُ الأرضِ وعِظَمُ السَّماءِ؛ إذَنْ: فعِظَمُ ما بيْنَهما مُوازٍ لهما[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ لم يقُلْ: (أكثَرَ ممَّا أثاروها)؛ لِكَونِ قُرَيشٍ لم تكُنْ لهم إثارةٌ في الأرضِ؛ إذ كانوا بوادٍ غيرِ ذي زَرعٍ، إنَّما كان لهم عِمارةٌ في الأرضِ من غرسٍ قليلٍ وبِناءٍ وتفجيرٍ، ولكنَّه يَتضاءلُ أمامَ عمارةِ الأُمَمِ السَّالِفةِ مِن عادٍ وثَمودَ[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ دَلالةٌ على أنَّ إثارةَ الأرض -أي: الاشتغالَ بالزِّراعةِ- مِن أسبابِ القوَّةِ بلا شكٍّ، وكذلك عُمرانُ الأرضِ بغيرِ الإثارةِ -بالبناءِ والتِّجارةِ وما أشبَهَ

---

(١) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٨).

ذلك- مِن أسبابِ القُوَّةِ[1].

٥- قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾، وقال في حَقِّ الَّذين أحسَنوا: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [يونس: ٢٧]، فذَكَر (الزِّيادة) في حَقِّ المحسِنِ، ولم يَذكُرِ الزِّيادةَ في حَقِّ المُسيءِ؛ لأنَّ جزاءَ سَيِّئةٍ سَيِّئةٌ مِثلُها[2].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، وقال في حقِّ الذين أحسَنوا: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [يونس: ٢٧]، فلم يذكُرْ في المحسِنِ أنَّ له الحُسنى بأنَّه صَدَّقَ، وذكَرَ في المُسيءِ أنَّ له السُّوأى بأنَّه كذَّب؛ لأنَّ الحُسنى للمُحسِنينَ فَضلٌ، والمتفَضِّلُ لو لم يكُنْ تفَضُّلُه لِسَببٍ يكونُ أبلَغَ، وأمَّا السُّوأى للمُسيءِ فعَدلٌ، والعادِلُ إذا لم يكُنْ تَعذيبُه لِسَببٍ لا يكونُ عَدلًا؛ فذُكِرَ السَّببُ في التَّعذيبِ، وهو الإصرارُ على التَّكذيبِ، ولم يُذكَرِ السَّبَبُ في الثَّوابِ[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ﴾

- الاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ﴾ استِفهامُ إنكارٍ واستِقباحٍ؛ لِقِصَرِ نَظَرِهم على ما ذُكِرَ مِن ظاهِرِ الحياةِ الدُّنيا مع الغَفلةِ عن الآخِرةِ، والواوُ للعطْفِ على مُقدَّرٍ يَقتَضيهِ المقامُ[4]. وقيل: الاستفهامُ تَعجُّبيٌّ مِن غَفلتِهم،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥١).

وعدَمِ تفكُّرِهم[١].

- و﴿فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ مَعمولٌ لـ﴿يَتَفَكَّرُواْ﴾؛ إمَّا على تَقديرِ مُضافٍ، أي: في خلْقِ أنفُسِهم لِيَخرُجوا مِن الغَفْلةِ، فيَعْلموا أنَّهم يَعلَمون ظاهرًا مِن الحياةِ الدُّنيا فقط، ويَستدِلُّوا بذلك على الإلهِ الخالِقِ. وإمَّا على أنْ يكونَ ﴿فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ ظرْفًا للفِكرةِ في خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، فيكونَ ﴿فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ توكيدًا لقولِه: ﴿يَتَفَكَّرُواْ﴾، كما تقولُ: أبصِرْ بعَينِك، واسمَعْ بأُذنِك؛ كأنَّه قال: أوَلَمْ يُحدِثوا التَّفكُّرَ في أنفُسِهم؟ أي: في قُلوبِهم الفارغةِ مِن الفِكرِ. والفِكرُ لا يكونُ إلَّا في القلوبِ، ولكنَّه زيادةُ تَصويرٍ لحالِ المُتفكِّرينَ، كقولِك: اعتقِدْه في قلْبِك، وأضْمِرْه في نفْسِك. أو يكونَ صِلةً للتَّفكُّرِ، كقولِك: تَفكَّرَ في الأمْرِ وأجال فِكْرَه. و﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ مُتعلِّقٌ بالقولِ المحذوفِ، معناه: أوَلَمْ يَتفكَّروا، فيقولوا هذا القولَ؟ وقيل: معناه: فيَعلَموا؛ لأنَّ في الكلامِ دليلًا عليه، وهو قولُه: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ﴾[٢].

- وحرْفُ (في) مِن قَولِه: ﴿فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ يجوزُ أنْ يكونَ للظَّرفيَّةِ الحقيقيَّةِ الاعتباريَّةِ؛ فيكونَ ظَرفًا لمَصدَرِ ﴿يَتَفَكَّرُواْ﴾، أي: تَفكُّرًا مُستقِرًّا في أنفُسِهم. ومَوقعُ هذا الظَّرفِ ممَّا قبْلَه مَوقعُ مَعنى الصِّفَةِ للتَّفكُّرِ. وإذ قدْ كان التَّفكُّرُ إنَّما يكونُ في النَّفْسِ، فذُكِرَ ﴿فِىٓ أَنفُسِهِم﴾؛ لتَقْويةِ تَصويرِ التَّفكُّرِ، وهو كالصِّفةِ الكاشفةِ؛ لتَقرُّرِ معنَى التَّفكُّرِ عندَ السَّامعِ، وتكون جُملةُ ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ...﴾ إلخ على هذا مُبيِّنةً لِجُملةِ ﴿يَتَفَكَّرُواْ﴾؛ إذ مَدلولُها هو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧٦، ٣٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥١).

ما يَتفكَّرون فيه. وقيل غيرُ ذلك[١].

- وفائدةُ ذِكرِ السَّموات هنا في قولِه: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: أنَّ في أحوالِ السَّموات -مِن شمْسِها وكواكبِها وملائكتِها- ما هو مِن جُملةِ الحقِّ الذي خُلِقَت مُلابسةً له، أمَّا ما وراءَ ذلك مِن أحوالِها الَّتي لا نَعرِفُ نِسبةَ تعلُّقِها بهذا العالَمِ؛ فنَكِلُ أمْرَه إلى اللهِ، ونَقيسُ غائبَه على الشَّاهدِ، فنُوقِنُ بأنَّه ما خُلِقَ إلَّا بالحقِّ كذلك؛ فشَواهدُ حَقِّيَّةِ البعثِ والجزاءِ باديةٌ في دقائقِ خَلْقِ المخلوقاتِ؛ ولذلك أعقَبَه بقولِه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾، وهذا كقولِه تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[٢] [المؤمنون: ١١٥].

- قولُه: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ عطْفٌ تَفسيريٌّ على قولِه: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ وذلك أنَّ هذا في حقِّ مُنكِري البعثِ؛ بدليلِ تَعقيبِه بقولِه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ تَقْريعًا وتَوبيخًا[٣].

- قولُه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ تَذييلٌ مُقرِّرٌ لِمَا قبْلَه ببَيانِ أنَّ أكثَرَهم غيرُ مُقتصِرينَ على ما ذُكِرَ مِن الغَفلةِ عن أحْوالِ الآخرةِ، والإعراضِ عن التَّفكُّرِ فيما يُرشِدُهم إلى مَعرفتِها مِن خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما مِن المَصنوعاتِ، بلْ هم مُنكِرون جاحِدونَ بلِقاءِ حِسابِه تعالى وجَزائِه بالبعثِ[٤]. وتأْكيدُه بـ (إنَّ)؛ لتَنزيلِ السَّامعِ مَنزلةَ مَن يشُكُّ في وُجودِ مَن يَجحَدُ لِقاءَ اللهِ بعدَ هذا الدَّليلِ الَّذي مَضى، بَلْهَ أنْ يكونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٥٤).
(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢١٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٢).



الكافرونَ به كثيرًا[١].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قدَّمَ هنا دَلائلَ الأنفُسِ ﴿فِيٓ أَنفُسِهِم﴾ على دَلائلِ الآفاقِ ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ -وهذا على جعلِ الأنفسِ محلَّ التفكُّرِ لا ظرفًا له-، وقدَّمَ في قولِه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣] دَلائلَ الآفاقِ على دَلائلِ الأنفُسِ؛ وحِكمةُ ذلك: أنَّ المُفيدَ يَذكُرُ الفائدةَ على وجْهٍ يَختارُها، فإنْ فُهِمَت، وإلَّا انتقَلَ إلى الأبيَنِ، والمُستفيدُ يَفهَمُ أوَّلًا الأبيَنَ، ثمَّ يَرْتَقي إلى الأخْفى، وفي ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾ بفِعلٍ مُسنَدٍ إلى السَّامعِ؛ فبدَأَ بما يَفهَمُ أوَّلًا، ثمَّ ارْتَقى إليه ثانيًا. وفي ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ أُسنِدَ إلى المُفيدِ، فذكَرَ أوَّلًا الآفاقَ، فإنْ لم يَفهَموا، فالأنفُسُ؛ إذ لا ذُهولَ للإنسانِ عن دَلائلِها، بخلافِ دَلائلِ الآفاقِ؛ لأنَّه قد يَذهَلُ عنها، وهذا مُراعًى في ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا﴾[آل عمران: ١٩١] الآيةَ؛ بدَأَ بأحوالِ الأنفُسِ، ثمَّ بدَلائلِ الآفاقِ[٢].

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا: أنَّه قال هنا: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، وقال قبْلُ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾[الروم: ٦]؛ وذلك أنَّ هنا ذكَرَ ﴿كَثِيرًا﴾ بعدَ ذِكْرِ الدَّلائلِ الواضحةِ، وهما: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِيٓ أَنفُسِهِم﴾، و﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾، والإيمانُ بعدَ الدَّلائلِ أكثَرُ مِن الإيمانِ قبْلَها، فبَعْدَ ذِكرِ الدَّليلِ لا بُدَّ أنْ يُؤمِنَ من ذلك الأكثَرِ جمْعٌ، فلا يَبْقى الأكثرُ[٣]. وقيل: لم يُعبِّرْ هنا بـ (أَكْثَر النَّاسِ)؛ لأنَّ المُثبتينَ للبعثِ كثيرونَ؛ مِثلُ أهلِ الكتابِ والصَّابئةِ، والمَجوسِ والقِبطِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٢، ٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧٧).

(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٥).

٢- قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ تقْريرُ توبيخٍ لهمْ بعدَمِ اتِّعاظِهم بمُشاهَدةِ أحوالِ أمثالِهم الدَّالَّةِ على عاقِبَتِهم ومآلِهم. والهمزةُ في ﴿أَوَلَمْ﴾ لِتَقريرِ المنْفيِّ، والهمزةُ أصْلُها: إمَّا الإنكارُ بتَنزيلِ المُقرِّ مَنزلةَ المُنكِرِ؛ لِيَكونَ إقرارُه أشدَّ لُزومًا له، وإمَّا أنْ تكونَ للاستفهامِ، فلمَّا دخَلَت على النَّفيِ أفادَتِ التَّقريرَ؛ لأنَّ إنكارَ النَّفيِ إثباتٌ للمَنْفيِّ، وهو إثباتٌ مُستعمَلٌ في التَّقريرِ على وجْهِ الكِنايةِ، والواوُ للعطْفِ على مُقدَّرٍ يَقْتضيهِ المقامُ، أي: أقَعَدُوا في أماكنِهم ولم يَسِيرُوا[1]؟!

- وقد جمَعَ قولُه: ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وَعيدًا على تَكذيبِهم النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتجْهيلًا لإحالتِهم المُمكِنَ؛ حيث أيْقَنوا بأنَّ الفُرْسَ لا يُغلَبون بعدَ انتِصارِهم؛ فهذه آثارُ أُمَمٍ عظيمةٍ كانت سائدةً على الأرضِ، فزال مُلْكُهم، وخلَتْ بِلادُهم مِن سبَبِ تغلُّبِ أُمَمٍ أُخرى عليهم[2].

- قولُه: ﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾، أي: أكثَرَ من عِمارةِ أهْلِ مكَّةَ، وأهْلُ مكَّةَ أهْلُ وادٍ غيرِ ذي زرْعٍ، لا تبسُّطَ لهم في غيرِه، وفيه تهكُّمٌ بهم مِن حيثُ إنَّهم مغترونَ بالدُّنيا مفتخِرونَ بها، وهم أضعفُ حالًا

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٦ و٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٦).



فيها؛ إذْ مَدارُ أمْرِها على التَّبسُّطِ في البلادِ، والتَّسلُّطِ على العِبادِ، والتَّقلُّبِ في أكنافِ الأرضِ بأصنافِ التَّصرُّفاتِ، وهمْ ضَعفةٌ مُلْجَئون إلى وادٍ لا نفْعَ فيه، يخافُون أنْ يَتخطَّفَهم النَّاسُ، ففي ذِكرِ (أفعل) تهكُّمٌ بهم؛ إذ لا مناسبةَ بينَ كفَّارِ مكةَ وأولئك الأممِ المهلكَةِ[١].

- وفي قولِه: ﴿وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أُطلِقَت الإثارةُ على قلْبِ تُرابِ الأرضِ بجَعْلِ ما كان باطنًا ظاهرًا، وهو الحرْثُ، ويجوزُ أنْ يكونَ (أَثَارُوا) هنا تمْثيلًا لحالِ شِدَّةِ تصرُّفِهم في الأرضِ، وتغلُّبِهم على مَن سِواهم، بحالِ مَن يُثِيرُ ساكنًا ويُهَيِّجُه، وهذا الاحتمالُ أنسَبُ بالمقصودِ الَّذي هو وصْفُ الأُمَمِ بالقوَّةِ والمَقدِرةِ مِن احتمالِ أنْ تكونَ الإثارةُ بمعنى حرْثِ الأرضِ؛ لأنَّه يَدخُلُ في العِمارةِ[٢].

- وتفْريعُ قولِه: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ على قولِه: ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ إيجازُ حَذْفٍ بديعٌ؛ لأنَّ مَجيءَ الرُّسلِ بالبيِّناتِ يَقْتضي تَصديقًا وتكذيبًا، فلمَّا فرَّعَ عليه أنَّهم ظَلَموا أنفُسَهم، عُلِمَ أنَّهم كذَّبوا الرُّسلَ، وأنَّ اللهَ جازاهُم على تكذيبِهم رُسُلَه؛ بأنْ عاقَبَهم عِقابًا لو كان لغيرِ جُرْمٍ لَشابَهَ الظُّلمَ، فجعَلَ مِن مَجموعِ نفْيِ ظُلْمِ اللهِ إيَّاهم، ومِن إثباتِ ظُلْمِهم أنفُسَهم؛ مَعرفةَ أنَّهم كذَّبوا الرُّسلَ وعانَدوهُم، وحلَّ بهم ما هو مَعلومٌ مِن مُشاهَدةِ دِيارِهم، وتناقُلِ أخبارِهم[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٨).

- وقولُه: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ استِدراكٌ ناشئٌ على ما يَقْتضيه نفْيُ ظُلْمِ اللهِ إيَّاهم مِن أنَّهم عُوملوا مُعامَلةً سيِّئةً، لو لم يَستحِقُّوها لكانت مُعامَلةَ ظُلْمٍ. وعبَّرَ عن ظُلْمِهم أنفسَهم بصِيغةِ المُضارِعِ ﴿يَظۡلِمُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ ظُلْمِهم وتكرُّرِه، وأنَّ اللهَ أمْهَلَهم، فلم يُقلِعوا حتَّى أخَذَهم بما دلَّت عليه تلك العاقبةُ، والقرينةُ قولُه: ﴿كَانُوٓاْ﴾[١].

- وتَقديمُ ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾ وهو مفْعولُ ﴿يَظۡلِمُونَ﴾ على فِعلِه؛ للاهتِمامِ بأنفُسِهم في تَسْليطِ ظُلْمِهم عليها؛ لأنَّه ظُلْمٌ يُتعجَّبُ منه، مع ما فيه مِن الرِّعايةِ على الفاصلةِ[٢]. وقيل: قُدِّمَ المفعولُ ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾؛ لإفادةِ الحَصرِ، أي: لا يَظلِمونَ بهذا إلَّا أنفُسَهم، أمَّا اللهُ تبارك وتعالى فإنَّهم لا يَظلِمونَه؛ لأنَّه سُبحانَه وبِحَمدِه لا يَتضَرَّرُ بمَعصيتِهم، كما لا يَنتفِعُ بطاعتِهم[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى في الدَّليلينِ المُتقدِّمَينِ في سُورةِ العنكبوتِ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ١٩]، و﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، بلفْظِ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾، ولم يقُلْ: (أولَمْ يَسيروا)؛ إذ لا حاجةَ هناك إلى السَّيرِ بحُضورِ النَّفْسِ والسَّماءِ والأرضِ، وقال هاهنا: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ ... فَيَنظُرُواْ﴾، ذكَّرهم بحالِ أمثالِهم، ووَبالِ أشْكالِهم، ثمَّ ذكَرَ أنَّهم أولى بالهَلاكِ؛ لأنَّ مَن تقدَّمَ مِن عادٍ وثمودَ كانوا أشدَّ منهم قوَّةً، ولم تَنفَعْهم قُواهُم، وكانوا أكثَرَ مالًا وعِمارةً، ولم يَمنَعْ عنهم الهلاكَ أموالُهم وحُصونُهم[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٩٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٣).

٣- قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ ...﴾، أي: ثمَّ كان عاقبتُهم العاقبةَ السُّوأى أو الخَصلةَ السُّوأى؛ فوُضِعَ الظَّاهرُ مَوضِعَ الضَّميرِ؛ للدَّلالةِ على ما اقْتَضى أنْ تكونَ تلك عاقبتَهم، وأنَّهم جاؤوا بمِثلِ أفعالِهم[1].

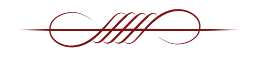
- قولُه: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ (ثمَّ) للتَّراخي الرُّتْبيِّ؛ لأنَّ هذه العاقبةَ أعظَمُ رُتبةً في السُّوءِ مِن عذابِ الدُّنيا؛ فيجوزُ أنْ يكونَ هذا الكلامُ تَذييلًا لِحكايةِ ما حلَّ بالأُمَمِ السَّالفةِ مِن قولِه: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الروم: ٩]، والمعنى: ثمَّ كان عاقبةُ كلِّ مَن أساؤُوا السُّوأى مِثْلَهم، فيكونَ تَعريضًا بالتَّهديدِ لِمُشركي العرَبِ، كقولِه تعالى: ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠]، فالمرادُ بـ﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ كلُّ مُسيءٍ من جِنسِ تلك الإساءةِ، وهي الشِّركُ. ويجوزُ أنْ يكونَ إنْذارًا لِمُشركي العرَبِ المُتحدَّثِ عنهم مِن قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٦]، فيكونوا المُرادَ بـ﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾، ويكونَ إظهارًا في مَقامِ الإضمارِ على خِلافِ مُقتضَى الظَّاهرِ؛ لِقصْدِ الإيماءِ بالصِّلةِ، أي: أنَّ سببَ عاقِبَتِهم السُّوأى هو إساءتُهم، وهذا إنذارٌ بعدَ الموعظةِ، ونصٌّ بعدَ القِياسِ؛ فإنَّ اللهَ وعَظَ المكذِّبين للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعواقبِ الأُمَمِ الَّتي كَذَّبت رُسلَها؛ لِيَكونوا على حذَرٍ مِن مِثلِ تلك العاقبةِ بحُكْمِ قِياسِ التَّمثيلِ، ثمَّ أعقَبَ تلك الموعظةَ بالنِّذارةِ بأنَّهم ستَكون لهم مِثلُ تلك العاقبةِ، وأوقَعَ فِعلَ (كان)

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٢، ٢٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٣).

الماضي في مَوقعِ المُضارِعِ؛ للتَّنبيهِ على تَحقيقِ وُقوعِه، مِثلُ ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١]؛ إتمامًا للنِّذارةِ. ويَحتمِلُ أنْ يُرادَ بـ﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ الأُمَمُ الَّذين أثارُوا الأرضَ وعَمَروها، فتَكونَ مِن وضْعِ الظَّاهرِ مَوضِعَ المُضمَرِ؛ توسُّلًا إلى الحُكْمِ عليهم بأنَّهم أساؤوا واسْتحَقُّوا السُّوأى، وهي جهنَّمُ، على قولٍ في التَّفسيرِ[1].

- ويجوزُ أنْ تكونَ ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ صِلةَ الفِعلِ ﴿أَسَٰٓـُٔواْ﴾، و﴿أَن كَذَّبُواْ﴾ تابِعَها -أي: بدلًا أو عطفَ بيانٍ-، والخبرُ مَحذوفٌ؛ للإبهامِ والتَّهويلِ. وأنْ تكونَ (أَنْ) مُفسِّرةً؛ لأنَّ الإساءةَ إذا كانت مُفسَّرةً بالتَّكذيبِ والاستهزاءِ كانت مُتضمِّنةً مَعنى القولِ[2].

- قولُه: ﴿وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ فيه تقْديمُ المجرورِ ﴿بِهَا﴾؛ للاهتمامِ بشأْنِ الآياتِ، وللرِّعايةِ على الفاصلةِ[3].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٩، ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٠).

الآيات (١١-١٦)

﴿اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿يُبْلِسُ﴾: أي: ييأسُ، وتنقَطِعُ حُجَّتُه، وأصلُ (بلس): يدُلُّ على يأسٍ[١].

﴿رَوْضَةٍ﴾: الرَّوضةُ: هي البُستانُ الَّذي هو في غايةِ النَّضارةِ والحُسنِ، والمرادُ بها الجنَّةُ، والرَّوضةُ: كلُّ أرضٍ ذاتِ نباتٍ وماءٍ، وأصلُ (روض): يدُلُّ على اتِّساعٍ[٢].

﴿يُحْبَرُونَ﴾: أي: يُسَرُّونَ ويُنعَّمونَ، والحَبْرةُ: السُّرورُ، وأصلُ (حبر): يدُلُّ على الأثَرِ في حُسنٍ وبَهاءٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٢)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٦٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالى ما يدُلُّ على قُدرتِه، ويذكرُ أحوالَ الناسِ وأقسامَهم يومَ القيامةِ، فيقولُ: اللهُ وَحْدَه يبدأُ إنشاءَ الخَلقِ مِن العَدَمِ، ثمَّ يُعيدُه فيُحييه مرَّةً ثانيةً بعدَ فَنائِه، ثمَّ يَرجِعُ الخَلقُ جميعًا إليه وحْدَه يومَ القيامةِ.

ثمَّ يبيِّنُ حالَ المجرمينَ فيقولُ: ويومَ القيامةِ يَيئَسُ المُشرِكونَ مِن رحمةِ اللهِ، وتَنقَطِعُ حُجَّتُهم ويَندَمونَ، ولم يكُنْ لهم ممَّا أشرَكوه مِن دُونِه سُبحانَه شُفَعاءُ يَشفَعونَ لهم يومَ القيامةِ، وكَفَر هؤلاء المُشرِكونَ بمَن اتَّخذُوهم شُرَكاءَ لله تعالى.

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى تفَرُّقَ النَّاسِ يومَ القيامةِ وكيفيَّةَ هذا التَّفرُّقِ، فيقولُ: ويومَ القيامةِ يَتفرَّقُ الخَلقُ بيْنَ أهلِ إيمانٍ باللهِ، وأهلِ كُفرٍ به؛ فأمَّا الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحاتِ فهم في رياضِ الجنَّةِ يُنَعَّمونَ ويُسَرُّونَ، وأمَّا الَّذين كَفَروا وكذَّبوا بآياتِ اللهِ وأنكَروا البَعثَ بعدَ الموتِ للحِسابِ والجَزاءِ، فأولئك في عذابِ اللهِ مُحضَرونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّ عاقِبةَ الكافِرينَ إلى الجَحيمِ، وكان في ذلك إشارةٌ إلى الإعادةِ والحَشرِ؛ لم يَترُكْه دَعوى بلا بَيِّنةٍ[١].

وأيضًا لَمَّا كان حاصِلُ ما مضَى أنَّه سُبحانَه وتعالى قادِرٌ على الإعادةِ، كما قَدَر على الابتداءِ، وكان للتَّصريحِ مع النَّفْسِ حالةٌ ليست لِغَيرِه- قال ذاكِرًا نتيجةَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٤).

ما مضى ومُحَصِّلَه؛ تصريحًا بالمقصودِ، وتلخيصًا للدَّليلِ[(١)]:

﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

أي: اللهُ وحْدَه الَّذي يَبدأُ إنشاءَ جميعِ المَخلوقاتِ مِن العَدَمِ، ثمَّ يُعيدُها فيُحييها مرَّةً ثانيةً بعدَ فَنائِها[(٢)].

﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

أي: ثمَّ تُردُّونَ يومَ القيامةِ إلى اللهِ وحْدَه، فيُجازيكم بأعمالِكم[(٣)].

﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكرَ اللهُ تعالى الرُّجوعَ؛ أَتْبَعَه ببَعضِ أحوالِه، بقَولِه تعالى[(٤)]:

﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٢﴾.

أي: ويومَ القيامةِ يَيئَسُ المُشرِكونَ مِن رَحمةِ اللهِ، وتَنقَطِعُ حُجَّتُهم ويَندَمونَ[(٥)].

﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ١٣﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٦٨، ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٧٢، ٧٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه ذكَرَ أحدَ أسبابِ الإبلاسِ وأعظَمَها حينَئذٍ، وهو أنَّهم لم يَجِدوا شُفَعاءَ مِن آلهتِهم الَّتي أشرَكوا بها، وكانوا يحسَبونَها شُفَعاءَ عندَ اللهِ[1].

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُاْ﴾.

أي: ولم يكُنْ للمُشرِكينَ مِن معبوداتِهم الباطلةِ -الَّتي جعَلوها شُرَكاءَ للهِ- شُفَعاءُ يَشفَعونَ لهم في الآخِرةِ، فيَجلِبونَ لهم نَفعًا، أو يَدفَعونَ عنهم ضُرًّا[2].

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾.

أي: ويَكفُرُ أولئك المُشرِكونَ بمَنِ اتَّخَذوهم شُرَكاءَ للهِ تعالى[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٧٤، ٧٥).
ممَّن ذهب إلى أنَّ معنى شُركائِهم: مَعبوداتُهم الَّتي اتَّخَذوها شُركاءَ لله في عبادتِه: السمعانيُّ، والقرطبي، وابن كثير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.
وقيل: معنى شركائِهم: الَّذين كانوا يتَّبِعونَهم على ما دَعَوْهم إليه مِن الضَّلالةِ، فيُشارِكونَهم في الكفرِ باللهِ، والمُعاوَنةِ على أذى رُسُلِه. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦٦٥).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١١)، ((تفسير ابن =

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ١٤ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى بيَّن أمرًا آخَرَ يكونُ في يومِ القيامةِ، وهو الافتِراقُ، فكأنَّ هذه الحالةَ مُتَرتِّبةٌ على الإبلاسِ[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى إبلاسَ المُشرِكينَ المُشعِرَ بتوقُّعِهم السُّوءَ والعذابَ؛ أعقَبَ بتَفصيلِ أحوالِ النَّاسِ يومَئذٍ، مع بيانِ مَغَبَّةِ إبلاسِ الفَريقِ الكافِرينَ[٢].

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ١٤ ﴾.

أي: ويَومَ القيامةِ يتفرَّقُ الخَلقُ بيْنَ مُؤمنينَ وكافِرينَ[٣].

= كثير)) (٦/ ٣٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨).

مِمَّن قال بأنَّ المرادَ: كُفرُ المشركينَ بآلهتِهم المزعومةِ وتبرُّؤُهم منهم: السمعانيُّ، وابن عطية، والرسعني، والبقاعي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٧).

ومِمَّن قال بأنَّ المرادَ: كُفرُ معبوداتِهم بهم: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٦).

قال القرطبي: ﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ قالوا: ليسوا بآلِهةٍ، فتَبرَّؤُوا منها، وتبرَّأَتْ منهم). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١١). ويُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٧٢).

وقال السعديُّ: (تبرَّأ المشركون ممَّن أشركوهم مع الله، وتبرَّأ المعبودون وقالوا: ﴿تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣]، والْتَعَنوا وابتعَدوا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨).

وقال ابن عثيمين: (المعبودون يَكفرون، والعابِدون أيضًا يَكفرون؛ كلٌّ منهم يَكفُرُ ببعضٍ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٧٧).

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ١٥ ﴾.

أي: فأمَّا الَّذين آمَنوا بما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحاتِ بإخلاصٍ لله تعالى ومُتابَعةٍ لِشَرعِه؛ فهُم في بساتينَ مُشتَمِلةٍ على المياهِ والأزهارِ، والأشجارِ والنَّباتاتِ البَهيجةِ، والرَّوائحِ الطَّيِّبةِ والمَناظِرِ الجميلةِ: يُسَرُّون فيها سُرورًا شديدًا، يَظهَرُ أثرُه وحُسْنُه عليهم[١].

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ١٦ ﴾.

أي: وأمَّا الَّذين كَفَروا وكذَّبوا بآياتِ اللهِ، وأنكَروا البَعثَ بعدَ الموتِ للحِسابِ والجزاءِ: فأولئك يُؤتَى بهم إلى النَّارِ، فيَبقَونَ فيها، لا يَغيبُ عنهم عذابُها[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٢، ١٣)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٨، ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٧٨-٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٤).

قال الماوَرْدي: (قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ فيه خمسةُ تأويلاتٍ؛ أحدُها: مُدْخَلون، قاله يحيى بنُ سلَّام.

الثَّاني: نازِلون، ومنه قولُه: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ [البقرة: ١٨٠] و [المائدة: ١٠٦]، أي: نزَل به. الثَّالثُ: مُقيمون، قاله ابنُ شجرة. الرابعُ: مُعَذَّبون. الخامسُ: مَجموعون. ومعاني هذه التَّأويلاتِ مُتقارِبةٌ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٣٠٢). ويُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٤٨).

وقال ابن عاشور: (و﴿مُحۡضَرُونَ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ مِن الإحضار، أي: جَعْلِ الشَّيءِ حاضرًا، أي: لا يَغيبونَ عنه، أي: لا يَخرُجونَ منه...، ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿مُحۡضَرُونَ﴾ بمعنَى: مَأْتِيٌّ بهم إلى العذابِ، فقد كَثُر في القرآنِ استعمالُ مُحْضَرٍ ونحوِه بمعنَى مُعاقَب؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٤). =

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [سبأ: ٣٨].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ دَلالةٌ على أنَّ البعثَ ليس ابتداءَ خَلقٍ، ولكِنَّه إعادةٌ، خلافًا لِمَن قال: «إنَّ البعثَ ابتداءُ خَلقٍ»؛ فقَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ الضَّميرُ يعودُ إلى الخَلقِ المُبتدَأِ، ولو كانتِ الإعادةُ ابتِداءَ خَلقٍ جديدٍ لكان يُعذِّبُ مَن لم يَعمَلْ، ويُنَعِّمُ مَن لم يعمَلْ، ولكِنَّ البعثَ إعادةٌ لِمَا سَبَق[1].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآىِٕ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ ذكَرَ في المؤمنِ العَمَلَ الصَّالحَ، ولم يذكُرْ في الكافِرِ العَمَلَ

= وممَّن ذهَب في الجملةِ إلى أنَّ المعنى: أنَّهم حاضِرون العذابَ، مُقيمون فيه، لا يَغيبون عنه: الزمخشريُّ، وابن عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، والنسفي، وأبو السعود، والعُلَيمي، والشوكاني، والألوسي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٤)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٤)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٧٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٢٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٧).

وقال ابن جرير: (﴿مُحْضَرُونَ﴾ قد أحْضَرهم اللهُ إيَّاها، فجَمَعهم فيها لِيَذوقوا العذابَ الَّذي كانوا به في الدُّنيا يُكَذِّبونَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٨٢).

وقال البِقاعي: (﴿مُحْضَرُونَ﴾ مِن أيِّ محضَرٍ كان، بالسَّوقِ الحَثيثِ، والزَّجرِ العنيفِ، فإذا وصَلوا إلى مقَرِّه وُكِّل بهم مَن يُديمُ كَوْنَهم كذلك -لإفادةِ الجملةِ الاسميَّةِ الدَّوامَ-، فلا يَغيبون عنه، ولا يُخفَّفُ عنهم). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٧٠).

السَّيِّئ؛ لأنَّ العَمَلَ الصَّالحَ مُعتَبَرٌ مع الإيمانِ، وأمَّا الكافِرُ فهو في الدَّرَكاتِ بمُجَرَّدِ كُفرِه، فلو قال: (والذين كفَروا وعَمِلوا السَّيِّئاتِ في العذابِ مُحضَرونَ)، لكان العذابُ لِمن يَصدُرُ منه المجموعُ[(١)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ، وهو شُروعٌ فيما أُقيمَت عليه هذه السُّورةُ مِن بسْطِ دَلائلِ انفرادِ اللهِ تعالى بالتَّصرُّفِ في النَّاسِ؛ بإيجادِهم وإعدامِهم، وبإمدادِهم وأطْوارِ حَياتِهم؛ لإبطالِ أنْ يكونَ لِشُركائِهم شَيءٌ مِن التَّصرُّفِ في ذلك؛ فهي دَلائلُ ساطعةٌ على ثُبوتِ الوَحدانيَّةِ الَّتي عَمُوا عنها؛ فقولُه: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ استِدلالٌ بما لا يَسَعُهم إلَّا الاعترافُ به، وهو بَدْءُ الخلْقِ؛ إذ لا يُنازِعون في أنَّ اللهَ وحْدَه هو خالقُ الخلْقِ؛ ولذلك قال اللهُ تعالى: ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الرعد: ١٦] الآيةَ. وحسَّنَ مَوقعَ الاستئنافِ وُرودُه بعدَ ذِكرِ أُمَمٍ غابرةٍ وأُمَمٍ حاضرةٍ خلَفَ بعضُها بعضًا، وإذ كان ذلك مِثالًا لإعادةِ الأشخاصِ بعْدَ فَنائِها، وذِكْرِ عاقِبةِ مَصيرِ المُكذِّبينَ للرُّسلِ في العاجلةِ؛ ناسَبَ في مَقامِ الاعتبارِ أنْ يُقامَ لهم الاستدلالُ على إمكانِ البَعثِ؛ لِيَقَعَ ذِكْرُ ما يَعقُبُه مِن الجزاءِ مَوقعَ الإقناعِ لهم[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٠ - ٦١).

وذكَر ابنُ عاشور: أنَّ هذه السُّورةَ اشتمَلَتْ على آياتٍ فصَّلَت دَلائلَ إبطالِ دِينِ الشِّركِ على أربعةِ استئنافاتٍ مُتماثِلةِ الأُسلوبِ، ابتُدِئَ كلٌّ واحدٍ منها باسمِ الجلالةِ مُجرًى عليه إخبارٌ عن حقائقَ لا قِبَلَ لهم بدَحْضِها؛ لأنَّهم لا يَسَعُهم إلَّا الإقرارُ ببَعضِها أو العجْزُ عن نقْضِ دَليلِها؛ فالاستئنافُ الأوَّلُ المَبْدوءُ بقولِه: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، والثَّاني المَبْدوءُ بقولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ﴾ [الروم: ٤٠]، والثَّالثُ المَبدوءُ بقولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [الروم: ٤٨]، والرَّابعُ المَبْدوءُ بقولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ﴾ [الروم: ٥٤]. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦١).

- قولُه: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ تَقديمُ اسمِ الجَلالةِ على المُسنَدِ الفِعليِّ لمُجرَّدِ التَّقَوِّي[١].

- قولُه: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ إدْماجٌ[٢]؛ لأنَّه إذا سُلِّمَ له بَدْءُ الخَلْقِ، كان تَسليمُ إعادتِه أَولى وأجدَرَ[٣].

- (ثمَّ) في قولِه: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ للتَّراخي الرُّتبيِّ -كما هو شأْنُها في عطْفِ الجُمَلِ-؛ وذلك أنَّ شأْنَ الإرجاعِ إلى اللهِ أعظَمُ مِن إعادةِ الخلْقِ؛ إذ هو المَقصدُ مِن الإعادةِ ومِن بَدْءِ الخَلْقِ[٤].

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ مُقْتضَى الظَّاهِرِ الغَيبةُ، لكنَّه عدَلَ عنه إلى خِطابِ المشركينَ؛ لِمُكافَحتِهم بالوعيدِ، ومُواجهتِهم بالتَّهديدِ، والمُبالَغةِ في إيهامِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦١).

(٢) الإدماجُ: هو أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ؛ فهو مِن أفانينِ البَلاغةِ، ويكونُ مرادُ البليغِ غَرَضينِ فيُقرِنُ الغرضَ المَسوقَ له الكلامُ بالغرضِ الثَّاني، وفيه تَظهرُ مَقدرةُ البليغِ؛ إذ يأتي بذلك الاقترانِ بدونِ خروجٍ عن غَرَضِه المَسوقِ له الكلامُ، ولا تكلُّفٍ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضَمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجَتِ المُبالَغةُ في المُطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((علوم البلاغة: البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أنَّه مَخصوصٌ بهم. وتَقديمُ ﴿إِلَيۡهِ﴾؛ للتَّخصيصِ[1].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [الروم: ١١]؛ تَبْيينًا لحالِ المُشرِكينَ في وقْتِ ذلك الإرجاعِ، وكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُقال: ويومَئذٍ يُبلِسُ المُجرِمون، أو يومَئذٍ تُبْلِسون، أي: ويومَ تُرجَعون إليه يُبلِسُ المُجرِمون؛ فعُدِلَ عن تَقديرِ الجُملةِ المُضافِ إليها (يوم) الَّتي يدُلُّ عليها ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [الروم: ١١]، بذِكْرِ جُملةٍ أُخرى هي في مَعناها؛ لِتَزيدَ الإرجاعَ بَيانًا أنَّه إرجاعُ النَّاسِ إليه يومَ تقومُ السَّاعةُ؛ فهو إطنابٌ لأجْلِ البَيانِ، وزِيادةِ التَّهويلِ؛ لِمَا يَقْتَضيه إسنادُ القيامِ إلى السَّاعةِ مِن المُباغَتةِ والرُّعبِ. ويدُلُّ لهذا القصْدِ تَكريرُ هذا الظَّرفِ في الآيةِ بعْدَها بهذا الإطنابِ[2].

- والمُجرِمون: المُشرِكون، وهمُ الَّذين أُجْرِيَت عليهم ضَمائرُ الغَيبةِ وضمائرُ الخِطابِ؛ بقرينةِ قولِه: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَـٰٓؤُاْ﴾، والإظهارُ في مَقامِ الإضمارِ؛ لإجراءِ وصْفِ الإجرامِ عليهم. ووُصِفوا بالإجرامِ؛ لتَحقيرِ دِينِ الشِّركِ، وأنَّه مُشتمِلٌ على إجرامٍ كبيرٍ[3].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَـٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٣)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٧/ ١١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٢).

- قولُه: ﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ ﴾ فيه نفْيُ فِعلِ (يكُن) بـ (لمْ) الَّتي تُخَلِّصُ المُضارعَ للمُضيِّ؛ للإشارةِ إلى تَحقيقِ حُصولِ هذا النَّفيِ[١].

- ومُقابَلةُ ضَميرِ الجمْعِ بصِيغةِ جمْعِ الشُّركاءِ في قولِه: ﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ ﴾ مِن بابِ التَّوزيعِ، أي: لم يكُنْ لأحدٍ مِن المُجرِمين أحَدٌ شَفيعٌ فضْلًا عن عِدَّةِ شُفعاءَ، وكذلك قولُه: ﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴾؛ لأنَّ المرادَ أنَّهم يَكفُرون بهم يومَ تقومُ السَّاعةُ[٢].

- قولُه: ﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴾ معناه: ويكونُ عندَ مُعايِنَتِهم أمْرَ اللهِ، وفسادَ حالِ الأصنامِ، عبَّرَ بالماضي؛ لِتيقُّنِ الأمْرِ، وصِحَّةِ وُقوعِه[٣].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ ﴾ أُعيدَ؛ لِتَهويلِه، وتَفظيعِ ما يقَعُ فيه[٤]، فقيامُ السَّاعةِ أمرٌ هائلٌ؛ فكرَّره تأكيدًا للتخويفِ[٥].

- قولُه: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ تَهْويلٌ له إثْرَ تَهويلٍ[٦]، وكرَّرَ ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾؛ لِتأكيدِ حَقيقةِ الظَّرفيَّةِ[٧].

- والتَّفرُّقُ: انقسامُ الجمْعِ، وتشتُّتُ أجزاءِ الكلِّ، وقد كُنِّيَ به هنا في قولِه

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٣).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٣).

﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ﴾ عن التَّباعُدِ؛ لأنَّ التَّفرُّقَ يُلازِمُه التَّباعدُ عُرْفًا. وقد فُصِّلَ التَّفرُّقُ هنا بقولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...﴾ إلى آخِرِه[1].

٥- قَولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ﴾ تَفصيلٌ وبَيانٌ لأحوالِ ذَيْنِك الفَريقينِ[2].

- وبدأ بذِكرِ حالِ الَّذين آمَنوا، مع أنَّ الموضِعَ مَوضِعُ ذِكرِ المُجرِمينَ؛ لأنَّ المؤمِنَ يُوصَلُ إليه الثَّوابُ قبْلَ أن يُوصَلَ إلى الكافِرِ العِقابُ؛ حتَّى يرى ويَتحَقَّقَ أنَّ المؤمِنَ وَصَل إلى الثَّوابِ، فيَكونَ أنكَى، ولو أُدخِلَ الكافِرُ النَّارَ أوَّلًا لكان يَظُنُّ أنَّ الكُلَّ في العذابِ مُشترِكونَ؛ فقدَّم ذلك زيادةً في إيلامِهم[3].

- قولُه: ﴿فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ﴾ إنَّما خَصَّ جلَّ ثناؤُه ذِكْرَ الرَّوضةِ في هذا الموضعِ؛ لأنَّه لم يكُنْ عندَ الطَّرفينِ أحسَنُ مَنظرًا، ولا أطيَبُ نَشْرًا مِن الرِّياضِ[4].

- وجاء لَفظُ ﴿رَوۡضَةٖ﴾ مُنكَّرًا، والتَّنكيرُ لإبهامِ أمْرِها وتَفخيمِه[5].

- وجاء ﴿يُحۡبَرُونَ﴾ بالفِعلِ المُضارِعِ؛ لاستِعمالِه للتَّجدُّدِ؛ لأنَّهم كلَّ ساعةٍ يأْتيهم ما يُسَرُّون به مِن مُتجدِّداتِ الملاذِّ وأنواعِها المُختلِفةِ[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٠).

٦- قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ صرَّحَ بذلك مع اندارجِه في تكذيبِ الآياتِ؛ للاعتِناءِ بأمْرِه[١].

- وقولُه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المَوصولِ، باعتبارِ اتِّصافِه بما في حيِّزِ الصِّلةِ مِن الكُفْرِ والتَّكذيبِ بآياتِه تعالى وبلِقاءِ الآخِرةِ؛ للإيذانِ بكَمالِ تَميُّزِهم بذلك عن غيرِهم، وانتظامِهم في سلْكِ المُشاهَداتِ، وما فيهِ مِن معنَى البُعدِ مع قُرْبِ العهْدِ بالمُشارِ إليهِ؛ للإشعارِ ببُعدِ مَنزلتِهم في الشَّرِّ[٢].

- وجاء ﴿مُحۡضَرُونَ﴾ باسمِ الفاعلِ في قولِه: ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾؛ لاستعمالِه للثُّبوتِ، فهمْ إذا دَخَلوا العذابَ يَبْقَون فيه مُحضَرينَ، فهو وصْفٌ لازِمٌ لهم[٣].

- وأيضًا ﴿مُحۡضَرُونَ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ مِن الإحضارِ، أي: جعْلِ الشَّيءِ حاضرًا، أي: لا يَغيبون عنه، أي: لا يَخرُجون منه، وهو يُفيدُ التَّأبيدَ بطريقِ الكِنايةِ؛ لأنَّه لَمَّا ذُكِرَ بعدَ قولِه: ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ﴾، ناسَبَ ألَّا يكونَ المقصودُ مِن وصْفِهم بالمُحضَرينَ أنَّهم كائِنون في العذابِ؛ لئلَّا يكونَ مُجرَّدَ تأْكيدٍ بمَدلولِ (في) الظَّرفيَّةِ؛ فإنَّ التَّأسيسَ أوقَعُ مِن التَّأكيدِ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿مُحۡضَرُونَ﴾ بمعنى: مأْتيٌّ بهم إلى العذابِ؛ فقد كَثُرَ في القرآنِ استعمالُ (مُحضَر) ونحوه بمعنى مُعاقَبٍ؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ﴾[٤] [الصافات: ١٥٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٤).

الآيات (١٧-٢٢)

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَعَشِيًّا﴾: أي: مِن زَوالِ الشَّمسِ إلى الصَّباحِ، أو مِن الظُّهرِ إلى نِصفِ اللَّيلِ، أو صلاةَ العصرِ، وأصلُ (عشو): يدُلُّ على ظَلامٍ، وقِلَّةِ وُضوحٍ في الشَّيءِ[1].

﴿تُظْهِرُونَ﴾: أي: تَدخُلونَ في وقتِ الظَّهيرةِ، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ اللهُ تعالى أنواعًا متعدِّدةً مِن الأدلَّةِ والبراهينِ على وحدانيَّتِه، فيقولُ: تنزَّهَ اللهُ تعالى عن كلِّ عَيبٍ ونَقصٍ، فنزِّهوه وسَبِّحوه -أيُّها النَّاسُ- حين تُمسونَ

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩١).

وحينَ تُصبِحونَ، وله سُبحانَه الحَمدُ في السَّمَواتِ والأرضِ، فهو المحمودُ فيهما، ونَزِّهوه وسَبِّحوه أيضًا وقتَ العَشِيِّ ووقتَ الظَّهيرةِ. يُخرِجُ اللهُ بقُدرتِه الحَيَّ مِن الميِّتِ، كالإنسانِ مِن النُّطفةِ، ويُخرِجُ الميِّتَ مِن الحيِّ، كالنُّطفةِ مِن الإنسانِ، ويُحيي الأرضَ بالماءِ بعدَ جُدوبِها وقُحولِها، وكما يُحيي اللهُ الأرضَ بعدَ موتِها يُحييكم -أيُّها النَّاسُ- بعدَ مَوتِكم.

ومِنَ العلاماتِ الدَّالَّةِ على صِفاتِ اللهِ تعالى -كوحدانيَّتِه وقُدرتِه تعالى-: أنَّه ابتدَأ خَلْقَكم مِن تُرابٍ؛ فخَلَق أباكم آدَمَ منه، ثمَّ إذا أنتم بشَرٌ أحياءٌ تَنتَشِرونَ في الأرضِ وتَسعَونَ فيها.

ومِنَ العلاماتِ الدَّالَّةِ على صِفاتِ الله تعالى: أنَّه خلَقَ لكم مِن أنفُسِكم أزواجًا؛ لِيَحصُلَ بيْنَكم السَّكَنُ والأُلْفةُ، وجعَلَ بيْنَكم محبَّةً ورَحمةً، إنَّ في ذلك لَدَلالاتٍ على قُدرةِ اللهِ وحِكمتِه لِقَومٍ يتفكَّرونَ.

ومِنَ العلاماتِ الدَّالَّةِ على وحدانيَّتِه وقُدرتِه تعالى: خَلْقُ السَّمَواتِ والأرضِ مِنَ العَدَمِ، واختِلافُ لُغاتِكم وألوانِكم مع أنَّ أصْلَكم واحدٌ؛ مِن أبيكم آدَمَ، إنَّ في ذلك لَدَلالاتٍ لأُولي العِلمِ.

ومِنَ العَلاماتِ الدَّالَّةِ على وحدانيَّتِه وقُدرتِه تعالى: نَومُكم في اللَّيلِ والنَّهارِ لِراحةِ أبدانِكم، وطَلَبُكم رِزقَ اللهِ فيهما؛ إنَّ في ذلك لَدَلالاتٍ لِقَومٍ يَسمَعونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ١٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ تعالى عظيمَ قُدرتِه في خَلْقِ السَّمَواتِ والأرضِ بالحقِّ - وهي حالةُ

ابتِداءِ العالَم-، وفي مَصيرِهم إلى الجنَّةِ والنَّارِ -وهي حالَةُ الانتهاءِ-؛ أمَرَ تعالى بتنزيهه مِن كلِّ سُوءٍ(١).

وأيضًا لَمَّا بيَّن اللهُ سُبحانَه المبدأَ بخَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ، والمَعادَ بالجَنَّةِ والنَّارِ، وأنَّهم كَذَّبوا به، وكان تكذيبُهم به مُستَلزِمًا لاعتقادِ نقائِصَ كثيرة؛ منها العَجزُ، وإخلافُ الوَعدِ، وتَرْكُ الحِكمةِ- كان ذلك سببًا لأن يُنَزِّهَ سُبحانَه نفْسَه المُقَدَّسةَ، ويأمُرَ بتَنزيهِها(٢).

وأيضًا بعدَ ما بُيِّن حالُ فَريقَيِ المؤمنينَ العاملينَ للصَّالحاتِ، والكافرينَ المكذِّبينَ بالآياتِ، وما لَهُما مِن الثَّوابِ والعذابِ؛ أُمِرُوا بما يُنجِّي مِن الثَّاني، ويُفْضِي إلى الأوَّلِ؛ مِن تَنْزيهِ اللهِ عزَّ وجلَّ عن كلِّ ما لا يَليقُ بشَأنِه سُبحانَه، ومِن حمْدِه تعالى على نِعَمِه العِظَامِ(٣).

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ١٧﴾.

أي: تَنَزَّهَ اللهُ تعالى عن كُلِّ عَيبٍ ونَقصٍ، فنَزِّهوه -أيُّها النَّاسُ- حينَ حُلولِ المساءِ، وحينَ حُلولِ الصَّباحِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٣)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٦/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٥-٦٧).
قيل: المرادُ بالتَّسبيحِ هنا: الصَّلاةُ، والمرادُ بقَولِه تعالى: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾: صلاةُ المغربِ. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٣).
ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٤).
وقيل: المراد بقَولِه: ﴿تُمْسُونَ﴾ المغربُ والعِشاءُ. ومِمَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، =

= والزجَّاجُ، والسمرقنديُّ، ومكِّي، والسمعاني، والخازن، وابن تيميَّة، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٠٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٨٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦٦٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٨٨)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ٢٣٤)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٦/ ٣٤٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٣٣)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٨٨، ٩٣).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٤).

وقيل: المراد بقَولِه: ﴿تُمۡسُونَ﴾: صلاةُ العصر وصلاةُ المغربِ. وممَّن اختاره: الثعلبي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٦٢).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿تُصۡبِحُونَ﴾: صلاةُ الفَجرِ: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ جرير، والزجاج، والسمرقندي، والثعلبي، ومكي، والسمعاني، والخازن، وابن تيمية، وجلال الدين المحلي، والبقاعي، والعليمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٨٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٩٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦٦٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٨٨)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ٢٣٤)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٦/ ٣٤٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٦٢)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٨٨، ٩٣).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، ومجاهدٌ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٤).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالتَّسبيحِ هنا: تنزيهُ اللهِ تعالى عندَ المساءِ وهو إقبالُ اللَّيلِ بظَلامِه، وعندَ الصَّباحِ وهو إسفارُ النَّهارِ عن ضيائِه: ابنُ كثير، والبِقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٩، ٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٥٢).

واختار الرازيُّ أنَّ المعنى: نَزِّهوه عن صِفاتِ النَّقصِ، وصِفُوه بصِفاتِ الكمالِ، ثمَّ قال: (لأنَّ التَّنزيهَ المأمورَ به يَتناوَلُ التَّنزيهَ بالقلبِ وهو الاعتقادُ الجازِمِ، وباللِّسانِ مع ذلك وهو الذِّكرُ =

كما قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ ما يدُلُّ على خُصوصِ التَّنزيهِ؛ أتبَعَه ما يُعَرِّفُ بعُمومِ الكمالِ[1]:

= الحسَنُ، وبالأركانِ معهما جميعًا وهو العملُ الصَّالحُ، والأوَّلُ هو الأصلُ، والثَّاني ثمرةُ الأوَّلِ، والثالثُ ثمرةُ الثَّاني؛ وذلك لأنَّ الإنسانَ إذا اعتقَد شيئًا ظهَرَ من قلبِه على لسانِه، وإذا قال ظهَر صِدقُه في مَقالِه مِن أحوالِه وأفعالِه، واللِّسانُ تَرْجُمانُ الجَنانِ، والأركانُ بُرهانُ اللِّسانِ، لكنِ الصَّلاةُ أفضَلُ أعمالِ الأركانِ، وهي مُشتمِلةٌ على الذِّكرِ باللِّسانِ، والقصدِ بالجَنانِ، وهو تنزيهٌ في التَّحقيقِ، فإذا قال: نَزِّهوني، وهذا نوعٌ مِن أنواعِ التَّنزيهِ، والأمرُ المُطْلَقُ لا يختصُّ بنوعٍ دُونَ نوعٍ؛ فيجبُ حملُه على كلِّ ما هو تنزيهٌ؛ فيكونُ أيضًا هذا أمرًا بالصَّلاةِ). ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٦).

وقال ابن جُزَي: (﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ هذا تعليمٌ للعِبادِ، أي: قُولوا: سُبحانَ الله ﴿حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣١).

وممَّن ذهب إلى العمومِ: السعديُّ، فقال: (فهذه الأوقاتُ الخمسةُ أوقاتُ الصَّلواتِ الخَمسِ، أمَرَ اللهُ عِبادَه بالتَّسبيحِ فيها والحَمدِ، ويَدخُلُ في ذلك الواجبُ منه، كالمُشتملةِ عليه الصَّلواتُ الخَمسُ، والمُستحَبُّ، كأذكارِ الصَّباحِ والمساءِ وأدبارِ الصَّلَواتِ، وما يَقترِنُ بها مِن النَّوافِلِ؛ لأنَّ هذه الأوقاتَ الَّتي اختارها اللهُ لأوقاتِ المفروضاتِ هي أفضَلُ مِن غيرِها؛ فالتَّسبيحُ والتَّحميدُ فيها والعبادةُ فيها: أفضَلُ مِن غيرِها، بل العبادةُ وإن لم تَشتَمِلْ على قَولِ: «سُبحانَ الله» فإنَّ الإخلاصَ فيها تنزيهٌ لله بالفِعلِ أن يكونَ له شريكٌ في العبادةِ، أو أن يَستحِقَّ أحَدٌ مِنَ الخَلقِ ما يَستَحِقُّه مِن الإخلاصِ والإنابةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٥-٦٧).

قال الزجَّاج: (ومعنى: سُبحان اللهِ: تنزيهُ اللهِ من السُّوءِ. هذا لا اختلافَ فيه). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ١٨١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٦٠).



﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: وهو وَحْدَه المُستَحِقُّ وَصْفَه بصِفاتِ الكَمالِ مع محبَّتِه وتَعظيمِه، في السَّمواتِ والأرضِ(١).

﴿وَعَشِيًّا﴾.

أي: ونزِّهوا اللهَ -أيُّها النَّاسُ- وَقْتَ العَشِيِّ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٩٠).
قيل: المرادُ: أنَّه المحمودُ مِن أهلِ السَّمَواتِ ومِن أهلِ الأرضِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والسمرقندي، ومكِّي، وجلال الدين المحلي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦٦٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٦).
وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٧٣).
وقال ابنُ كثير: (أي: هو المحمودُ على ما خَلَقَ في السَّمَواتِ والأرضِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٧).
واختار ابنُ عثيمين أنَّ الآيةَ أعَمُّ مِن قولِ مَن قال: يَحمَدُه أهلُ السَّمواتِ والأرضِ، مع تقريره أنَّ هذا المعنى داخلٌ في الآيةِ، وأنَّ المعنى: أنَّ الله تعالى مُستحِقٌّ للحمدِ على ما خلَقَه في السَّمواتِ والأرضِ، سواءٌ حُمِد أو لم يُحمَدْ، فكلُّ ما في السَّمواتِ والأرضِ فإنَّ الله تعالى يُحمَدُ عليه، سواءٌ أمورُ الخَيرِ أو الشَّرِّ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٩٠).
وقيل: الآيَةُ إرشادٌ إلى الحمدِ، وأنَّ على المُمَيِّزينَ كلِّهم مِن أهلِ السَّمواتِ والأرضِ أن يَحمَدوه. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: النسفي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٥٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٦)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٣٠٤)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٦/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٧).
قيل: المرادُ بالعَشيِّ هنا: صلاةُ العصرِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، وابن تيميَّةَ، وهو ظاهرُ اختيارِ ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٦)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية =

كما قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥].

﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾.

أي: ونزِّهوا اللهَ وَقْتَ الإظهارِ[1].

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

وَجهُ تَعلُّقِ إخراجِ الحَيِّ مِنَ الميِّتِ والميِّتِ مِنَ الحَيِّ بما تقَدَّمَ عليه: أنَّه عندَ الإصباحِ يَخرُجُ الإنسانُ مِن شِبهِ الموتِ -وهو النَّومُ- إلى شِبهِ الوجودِ -وهو اليَقَظةُ-، وعندَ العِشاءِ يَخرُجُ الإنسانُ مِن اليَقَظةِ إلى النَّومِ[2].

= (٦/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٩٢).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، ومجاهدٌ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٤).

وقيل: العَشِيُّ هنا إشارةٌ إلى صلاةِ العِشاءِ. ومِمَّن قال بذلك: الثعلبي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٦٢).

وقيل: العَشِيُّ: شِدَّةُ الظَّلامِ. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٧).

قيل: المرادُ بالإظهارِ هنا: صلاةُ الظُّهرِ. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وابنُ تيميَّةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٦)، ((جامع المسائل)) لابن تيميَّةَ (٦/ ٣٤٤).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، ومجاهدٌ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٤).

وقيل: هو قوَّةُ الضِّياءِ. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٩).

وأيضًا أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الإبداءَ والإعادةَ؛ ناسَبَ ذِكرَه: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾[1].

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾.

أي: يُخرِجُ اللهُ بقُدرتِه الحَيَّ مِن الميِّتِ؛ كالإنسانِ مِن النُّطفةِ، والنَّباتِ مِن الحَبِّ، والدَّجاجِ مِن البَيضِ، والمؤمِنِ من الكافِرِ[2].

﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾.

أي: ويُخرِجُ اللهُ بقُدرتِه الميِّتَ مِن الحَيِّ؛ كالنُّطفةِ مِن الرَّجُلِ، والحَبِّ مِن النَّباتِ، والبَيضِ مِن الدَّجاجِ، والكافرِ مِن المؤمِنِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٩٥).

قال ابن عثيمين في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ آلِ عِمرانَ، الآية (٢٧): (والمرادُ بالحيِّ: الحيُّ حياةً حِسِّيَّةً ومَعنويَّةً؛ وذلك لأنَّ اللَّفظَ صالحٌ لِلمَعنَيَينِ، وإذا صلَح اللَّفظُ للمَعنيَينِ بدُونِ تَنافٍ بيْنَهما، فالواجبُ حمْلُه عليهما.

الحيُّ حياةً حِسِّيَّةً أمثلتُه كثيرةٌ، فالإنسانُ مخلوقٌ مِن نُطفةٍ، وهي ميتةٌ بالمعنى اللُّغَويِّ، فصار حيًّا مِن مَيتٍ... أو يُخرِجُ حيًّا ناميًا مُتحَرِّكًا مِن شَيءٍ لا ينمو، فهو ميتٌ؛ كإخراجِ الفَرخِ مِنَ البَيضةِ؛ فإنَّ البيضةَ مَيتةٌ يخرُجُ منها فرخٌ حيٌّ. هذا الموتُ الحِسِّيُّ.

أمَّا المعنويُّ: فيُخرِجُ الحيَّ مِنَ المَيتِ أي: المؤمنَ مِنَ الكافرِ؛ لأنَّ المؤمنَ حيٌّ حياةً قلبيَّةً، والكافرَ ميتٌ؛ يُخرِجُ الحيَّ العالِمَ مِنَ الميتِ الجاهلِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (١/ ١٦٤).

وقال ابنُ كثير في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ الأنعام، الآية (٩٥): (وقد عبَّروا عن هذا وهذا بعباراتٍ كلُّها مُتقارِبةٌ مؤدِّيةٌ للمعنى؛ فمِن قائلٍ: يُخرِجُ الدَّجاجةَ مِنَ البَيضةِ، والبيضةَ مِنَ الدَّجاجةِ، ومِن قائلٍ: يُخرِجُ الولدَ الصَّالحَ مِنَ الكافرِ، والكافرَ مِنَ الصَّالحِ، وغير ذلك مِنَ العباراتِ الَّتي تَنتظِمُها الآيةُ وتَشملُها). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) =

﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

أي: ويُنزِلُ اللهُ الماءَ على الأرضِ اليابسةِ القاحِلةِ، فتَنبُتُ بعدَ جُدوبِها[1].

كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ [يس: ٣٣، ٣٤].

﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

أي: وكما يُحيي اللهُ الأرضَ بعدَ مَوتِها، فيُخرِجُ نباتَها وزَرْعَها بقُدرتِه، يُحييكم -أيُّها النَّاسُ- بعدَ مَوتِكم، ويُخرِجُكم أحياءً مِن قُبورِكم يومَ القيامةِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف: ١١].

= (٢١/ ٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٩٥، ٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٩).

قال ابنُ عثيمين: (ظاهِرُ الآياتِ الكريماتِ أنَّ خُروجَ النَّاسِ مِن القبورِ يُشبِهُ خُروجَ النَّباتِ مِن الأرضِ، وخُروجُ النَّباتِ من الأرضِ يكونُ بنزولِ المطرِ عليها، فيكونُ في هذه الآيةِ إشارةٌ إلى ما ورد في الحديثِ مِن أنَّ اللهَ تعالى يُمطِرُ على القُبورِ مطَرًا... تَنبُتُ منه الأجسادُ في القبورِ، ثمَّ بعدَ ذلك تخرُجُ إذا نُفِخَ في الصُّورِ... وظاهِرُ القرآنِ أيضًا يشيرُ إليه). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٩٧).

عن عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو، قال: قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: ((ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ... ثمَّ يرسلُ اللهُ -أو قال: ينزلُ اللهُ- مطرًا كأنَّه الطَّلُّ أو الظِّلُّ فتنبتُ منه أجسادُ الناسِ، ثمَّ يُنفخُ فيه أخرَى، فإذا هم قيامٌ ينظرونَ)). أخرجه مسلم في ((صحيحه)) (٢٩٤٠).

وعن أبي هريرةَ مرفوعًا: ((ثم ينزلُ اللهُ مِن السماءِ ماءً، فينبتونَ كما ينبتُ البقلُ)). أخرجه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥).

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۝ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ [نوح: ١٧، ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩]

وقال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بالتَّسبيحِ عن النَّقائِصِ والعيوبِ، وذكَرَ أنَّ الحَمدَ له على خَلقِ جَميعِ الأشياءِ، وبيَّنَ قُدرتَه على الإماتةِ والإحياءِ بقَولِه: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾- ذكَرَ ما هو حُجَّةٌ ظاهِرةٌ وآيةٌ باهِرةٌ على ذلك، ومِن جُملتِها خَلْقُ الإنسانِ مِن تُرابٍ[1]، فقال:

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾.

أي: ومِن العَلاماتِ الدَّالَّةِ على صِفاتِ اللهِ تعالى، كوحدانيَّتِه وكَمالِ قُدرتِه: أنَّه ابتدَأ خَلْقَكم مِن تُرابٍ، فخَلَق أباكم آدَمَ منه[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٠١-١٠٢، ١٠٤).

وقال ابن عثيمين: (يجوزُ أنَّ نَفْسَ الإنسانِ فيه مادَّةٌ تُرابيَّةٌ، والآنَ هم يقولونَ: إنَّ الإنسانَ فيه =

كما قال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ...﴾ الآيةَ [الحج: ٥].

﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ﴾.

أي: ثمَّ[١] تَصيرونَ مِن هذا التُّرابِ الجامِدِ بَشَرًا أحياءً تَنتَشِرونَ في الأرضِ، وتَسعَونَ فيها[٢].

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّنَ اللهُ خَلْقَ الإنسانِ؛ بَيَّن أنَّه لَمَّا خَلَق الإنسانَ ولم يكُنْ مِن الأشياءِ الَّتي تَبقى وتَدومُ سِنينَ مُتطاوِلةً، أبقى نوعَه بالأشخاصِ، وجعَلَه بحيثُ يَتوالَدُ، فإذا مات الأبُ يقومُ الابنُ مَقامَه؛ لِئَلَّا يُوجِبَ فَقْدُ الواحِدِ ثُلْمةً في العِمارةِ لا تَنسَدُّ[٣].

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا﴾.

أي: ومِن العَلاماتِ الدَّالَّةِ على صِفاتِ اللهِ تعالى: أنَّه خَلَقَ لكم مِن أنفُسِكم[٤]

= مِن جميعِ معادِنِ الأرضِ؛ فيه رَصاصٌ، ونُحاسٌ، وجيرٌ، وحديدٌ، وترابٌ، وكُلُّ شَيءٍ؛ فنَفْسُ الجسمِ مُكَوَّنٌ مِن هذه الأشياءِ، فلا يَبعُدُ أن تكونَ هذه السُّلالةُ الَّتي تَخرجُ منه فيها هذه الموادُّ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٠٣، ١٠٤).

(١) قال ابنُ عثيمين: («ثمَّ» دالَّةٌ على المهلةِ؛ لأنَّه بعدَ خَلقِ آدَمَ لم يأتِ الأولادُ مُباشرةً). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٩١).

(٤) قيل: المرادُ بـ﴿أَنفُسِكُمۡ﴾: جِنسُكم، أي: خلَقَ لكم مِن جِنسِكم أزواجًا، فجعَلَ النَّاسَ =

أزواجًا؛ لِتَحصُلَ المناسَبةُ والأُلْفةُ والاطمِئنانُ بيْنَكم[1].

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.

أي: وجعَلَ اللهُ بيْنَكم -أيُّها الأزواجُ- مَحبَّةً عَظيمةً، ورَحمةً يَعطِفُ بها بَعضُكم على بعضٍ[2].

= يَتزاوَجونَ مِن جِنسِهم البَشَريِّ. وممَّن قال بهذا المعنى: القرطبيُّ، وابن كثير، وابن عاشور، ومال إليه ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٠٨).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: الكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٢٠).

وقيل: معنى ﴿أَنفُسِكُمْ﴾: ذواتِكم، أي: إنَّ اللهَ خلَقَ حوَّاءَ مِن ضِلَعٍ مِن أضلاعِ آدَمَ، فهي بعضٌ منه. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦٧٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٨).

وظاهِرُ عبارةِ البِقاعيِّ الجَمعُ بينَ المعنيَينِ؛ حيث قال: (ولَمَّا كان إيجادُ الأنثى مِن الذَّكَرِ خاصًّا لم يكُنْ إلَّا مرَّةً واحدةً كالخَلقِ مِن التُّرابِ؛ عَبَّرَ بالماضي، فقال: ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم﴾ أي: لأجْلِكم؛ لِيَبقى نوعُكم بالتَّوالُدِ. وفي تقديمِ الجارِّ دَلالةٌ على حُرمةِ التَّزَوُّجِ مِن غيرِ النَّوعِ. والتَّعبيرُ بالنَّفسِ أظهَرُ في كَونِها مِن بَدَنِ الرَّجُلِ، في قَولِه: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: جِنسِكم، بعدَ إيجادِها مِن ذاتِ أبيكم آدَمَ عليه السَّلامُ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٦٦، ٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٦٦، ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٠٨، ١٠٩).

قال ابن تيميَّةَ: (فيَسكُنُ الرَّجُلُ إلى المرأةِ بقَلبِه وبَدَنِه جميعًا). ((مجموع الفتاوى)) (٥/ ٥٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٣٤)، ((تفسير ابن =

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي: إنَّ في خَلْقِ اللهِ لكم أزواجًا مِن أنفُسِكم لِتَسكُنوا إليها، وما جعَل بيْنَكم مِن المَودَّةِ والرَّحمةِ- لَعَلاماتٍ ودَلالاتٍ على قُدرةِ اللهِ، وحِكمتِه ورَحمتِه، وغيرِها، لِقَومٍ يُعمِلونَ فِكرَهم في ذلك[1].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى دَلائِلَ الأنفُسِ؛ ذكَرَ دَلائلَ الآفاقِ، وأظهَرُها خَلْقُ السَّمَواتِ والأرضِ[2].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

أي: ومِنَ العَلاماتِ الدَّالَّةِ على توحيدِ اللهِ، وكَمالِ قُدرتِه العظيمةِ، وغيرِ ذلك: إيجادُه السَّمَواتِ والأرضَ مِنَ العَدَمِ، وعلى تَقديرٍ ونظامٍ بديعٍ، مع ما فيهما مِن المخلوقاتِ العَظيمةِ المُتنَوِّعةِ[3].

= كثير)) (٦/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٠٩، ١١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٣٥)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٦٨، ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١١٧، ١١٨).



﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾.

أي: ومِن العَلاماتِ أيضًا: اختِلافُ لُغاتِكم وألوانِ أجسادِكم، مع أنَّ أصلَكم واحدٌ؛ مِن أبيكم آدَمَ(١).

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ...﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ بكَسرِ اللَّامِ الثَّانيةِ: جمعُ عالِمٍ، أي: هذه الآياتُ للعُلَماءِ؛ لأنَّ العالِمَ أقرَبُ إلى الاعتبارِ مِن الجاهِلِ(٢).

٢- قراءة ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ بفَتحِ اللَّامِ الثَّانيةِ: جَمعُ عالَمٍ(٣).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾.

أي: إنَّ في خَلْقِ اللهِ السَّمَواتِ والأرضَ، واختلافِ ألسُنِ البشَرِ وألوانِهم:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٩، ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٣، ٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١١٨-١٢١).

(٢) قرأ بها حَفصٌ عن عاصم. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٦٤)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٨٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٥٧، ٥٥٨).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٦٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٥٨).

لَعَلاماتٍ وأدِلَّةً لأُولي العِلمِ، ومِن ذلك الاستِدلالُ بها على وحدانيَّةِ الله تعالى وقُدرتِه على إعادةِ الخَلقِ بعدَ مَوتِهم[(١)].

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى بَعضَ الأعراضِ اللَّازمةِ، وهو الاختِلافُ؛ ذكَرَ الأعراضَ المُفارِقةَ، ومِن جُملتِها النَّومُ باللَّيلِ، والحَركةُ في النَّهارِ؛ طَلَبًا للرِّزقِ[(٢)].

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾.

أي: ومِنَ العلاماتِ أيضًا مَنامُكم في اللَّيلِ والنَّهارِ؛ لِراحةِ أبدانِكم، وطَلَبُكم رِزقَ اللهِ فيهما[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٧٠)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٩٣)، ((تفسير ابن عادل)) (١٥/ ٣٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٢٤، ١٢٥).

وممَّن قال بأنَّ الآيةَ تعني أنَّ النَّومَ وطَلَبَ الرِّزقِ كليهما يَكونانِ في اللَّيلِ وفي النَّهارِ: ابنُ عطية، والبيضاوي، والبِقاعي، وأبو السعود، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة. ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٠).

وقيل المرادُ في الآيةِ: أنَّ النَّومَ في اللَّيلِ، والابتغاءَ مِن فَضلِه: في النَّهارِ. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والواحدي، وابن القيم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣١)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٨٦).

قال ابنُ عطية: (ذكَرَ تعالى النَّومَ باللَّيلِ والنَّهارِ، وعُرْفُ النَّومِ إنَّما هو باللَّيلِ وحْدَه، ثمَّ ذكَرَ الابتغاءَ مِن فَضلِه كأنَّه فيهما، وإنَّما معنى ذلك: أنَّه عَمَّ باللَّيلِ والنَّهارِ، فسَمَّى الزَّمانَ، وقَصَد =

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ﴾.

أي: إنَّ في مَنامِكم باللَّيلِ والنَّهارِ، وابتغائِكم مِن فَضلِ اللهِ فيهما: لَعَلاماتٍ ودَلالاتٍ لِقَومٍ يَسمَعونَ سَماعَ تدبُّرٍ وتفَهُّم، ومِن ذلك الاستِدلالُ بهما على رحمةِ اللهِ، وتَوحيدِه، وقُدرتِه على بَعثِ الخَلقِ بعدَ مَوتِهم[1].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قوله تعالى: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾ فيه الحثُّ على النَّظرِ في البعثِ، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ

= من ذلك تعديدَ آيةِ النَّومِ وتعديدَ آيةِ ابتغاءِ الفَضلِ؛ فإنَّهما آيتانِ تَكونانِ في لَيلٍ ونهارٍ، والعُرفُ يجيزُ كُلَّ واحدةٍ مِن النِّعمَتينِ، أي محلَّها مِن الأغلَبِ. وقال بعضُ المفسِّرينَ: في الكلامِ تَقديمٌ وتأخيرٌ. وهذا ضعيفٌ، وإنَّما أراد أن يرتِّبَ النَّومَ لِلَّيلِ، والابتِغاءَ للنَّهارِ، ولَفظُ الآيةِ لا يُعطي ما أراد). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٣).

وقال الشوكاني: (قيل: في الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ، والتَّقديرُ: ومِن آياته مَنامُكم باللَّيلِ، وابتغاؤُكم مِن فَضلِه بالنَّهارِ. وقيل: المعنى صحيحٌ مِن دونِ تقديمٍ وتأخيرٍ، أي: ومِن آياتِه العظيمةِ أنَّكم تنامون باللَّيلِ، وتنامون [بالنَّهارِ] في بَعضِ الأحوالِ للاستِراحةِ، كوقتِ القَيلولةِ؛ وابتغاؤكم مِن فَضلِه فيهما؛ فإنَّ كُلَّ واحدٍ منهما يقَعُ فيه ذلك، وإن كان ابتغاءُ الفَضلِ في النَّهارِ أكثَرَ. والأوَّلُ: هو المناسِبُ لسائرِ الآياتِ الواردةِ في هذا المعنى، والآخِرُ: هو المناسِبُ للنَّظمِ القرآنيِّ هاهنا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٥٣، ٢٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٨)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٩).

قال القُرطبي: (﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ يريدُ: سَماعَ تفَهُّمٍ وتدَبُّرٍ. وقيل: يَسمَعونَ الحَقَّ فيتَّبِعونَه. وقيل: يَسمَعونَ الوَعظَ فيَخافونَه. وقيل: يَسمَعونَ القُرآنَ فيُصَدِّقونَه، والمعنى متقارِبٌ. وقيل: كان منهم مَن إذا تُليَ القرآنُ وهو حاضِرٌ سَدَّ أُذُنَيه؛ حتَّى لا يَسمَعَ، فبَيَّنَ اللهُ عزَّ وجَلَّ هذه الدَّلائِلَ عليه). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٨).

﴿مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [الحج: ٥]. والنَّظرُ في البعثِ وسيلةٌ إلى الاستعدادِ له، والتَّزيُّنِ لِلقاءِ الله تعالى(١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ هذه آيةٌ فيها عِظةٌ وتذكيرٌ بنِظام النَّاسِ العامِّ، وهو نِظامُ الازدِواجِ، وكينونة العائلة، وأساس التَّناسُلِ، وهو نظامٌ عَجيبٌ جَعَله الله مُرتكِزًا في الجِبِلَّةِ لا يَشِذُّ عنه إلَّا الشُّذَّاذُ، وهي آيةٌ تَنطوي على عِدَّةِ آياتٍ؛ منها: أنْ جَعَل للإنسانِ ناموسَ التَّناسُلِ، وأنْ جَعَل تَناسُلَه بالتَّزاوُجِ، ولم يجعَلْه كتَناسُلِ النَّباتِ من نَفسِه، وأنْ جَعَل أزواجَ الإنسانِ مِن صِنفِه، ولم يجعَلْها من صِنفٍ آخَرَ؛ لأنَّ التَّأنُّسَ لا يَحصُلُ بصِنفٍ مُخالِفٍ، وأنْ جَعَل في ذلك التَّزاوُجِ أُنْسًا بيْنَ الزَّوجَينِ، ولم يجعَلْه تزاوجًا عنيفًا أو مُهلِكًا كتزاوُجِ الضَّفادعِ، وأنْ جَعَل بيْنَ كلِّ زَوجينِ مَودَّةً ومحبَّةً؛ فالزَّوجانِ يَكونانِ مِن قَبلِ التَّزاوُجِ مُتجاهِلَينِ، فيُصبِحانِ بعدَ التَّزاوُجِ مُتحابَّينِ، وأنْ جَعَل بيْنَهما رحمةً؛ فهما قبْلَ التَّزاوُجِ لا عاطِفةَ بيْنَهما، فيُصبِحانِ بعدَه مُتَراحِمَينِ، كرَحمةِ الأُبُوَّةِ والأمومةِ. ولأجْلِ ما يَنطوي عليه هذا الدَّليلُ، ويَتبَعُه مِنَ النِّعَمِ والدَّلائلِ؛ جُعِلَت هذه الآيةُ آياتٍ عِدَّةً في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وهذه الآيةُ كائنةٌ في خَلقِ جَوهرِ الصِّنفَينِ مِن الإنسانِ: صِنفِ الذَّكَرِ، وصِنفِ الأُنثى، وإبداعِ نِظامِ الإقبالِ بيْنَهما في جبِلَّتِهما، وذلك مِنَ الذَّاتيَّاتِ النِّسبيَّةِ بيْنَ الصِّنفَينِ(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ دَلالةٌ على أنَّ المَودَّةَ لا

(١) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٤٦، ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٠، ٧١).

تُنالُ بالكَسبِ، يعني: أنَّ اللهَ قد يجعَلُها في قَلبِ الإنسانِ، فأنت لو أرَدْتَ أنْ تُجبِرَ نفْسَك على محبَّةِ شَيءٍ، واللهُ عزَّ وجلَّ لم يجعَلْ في قَلبك مَودَّتَه، فلن تُحِبَّه؛ ولهذا مَنَّ اللهُ على المؤمنينَ بقَولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ [الحجرات: ٧]، وأنت تقولُ في الدُّعاءِ: ((أسألُك حُبَّك، وحُبَّ مَن يُحِبُّك، وحُبَّ عَملٍ يُقَرِّبُ إلى حُبِّك))[١]، إذنْ فالمَودَّةُ يُلقيها اللهُ عزَّ وجَلَّ في القَلبِ؛ فأنت ينبغي لك أنْ تسألَ اللهَ دائمًا أنْ تكونَ محبَّتُك لله وفي الله؛ لِتَكونَ المحبَّةُ باللهِ[٢].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ أخَّرَ الابتِغاءَ، وقَرَنَه في اللَّفظِ بالفَضلِ؛ إشارةً إلى أنَّ العَبدَ ينبغي ألَّا يرى الرِّزقَ مِن كَسْبِه وبحِذْقِه، بل يَرى كُلَّ ذلك من فَضلِ رَبِّه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾ دَلالةٌ على وُجوبِ التَّسبيحِ في الصَّلاةِ؛ لأنَّ القاعدةَ: «أنَّه إذا أُطلِقَ على العبادةِ جزءٌ منها؛ دلَّ ذلك على أنَّ هذا الجزءَ مِن واجباتِها، وأنَّه لا بُدَّ منه»[٤]. هذا على القولِ بأنَّ المرادَ بالتَّسبيحِ الصَّلاةُ.

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٣٥)، وأحمد (٢٢١٠٩) من حديث مُعاذِ بنِ جبلٍ رضي الله عنه.
قال البخاري كما في ((سنن الترمذي)) (٣٢٣٥): حسن صحيح. وكذا قال الترمذي، وصححه ابن العربي في ((أحكام القرآن)) (٤/ ٧٣)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٩٣).

دَلالةٌ على أنَّه وَحْدَه المُستَحِقُّ لأنْ يُحمَدَ على وَجهِ الإطلاقِ، ووجهُ ذلك تقديمُ الخبَرِ في قَولِه: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ﴾[(١)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾ قياسُ الغائبِ على الشَّاهِدِ؛ فإنَّ قياسَ الغائبِ على الشَّاهِدِ لِيُحْمَلَ على الإقرارِ به: طريقةٌ متَّبَعةٌ[(٢)].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾ فيه إيماءٌ إلى أنَّ اللهَ تعالى يُخرِجُ مِن غُلاةِ المُشرِكينَ أفاضِلَ مِن المؤمِنينَ[(٣)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾، وقَولِه سُبحانَه: ﴿وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ إثباتُ قيامِ الأفعالِ الاختياريَّةِ باللهِ عزَّ وجَلَّ، والأفعالُ الاختياريَّةُ: هي الَّتي يفعَلُها بمَشيئتِه؛ إنْ شاءَ فَعَلَ، وإنْ شاء لم يَفعَلْ؛ فإنَّ البَعْديَّةَ في قَولِه تعالى: ﴿وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ تقتَضي حُدوثَ هذا الشَّيءِ[(٤)].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾ في هذا دَليلٌ على صِحَّةِ القياسِ[(٥)].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾ هذا دليلٌ قاطِعٌ وبُرهانٌ ساطِعٌ على أنَّ الَّذي أحيا الأرضَ بعدَ مَوتِها، فإنَّه يُحيي الأمواتَ؛ فلا فَرْقَ في نظَرِ العَقلِ بينَ الأمرَينِ، ولا مُوجِبَ لاستبعادِ أحَدِهما مع مُشاهَدةِ الآخَرِ[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨).

٨- قَولُه تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا ﴾ خارجٌ على سَعَةِ لِسانِ العرَبِ؛ لأنَّ المخلوقَ مِن تُرابٍ آدمُ وَحْدَه، والمخلوقَ له مِن نفْسِه زوجتُه؛ فلمَّا كان البَشَرُ جميعًا مِن نَسْلِه سمَّاهم بذلك؛ بناءً على سَعةِ اللِّسانِ[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ دَلالةٌ على إبطالِ النَّظريةِ الخاطِئةِ «نظريةِ النُّشوءِ والتطُّورِ» الَّتي كان قائدُها «دارون»؛ فهي نظريةٌ خاطِئةٌ وباطِلةٌ بلا شَكٍّ؛ ووجهُ ذلك: أنَّ اللهَ يقولُ: ﴿أَنْ خَلَقَكُم﴾، فيُخاطِبُ البشَرَ باعتبارِه بَشَرًا، إذَن فهو بشرٌ منذُ أُنشِئَ مِن التُّرابِ إلى اليَومِ[٢]!

١٠- قَولُه تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ فيه تنبيهٌ على عَظيمِ قُدرتِه سبحانه بخلْقِ الإنسانِ مِن تُرابٍ، وهو أبعدُ الأشياءِ عن دَرجةِ الإحياءِ؛ لأنَّه باردٌ يابسٌ، والحياةُ بالحرارةِ والرُّطوبةِ[٣].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ فيه دَلالةٌ ظاهِرةٌ على حرمةِ التزوُّجِ مِن غيرِ الجنسِ، كالجنِّ[٤].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا ﴾ دَلالةٌ على أنَّ مِن أهَمِّ أغراضِ النِّكاحِ ومَقاصِدِه السُّكونَ إلى الزَّوجةِ، والاطمِئنانَ إليها، والحياةَ معها حياةً سَعيدةً؛ فالحِكمةُ مِن الزَّوجيَّةِ هي السُّكونُ، أي: سُكونُ أحدِ الزَّوجَينِ إلى الآخَرِ، ويتفرَّعُ على ذلك أنَّه إذا حَصَل التَّنافُرُ واستمرَّ، فإنَّ مِن الحِكمةِ التَّفريقَ بيْنَهما؛ لِقَولِه تعالى: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾، فإذا

---

(١) يُنظر: ((النُّكَت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٦٢). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٦٦).

فاتتْ هذه الحِكمةُ فإنَّه لا زَواجَ[(١)]!

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ دَلالةٌ على أنَّ محبَّةَ الزَّوجاتِ لا لَومَ على المُحِبِّ فيها، بل هي مِن كَمالِه؛ فقد امتَنَّ اللهُ سُبحانَه بها على عِبادِه[(٢)]، إلَّا إذا شغَلَه ذلك عن محبَّةِ ما هو أنفَعُ له؛ مِن محبَّةِ اللهِ ورَسولِه، وزاحَمَ حُبَّ الله وحُبَّ رَسولِه؛ فإنَّ كُلَّ مَحبَّةٍ زاحَمَت محبَّةَ اللهِ ورَسولِه بحيثُ تُضعِفُها وتَنقُصُها فهي مَذمومةٌ، وإن أعانت على محبَّةِ اللهِ ورَسولِه وكانت مِن أسبابِ قُوَّتِها فهي محمودةٌ[(٣)].

١٤- قولُه تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾، قال: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾؛ لأنَّ ذلك لا يُدرَكُ إلَّا بالفِكرِ في تأليفٍ بينَ شَيئينِ لم يكُنْ بيْنَهما تَعارُفٌ[(٤)].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾، استُدِلَّ به على أنَّ اللُّغاتِ تَوقيفيَّةٌ، على أنَّ المعنى: ومِن آياتِه خَلْقُ اللُّغاتِ المُختَلِفةِ الَّتي تَجري على الألسِنةِ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ١١٢).

(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٤).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٠٧).

ومعنى كَونِها توقيفيَّةً: أنَّ الله تعالى هو الَّذي وضَعها، ووقَفَ خَلْقَه عليها. يُنظر الخلافُ في المسألةِ في: ((نفائس الأصول في شرح المحصول)) للقرافي (١/ ٤٤٩)، ((تشنيف المسامع بجمع الجوامع)) للزركشي (١/ ٣٩٣)، ((الغيث الهامع شرح جمع الجوامع)) لأبي زرعة (ص: ١٤٥).

١٦- قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ وجْهُ ذِكرِ النَّومِ والابتغاءِ هاهنا وجَعْلِهما مِن جملةِ الأدِلَّةِ على البَعثِ: أنَّ النَّومَ شَبيهٌ بالموتِ، والتَّصَرُّفَ في الحاجاتِ والسَّعيَ في المكاسِبِ شَبيهٌ بالحياةِ بعدَ الموتِ[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾

- الفاءُ في ﴿فَسُبْحَٰنَ﴾ تَقْتضي اتِّصالَ ما بعْدَها بما قبْلَها، وهي فاءٌ فصيحةٌ، أو عطْفُ تَفريعٍ على ما قبْلَها، وقد كان أوَّلُ الكلامِ قولَه: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الروم: ٨]، والضَّميرُ عائدٌ إلى ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ في قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٦]، والمُرادُ بهم الكُفَّارُ؛ فالتَّفريعُ أو الإفصاحُ ناشِئٌ عن ذلك، فيكونُ المَقصودُ من ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ إنشاءَ تَنْزيهِ اللهِ تعالى عمَّا نَسَبوه إليه مِن العجْزِ عن إحياءِ النَّاسِ بعْدَ مَوتِهم، وإنشاءَ ثَناءٍ عليه. والخِطابُ في ﴿تُمْسُونَ﴾ و﴿تُصْبِحُونَ﴾ تابعٌ للخِطابِ الَّذي قبْلَه في قولِه: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الروم: ١١]، وهو مُوجَّهٌ إلى المشركينَ على طَريقةِ الالْتفاتِ مِن ضَمائرِ الغَيبةِ المُبتدِئةِ مِن قولِه: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ [الروم: ٨] إلى آخِرِها[2].

- قولُه: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ فيه تَقديمُ التَّسبيحِ على التَّحميدِ؛ لِمَا أنَّ التَّخليةَ

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٥).

مُتقدِّمةٌ على التَّحليةِ. والفاءُ لتَرتيبِ ما بعدَها على ما قبْلَها، أي: إذا عَلِمْتُم ذلك فسَبِّحوا اللهَ تعالى تَسبيحَه اللَّائقَ في هذه الأوقاتِ واحْمَدُوه؛ فإنَّ الإخبارَ بثُبوتِ الحمْدِ له تعالى ووُجوبِه على المُميِّزينَ مِن أهلِ السَّمواتِ والأرضِ في معنَى الأمْرِ به على أبلَغِ وجْهٍ وآكَدِه. وتَوسيطُه بينَ أوقاتِ التَّسبيحِ؛ للاعتناءِ بشأْنِه، والإشعارِ بأنَّ حقَّهما أنْ يُجمعَ بينَهما، كما يُنبِئُ عنه قولُه تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر: ٩٨]. وتَخصيصُهما بتلكَ الأوقاتِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ ما يَحدُثُ فيها مِن آياتِ قُدرتِه وأحكامِ رَحمتِه ونِعمتِه، شواهدُ ناطقةٌ بتَنزُّهِه تعالى، واسْتحقاقِه الحمْدَ، ومُوجِبةٌ لِتَسبيحِه وتَحميدِه حتْمًا[1].

- وقيل: إنَّ قولَه: ﴿حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ ﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ ظُروفٌ مُتعلِّقةٌ بما في إنشاءِ التَّنزيهِ مِن مَعنى الفِعلِ، أي: يُنشأُ تَنزيهُ اللهِ في هذه الأوقاتِ، وهي الأجزاءُ الَّتي يَتجزَّأُ الزَّمانُ إليها، والمَقصودُ التَّأبيدُ، كما تقولُ: سُبحانَ اللهِ دَومًا، وسُلِكَ به مَسلَكَ الإطنابِ؛ لأنَّه مُناسِبٌ لمَقامِ الثَّناءِ[2].

- وقيل: تَخْصيصُ التَّسبيحِ بالمساءِ والصَّباحِ؛ لأنَّ آثارَ القُدْرةِ والعظَمةِ فيهما أظهَرُ. وتَخصيصُ الحمْدِ بالعَشِيِّ الَّذي هو آخِرُ النَّهارِ والظَّهيرةِ الَّتي هي وسَطُه؛ لأنَّ تجدُّدَ النِّعَمِ فيهما أكثرُ[3].

وقيل: خصَّ بعضَ الأوقاتِ بالأمرِ بالتَّسبيحِ؛ وذلك لأنَّ أفضلَ الأعمالِ أدومُها[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٤، ٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٦).

- وجُوِّزَ أنْ يكونَ ﴿ فَسُبۡحَٰنَ ﴾ هنا مَصدرًا واقعًا بدلًا عن فِعلِ أمْرٍ بالتَّسبيح، كأنَّه قِيل: فسَبِّحوا اللهَ سُبحانًا. فـ (سُبحان) أمْرٌ بأنْ يَقولوا: سُبحانَ اللهِ، وهو كِنايةٌ عن الصَّلاةِ؛ لأنَّ الصَّلاةَ تَشتمِلُ على قولِ: سُبحانَ ربِّيَ الأعلى وبحَمْدِه. وقولُه: ﴿حِينَ تُمۡسُونَ﴾ إلى آخرِه، إشارةٌ إلى أوقاتِ الصَّلواتِ، وهو يَقْتضي أنْ يكونَ الخِطابُ مُوجَّهًا إلى المؤمنينَ. والمُناسَبةُ مع سابِقِه: أنَّه لَمَّا وعَدَهم بحُسنِ مَصيرِهم، لقَّنَهم شُكرَ نِعمةِ اللهِ بإقامةِ الصَّلاةِ في أجزاءِ اليوم واللَّيلةِ. وهذا التَّفريعُ يُؤذِنُ بأنَّ التَّسبيحَ والتَّحميدَ الواقعَين إنشاءَ ثَناءٍ على اللهِ، كنايةٌ عن الشُّكرِ عن النِّعمةِ؛ لأنَّ التَّصدِّيَ لإنشاءِ الثَّناءِ عقِبَ حُصولِ الإنعامِ أو الوعْدِ به يدُلُّ على أنَّ المادِحَ ما بعَثَه على المدْحِ في ذلك المَقامِ إلَّا قصْدُ الجزاءِ على النِّعمةِ بما في طَوقِه. وليست الصَّلواتُ الخمْسُ وأوقاتُها هي المُرادَ مِن الآيةِ، ولكنْ نُسِجَت على نسْجٍ صالحٍ لشُمولِه الصَّلواتِ الخمْسَ وأوقاتَها، وذلك مِن إعجازِ القرآنِ؛ لأنَّ الصَّلاةَ وإنْ كان فيها تَسبيحٌ ويُطلَقُ عليها السُّبْحةُ، فلا يُطلَقُ عليها: سُبحانَ اللهِ[(١)].

- قولُه: ﴿ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ﴾ فيه تقديمُ الإمساءِ على الإصباحِ، كما قُدِّمَ في قولِه: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ [الحج: ٦١]، والظُّلماتُ على النُّورِ، وقابَلَ بالعَشيِّ الإمساءَ، وبالإظهارِ الإصباحَ؛ لأنَّ كلًّا منهما يُعقَبُ بما يُقابِلُه؛ فالعشِيُّ يَعقُبُه الإمساءُ، والإصباحُ يَعقُبُه الإظهارُ[(٢)].

وقيل: قدَّمَ فِعلَ الإمساءِ على فِعلِ الإصباحِ: إمَّا لأنَّ الاستعمالَ العربيَّ يَعتبِرون فيه اللَّياليَ مَبدأَ عَددِ الأيَّامِ كثيرًا، قال تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾ [سبأ: ١٨]، وإمَّا لأنَّ الكلامَ لَمَّا وقَعَ عقِبَ ذِكرِ الحشرِ من

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٥، ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨١).

قوله: ﴿ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [الروم: ١١]، وذِكْرِ قِيامِ السَّاعةِ؛ ناسَبَ أنْ يكونَ الإمساءُ -وهو آخِرُ اليومِ- خاطِرًا في الذِّهنِ، فقدَّمَ لهم ذِكْرَه[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْنَ الظُّروفِ تُفيدُ أنَّ تَسْبيحَ المؤمنينَ للهِ ليس لِمَنفعةِ اللهِ تعالى، بلْ لِمَنفعةِ المُسبِّحينَ؛ لأنَّ اللهَ مَحمودٌ في السَّمواتِ والأرضِ؛ فهو غَنِيٌّ عن حمْدِنا[٢]. وقيل: اعتِراضٌ، معناه: إنَّ على المُميِّزينَ كلِّهم مِن أهلِ السَّمواتِ والأرضِ أنْ يَحمَدوه[٣].

- وتَقْديمُ المَجْرورِ في ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾؛ لإفادةِ القصْرِ الادِّعائيِّ[٤] لِجنْسِ الحمْدِ على اللهِ تعالى؛ لأنَّ حمْدَه هو الحمْدُ الكاملُ، على نحوِ قولِهم: فلانٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨١).

(٤) القَصرُ أو الحَصرُ -في اصطِلاحِ البلاغيِّينَ: هو تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه، مثل: إنَّما زيدٌ قائمٌ، و: ما ضربتُ إلَّا زيدًا. وينقسمُ إلى قصرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقَصْرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقعِ، بألَّا يَتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثل: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على موصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا من قصرِ الصِّفةِ على الموصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحَقيقيُّ فيه مَبْنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ، بتنزيلِ غَيرِ المذكورِ مَنزلةَ العدَمِ، وقصْرُ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

الشُّجاعُ. ويجوزُ أنْ يكونَ التَّقديمُ للاهتمامِ بضَميرِ الجَلالةِ[(١)].

- قولُه: ﴿وَعَشِيًّا﴾ عطْفٌ على ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾، وتقْديمُه على ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾؛ لمُراعاةِ الفواصلِ. وتغْييرُ الأُسلوبِ؛ لِمَا أنَّ (العَشيَّ) لا يَجيءُ منه الفِعلُ بمعنَى الدُّخولِ في العَشيِّ، كالمساءِ -والفعلُ منه (أمسَى)-، والصَّباحِ -والفعلُ منه (أصبَح)-، والظَّهيرةِ -والفعلُ منه (أظهَر)-، ولعلَّ السِّرَّ في ذلك: أنَّه ليس مِن الأوقاتِ الَّتي تَختلِفُ فيها أحوالُ النَّاسِ وتتغيَّرُ تغيُّرًا ظاهرًا مُصحِّحًا لِوَصفِهم بالخروجِ عمَّا قبْلَها والدُّخولِ فيها كالأوقاتِ المذكورةِ؛ فإنَّ كلًّا منها وقتٌ تَتغيَّرُ فيه الأحوالُ تغيُّرًا ظاهرًا؛ أمَّا في المساءِ والصَّباحِ فظاهرٌ، وأمَّا في الظَّهيرةِ فلأنَّها وقتٌ يُعتادُ فيه التَّجرُّدُ عن الثِّيابِ للقَيلولةِ[(٢)].

٣- قَولُه تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ هذا نوعُ تَفصيلٍ لقولِه تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾[(٣)].

- وجُملةُ ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ بدَلٌ مِن جُملةِ ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [الروم: ١١]. ويجوزُ أيضًا أنْ تكونَ مَوقعَ العلَّةِ لجُملةِ ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ [الروم: ١٧] وما عُطِفَ عليها، أي: هو مُستحِقٌّ للتَّسبيحِ والحمْدِ؛ لِتَصرُّفِه في المخلوقاتِ بالإيجادِ العَجيبِ، وبالإحياءِ بعْدَ الموتِ. واختيرَ مِن تَصرُّفاتِه العظيمةِ تَصرُّفُ الإحياءِ والإماتةِ في الحيوانِ والنَّباتِ؛ لأنَّه تَخلُّصٌ للغرَضِ المقصودِ مِن إثباتِ البعثِ، ردًّا للكلامِ على ما تقدَّمَ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٦، ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٥).

قوله: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [الروم: ١١]؛ فتحصَّلَ مِن ذلك أنَّ الأمْرَ بتَسبيحِه وحمْدِه مَعلولٌ بأمْرَينِ: إيفاءِ حقِّ شُكرِه، المُفادِ بفاءِ التَّفريعِ في قولِه: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ١٧]، وإيفاءِ حقِّ التَّعظيمِ والإجلالِ، والمقصودُ هو إخراجُ الحيِّ مِن الميِّتِ[١].

- وعطْفُ ﴿وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾؛ للاحتِراسِ مِن اقتصارِ قُدرتِه على بعضِ التَّصرُّفاتِ، ولإظهارِ عَجيبِ قُدرتِه أنَّها تَفعَلُ الضِّدَّينِ[٢].

- والإتيانُ بصِيغةِ المُضارِعِ في ﴿يُخۡرِجُ﴾؛ لاستِحضارِ الحالةِ العَجيبةِ؛ فهذا الإخراجُ والإحياءُ آيةٌ عظيمةٌ على استِحقاقِه التَّعظيمَ والإفرادَ بالعِبادةِ؛ إذ أودَعَ هذا النِّظامَ العجيبَ في المَوجوداتِ، فجعَلَ في الشَّيءِ الَّذي لا حَياةَ له قوَّةً وخصائصَ تجْعَلُه يُنتِجُ الأشياءَ الحيَّةَ الثَّابتةَ المُتصرِّفةَ، ويَجعَلُ في تُرابِ الأرضِ قُوًى تُخرِجُ الزَّرعَ والنَّباتَ حيًّا ناميًا[٣].

- والتَّشبيهُ في قولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾ راجعٌ إلى ما يَصلُحُ له مِن المَذكورِ قبْلَه؛ وهو ما فيه إنشاءُ حياةِ شَيءٍ بعْدَ مَوتِه؛ بناءً على أنَّ قولَه: ﴿وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ ليس مَقصودًا مِنَ الاستِدلالِ، ولكنَّه احتراسٌ وتكمِلةٌ. ويجوزُ أنْ يكونَ التَّشبيهُ راجِعًا إلى أقرَبِ مَذكورٍ، وهو إحياءُ الأرضِ بعْدَ مَوتِها، أي: وكإخراجِ النَّباتِ مِن الأرضِ بعْدَ مَوتِه فيها يكونُ إخراجُكم مِن الأرضِ بعْدَ أنْ كنتُم أمْواتًا فيها، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۝ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ [نوح: ١٧، ١٨]. ولا وَجْهَ لاقتِصارِ التَّشبيهِ على الثَّاني

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٦٨).

دونَ الأوَّلِ[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ لَمَّا كان الاستِدلالُ على البَعثِ مُتضمِّنًا آياتٍ على تَفرُّدِه تعالى بالتَّصرُّفِ، ودَلالتِه على الوَحدانيَّةِ؛ انتقَلَ مِن ذلك الاستِدلالِ إلى آياتٍ على ذلك التَّصرُّفِ العظيمِ، غيرَ ما فيه إثباتُ البَعثِ؛ تَثْبيتًا للمؤمنينَ، وإعذارًا لمَن أشْرَكوا في الإلهيَّةِ، وقد سبَقَت سِتُّ آياتٍ على الوَحدانيَّةِ، وابتُدِئَت بكَلمةِ ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ ﴾؛ تنْبيهًا على اتِّحادِ غرَضِها؛ فهذه هي الآيةُ الأُولى، ولها شَبَهٌ بالاستِدلالِ على البَعثِ؛ لأنَّ خلْقَ النَّاسِ مِن تُرابٍ وبثَّ الحياةِ والانتشارَ فيهم، هو ضَربٌ مِن ضُروبِ إخراجِ الحيِّ مِن الميِّتِ؛ فلذلك كانت هي الأُولى في الذِّكرِ؛ لِمُناسَبتِها لِمَا قبْلَها، فجُعِلتْ تخلُّصًا مِن دَلائلِ البَعثِ إلى دَلائلِ عظيمِ القُدرةِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ لَمَّا كان تَمامُ البشريَّةِ يَنشَأُ عن تطوُّرِ التُّرابِ إلى نَباتٍ، ثمَّ إلى نُطفةٍ، ثمَّ إلى أطْوارِ التَّخلُّقِ في أزْمنةٍ مُتتاليةٍ؛ عُطِفَت الجُملةُ بحرْفِ المُهلَةِ (ثُمَّ) الدَّالِّ على تَراخي الزَّمنِ، مع تَراخي الرُّتبةِ الَّذي هو الأصْلُ في عطْفِ الجُمَلِ بحرْفِ (ثم)[٣].

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ صُدِّرَت الجُملةُ بحرْفِ المُفاجأةِ (إذا)؛ لأنَّ الكَونَ بشَرًا يَظهَرُ للنَّاسِ فجْأةً بوضْعِ الأجِنَّةِ، أو خُروجِ الفِراخِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٨، ٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٧٠).

مِن البَيضِ، وما بيْنَ ذلك مِن الأطوارِ التي اقْتَضاها حرْفُ المُهلَةِ هي أطوارٌ خَفيَّةٌ غيرُ مُشاهَدةٍ؛ فكان الجمْعُ بيْن حرْفِ المُهلَةِ وحرْفِ المُفاجأةِ تَنبيهًا على ذلك التَّطوُّرِ العجيبِ. وحصَلَ مِن المُقارَنةِ بيْن حرْفِ المُهلةِ وحرْفِ المُفاجأةِ شِبْهُ الطِّباقِ، وإنْ كان مَرجِعُ كلٍّ مِن الحرفينِ غيرَ مَرجِعِ الآخَرِ[1].

٥- قولُه تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ أُدمِجَ في الاعتِبارِ بهذه الآيةِ امتِنانٌ بنِعمةٍ في هذه الآيةِ أشارَ إليها قولُه: ﴿لَكُم﴾، أي: لأجْلِ نَفْعِكم[2].

- قولُه: ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ ضَمَّنَ السُّكونَ معنى المَيلِ، فعَدَّاه بـ «إلى»؛ إذْ لم يقُلْ: «لِتسكُنوا منها» ولا «عِندَها»، ولكِنْ ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾؛ ولهذا كان الرَّجُلُ مَيَّالًا بطَبعِه إلى المرأةِ وساكِنًا إليها، ولا سيَّما إذا وُفِّقَ لامرأةٍ تكونُ ملائِمةً له؛ فإنَّ هذا يبدو ظاهِرًا جدًّا مِن التَّعليلِ[3].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ تَذْييلٌ مُقرِّرٌ لِمَضمونِ ما قبْلَه، مع التَّنبيهِ على أنَّ ما ذُكِرَ ليس بآيةٍ فذَّةٍ، كما يُنبِئُ عنه قولُه تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ﴾، بلْ هي مُشتمِلةٌ على آياتٍ شَتَّى[4]. وإنَّما جُعِلَ في ذلك آياتٌ كثيرةٌ باعتبارِ اشْتمالِ ذلك الخلْقِ على دَقائقَ كثيرةٍ، مُتولِّدٌ بعضُها عن بعضٍ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٧١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ١٠٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٦).

يُظهِرُها التَّأمُّلُ والتَّدبُّرُ، بحيث يَتجمَّعُ منها آياتٌ كثيرةٌ[1].

- وما في اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مِن مَعنى البُعدِ، مع قُربِ العهْدِ بالمُشارِ إليه؛ للإشعارِ ببُعدِ مَنزلتِه[2].

- وجُعِلَت الآياتُ لقومٍ يَتفكَّرون؛ لأنَّ التَّفكُّرَ والنَّظرَ في تِلك الدَّلائلِ هو الذي يُجْلِي كُنْهَها، ويَزيدُ النَّاظرَ بَصارةً بمَنافعَ أُخرى في ضِمْنِها؛ فالقصْدُ في خلْقِ الأزواجِ السُّكونُ إليها، وإلْقاءُ المَحبَّةِ بيْنَ الزَّوجينِ، ليس لمُجرَّدِ قَضاءِ الشَّهوةِ الَّتي يَشترِكُ فيها البهائمُ، بلْ لِتَكثيرِ النَّسلِ، وبقاءِ نَوعِ المُتفكِّرينَ الَّذين يُؤدِّيهم الفِكرُ إلى المعرفةِ والعِبادةِ الَّتي ما خُلِقَت السَّمواتُ والأرضُ إلَّا لها؛ فناسَبَ ذلك التَّفكُّرُ[3].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾

لَمَّا كان أشرَفُ ما على الأرضِ نَوعَ الإنسانِ، قرَنَ ما في بعضِ أحوالِه من الآياتِ بما في خلْقِ الأرضِ من الآياتِ، وخُصَّ من أحوالِه المُتخالِفةُ؛ لأنَّها أشدُّ عِبرةً؛ إذ كان فيها اختلافٌ بيْن أشياءَ مُتَّحِدةٍ في الماهيَّةِ، ولأنَّ هاته الأحوالَ المُختلِفةَ لهذا النَّوعِ الواحدِ نجِدُ أسبابَ اختلافِها من آثارِ خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ؛ فاختلافُ الألْسنةِ مِن أسبابِه القرارُ بأوطانٍ مُختلِفةٍ مُتباعِدةٍ، واختلافُ الألوانِ مِن أسبابِه اختلافُ الجِهاتِ المَسْكونةِ مِن الأرضِ، واختلافُ مُسامَتةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٦).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧١).

أشعَّةِ الشَّمسِ لها؛ فهي مِن آثارِ خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ. ولذلك فالظَّاهرُ أنَّ المَقصودَ هو آيةُ اختلافِ اللُّغاتِ والألوانِ، وأنَّ ما تَقدَّمَه مِن خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ تَمْهيدٌ له، وإيماءٌ إلى انطواءِ أسبابِ الاختلافِ في أسرارِ خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ. وقد كانتْ هذه الآيةُ مُتعلِّقةً بأحوالٍ عرَضيَّةٍ في الإنسانِ مُلازِمةً له، فبتلك المُلازَمةِ أشْبَهَتِ الأحوالَ الذَّاتيَّةَ المُطلَقةَ، ثمَّ النِّسبيَّةَ؛ فلذلك ذُكِرَت هذه الآيةُ عقِبَ الآيتَينِ السَّابقتَينِ حسَبَ التَّرتيبِ السَّابقِ(١).

- قولُه: ﴿وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡ﴾ إنَّما نُظِمَ هذا في سِلْكِ الآياتِ الآفاقيَّةِ مِن خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، مع كَونِه مِن الآياتِ الأنفُسيَّةِ الحَقيقةِ بالانتظامِ في سِلْكِ ما سبَقَ مِن خَلْقِ أنفُسِهم وأزواجِهم؛ للإيذانِ باستِقلالِه، والاحترازِ عن توهُّمِ كَونِه مِن تَتمَّاتِ خلْقِهم(٢).

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ جُعِلَ في ذلك آياتٌ باعتِبارِ اشْتمالِ ذلك الخلْقِ على دَقائقَ كثيرةٍ، مُتولِّدٌ بعضُها عن بعضٍ(٣).

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ جُعِلتِ الآياتُ للعالِمين -على قِراءةِ كسْرِ اللَّامِ-؛ لكونِ المُنتفعِ بها إنَّما همْ أهْلُ العِلْمِ، كقولِه: ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. وعلى قِراءةِ ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ -بفَتحِ اللَّامِ-؛ جُعِلتْ لهم لأنَّها آيةٌ مَكشوفةٌ للعالَمِ، ويُمكِنُهم الشُّعورُ بآياتِه بمُجرَّدِ الْتفاتِ الذِّهنِ دونَ إمعانِ نظَرٍ، وفيه دَلالةٌ على كَمالِ وُضوحِ الآياتِ، وعدَمِ خَفائِها على أحدٍ مِن الخلْقِ كافَّةً(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٥).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٤)، =

٧- قَولُه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ...﴾ هذا مِن بابِ اللَّفِّ[1]، وتَرتيبُه: ومِن آياتِه مَنامُكم وابتغاؤُكم مِن فضْلِه باللَّيلِ والنَّهارِ، فلَفَّ وضَمَّ بيْن الزَّمانينِ والفِعلينِ بعاطفينِ -وهما الواوانِ-؛ إشعارًا بأنَّ كلًّا مِن الزَّمانينِ وإنِ اختصَّ بأحدِهما فهو صالحٌ للآخَرِ عندَ الحاجةِ، ويُؤيِّدُه سائرُ الآياتِ الواردةِ فيه، خَلَا أنَّه فصَلَ بينَ القرينَينِ الأوَّلَينِ بالقَرينينِ الأخيرَينِ؛ لأنَّهما زمانٌ، والزَّمانُ مع ما وقَعَ فيه كشَيءٍ واحدٍ مع إعادةِ اللَّفِّ على الاتِّحادِ. ويجوزُ أنْ يُرادَ: مَنامُكم في الزَّمانينِ، وابتِغاؤكم فِيهما؛ فعلى هذا لا يكونُ مِن بابِ اللَّفِّ، بلْ مِن المُقابَلةِ؛ فحُذِفَ في إحْدى المُتقابلينِ ما

= ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٢، ٤٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٥).

(١) اللَّف والنَّشْر: هو ذِكرُ شيئين أو أشياءَ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ، أو إجمالًا -بأن يُؤتَى بلفظٍ يشتملُ على متعدِّدٍ- ثم يذكرُ أشياءَ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ من المتقدِّم، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتَى به أوَّلًا. والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ من السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يدخلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنةَ إلَّا النَّصارى، وهذا لفٌّ ونَشْر إجمالي. واللَّفُّ المُفصَّلُ يأتي النَّشرُ اللَّاحقُ له على وجهين؛ الوجه الأوَّل: أنْ يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّف، ويُسَمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ المرتَّبَ». الوجه الثاني: أنْ يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ غيرَ المُرتَّبِ»، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ «اللَّف والنَّشر المُشَوَّش»، أو «المعكوس». يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

يُقابِلُ الآخَرَ؛ لدَلالةِ التَّقابُلِ[١].

- قولُه: ﴿وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓ﴾ الابتغاءُ مِن فضْلِ اللهِ: طَلَبُ الرِّزقِ بالعمَلِ؛ لأنَّ فضْلَ اللهِ الرِّزقُ، وجُعِلَ هذا كِنايةً عن الهُبوبِ إلى العمَلِ؛ لأنَّ الابتغاءَ يَستلزِمُ الهُبوبَ مِن النَّومِ، وذلك آيةٌ أُخرى؛ لأنَّه نَشاطُ القوَّةِ بعْدَ أنْ خارَتَ وفشِلَتْ. ولِكَونِ ابتِغاءِ الرِّزقِ مِن خَصائصِ النَّهارِ، أُطلِقَ هنا، فلم يُقيَّدْ باللَّيلِ والنَّهارِ. ولك أنْ تَجعَلَ عدَمَ تَقْييدِه بمِثْلِ ما قُيِّدَ به مَنامُكم؛ للاستغناءِ بدَلالةِ القَيدِ الَّذي قبْلَه، بتَقديرِ: وابْتغاؤُكم مِن فضْلِه فيهما[٢].

- وقدَّمَ المنامَ باللَّيلِ على الابتِغاءِ بالنَّهارِ في الذِّكرِ؛ لأنَّ الاستراحةَ مَطلوبةٌ لِذاتِها، والطَّلَبَ لا يكونُ إلَّا لحاجةٍ، فلا يبتغي إلَّا محتاجٌ في الحالِ، أو خائِفٌ مِن المآلِ[٣]. أو باعتبارِ أنَّ اللَّيلَ سابقٌ للنَّهارِ.

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ وجْهُ جَعلِ ذلك آياتٍ؛ لِمَا يَنْطوي عليه مِن تَعدُّدِ الدَّلالاتِ بتَعدُّدِ المُستدِلِّينَ، وتَولُّدِ دَقائقِ تلك الآيةِ بعضِها عن بعضٍ[٤].

- وأُجْرِيَت صِفةُ ﴿يَسۡمَعُونَ﴾ على (قوم)؛ للإيماءِ إلى أنَّ السَّمعَ مُتمكِّنٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٢، ٣٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤٩٢، ٤٩٣).

قال ابن عاشور: (وقد تكَلَّف صاحبُ الكشَّافِ فجَعَل الكلامَ مِن قبيلِ اللَّفِّ وَالنَّشْرِ على أنَّ اللَّفَّ وَقَع فيه تفريقٌ، ووَجَّهَه مُحَشِّيه القزوينيُّ بأنَّ التَّقديمَ للاهتمامِ بآيَةِ اللَّيلِ وَالنَّهارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٧).

منهم، حتَّى كأنَّه مِن مُقَوِّماتِ قَوميَّتِهم[١].

- وأيضًا في قولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ﴾ جُعِلَت دَلالاتُ المَنامِ والابتِغاءِ مِن فضْلِ اللهِ لِقَومٍ يسْمَعون؛ لِوَجهينِ: أحدِهما: أنَّ هذينِ حالتانِ مُتعاوِرتانِ على النَّاسِ قد اعْتادُوهما، فقَلَّ مَن يَتدبَّرُ في دَلالتِهما على دَقيقِ صُنْعِ اللهِ تعالى ممَّا يَشعُرُ به صاحبُ النَّومِ مِن أحوالِ نَومِه؛ لأنَّ النَّائمَ لا يَعرِفُ مِن نَومِه إلَّا الاستعدادَ له، وإلَّا أنَّه حِينَ يَهُبُّ مِن نَومِه يَعلَمُ أنَّه كان نائمًا، فأمَّا حالةُ النَّائمِ في حينِ نَومِه، ومِقدارُ تَنَبُّهِه لِمَن يُوقِظُه، وشُعورُه بالأصواتِ الَّتي تقَعُ بقُرْبِه، والأضواءِ الَّتي تَنتشِرُ على بصَرِه، فتُنبِّهُه أو لا تُنبِّهُه؛ كلُّ ذلك لا يَتلقَّاه النَّائمُ إلَّا بطَريقِ الخبَرِ مِن الَّذين يَكونون أيْقاظًا في وقْتِ نَومِه، فطَريقُ العِلْمِ بتَفاصيلِ أحوالِ النَّائمينَ واختلافِها السَّمعُ، وقد يُشاهِدُ المرْءُ حالَ نَومِ غيرِه، إلَّا أنَّ عِبرتَه بنَومِه الخاصِّ به أشَدُّ؛ فطَريقُ السَّمعِ هو أعمُّ الطُّرقِ لِمَعرفةِ تَفاصيلِ أحوالِ النَّومِ؛ فلذلك قِيل: ﴿لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ﴾. وأيضًا لأنَّ النَّومَ يَحولُ دونَ الشُّعورِ بالمَسموعاتِ بادِئَ ذي بَدْءٍ قبْلَ أنْ يَحولَ دونَ الشُّعورِ بالمُبصَراتِ[٢].

- وقيل: إنَّما قال: ﴿لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ﴾؛ لأنَّه لَمَّا كان مِن أفعالِ العِبادةِ قد يُتوهَّمُ أنَّه لا يَحتاجُ إلى مُرشِدٍ، فنُبِّه على السَّماعِ، وجُعِلَ البالُ مِن كلامِ المُرشِدِ[٣]. وقيل: ختَمَها بقولِه: ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ﴾؛ لأنَّ مَن يَسمَعُ سَماعَ تدبُّرٍ أنَّ النَّومَ مِن صُنعِ اللهِ الحكيمِ، لا يُقدَرُ على اجتِلابِه إذا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٧٦، ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٥).

امْتنَعَ، ولا على رفْعِه إذا ورَدَ؛ يَعلَمُ أنَّ له صانعًا مُدبِّرًا[١].

- وقيل: خُصَّ قولُه: ﴿مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ باللَّيلِ ﴿وَٱبۡتِغَآؤُكُم﴾ بالنَّهارِ بالسَّمعِ؛ لأنَّ أكثَرَ النَّاسِ مُنسَدِحون[٢] باللَّيلِ كالأمواتِ، ومُتردِّدون كالبهائم بالنَّهارِ، لا يَدْرون فِيمَ همْ؟ ولِمَ ذلك؟ لكنْ مَن ألْقى السَّمعَ وهو شهيدٌ يَتنبَّهُ لِواعظِ اللهِ ويُصْغي إليه؛ لأنَّ مرَّ اللَّيالي وكرَّ النَّهارِ يُناديانِ بلِسانِ الحالِ: (الرَّحيلَ الرَّحيلَ مِن دارِ الغُرورِ إلى دارِ القرارِ)، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾[٣] [الفرقان: ٦٢].



(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٣).

(٢) السَّدْحُ: الإضْجاعُ، والصَّرْعُ على الوَجْهِ، والإلْقاءُ على الظَّهْرِ، والمنسدحُ: المُسْتَلْقي على ظهرِه، المُفرِّجُ بينَ رِجْلَيْه. يُنظر: ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ٢٢٣)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٦/ ٤٦١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٤٠، ٢٤١).

الآيات (٢٤-٢٧)

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ قَٰنِتُونَ ﴾: أي: مُطيعونَ خاضِعونَ، وأصلُ (قنَت): يدُلُّ على طاعةٍ وخَيرٍ في دِينٍ[1].

﴿ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾: أي: الصِّفةُ العُليا، وهي أنَّه لا إلهَ غيرُه، والمثَلُ يرِدُ بمعنى الصِّفةِ، وأصلُ (مثل): يدُلُّ على مُناظَرةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ومِن العَلاماتِ الدَّالَّةِ على عَظَمةِ اللهِ تعالى وغَيرِها مِن صفاتِه الحسنى: أن يُرِيَكم البَرْقَ؛ فتَخافوا وتَطمَعوا، ويُنزِّلُ اللهُ مِن السَّماءِ مَطَرًا فيُحيي به الأرضَ بعدَ جُدوبِها، إنَّ في ذلك لَعَلاماتٍ لِقَومٍ يَعقِلونَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥ / ٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١١٢) و(٥/ ٢٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩١)، ((الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة)) لابن القيم (٣/ ١٠٣٣).

ومِن العَلاماتِ الدَّالَّةِ على وَحدانيَّته وقُدرتِه تعالى: قيامُ السَّماءِ والأرضِ بقُدرتِه وتَدبيرِه تعالى، ثمَّ إذا دعاكم اللهُ دَعوةً واحِدةً وأنتم موتَى في بَطنِ الأرضِ، إذا أنتم تَخرُجونَ أحياءً مِن قُبورِكم يومَ البَعثِ.

ولله وَحْدَه مَنْ في السَّمواتِ والأرضِ، كلٌّ له سُبحانَه خاضِعونَ مُنقادونَ.

واللهُ هو الذي يَبدأُ إنشاءَ الخَلقِ مِن العَدَمِ، ثمَّ يُعيدُهم بعدَ مَوتِهم فيُحييهم ثانيةً، وإعادةُ الخَلقِ بعدَ مَوتِهم أيسَرُ عليه مِن ابتداءِ خَلْقِهم.

وله وَحْدَه سُبحانَه الوَصفُ الأكمَلُ في السَّمَواتِ والأرضِ، وهو العزيزُ القاهِرُ لخَلقِه، الحَكيمُ في أفعالِه وأقوالِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن ذكَر ما يَعرِضُ للأنفُسِ مِنَ الأوصافِ؛ ذكَر ما يَعرِضُ للأكوانِ والآفاقِ ونُشاهِدُه رأيَ العَينِ الفَيْنةَ بعدَ الفَينةِ، ممَّا فيه العِبرةُ[1].

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

أي: ومِن العَلاماتِ الدَّالَّةِ على عظَمةِ اللهِ تعالى وغَيرِها: أنْ يُبدِيَ لكم البَرْقَ، فتَخافوا وتَطمَعوا[2].

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢١/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٨، ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠).
=

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ [الرعد: ١٢].

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾.

أي: ويُنزِّلُ اللهُ مِن السَّماءِ مَطَرًا، فيُحيي به الأرضَ اليابِسةَ، فتُخرِجُ نباتَها بعدَ جُدوبِها[1].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

= قال ابن عاشور: (المراد: خوفًا تخافونَه، وطَمعًا تَطمعونَه؛ فالمصدران مؤوَّلان بمعنى الإرادةِ، أي: إرادةَ أن تخافوا خَوفًا وتطمَعوا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٩).

واختلفت أقوالُ المفسِّرينَ في المرادِ بالخوفِ والطَّمَعِ هنا على أقوالٍ:

فقيل: المرادُ: خَوفًا للمسافرِ، وطمعًا للمقيم. ومِمَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والزجَّاج، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٢).

ومِمَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٧٥).

وردَّ ابنُ عطيَّةَ هذا المعنى، فقال: (لا وجْهَ لهذا التَّخصيصِ ونحوِه، بل فيه الخَوفُ والطَّمَعُ لكُلِّ بشَرٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٤). وبنحوِه قال ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٣٢).

وقيل: المعنى: تارةً تخافونَ مِمَّا يحدُثُ بعدَه مِن أمطارٍ مُزعِجةٍ، أو صواعِقَ مُتلِفةٍ، وتارةً تَرجونَ وَميضَه وما يأتي بعدَه مِن المطرِ المُحتاجِ إليه. ومِمَّن قال بهذا: ابنُ كثير. وبنحوِه قال البِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٧٣).

قال ابن عاشور: (خَوفًا مِن أن يكونَ اللهُ سَلَّطه عقابًا، وطَمعًا في أن يكونَ أراد به خيرًا للنَّاسِ، فيَطمعونَ في نزولِ المطرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٨).

وقيل: المرادُ: خَوفًا أن يكونَ البرقُ بَرقًا خُلَّبًا لا يُمطِرُ، وطمعًا أن يكونَ مُمطِرًا. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٧٣).

أي: إنَّ في إظهارِ اللهِ لكم البَرْقَ، وإنزالِه المطَرَ، وإحياءِ الأرضِ به: لَعَلاماتٍ يَستَدِلُّ بها القَومُ الَّذين يَعقِلونَ حُجَجَ اللهِ، ومِن ذلك الاستِدلالُ بها على قُدرةِ اللهِ على البَعثِ[١].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان جميعُ ما مضَى مِنَ الآياتِ المرئيَّاتِ ناشِئًا عن هذَينِ الخَلْقَينِ العَظيمَينِ -السَّماءِ والأرضِ- المحيطَينِ بمَن أُنزِلَت عليهم هذه الآياتُ المسموعاتُ؛ بيانًا لِمَن أَشْكَلَ عليه أمرُ الآياتِ المرئيَّاتِ- ذكَرَ أمرًا جامعًا للكُلِّ، وهو مِن الوضوحِ بحيث لا يحتاجُ إلى أكثَرَ مِن العَقلِ المختومِ به ما قَبْلُ، فقال[٢]:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾.

أي: ومِن العلاماتِ الدَّالَّةِ على قُدرةِ اللهِ وغيرِها: قيامُ السَّماءِ والأرضِ بقُدرتِه وتدبيرِه؛ خُضوعًا وطاعةً لأمرِه لها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠).

قيل: المرادُ بقيامِ السَّمَواتِ والأرضِ: استِمساكُها بلا عَمَدٍ، فلا تَسقُطُ السَّماءُ أو الأرضُ. ومِمَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والقرطبي، والبقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠).
=

كما قال تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١].

﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾.

أي: ثمَّ إذا دعاكم اللهُ دَعوةً واحِدةً وأنتم مَوتى في بَطنِ الأرضِ، إذا أنتم سَريعًا تَخرُجونَ أحياءً مِن قُبورِكم يومَ القيامةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢].

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن أقام الأدِلَّةَ على الوحدانيَّةِ وهي الأصلُ الأوَّلُ، وعلى القُدرةِ على الحشرِ وهي الأصلُ الثَّاني- أعقَبَ ذلك بهاتَينِ الآيتَينِ، وجعَلَهما كالنَّتيجةِ لِما

= ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: عبدُ الله بنُ مسعودٍ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤١١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٢).

وقيل: المرادُ أعَمُّ مِن ذلك، فيَشمَلُ القيامَ الحِسِّيَّ والمعنويَّ؛ القيامُ الحِسِّيُّ: بما فيها مِنَ الانتظامِ، وإيداعِها مصالحَ الخَلقِ. والقيامُ المعنويُّ: لأنَّها تَصلُحُ وتقومُ بالعَمَلِ فيها بطاعةِ الله، كما أنَّ المعاصيَ إفسادٌ للأرضِ. قاله ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٣٧، ١٣٨).

قال ابن عثيمين: (... وعلى هذا يكونُ المرادُ بالأمرِ الأمرَ الكونيَّ، والأمرَ الشَّرعيَّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الروم)) (ص: ١٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٢)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٣٠٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٣٨-١٤٠).

سلَف[١].

﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾.

أي: ولله وَحْدَه ملْكُ مَنْ في السَّمَواتِ والأرضِ مِن الملائِكةِ والإنسِ والجِنِّ وجَميعِ المخلوقاتِ؛ فكُلُّهم عَبيدُه ومماليكُه[٢].

﴿ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾.

أي: كُلُّ مَن في السَّمَواتِ والأرضِ مِن خَلْقِ اللهِ خاضِعونَ للهِ وَحْدَه؛ فَهُم له أذِلَّاءُ مَقهورونَ لإرادتِه الكَونيَّةِ، فيَتصَرَّفُ فيهم بما يَشاءُ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢١/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٤١، ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٤، ٤٨٥)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٢١٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٤٢، ١٤٣).

قال ابنُ جرير: (وأَولى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ القَولُ الَّذي ذكَرْناه عن ابنِ عبَّاسٍ: وهو أنَّ كُلَّ مَن في السَّمَواتِ والأرضِ مِن خَلقٍ لله: مُطيعٌ في تصَرُّفِه فيما أراد تعالى ذِكرُه من حياةٍ وموتٍ، وما أشبَهَ ذلك، وإنْ عصاه فيما يَكتسِبُه بقُواه، وفيما له السَّبيلُ إلى اختيارِه، وإيثارِه على خِلافِه). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٤، ٤٨٥).

وقال ابنُ القيِّم: (القنوتُ هنا هو العبوديَّةُ العامَّةُ الَّتي يشتَرِكُ فيها أهلُ السَّمَواتِ والأرضِ، لا يختَصُّ بها بعضُهم عن بعضٍ، ولا يختَصُّ بزَمانٍ دونَ زمانٍ، وهي عبوديَّةُ القَهرِ؛ فالقُنوتُ هنا قُنوتُ قَهرٍ وذُلٍّ، لا قُنوتُ طاعةٍ ومحبَّةٍ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ٢١٥).

وقال ابن كثير: (﴿ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ أي: خاضِعونَ خاشِعونَ، طَوعًا وكَرهًا). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١١).
=

كما قال تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ [آل عمران: ٨٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٧﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

أي: واللهُ هو الَّذي يَبدأُ إنشاءَ الخَلقِ مِن العَدَمِ، ثمَّ يُعيدُهم بعدَ مَوتِهم فيُحييهم ثانيةً[1].

﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾.

أي: وإعادةُ الخَلقِ بعدَ مَوتِهم أيسَرُ[2] ....

= وقال ابنُ عاشور: (ظاهِرُ معنى القُنوتِ: امتِثالُ الأمرِ، فيجوزُ أن يكونَ المعنى: أنَّهم مُنقادون لأمرِه، وإذ قد كان في العُقَلاءِ عُصاةٌ كثيرونَ، تعَيَّنَ تأويلُ القُنوتِ باستعمالِه في الامتِثالِ لأمرِ التَّكوينِ، أو في الشَّهادةِ لله بالوحدانيَّةِ بدَلالةِ الحالِ، وهذا هو المقصودُ هنا... ويجوزُ أن تكونَ جملةُ ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ تكملةً لجُملةِ ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥] على معنى: وله يومَئذٍ مَن في السَّموات والأرض كُلٌّ له قانتونَ، فالقُنوتُ بمعنى الامتثالِ الواقعِ في ذلك اليوم، وهو امتِثالُ الخُضوعِ؛ لأنَّ امتثالَ التَّكليفِ قد انقضى بانقِضاءِ الدُّنيا، أي: لا يَسَعُهم إلَّا الخضوعُ فيما يأمُرُ الله به مِن شأنِهم يومَ تَشهَدُ عليهم ألسِنَتُهم وأيديهم وأرجُلُهم بما كانوا يَعمَلونَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٢، ٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٤٥).

(٢) اختلَف المفسِّرونَ هنا في المرادِ بقَولِه تعالى: ﴿أَهۡوَنُ﴾؛ فقيل: ﴿أَهۡوَنُ﴾ بمعنى: هَيِّن، =

على اللهِ مِن ابتِداءِ خَلْقِهم[١].

عن أبي هُريرةَ رَضيَ الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((قال الله: كَذَّبَني ابنُ آدَمَ ولم يكُنْ له ذلك، وشَتَمَني ولم يكُنْ له ذلك؛ فأمَّا تكذيبُه إيَّايَ فقَولُه: لن يُعيدَني كما بدَأني! وليس أوَّلُ الخَلْقِ بأهْوَنَ علَيَّ مِن إعادتِه. وأمَّا شَتْمُه إيَّايَ فقَولُه: اتَّخَذ اللهُ ولَدًا! وأنا الأحَدُ الصَّمَدُ، لم ألِدْ ولم أُولَدْ، ولم يكُنْ لي كُفْئًا أحَدٌ))[٢].

﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

مُناسبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَر مِن الآياتِ العظيمةِ ما به يَعتبِرُ المُعتَبِرونَ، ويَتذكَّرُ المؤمِنونَ، ويَتبصَّرُ المُهتدونَ؛ ذكَر الأمرَ العظيمَ، والمطلَبَ الكبيرَ، فقال[٣]:

= أي: الإعادةُ هَيِّنةٌ عليه؛ لأنَّه ليس شَيءٌ أهوَنَ على اللهِ مِن شَيءٍ، فالكُلُّ هَيِّنٌ عليه، وهو عندَه سَواءٌ. ومِمَّن قال بذلك: القرطبي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٤٧).

وهذا بِناءً على أنَّ صيغةَ التَّفضيلِ قد تُطلَقُ في القرآنِ واللُّغةِ مرادًا بها الاتِّصافُ، لا تفضيلُ شَيءٍ على شَيءٍ. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٢٥٨ - ٢٦١).

وقيل: هو اسمُ تفضيلٍ، والمرادُ: أهوَنُ عليه باعتبارِ المفهومِ لدى المخاطَبينَ، فمِنَ المتقَرِّرِ لدى النَّاسِ أنَّ إعادةَ الشَّيءِ أسهَلُ مِن ابتدائِه. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي، والسعدي، واستحسنه ابن عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٤٦، ١٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٥ - ٤٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢١، ٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١١، ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٣).

(٢) رواه البخاري (٤٩٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠).

﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾.

أي: واللهُ وَحْدَه هو المُستَحِقُّ للوَصفِ الأكمَلِ في السَّمَواتِ والأرضِ؛ فلا إلهَ إلَّا هو، وليس كمِثْلِه شَيءٌ، وكُلُّ صِفةِ كَمالٍ في المخلوقاتِ فالخالِقُ أحَقُّ بالاتِّصافِ بها على وَجهٍ لا يُشارِكُه فيها أحَدٌ، وكلُّ صِفةِ نَقصٍ في المخلوقِ فتَنزيهُ الخالِقِ عنها أَولى وأحرى، لا يدخُلُ السُّوءُ في أسمائِه، ولا النَّقصُ والعَيبُ في صفاتِه، ولا العَبَثُ والجَورُ في أفعالِه[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٨)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٣٧٦)، ((هداية الحيارى)) لابن القيم (٢/ ٥١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين – سورة الروم)) (ص: ١٤٨).
قال الرسعني: (﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ أي: الوصفُ الأعلى الَّذي لا يُشارَكُ فيه، قد وُصِف به في السَّمواتِ والأرضِ على ألْسِنةِ الخلائقِ وألسِنةِ الدَّلائلِ، وهو أنَّه القادرُ الَّذي لا يُعجِزُه ما شاء منَ الإعادةِ والإنشاءِ وغيرِهما). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٢). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٤).
وقال السعدي: (﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ هو كلُّ صِفةِ كمالٍ، والكمالُ من تلك الصِّفةِ والمحبَّةُ والإنابةُ التَّامَّةُ الكاملةُ في قلوبِ عِبادِه المُخلصينَ والذِّكرُ الجليلُ والعبادةُ منهم؛ فالمثَلُ الأعلى هو وصْفُه الأعلى وما ترتَّبَ عليه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠).
وقال ابن القيِّم: (المثَلُ الأعلى يَتضمَّنُ الصِّفةَ العُليا، وعِلْمَ العالَمينَ بها ووُجودَها العِلميَّ، والخبرَ عنها وذِكْرَها، وعِبادةَ الرَّبِّ سُبحانَه بواسِطةِ العِلمِ والمعرفةِ القائمةِ بقُلوبِ عابِديه وذاكِريه؛ فهاهنا أربعةُ أمورٍ:
ثُبوتُ الصِّفاتِ العُلْيا لله سبحانه في نفْسِ الأمرِ، عَلِمَها العِبادُ أو جَهِلوها. وهذا معنَى قولِ مَن فسَّره بالصِّفةِ.
الثَّاني: وُجودُها في العِلمِ والتَّصوُّرِ. وهذا معنَى قولِ مَن قال مِنَ السَّلفِ والخلَفِ: إنَّه ما في قُلوبِ عابِديه وذاكِريه مِن معرفتِه وذِكرِه ومحبَّتِه وإجلالِه وتعظيمِه، وهذا الَّذي في قلوبِهم مِنَ المثَلِ الأعلى لا يَشترِكُ فيه غيرُه معه، بل يختصُّ به في قلوبِهم، كما اختصَّ في ذاتِه. وهذا معنى قولِ مَن قال مِنَ المفسِّرينَ: أهلُ السَّماءِ يُعَظِّمونه ويُحِبُّونه ويَعبُدونه، وأهلُ الأرضِ =

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

أي: واللهُ ذو العِزَّةِ الكامِلةِ؛ فهو القاهِرُ لخَلقِه فلا يُغالَبُ، المنتَقِمُ مِن أعدائِه فلا يُمانَعُ، وهو الحَكيمُ في أفعالِه وأقوالِه؛ شَرعًا وقَدَرًا، ومِن ذلك حِكمتُه في تدبيرِ خَلْقِه، وتَصريفِهم فيما أرادَه بهم مِن إحياءٍ وإماتةٍ، وبَعثٍ ونُشورٍ[(١)].

= يُعَظِّمونه ويُجِلُّونه وإن أشرَك به مَن أشرَكَ، وعصاه مَن عصاه، وجحَدَ صِفاتِه مَن جحَدَها، فكلُّ أهلِ الأرض مُعَظِّمون له، مُجِلُّون له، خاضِعون لعَظَمتِه، مُستَكينون لِعزَّتِه وجَبَروتِه؛ قال تعالى: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦]، فلستَ تَجِدُ أحدًا مِن أوليائِه وأعدائِه إلَّا واللهُ أكبَرُ في صدرِه وأكمَلُ وأعظَمُ مِن كلِّ سِواه.

الثَّالثُ: ذِكرُ صِفاتِه، والخبَرُ عنها، وتنزيهُها عن النَّقائصِ والعيوبِ والتَّمثيلِ.

الرَّابعُ: محبَّةُ المَوصوفِ بها، وتوحيدُه، والإخلاصُ له، والتَّوكُّلُ عليه، والإنابةُ إليه، وكُلَّما كان الإيمانُ بالصِّفاتِ أكمَلَ كان هذا الحُبُّ والإخلاصُ أقوى.

فعِباراتُ السَّلفِ تَدورُ حوْلَ هذه المعاني الأربعةِ لا تَتجاوَزُها). ((الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة)) (٣/ ١٠٣٤).

وقال ابن عاشور: (وقوله: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ صِفةٌ للمَثَلِ، أو حالٌ منه، أي: كان استِحقاقُه المثَلَ الأعلى مُستقرًّا في السَّمواتِ والأرضِ، أي: في كائناتِ السَّمواتِ والأرضِ، فالمرادُ: أهلُها، على حدِّ: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، أي: هو موصوفٌ بأشرَفِ الصِّفاتِ وأعظَمِ الشُّؤونِ على ألْسِنةِ العُقلاءِ، وهي الملائكةُ والبَشَرُ المُعتَدُّ بعُقولِهم، ولا اعتدادَ بالمُعطِّلينَ منهم لِسَخافةِ عُقولِهم، وفي دَلائلِ الأدِلَّةِ الكائنةِ في السَّمواتِ وفي الأرضِ؛ فكلُّ تلك الأدِلَّةِ شاهِدةٌ بأنَّ لله المثَلَ الأعلى). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٤).

وقال ابن عثيمين: (﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني: عندَ أهلِ السَّمواتِ مِنَ الملائكةِ، وعندَ أهلِ الأرضِ؛ فكُلُّ الفِطَرِ السَّليمةِ تَعترِفُ بأنَّ المثَلَ الأعلى والصِّفةَ العُلْيا لله وحْدَه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ١٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

يتفرَّعُ على إثباتِ الحِكمةِ في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ قَطعُ الاعتِراضِ على الخَلْقِ والشَّرعِ، بمعنى أنَّك لا تَعترضُ على خَلْقِ اللهِ أو على شَرعِه، وإنما تُسَلِّمُ؛ لأنَّك إذا آمَنْتَ بالحِكمةِ وأنَّ اللهَ تعالى حَكيمٌ، فحينَئذٍ يَنقطِعُ الاعتراضُ نهائيًّا، فلا تَقُلْ: «لِمَ؟» ولا «مِن أينَ؟» إلَّا على سَبيلِ الاستِرشادِ[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ في إضافةِ الفِعلِ إلى فاعِلِ ذلك الفِعلِ [وأنَّ ذلك لا يدفعُ فِعلَ الله به، وإرادتَه فيه]، ألا ترى أنَّه قال قبْلَ هذا: ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٩]، ثمَّ قال هاهنا: ﴿إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾، فكيف يُنكِرونَ -وَيْحَهم- أنْ تكونَ أفعالُ المعاصي يَفعلُها العاصون وتُنسَبُ إليهم، ويكونَ محكومًا عليهم بها، جارونَ على محتومِ القَضاءِ عليهم فيها؟! فلا يبقى عليهم عندَ ذلك إلَّا الإقرارُ بعُزوبِ عِلْمِهم عن عَدْلِ عادلٍ لا يضُرُّهم جَهْلُه[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ مَقَرَّ بني آدمَ الأرضُ، ويؤيِّدُ ذلك قولُه تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]، فالمعمولُ في هذه الآيةِ «فيها» و «منها» مُقدَّمٌ، وتقديمُ المعمولِ يدُلُّ على الحصر من هذا الشَّيءِ لا من غيره، إذَنْ فالحياةُ على الكواكبِ متعَذِّرةٌ بالنِّسبةِ لبني آدَمَ، فظاهرُ الآياتِ أنَّ بني آدَمَ خُلِقوا من الأرض،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((النُّكَت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦١٠).

ويُرجَعون إلى الأرض، ويُدْعَون يومَ القيامة مِن الأرض[(١)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الخَلقَ حادِثٌ بعدَ أنْ لم يكُنْ، فيَكونُ في الآية رَدٌّ لِقَولِ الفَلاسِفةِ القائِلينَ بِقِدَمِ العالَم، والصَّوابُ أنَّ العالَمَ حادِثٌ بعدَ أنْ لم يكُنْ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾[(٢)].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ عَقَّبَ بِقَولِه: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ قَولَه: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ مجرَّدُ تَقريبٍ لأفهامِهم، أي: ثَبَت له واستَحَقَّ الشَّأنَ الأتَمَّ الَّذي لا يُقاسُ بشُؤونِ النَّاسِ المُتعارَفةِ، وإنَّما لِقَصدِ التَّقريبِ لأفهامِكم[(٣)].

٥- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ هذا ابتِداءٌ بتوجيهِ الكلامِ إلى المشركينَ لرُجوعِه إلى نَظيرِه المَسوقِ إليهم، وهذا أشبَهُ بالتَّسليمِ الجَدَليِّ في المُناظَرةِ؛ ذلك لأنَّهم لَمَّا اعتَرفوا بأنَّ اللهَ هو بادِئُ خلْقِ الإنسانِ، وأنْكَروا إعادتَه بعدَ الموتِ، واستُدِلَّ عليهم هنالك بقِياسِ المُساواة، ولَمَّا كان إنكارُهم الإعادةَ بعْدَ الموتِ مُتضَمِّنًا تَحديدَ مَفعولِ القُدرةِ الإلهيَّةِ؛ جاء التَّنازُلُ في الاستِدلالِ إلى أنَّ تَحديدَ مَفعولِ القُدرةِ لو سُلِّمَ لهم، لَكان يَقْتضي إمكانَ البعْثِ بقياسِ الأَحْرى؛ فإنَّ إعادةَ المَصْنوعِ مرَّةً ثانيةً أهْوَنُ على الصَّانعِ مِن صَنعتِه الأُولى، وأدخَلُ تحتَ تأثيرِ قُدرتِه فيما تَعارَفَه النَّاسُ في مَقدُوراتِهم[(٤)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٨٣).

٦- الأقْيِسةُ في بابِ صفاتِ اللهِ هي أقيسةُ الأَولى؛ فإنَّ العَبدَ إذا كان هذا الكَمالُ ثابتًا له، فاللهُ الَّذي له المَثَلُ الأعلى أحَقُّ بذلك؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1]، فكُلُّ صِفةِ كَمال في المخلوقاتِ فخالِقُها أحَقُّ بالاتِّصافِ بها على وَجهٍ لا يُشارِكُه فيها أحدٌ، وكُلُّ نَقصٍ في المخلوقِ يُنزَّهُ عنه، فتَنزيهُ الخالِقِ عنه مِن بابِ أَولى وأحرَى[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ قدَّم عرَضيَّاتِ الآفاقِ المُفارِقةِ؛ مِن إراءةِ البرْقِ وإنزالِ المطَرِ على ما هو مِن الأرضِ، وهو الإتيانُ والإحياءُ، كما قدَّمَ السَّمواتِ على الأرضِ، وقدَّمَ البرْقَ على الإنزالِ؛ لأنَّه كالمُبشِّرِ يَجيءُ بيْن يَدَيِ القادمِ[3].

- ومِن بَديعِ الاستِعمالِ تفنُّنُ هذه الآياتِ في التَّعبيرِ عن مَعاني المصدرِ بأنواعِ صِيَغِه الواردةِ في الاستِعمالِ؛ مِن تَعبيرٍ بصِيغةِ صَريحِ المصدرِ تارةً، كقولِه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٢]، وقولِه: ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [الروم: ٢٣]، وبالمَصدرِ الَّذي يَنسَبِكُ مِن اقترانِ (أنْ) المَصدريَّةِ بالفِعلِ الماضي ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [الروم: ٢١]، واقْتِرانِها بالفِعلِ المُضارِعِ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥]، وباسمِ المَصدرِ تارةً ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [الروم: ٢٣]،

(١) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٥/ ١٠٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٥).

ومرَّةً بالفِعلِ المُجرَّدِ المُؤوَّلِ بالمصدرِ ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ ﴾[1] [الروم: ٢٤].

- وفي قولِه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ المَجرورُ ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ مُتعلِّقًا بـ ﴿يُرِيكُمُ ﴾، وتكونَ (مِن) ابتدائيَّةً في مَوضعِ الحالِ من ﴿ٱلْبَرْقَ﴾، وتكونَ جُملةُ ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ مَعطوفةً على جُملةِ ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ [الروم: ٢٣] إلخ، فيَكونَ تَغْييرُ الأُسلوبِ لأنَّ مَناطَ هذه الآيةِ هو تَقْريرُ النَّاسِ بها؛ إذ هي غيرُ مُتَّصِلةٍ بذَواتِهم، فليس حظُّهم منها سِوى مُشاهَدتِها والإقرارِ بأنَّها آيةٌ بيِّنةٌ؛ فهذا التَّقريرُ كالَّذي في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [الرعد: ٢]، ولِيَتأتَّى عطْفُ ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ عليه؛ لأنَّه تَكمِلةٌ لهذه الآيةِ[2].

- وأعقَبَ رُؤيةَ البرْقِ بقولِه: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ لأنَّ نُزولَ المطَرِ ممَّا يَخطُرُ بالبالِ عندَ ذِكْرِ البرْقِ[3].

- وأفرَدَ السَّماءَ والأرضَ؛ لأنَّ السَّماءَ الأُولى والأرضَ الأُولى لا تَقْبَلُ النِّزاعَ؛ لأنَّها مُشاهَدةٌ، مع صلاحيةِ اللَّفظِ بالكلِّ؛ لأنَّه جنسٌ[4].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ جُعِلَت هذه الآيةُ آياتٍ؛ لانطوائِها على دَقائقَ عَظيمةٍ في خلْقِ القُوى الَّتي هي أسبابُ البرْقِ، ونُزولُ المطَرِ، وخروجُ النَّباتِ مِن الأرضِ بعْدَ جَفافِها ومَوتِها[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٨، ٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٩).

- وإنَّما قال هنا: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾؛ لأنَّ البَرقَ والإنزالَ ليس أمْرًا عاديًّا فيُتَوهَّمَ أنَّه طبيعةٌ؛ إذ يقَعُ ذلك ببَلدةٍ دونَ أُخرى، ووقْتًا دونَ وقْتٍ، وقويًّا وضَعيفًا؛ فهو أظْهَرُ في العقْلِ دَلالةً على الفاعلِ المُختارِ، فقال: هو آيةٌ لِمَن عقَلَ بأنْ لم يَتفكَّرْ تفكُّرًا تامًّا[١]. وقيل: قال: ﴿يَعۡقِلُونَ﴾؛ لأنَّها مِن الظُّهورِ بحيث يَكْفي في إدراكِها مُجرَّدُ العقْلِ عندَ استعمالِه في استنباطِ أسْبابِها، وكيفيَّةِ تكوُّنِها[٢]. وقيل: نِيطَ الانتفاعُ بهذه الآياتِ بأصحابِ صِفَةِ العقْلِ؛ لأنَّ العقْلَ المُستقيمَ غيرَ المَشُوبِ بعاهةِ العِنادِ والمُكابَرةِ، كافٍ في فَهْمِ ما في تلك المَذْكوراتِ مِن الدَّلائلِ والحِكَمِ[٣]. وقيل: لأنَّ العقْلَ مَلاكُ الأمْرِ، وهو المُؤدِّي إلى العِلْمِ -فيما ذُكِرَ- وغيرِه[٤].

- وإجْراءُ ﴿يَعۡقِلُونَ﴾ على لفْظِ (قومٍ)؛ للإيماءِ إلى أنَّ العقْلَ مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم[٥].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦ﴾ أي: بإرادتِه تعالى لِقيامِهما، والتَّعبيرُ عنها بالأمْرِ؛ للدَّلالةِ على كَمالِ القُدرةِ، والغِنى عن المَبادئِ والأسبابِ، وعن الآلةِ[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٩).
(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٧).

- قولُه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ خُتِمَت الآياتُ بقِيامِ السَّمواتِ والأرضِ، وذلك مِن العوارضِ اللَّازمةِ؛ فإنَّ كلًّا من السَّماءِ والأرضِ لا يَخرُجُ عن مكانِه، فيُتعجَّبُ مِن وُقوفِ الأرضِ وعدَمِ نُزولِها، ومِن عُلوِّ السَّماءِ وثَباتِها مِن غَيرِ عمَدٍ. ثمَّ أتبَعَ ذلك بالنَّشأةِ الأُخرى، وهي الخروجُ مِن الأرضِ، وذكَرَ تعالى مِن كلِّ بابٍ أمْرَينِ: مِن الأنفُسِ ﴿خَلَقَكُم﴾ ﴿خَلَقَ لَكُم﴾، ومِن الآفاقِ السَّماءَ والأرضَ، ومِن لَوازمِ الإنسانِ اختلافَ الألْسنةِ واختلافَ الألْوانِ، ومِن خواصِّه المَنامَ والابتغاءَ، ومِن عوارضِ الآفاقِ البرْقَ والمطَرَ، ومِن لوازمِه قِيامَ السَّماءِ وقِيامَ الأرضِ(١).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال تعالى هنا: ﴿أَن تَقُومَ﴾، وقال قبْلَه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ [الروم: ٢٤]، ولم يقُلْ: (وأنْ يُريكم)؛ وذلك لأنَّ القِيامَ لَمَّا كان غيرَ مُتغيِّرٍ، أُخرِجَ الفِعلُ بـ (أنْ)، وجُعِلَ في تأْويلِ المَصْدرِ؛ لِيَدُلَّ على الثُّبوتِ، وإراءةُ البَرقِ لَمَّا كانت مِن الأُمورِ المُتجدِّدةِ، لم يُذكَرْ معها ما يدُلُّ على المَصْدرِ(٢).

- قولُه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ حيثُ كانتْ هذه الآيةُ مُتأخِّرةً عن سائرِ الآياتِ المَعدودةِ، مُتَّصِلةً بالبعثِ في الوُجودِ؛ أُخِّرَت عنهنَّ وجُعِلَت مُتَّصِلةً به في الذِّكرِ أيضًا، فقيلَ: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾؛ فإنَّه كَلامٌ مَسوقٌ للإخبارِ بوُقوعِ البَعثِ ووُجودِه بعْدَ انقضاءِ أجَلِ قِيامِهما، مُترتِّبٌ على تَعدادِ آياتِه الدَّالَّةِ عليه، غيرُ مُنتظمٍ في سِلْكِها(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٩٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٢٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٨).

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ عطَفَ هذا على قِيامِ السَّمواتِ والأرضِ بـ (ثمَّ)؛ بَيانًا لِعِظَمِ ما يكونُ مِن ذلك الأمْرِ واقتدارِه على مِثْلِه؛ وهو أنْ يقولَ: يا أهلَ القُبورِ قُوموا، فلا تَبْقى نَسَمةٌ مِن الأوَّلينَ والآخِرينَ إلَّا قامت تَنظُرُ[1].

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ المقصودُ مِن هذه الجُملةِ الاحتِراسُ عمَّا قد يُتوهَّمُ مِن قولِه: ﴿أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ مِن أبَديَّةِ وُجودِ السَّمواتِ والأرضِ؛ فأفادَتِ الجُملةُ أنَّ هذا النِّظامَ الأرضيَّ يَعْتورُه الاختلالُ إذا أراد اللهُ انقضاءَ العالَمِ الأرضيِّ وإحضارَ الخلْقِ إلى الحشْرِ؛ تَسْجيلًا على المشركينَ بإثباتِ البعثِ؛ فمَضمونُ جُملةِ ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ ليس مِن تَمامِ هذه الآيةِ السَّادسةِ، ولكنَّه تكملةٌ وإدماجٌ مُوَجَّهٌ إلى مُنكِري البعثِ[2].

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ المُرادُ تَشبيهُ سُرعةِ ترتُّبِ حُصولِ ذلك على تعلُّقِ إرادتِه بلا توقُّفٍ واحتياجٍ إلى تجشُّمِ عمَلٍ، بسُرعةِ ترتُّبِ إجابةِ الدَّاعي المُطاعِ على دُعائِه، و(ثمَّ) إمَّا لِتَراخي زَمانِه، أو لِعِظَمِ ما فيه[3].

- يجوزُ أنْ يكونَ ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ مُتعلِّقًا بـ﴿تَخْرُجُونَ﴾، قُدِّمَ عليه للاهتِمامِ؛ تَعريضًا بخَطَئِهم؛ إذْ أحالوا أنْ يكونَ لهم خُروجٌ مِن الأرضِ مِن بَعدِ صَيرورتِهم فيها في قولِهم المَحْكيِّ عنهم بقولِه تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٥).

أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة: ١٠]، وقولِهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾[1] [النمل: ٦٧].

- وجيءَ بحرْفِ المُفاجأةِ (إذا) في قولِه: ﴿إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾؛ لإفادةِ سُرعةِ خُروجِهم إلى الحشْرِ، كقولِه: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۞ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]، و(إذا) الفُجائيَّةُ تَقْتَضي أنْ يكونَ ما بعْدَها مُبتدأً. وجيءَ بخَبرِ المُبتدأِ جُملةً فِعليَّةً ﴿تَخْرُجُونَ﴾؛ لإفادةِ التَّقوِّي الحاصلِ مِن تَحمُّلِ الفِعلِ ضَميرَ المُبتدأِ، فكأنَّه أُعيدَ ذِكْرُه. وجيءَ بالمُضارعِ ﴿تَخْرُجُونَ﴾؛ لاستِحضارِ الصُّورةِ العَجيبةِ في ذلك الخُروجِ، كقولِه: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾[2] [يس: ٥١].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾

أَتْبَعَ ذِكْرَ إقامةِ اللهِ تعالى السَّمواتِ والأرضَ بالتَّذكيرِ بأنَّ كلَّ العُقلاءِ في السَّمواتِ والأرضِ عَبيدٌ للهِ تعالى؛ فيَكونُ مِن مُكمِّلاتِ ما تَضمَّنَتْه جُملةُ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥]؛ فعُطِفَت عليها هذه الجُملةُ زيادةً لِبَيانِ معنى إقامتِه السَّماءَ والأرضَ، وهذه الآيةُ أُورِدَت بعْدَ ذِكرِ الآياتِ السِّتِّ إيرادَ الفَذْلَكةِ[3] ....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) الفَذْلكةُ: من فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكَةً، أي: أَنْهاهُ وفَرَغَ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أولًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلَكةُ) كلِمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملة) و (الحوقلة)، من قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذلكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾[البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة =

بإثباتِ الوَحدانيَّة[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: يُعيدُه بعْدَ موتِهم، وتقدَّمَ نَظيرُ صدْرِ هذه الآيةِ في هذه السُّورةِ، وأُعِيدَ هنا لزيادةِ التَّقريرِ، والتَّمهيدِ لِمَا بعْدَه؛ لِيُبْنَى عليه قولُه: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ تكملةً للدَّليلِ؛ إذ لم تُذكَرْ هذه التَّكملةُ هناك؛ فهذا ابتداءٌ بتَوجيهِ الكلامِ إلى المشركينَ؛ لرُجوعِه إلى نَظيرِه المَسوقِ إليهم[٢]. وذكَّرَ الضَّميرَ في قولِه: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ والمرادُ به الإعادةُ -وهي مُؤنَّثةٌ-؛ لأنَّ معناهُ: وأنْ يُعيدَه أهْونُ عليه[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ أُخِّرَت الصِّلةُ في قولِه: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾، وقُدِّمت في قولِه: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم: ٩]؛ ووجْهُه: أنَّ مَقامَ خرْقِ العادةِ في سُورةِ (مَريمَ) اقْتَضى التَّقديمَ، فقيل: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، يعني: كأنَّ العادةَ تأبَى أنْ يَحصُلَ الولدُ بينَ الشَّيخِ الكبيرِ والمرأةِ العاقرِ؛ لِمَا جُرِّبَ وعُلِمَ بالاستقراءِ؛ فقِيلَ: أنا القادرُ وَحْدي أنْ أخْرِقَ العادةَ دونَ غيري، وأمَّا هاهنا فلا معنَى للاختِصاصِ؛ لأنَّ العادةَ حاكمةٌ قاطعةٌ بأنَّ مَن أعاد صَنعةَ شَيءٍ كانت أسهَلَ عليه وأهوَنَ مِن إنْشائِها، لكنَّ الدَّهْريَّ المَخذولَ يُنكِرُ فِعلَه؛

= النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨١، ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٨).

فجِيءَ بالجُملةِ المُفيدةِ لِتَقوِّي الحُكْمِ على مَجْرى العُرْفِ والعادةِ، فلو قُدِّمت الصِّلةُ لَتَغيَّرَ المعنى[(١)].

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ مِن جُملةِ المثَلِ الأعلى عِزَّتُه وحِكمتُه تعالى، وخُصَّا بالذِّكْرِ هنا؛ لأنَّهما الصِّفتانِ اللَّتانِ تَظهَرُ آثارُهما في الغرَضِ المُتحدَّثِ عنه، وهو بَدْءُ الخلْقِ وإعادتُه؛ فالعِزَّةُ تَقْتضي الغِنَى المُطلَقَ، فهي تَقْتضي تَمامَ القُدْرةِ، والحِكمةُ تَقْتضي عُمومَ العِلْمِ، ومِن آثارِ القُدْرةِ والحِكمةِ أنَّه يُعِيدُ الخلْقَ بقُدْرتِه، وأنَّ الغايةَ مِن ذلك الجزاءُ، وهو مِن حِكمتِه[(٢)].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٤).

الآيتان (٢٨-٢٩)

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا قُبحَ الشركِ: مَثَّل اللهُ لكم -أيُّها المُشرِكونَ- مَثَلًا مِن أنفُسِكم يوضِّحُ قُبحَ الشِّركِ وبُطلانَه؛ هل لكم مِن مَماليكِكم شُرَكاءُ فيما رزَقْناكم، فتَستَووا فيه أنتم وهم، تخافونَهم مِنَ التَّصَرُّفِ فيه كما يَخافُ الرَّجُلُ الحُرُّ منكم شَريكَه الحُرَّ في المالِ يكونُ بيْنَهما؟! فإذا لم تَرضَوا لأنفُسِكم بأن يكونَ مماليكُكم شُرَكاءَ لكم في رِزقِكم، فكيف تجعَلونَ لله مِن عَبيدِه شُرَكاءَ في مُلكِه؟! هكذا نُبيِّنُ الآياتِ لِقَومٍ يَعقِلونَ عن اللهِ الأمثالَ فيُوحِّدونَه.

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى أنَّ المشركينَ إنَّما عبَدوا غيرَه سفهًا مِن أنفُسِهم وجهلًا، فيقولُ: بل اتَّبَع هؤلاء المُشرِكونَ أهواءَهم؛ جَهلًا منهم بالحَقِّ، فلا أحدَ يَهدي مَن قدَّر اللهُ إضلالَه بسبَبِ ظُلمِه، وليس لهم مِن ناصِرينَ مِن عذابِ اللهِ.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه تعالى أتْبَعَ ضَرْبَ المَثَلِ لإمكانِ إعادةِ الخَلقِ عَقِبَ دَليلِ بَدْئِه بضَربِ مَثَلٍ لإبطالِ الشِّركِ عَقِبَ دليلَيه المتقَدِّمَين في قَولِه تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ [الروم: ١٩]، وقَولِه: ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ١٩]؛ لِيَنتظِمَ الدَّليلُ على هذينِ الأصلينِ المُهِمَّينِ: أصلِ الوَحدانيَّةِ، وأصلِ البَعثِ، ويَنكَشِفَ بالتَّمثيلِ والتَّقريبِ بعدَ نُهوضِه بدليلِ العَقلِ. والخِطابُ للمُشرِكينَ[١].

وأيضًا: بعدَ أن بَيَّن القُدرةَ على الإعادةِ بإقامةِ الأدِلَّةِ عليها، ثمَّ ضَرَب لذلك مثَلًا- أعقَبَ ذلك بذِكرِ المَثَلِ على الوَحدانيَّةِ بعدَ إقامةِ الدَّليلِ عليها[٢].

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾.

أي: مثَّل اللهُ لكم قُبحَ الشِّركِ وبُطلانَه لأجْلِ إفهامِكم -أيُّها المُشرِكونَ- بمَثَلٍ تَعرِفونَه؛ لِكَونِه مأخوذًا من أحوالِكم[٣].

﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

أي: هل مِن رَقيقِكم الَّذين تَملِكونَهم -مَعْشَرَ المُشرِكينَ الأحرارِ- مَن يُشارِكُكم فيما أعطَيْناكم مِنَ الرِّزقِ، فتكونوا أنتم وهم فيه مُتساوِينَ، تَخافونَهم مِنَ التَّصَرُّفِ فيه كما يَخافُ الرَّجُلُ الحُرُّ منكم شَريكَه الحُرَّ أن يَتصَرَّفَ في مالِهما بشَيءٍ دونَ رِضاه أو إذنِه، أو بما فيه ضَرَرٌ عليه؟! هذا لا يكونُ، فكما لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢١/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٥).

يَرضى أحَدٌ منكم أن يكونَ عَبيدُه شُرَكاءَ له في رِزقِه، فاللهُ لا يَرضى أن يكونَ له شَريكٌ مِن عَبيدِه في عبادتِه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ﴾ [النحل: ٧١].

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾.

أي: مِثْلَ ذلك التَّفصيلِ والتبيينِ نُفَصِّلُ آياتِ القُرآنِ؛ لِيَتبَيَّنَ الحَقُّ لِقَومٍ ذَوي عَقلٍ وفَهمٍ[2].

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه إذا عُلِمَ مِن المثالِ السَّابِقِ أنَّ مَن اتَّخَذَ مِن دُونِ اللهِ شَريكًا يَعبُدُه ويَتوكَّلُ عليه في أمورِه، فإنَّه ليس معه مِنَ الحَقِّ شَيءٌ، فما الَّذي أوجَبَ له الإقدامَ على أمرٍ باطِلٍ وضَحَ له بُطلانُه وظهَرَ بُرهانُه؟ لقد أوجَبَ لهم ذلك اتِّباعُ الهوى؛ فلهذا قال[3]:

---

(١) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٩-٤٩١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٣٥٤، ٣٦٥) و(١/ ١٥٦) و(٣/ ٣٠٢، ٣٠٣)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٣٩٢)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٢، ٣١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٧٩-٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٥٧-١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٦١-١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (١/ ٦٤٠).

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾.

أي: لم يَعقِلْ أولئك الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم بالشِّركِ آياتِ القُرآنِ المُفصَّلةَ، فيتَّبِعوها، وإنَّما اتَّبَعوا أهواءَهم؛ جَهلًا منهم بالحَقِّ، ودونَ برهانٍ لديهم على صِحَّةِ شِركِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

﴿فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾.

أي: فلا أحَدَ يُوفِّقُ لاتِّباعِ الحَقِّ مَن قدَّرَ اللهُ إضلالَه بسَبَبِ ظُلمِه(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

أي: وليس للَّذينَ أضَلَّهم اللهُ مِن ناصِرينَ يُنقِذونَهم مِن عَذابِ اللهِ، أو يَهدونَهم مِن الضَّلالِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٧، ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٦٩).

قال ابن عاشور: (معنى ﴿مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾: مَن قدَّر له الضَّلالَ، وطُبِع على قَلبِه؛ فإسنادُ الإضلالِ إلى اللهِ إسنادٌ لتَكوينِه على ذلك، لا للأمرِ به). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٨٢، ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الحثُّ على طلَبِ العِلمِ، والعَمَلِ به[١]؛ فالجاهِلُ لا يَكُفُّه شَيءٌ، أمَّا العالِمُ فإنَّه إذا اتَّبَع هواه فرُبَّما ردَعَه عِلمُه[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ لَفْتُ انتباهِ الإنسانِ إلى سُؤالِ الهدايةِ مِن رَبِّه دائِمًا، فإذا عَلِمْتَ أنَّه لا أحدَ يَهدي مَن أضَلَّ اللهُ، لا تَلجَأُ في طَلَبِ الهِدايةِ إلَّا إليه، ولا تعتَمِدُ إلَّا عليه، وتسأَلُه دائِمًا الثَّباتَ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- إثباتُ القياسِ، ووجْهُ ذلك ضَربُ المَثَلِ ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾[٤].

٢- قال الله تعالى: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يَحتَجُّ سُبحانَه عليهم بما في عُقولِهم مِن قُبحِ كَونِ مَملوكِ أحَدِهم شَريكًا له، فإذا كان أحَدُكم يَستَقبِحُ أن يكونَ مملوكُه شَريكَه، ولا يَرضى بذلك، فكيف تَجعَلونَ لي مِن عَبيدي شُرَكاءَ تَعبُدونَهم كعِبادتي؟! وهذا يُبَيِّنُ أنَّ قُبحَ عبادةِ غيرِ اللهِ تعالى مُستَقِرٌّ في العُقول والفِطَرِ، والسَّمعُ نَبَّهَ العُقولَ وأرشَدَها إلى مَعرفةِ ما أُودِعَ فيها مِن قُبحِ ذلك[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٣).

(٥) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٥٤).

٣- قال الله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم إن لم يَعمَلوا بمُقتضى ذلك كانوا مجانينَ؛ لأنَّ التَّمثيلَ يَكشِفُ المعانيَ بالتَّصويرِ والتَّشكيلِ كَشفًا لا يَدَعُ لَبسًا، فمَن خَفِيَ عليه لم يكُنْ له تمييزٌ[1].

٤- مُتَّبِعُ الهَوى ليس أهلًا أن يُطاعَ، ولا يكونُ إمامًا ولا مَتبوعًا؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى عَزَلَه عن الإمامةِ، ونَهى عن طاعتِه؛ أمَّا عَزْلُه فإنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى قال لخليلِه إبراهيمَ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، أي: لا ينالُ عهدي بالإمامةِ ظالِمًا، وكُلُّ مَن اتَّبَع هواه فهو ظالمٌ، كما قال الله تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. وأمَّا النَّهيُ عن طاعتِه فلِقَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[2] [الكهف: ٢٨].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿هَل لَّكُم ...﴾ إلخ تَصويرٌ للمثَلِ، وتكرَّرَ (مِن) ثلاثَ مرَّاتٍ في قولِه تعالى: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، و﴿مِّن مَّا مَلَكَتْ﴾، و﴿مِّن شُرَكَاءَ﴾؛ فالأُولى للابتداءِ، كأنَّه قال: أخَذَ مثَلًا وانْتزَعَه مِن أقربِ شَيءٍ منكم، وهي أنفُسُكم، ولم يَبعُدْ، والثَّانيةُ للتَّبعيضِ، والثَّالثةُ مَزيدةٌ مُؤكِّدةٌ لِمَعنى النَّفيِ المُستفادِ مِن الاستفهامِ الإنكاريِّ في قولِه: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٤٧٥).

شُرَكَآءَ ﴾؛ فالجمْعُ بيْنَ هذه الحروفِ في كلامٍ واحدٍ مِن قَبيلِ الجِناسِ[1] التَّامِّ[2].

- وهذا المثَلُ تَشبيهُ هَيئةٍ مُركَّبةٍ بهَيئةٍ مُركَّبةٍ؛ شُبِّهَت الهيئةُ المُنتزَعةُ من زعْمِ المشركينَ أنَّ الأصنامَ شُركاءُ للهِ في التَّصرُّفِ، ودافِعون عن أوليائِهم ما يُرِيدُه اللهُ مِن تسلُّطِ عِقابٍ أو نحْوِه؛ إذ زَعَموا أنَّهم شُفعاؤُهم عندَ اللهِ، وهمْ مع ذلك يَعترِفون بأنَّها مَخلوقةٌ للهِ؛ فإنَّهم يَقولون في تَلبيتِهم: «لبَّيكَ لا شريكَ لك، إلَّا شريكًا هو لك»[3]. هذه الهيئةُ شُبِّهَت بهَيئةِ ناسٍ لهمْ عبيدٌ صاروا شُركاءَ في أرزاقِ سادتِهم شَرِكةً على السَّواءِ، فصار سادتُهم يَحْذَرون إذا أرادوا أنْ يَتصرَّفوا في تلك الأرزاقِ أنْ يكونَ تَصرُّفُهم غيرَ مَرْضيٍّ لِعَبيدِهم، وهذا التَّشبيهُ وإنْ كان مُنصرِفًا لِمَجموعِ المُركَّبِ مِن الهَيئتينِ قد

---

(١) الجناسُ (أو التَّجنيسُ): هو تشابُه لفظينِ في النُّطقِ، واختِلافُهما في المعنى، وهو مِنَ المحاسِنِ اللَّفظيَّةِ، وفنٌّ بديعٌ في اختيارِ الألفاظِ الَّتي تُوهِمُ في البَدْءِ التَّكريرَ، لكنَّها تُفاجِئُ بالتَّأسيسِ واختِلافِ المعنى. ويَنقسِمُ الجِناسُ إلى نوعَينِ: لَفظيٍّ، ومعنويٍّ، وكلٌّ منهما يَندرِجُ تحتَه أنواعٌ. ومِن أنواعِ الجناسِ المعنويِّ: الجِناسُ المصحَّفُ، ويُسمَّى أيضًا جِناسَ الخطِّ: وهو تشابُه اللَّفظَينِ في الكتابةِ مع الاختلافِ في نقطِ الحروفِ؛ مِثلُ: جنَّةٍ وحبَّةٍ، و(يَسْقي) و(يَشفي) في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ * وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴾[الشعراء: ٧٩، ٨٠]. كما يَنقسِمُ إلى: جِناسٍ مماثِلٍ: وهو الجِناسُ التَّامُّ، الَّذي يكونُ اللَّفظانِ المُتشابِهانِ فيه من نوعٍ واحدٍ مِن أنواعِ الكلامِ؛ كاسمَينِ، أو فِعلَينِ. وجِناسٍ مُغايِرٍ «محرَّف»: وهو ما اختلَف فيه اللَّفظانِ في هيئةِ الحُروفِ، واتَّفَقَا في نَوعِها وعدَدِها وترتيبِها. وله فروعٌ أخرى. يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٤٥٠-٤٥٢)، ((الإتقان)) للسيوطي (٥/ ١٧٥٧)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٨٥، ٤٨٨، ٤٩١، ٤٩٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٢٥ وما بعدها).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٥).

(٣) ينظر ما أخرجه مسلم (١١٨٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

بلَغَ غايةَ كَمالِ نَظائرِه؛ إذ هو قابلٌ للتَّفريقِ في أجزاءِ ذلك المُركَّبِ بتَشبيهِ مالِكِ الخلْقِ كلِّهم بالَّذين يَملِكون عَبيدًا، وتَشبيهِ الأصنامِ الَّتي هي مَخلوقةٌ للهِ تعالى بمَماليكِ النَّاسِ، وتَشْبيهِ تَشريكِ الأصنامِ في التَّصرُّفِ مع الخالقِ في مُلْكِه بتَشريكِ العبيدِ في التَّصرُّفِ في أرزاقِ سادتِهم، وتَشْبيهِ زعْمِهم عُدولَ اللهِ عن بعضِ ما يُريدُه في الخلْقِ لأجْلِ تلك الأصنامِ وشفاعتِها؛ بِحَذَرِ أصحابِ الأرزاقِ مِن التَّصرُّفِ في حُظوظِ عَبيدِهم الشُّركاءِ تصرُّفًا يأْبَونَه. فهذه الهيئةُ المُشبَّهُ بها هَيئةٌ قَبيحةٌ مُشَوَّهةٌ في العادةِ لا وُجودَ لأمْثالِها في عُرْفِهم؛ فكانتِ الهيئةُ المُشبَّهةُ مَنْفيَّةً مُنكَرةً، ولذلك أُدخِلَ عليها استفهامُ الإنكارِ والجُحودِ؛ لِيُنتِجَ أنَّ الصُّورةَ المزعومةَ للأصنامِ صُورةٌ باطلةٌ بطَريقِ التَّصويرِ والتَّشكيلِ؛ إبرازًا لذلك المعنى الاعتقاديِّ الباطلِ في الصُّورةِ المَحْسوسةِ المُشوَّهةِ الباطلةِ[1].

- والغرَضُ مِن ذِكرِ التَّمثيلِ تقْبيحُ شأْنِ الشِّركِ، وإبْرازُه في ذِهْنِ السَّامعِ بصُورةٍ يَشمَئِزُّ منها؛ وذلك بأنْ يَتصوَّرَ حالةَ سيِّدٍ له رقيقٌ مُستبدٌّ مُتصرِّفٌ في أموالِه تصرُّفَ الشُّركاءِ مِن غيرِ تَفْصلةٍ، بحيث إنْ أراد السَّيِّدُ التَّصرُّفَ هاب منه[2].

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ﴾ مُستعمَلٌ في الإنكارِ، ومَناطُ الإنكارِ قولُه: ﴿فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ إلى آخرِه، أي: من شُركاءَ لهمْ هذا الشَّأنُ[3].

- قولُه: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ تَحْقيقٌ لِمعنَى الشَّرِكةِ، وبَيانٌ لِكَونِهم وشُركائِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٥).

مُتساوينَ في التَّصرُّفِ فيما ذُكِرَ مِن غيرِ مَزيَّةٍ لهمْ عليها، على أنَّ هناك مَحذوفًا مَعطوفًا على (أنتُم)، لا أنَّه عامٌّ للفريقينِ بطَريقِ التَّغليبِ، أي: هلْ تَرضَون لأنفُسكم -والحالُ أنَّ عبيدَكم أمْثالُكم في البَشَريَّةِ وأحْكامِها- أنْ يُشاركوكم فِيما رَزَقْناكم وهو مُعَارٌ لكم، فأنتم وهمْ فيه سَواءٌ، يَتصرَّفون فيه كتَصرُّفِكم مِن غيرِ فرْقٍ بيْنَكم وبيْنَهم[1]؟!

- وفي ذِكْرِ لفْظِ (قوم) وإجراءِ الصِّفةِ عليه: إيماءٌ إلى أنَّ هذه الآياتِ لا يَنتفعُ بها إلَّا مَن كان العقْلُ مِن مُقوِّماتِ قَوْميَّته[2].

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فيه تخْصيصُ القومِ العاقِلينَ بالذِّكرِ -مع عُمومِ تَفْصيلِ الآياتِ للكلِّ-؛ لأنَّهم المُنتفِعون بها[3]. وقيل: نِيطَ الانتفاعُ بهذه الآياتِ بأصحابِ صِفةِ العقْلِ؛ لأنَّ العقْلَ المُستقيمَ غيرَ المَشُوبِ بعاهةِ العِنادِ والمُكابَرةِ، كافٍ في فَهْمِ ما في تلك المَذْكوراتِ مِن الدَّلائلِ والحِكَمِ[4].

- وأيضًا في إيثارِ وَصْفِ العَقْلِ هنا دونَ غيرِه مِن أوصافِ النَّظرِ والفِكْرِ: تَعريضٌ بالمُتصلِّبينَ في شِرْكِهم بأنَّهم لَيسوا مِن أهلِ العقولِ، ولَيسوا ممَّن يَنتفِعون[5].

- ولَمَّا كان ضَرْبُ الأمثالِ لإدناءِ المُتوهَّمِ إلى المَعقولِ، وإرادةِ المُتخيَّلِ في صُورةِ المُحقَّقِ؛ أتَى في هذه الفاصلةِ بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٩، ٨٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٨٧).

لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾، وكذلك في الآيةِ السَّابقةِ: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾[الروم: ٢٤]؛ لأنَّ ذلك تَمثيلٌ لإحياءِ النَّاسِ، وإنشارِ المَوتى[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾

- في قولِه: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ إضرابٌ إبْطاليٌّ لِمَا تضمَّنَه التَّعريضُ الَّذي في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨]؛ إذ اقْتَضى أنَّ الشَّأنَ أنْ يَنتفِعَ النَّاسُ بمِثْلِ هذا المثَلِ، فيُقلِعَ المشركونَ منهم عن إشْراكِهم ويَلِجُوا حَظيرةَ الإيمانِ، ولكنَّهم اتَّبَعوا أهْواءَهم وما تُسَوِّلُه لهم نُفوسُهم، ولم يَطلُبوا الحَقَّ ويَتفهَّموا دَلائلَه؛ فهُمْ عن العِلْم بمَنأًى؛ فالتَّقديرُ: فما نفَعَتْهمُ الآياتُ المُفصَّلةُ، بلِ اتَّبَعوا أهواءَهم[٢].

- قولُه: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ وَضْعُ المَوصولِ مَوضعَ ضَميرِهم؛ للتَّسجيلِ عليهم بأنَّهم في ذلك الاتِّباعِ ظالِمون، واضِعون للشَّيءِ في غيرِ مَوضعِه، أو ظالِمون لأنفُسِهم بتَعريضِها للعذابِ الخالدِ[٣].

- وتقْييدُ اتِّباعِ الهَوى بأنَّه بغيرِ عِلْمٍ تَشنيعٌ لهذا الاتِّباعِ؛ فإنَّه اتِّباعُ شَهوةٍ مع جَهالةٍ؛ فالجاهلُ يَهيمُ على وجْهِه بلا مُرجِّحٍ -غيرَ المَيلِ كالبَهيمةِ- لا يَرُدُّه شَيءٌ، فإنَّ العالِمَ إذا اتَّبع الهَوى كان مُتحرِّزًا من التَّوغُّلِ في هواهُ؛ لعِلْمِه

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٤٠، ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٩).

بفَسادِه[1].

- والفاءُ في ﴿فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾ للتَّفريعِ، أي: يَترتَّبُ على اتِّباعِهم أهواءَهم بغَيرِ عِلْمٍ انتفاءُ الهُدى عنهم أبدًا. و(مَن) اسمُ استفهامٍ إنكاريٍّ بمَعنى النَّفيِ؛ فيُفيدُ عُمومَ نفْيِ الهادي لهمْ؛ إذِ التَّقديرُ: لا أحَدَ يَهْدي مَن أضَلَّ اللهُ؛ لا غيرُهم ولا أنفُسُهم؛ فإنَّهم مِن عُمومِ ما صَدَق[2] ﴿فَمَن يَهۡدِي﴾[3].

- وقولُه: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ كالتَّتميمِ لِمَعنى إرادةِ الإضلالِ والمنْعِ مِن الهِدايةِ؛ وذلك أنَّه تعالى عَقِيبَ ما عدَّدَ الآياتِ البيِّناتِ والشَّواهدَ الدَّالَّةَ على الوَحدانيَّةِ ونفْيِ الشَّريكِ، وإثباتِ القولِ بالمَعادِ وضرْبِ المثَلِ، وفصَّلَ ذلك بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨]؛ أراد أنْ يُسلِّيَ حبيبَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ويُوطِّنَه على اليأْسِ مِن إيمانِهم، فأضْرَبَ عن ذلك وقال: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾، وجعَلَ السَّببَ في ذلك أنَّه تعالى ما أراد هِدايتَهم، وأنَّه مَختومٌ على قُلوبِهم؛ ولذلك رتَّبَ عليهم قولَه: ﴿فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾ على التَّفريعِ والإنكارِ، ثمَّ ذيَّلَ الكلَّ بقولِه: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾، يعني: إذا أراد اللهُ منهم ذلك لا مُخلِّصَ لهم منه، ولا أحَدَ يُنقِذُهم؛ لا أنتَ ولا غيرُك، فلا تَذْهَبْ نفْسُك عليهم حسَراتٍ، فاهتَمَّ بخاصَّةِ نفْسِك ومَن تَبِعَك، وأقِمْ وجْهَك معهم للدِّينِ حَنيفًا[4].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٦٦، ١٦٧).

(٢) الماصدَق -عند المناطقة-: الأفرادُ الَّتي يتحقَّقُ فيها معنى الكلِّيِّ، ويُقابِلُه: المفهومُ. يُنظر: ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١) و(٢/ ٧٠٤). ويُنظر أيضًا: ((ضوابط المعرفة)) لحبنكة (ص: ٤٥، ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٨).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٤٢).

الآيات (٣٠-٣٢)

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿حَنِيفًا﴾: أي: مُقبِلًا على عبادةِ اللهِ، مائِلًا عن الشِّركِ، والحنفُ: ميلٌ في إبهامَيِ القدَمَينِ، كل واحدةٍ على صاحبتِها، وأصلُ (حنف): يدُلُّ على مَيلٍ[1].

﴿فِطْرَتَ﴾: أي: خِلْقةَ، وأصلُ (فطر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وإبرازِه[2].

﴿ٱلْقَيِّمُ﴾: أي: المُستقيمُ، وأصلُ (قوم): يدُلُّ على انتِصابٍ أو عَزمٍ[3].

﴿مُنِيبِينَ﴾: أي: تائِبينَ راجِعينَ إلى اللهِ مُقْبِلينَ، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١١).

وقيل: إنَّ الحنيفَ هو المستقيمُ مِن كلِّ شيءٍ، والحنفَ: الاستقامةُ، وجعَلوا الرَّجُلَ الَّذي تُقْبِلُ إحدَى قَدَميه على الأُخرى، إنَّما قيل له: أحنَفُ، على جهة التَّفاؤلِ، كما قيل للمَهْلَكةِ من البلادِ: المَفازَةُ، بمعنَى الفوزِ بالنَّجاةِ منها والسَّلامةِ، وكما قِيل لِلَّديغِ: السَّليمُ؛ تَفاؤلًا له بالسَّلامةِ من الهلاكِ، وما أشبَهَ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٩١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٢).

اعتيادِ مكانٍ ورجوعٍ إليه[١].

﴿شِيَعًا﴾: أي: فِرَقًا وأحزابًا مُختَلِفينَ، وأصلُ (شيع): يدُلُّ على مُعاضَدةٍ[٢].

﴿حِزْبِۭ﴾: أي: شيعةٍ وفِرقةٍ، يُقالُ: تحزَّب القومُ: اجتَمَعوا، وأصلُ (حزب): تَجمُّعُ الشَّيءِ[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ مَنصوبٌ على الإغراءِ، أي: الزَموا فِطرةَ اللهِ تعالى.

﴿مُنِيبِينَ﴾ حالٌ مِن الضَّميرِ في (الزَموا) المحذوفِ، وقَولُه: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾، ﴿وَأَقِيمُوا۟﴾، ﴿وَلَا تَكُونُوا۟﴾ مَعطوفٌ على هذا الفِعلِ المحذوفِ. وقيل: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ مَصدرٌ مُؤكِّدٌ لِمَضمونِ الجُملةِ؛ لأنَّ الكَلامَ دلَّ على: فَطَر اللهُ الخَلْقَ فِطرةً، و﴿مُنِيبِينَ﴾ حالٌ مِن الضَّميرِ في (أَقِمْ)، وإنَّما جُمِعَ ﴿مُنِيبِينَ﴾؛ لأنَّه مَردودٌ على المعنى؛ فالخِطابُ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو خِطابٌ لأمَّتِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٨٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٥/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩١).

(٣) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٥)، ((تحفة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٢).

فكأنَّه قيل: أقيموا وُجوهَكم مُنيبينَ إليه[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه -والمؤمنون داخِلونَ في الخِطابِ- أن يَثبُتَ على الحقِّ الَّذي هداه إليه، فيقولُ: فسَدِّدْ وَجْهَك وقَصْدَك كُلَّه -يا مُحمَّدُ- نحوَ جِهةِ الإسلامِ الَّذي شرَعَه اللهُ لك، مُقبِلًا على عبادةِ اللهِ وَحْدَه، مائِلًا عن الشِّركِ، فَطَر اللهُ النَّاسَ على ذلك فِطرةً، لا تغييرَ لدينِ اللهِ، ولا يُخلَقُ الخَلقُ على غيرِ الفِطرةِ.

وإقامةُ الوَجهِ للإسلامِ الَّذي شرَعَه اللهُ هو الدِّينُ الكامِلُ الَّذي لا عِوَجَ فيه ولا نَقصَ، ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ؛ فأقِمْ وَجْهَك -يا مُحمَّدُ- ومَن معك راجِعينَ إلى اللهِ وحْدَه، واتَّقوه بامتِثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نواهيه، وأدُّوا الصَّلَواتِ على وَجهِها التَّامِّ، ولا تكونوا مِنَ المُشرِكينَ؛ مِنَ الَّذين بدَّلوا دينَ اللهِ ففارَقوه وكانوا أحزابًا وفِرَقًا، كُلُّ فِرقةٍ منهم فَرِحونَ مَسرورونَ، يَحسَبونَ أنَّ الصَّوابَ معهم دونَ غَيرِهم!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾.

أي: فانصِبْ -يا محمَّدُ- قَلْبَك وقَصْدَك كُلَّه إلى جِهةِ الإسلامِ الَّذي شَرَعه اللهُ لك، واستَمِرَّ عليه، واجتَهِدْ في طَلَبِه واتِّباعِه، مُقبِلًا على عبادةِ اللهِ وَحْدَه،

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٤٧٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٨٥)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٥٦١)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٩٤٩)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ١٠٤٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤٤)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٤٠).

مائِلًا عن الشِّركِ وعن جميعِ الأديانِ الباطِلةِ، والفِرَقِ المُبتَدِعةِ[١].

كما قال تعالى حاكيًا دُعاءَ نَبيِّه إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾.

أي: دينَ اللهِ[٢]: الإسلامَ الَّذي خلَق جميعَ الناسِ مُهَيَّئِينَ لِمَعرفتِه وقَبولِه، والتَّصديقِ والإقرارِ بعَقائدِه، والانقيادِ إليه، والعَمَلِ بأحكامِه، وقد جعَل الله تعاليمَه مُناسِبةً لِخلقتِهم، غيرَ مُخالِفةٍ لها[٣].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٦)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٥/ ١٨٠)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٧٣-١٧٥).
قال الشوكاني: (هذا الخِطابُ وإن كان خاصًّا برَسولِ اللهِ، فأُمَّتُه داخِلةٌ معه فيه. قال القرطبي: باتِّفاقٍ مِن أهلِ التَّأويلِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٥٨). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٧٤، ١٧٥).

(٢) قيل: المعنى: اتَّبِعْ فِطرةَ اللهِ؛ لأنَّ معنى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾: اتَّبِعِ الدِّينَ، واتَّبِعْ فِطرةَ الله. وقيل: هي مصدرٌ مِن معنى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾؛ لأنَّ معنى ذلك: فطَرَ اللهُ النَّاسَ على الدِّينِ. وقيل: المعنى: الزَموا فِطرةَ الله، أو عليكم فِطرةَ الله. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٣)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٤/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٩ - ٩٢).
قال ابنُ عبد البَرِّ: (أجمَعوا في قَولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ على أنْ قالوا: فِطرةُ الله: دِينُ اللهِ؛ الإسلامُ). ((التمهيد)) (١٨/ ٧٢).

مِن مَولودٍ إلَّا يُولَدُ على الفِطْرةِ، فأبَواه يُهَوِّدانِه ويُنَصِّرانِه أو يُمَجِّسانِه، كما تُنتَجُ البَهيمةُ بَهيمةً جَمعاءَ[١]، هل تُحِسُّونَ فيها مِن جَدْعاءَ[٢]؟! ثمَّ يقولُ أبو هُريرةَ رَضيَ الله عنه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾))[٣].

وعن عِياضِ بنِ حِمارٍ المُجاشِعيِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى الله عليه وسلَّم قال ذاتَ يومٍ في خُطبتِه: ((ألَا إنَّ رَبِّي أمَرَني أنْ أُعَلِّمَكم ما جَهِلْتُم ممَّا عَلَّمَني يَومي هذا: كُلُّ مالٍ نَحَلْتُه[٤] عَبدًا حَلالٌ، وإنِّي خَلَقْتُ عِبادي حُنَفاءَ كُلَّهم، وإنَّهم أتَتْهم الشَّياطينُ فاجتالَتْهم[٥] عن دينِهم، وحرَّمتْ عليهم ما أحلَلْتُ لهم، وأمَرَتْهم أن يُشرِكوا بي ما لم أُنَزِّلْ به سُلْطانًا))[٦].

﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾.

أي: لا يُخلَقُ الخَلْقُ على غيرِ الفطرةِ؛ فاللهُ تعالى سَوَّى بينَ جَميعِ خَلْقِه في الفِطرةِ على الجِبِلَّةِ المُستَقيمةِ والتهَيُّؤِ لِقَبولِ دينِه، لا يُولَدُ أحدٌ إلَّا على ذلك[٧].

---

(١) الجَمعاءُ مِن البهائِمِ: الَّتي لم يذهَبْ مِن بدَنِها شَيءٌ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٠/ ٤٥٩).

(٢) جَدْعاءَ: أي: مقطوعةَ الأطرافِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٤٧).

(٣) رواه البخاري (١٣٥٩) واللفظ له، ومسلم (٢٦٥٨).

(٤) نحَلْتُه: أعطَيْتُه، والنِّحْلةُ: العَطيَّةُ. يُنظر: ((المفهم لما أَشْكَل من تلخيص كتاب مسلم)) للمازَري (٦/ ٧١١).

(٥) فاجْتَالَتْهم: أي: استخَفَّتْهم فجالوا معهم في الضَّلال؛ يُقال: جالَ واجتالَ: إذا ذهَب وجاءَ، ومنه الجَوَلانُ في الحَربِ، واجتالَ الشَّيءَ: إذا ذَهَب به وساقَه، والجائلُ: الزَّائلُ عن مَكانِه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣١٧).

(٦) رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٧) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٤٢٤، ٤٢٥)، ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ١٠٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤١). =

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾.

أي: إقامةُ الوَجهِ للإسلامِ الَّذي شَرَعَه اللهُ بلا تَغييرٍ، وطاعةُ اللهِ بلا شِركٍ: هو الدِّينُ الكامِلُ الَّذي لا عِوَجَ فيه ولا نَقْصَ؛ فهو الطَّريقُ المُستَقيمُ السَّالِمُ مِن الانحِرافاتِ والضَّلالاتِ، الموصِلُ إلى اللهِ ورِضوانِه وجَنَّتِه[1].

= ومِمَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، وابنُ تيميَّة، وابن القيم، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ: لا تُبَدِّلوا دينَ اللهِ الَّذي فَطَر عليه عبادَه، فتكونُ الجملةُ خَبرًا بمعنى النَّهي. ومِمَّن ذهب إليه: ابنُ جرير، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعليمي، واستحسنه ابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٤)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٩١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٣٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٤). ويُنظر أيضًا: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٣).

قال الثعلبي: (﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾ لِدينِ الله، أي: لا يَصلُحُ ذلك، ولا ينبغي أن يُفعلَ، ظاهِرُه نفْيٌ، ومعناه نهْيٌ، هذا قولُ أكثَرِ العلماءِ والمفسِّرينَ). ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٣٠١).

وقيل: المرادُ: أنَّ الإسلامَ هو الدِّينُ الحَنيفُ الَّذي ليس فيه تبديلٌ لِخلقِ الله، بخلافِ دينِ أهلِ الشِّركِ، كما قال تعالى عن الشَّيطانِ: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِ﴾[النساء: ١١٩]. ومِمَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٣).

وقيل: المرادُ: لا أحَدَ يَستطيعُ أن يغَيِّرَ ما خَلَق اللهُ، ولا يجوزُ لأحدٍ أن يُغَيِّرَ هذه الفِطرةَ الَّتي خُلِقَ النَّاسُ عليها؛ مِن الإخلاصِ إلى الشِّركِ. ومِمَّن قال بهذا: ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٨٤).

قال البقاعي: (لا يَقدِرُ أحدٌ أن يجعلَ طِفلًا في أوَّلِ أمرِه خَبيثَ الفِطرةِ لا يَنقادُ لِما يُقادُ إليه، ولا يَستسلِمُ لِمن يُربِّيه، وكُلَّما كَبِرَ وطَعَن في السِّنِّ رجَع لِما طُبِعَ عليه مِن كُفرٍ أو إيمانٍ، أو طاعةٍ أو عصيانٍ، أو نُكرٍ أو عِرفانٍ، قليلًا قليلًا، حتَّى يَنساقَ إلى ذلك عندَ البُلوغِ أو بعدَه). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٨٨، ٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٣، ٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٨١).

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ الدِّينَ الحَقَّ، فهم يُشرِكونَ باللهِ، ويتَّبِعونَ غيرَ ما شَرَعه اللهُ[1].

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾.

أي: راجِعينَ إلى اللهِ وَحْدَه؛ مِنَ الشِّركِ إلى التَّوحيدِ، ومِنَ المَعصيةِ إلى الطَّاعةِ، ومِنَ البِدَعِ والضَّلالاتِ إلى التَّمَسُّكِ بالشَّرعِ[2].

﴿وَٱتَّقُوهُ﴾.

أي: واجعَلوا بيْنَكم وبينَ سَخَطِ اللهِ وعَذابِه حاجِزًا؛ بامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه[3].

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

أي: وأدُّوا الصَّلَواتِ على وَجْهِها التَّامِّ؛ بالمحافَظةِ على أركانِها وواجِباتِها، وغَيرِ ذلك[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٤)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٨٧).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٦)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٤/ ١٩٢، ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤١). =



﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

أي: ولا تكونوا ممَّن يَدخُلُ في عِدادِ المُشرِكينَ بأن تَعمَلوا بمِثلِ ما يَعمَلونَ[١].

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾.

أي: لا تكونوا مِنَ المُشركينَ الَّذين بدَّلوا دينَ اللهِ الَّذي فطَرَ العِبادَ عليه، وشَرَعَه لهم، فلم يَلتَزِموا به مِثْلَما أمَرَهم رَبُّهم[٢].

= قال ابنُ عثيمين: (إقامتُها على نوعَين: إقامةٌ واجِبةٌ لا بُدَّ لِصِحَّةِ الصَّلاةِ منها، وذلك الإتيانُ بالشُّروطِ والأركانِ والواجباتِ. وإقامةٌ مُكَمِّلةٌ، وهي إضافةُ المُستحَبَّاتِ إلى ما ذُكِرَ... ومِن إقامتِها المُكَمِّلةِ أن يأتيَ الإنسانُ بالنَّوافِلِ؛ لأنَّ النَّوافِلَ صلاةُ تَطوُّعٍ تُكَمَّلُ بها الفرائِضُ يومَ القيامةِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٨٧، ١٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٩٠).

قال البقاعي: (هو عامٌّ في كُلِّ شِركٍ؛ سواءٌ كان بعبادةِ صَنَمٍ أو نارٍ أو غيرِهما، أو بالتَّدَيُّنِ بما يخالِفُ النُّصوصَ مِن أقوالِ الأحبارِ والرُّهبانِ وغيرِ ذلك). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٦).

قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾: أنَّهم فارَقوا الدِّينَ الصَّحيحَ، والفِطرةَ السَّليمةَ، وكانوا أحزابًا وفِرَقًا، كُلٌّ منهم يَعبُدُ شيئًا، ويَدينُ بدينٍ مُختَلِفٍ؛ كاليهودِ والنَّصارى. ومِمَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والبِقاعي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٨٩، ١٩٠).

وقال ابنُ كثير: (أي: لا تكونوا من المشركينَ الَّذين قد فَرَّقوا دينَهم، أي: بدَّلوه وغَيَّروه، وآمَنوا ببعضٍ وكَفَروا ببعضٍ.

وقرأ بعضُهم: ﴿فَارَقُوا دِينَهُمْ﴾ أي: تَركوه وراءَ ظُهورِهم، وهؤلاء كاليهودِ والنَّصارى، والمجوسِ وعَبَدةِ الأوثانِ، وسائِرِ أهلِ الأديانِ الباطلةِ، ممَّا عدا أهلَ الإسلامِ، كما قال تعالى: =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ [النساء: ١١٥].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((تفرَّقَت اليَهودُ على إحدى وسَبعينَ أو اثنتَينِ وسَبعينَ فِرقةً، والنَّصارى مِثلَ ذلك، وتفتَرِقُ أُمَّتي على ثلاثٍ وسَبعينَ فِرقةً))(١).

= ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩]؛ فأهلُ الأديانِ قَبْلَنا اختلَفوا فيما بيْنَهم على آراءٍ ومِلَلٍ باطلةٍ، وكُلُّ فرقةٍ منهم تزعُمُ أنَّهم على شَيءٍ، وهذه الأمَّةُ أيضًا اختلَفوا فيما بيْنَهم على نِحَلٍ كُلُّها ضلالةٌ إلَّا واحدةً، وهم أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ، المتمَسِّكونَ بكتابِ الله وسُنَّةِ رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وبما كان عليه الصَّدرُ الأوَّلُ من الصَّحابةِ والتَّابعينَ، وأئمَّةِ المسلِمينَ في قديمِ الدَّهرِ وحَديثِه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٦).

وقال الأزهري بعدَ أنْ ذكَر أنَّ قراءةَ ﴿فَارَقُوا﴾ قرأ بها حمزةُ والكسائيُّ، وقراءةَ ﴿فَرَّقُوا۟﴾ بغيرِ ألفٍ قرأ بها الباقونَ، قال: (مَنْ قَرَأَ ﴿فَارَقُوا دِينَهُمْ﴾ ففيه قولانِ:

أحدهما: أنَّهم تركوا دينَهم وفارقوه، فلم يَدُوموا عليه.

والقولُ الثاني: أن ﴿فَارَقُوا﴾ و﴿فَرَّقُوا۟﴾ بمعنى واحدٍ، كما يُقالُ: ضَعَّفَ وضاعف، وعالى وعَلَّى، وصاعَر وصعَّر، ومعناهما: اختلافُهم في دينِهم وتفرُّقُهم فيه، ويُقوِّي هذا القولَ قولُه: ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾، أي: فِرَقًا شَتَّى). ((معاني القراءات)) (١/ ٣٩٦). ويُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٦).

(١) أخرجه أبو داود (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٤٠) واللفظ له، وابن ماجه (٣٩٩١)، وأحمد (٨٣٩٦). قال الترمذي: حسَنٌ صحيحٌ. وكذا قال الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٦٤٠). وقال =

﴿وَكَانُواْ شِيَعٗا﴾.

أي: وكانوا فِرَقًا وأحزابًا، كُلُّ فِرقةٍ مِنهم تألَّفَت وتحالَفَت وتعَصَّبَت على نَصرِ ما معها مِن الباطِلِ، ومُنابَذةِ ومُحاربةِ مَن خالَفَها[1].

﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾.

أي: أتْباعُ كُلِّ طائفةٍ وفِرقةٍ منهم مُبتَهِجونَ ومُعجَبونَ بما تحالَفوا وتآلَفوا عليه مِنَ الضَّلالاتِ، يَحسَبونَ أنَّهم على الحَقِّ دونَ غَيرِهم[2]!

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ * فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٢ - ٥٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ [فاطر: ٨].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- يأمُرُ اللهُ تعالى بالإخلاصِ له في جميعِ الأحوالِ، وإقامةِ دينِه، في قَولِه تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ﴾، أي: انصِبْه ووَجِّهْه إلى الدِّينِ الَّذي هو الإسلامُ والإيمانُ والإحسانُ؛ بأن تَتوجَّهَ بقَلبِك وقَصْدِك وبَدَنِك إلى إقامةِ شرائعِ الدِّينِ

= الشوكاني في ((الفتح الرباني)) (١/ ٢٠٦): رجالُه رجالُ الصَّحيحِ. وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٦/ ١٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٩٠، ٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٦).

الظَّاهِرةِ، كالصَّلاةِ، والزَّكاةِ، والصَّومِ والحَجِّ، ونحوِها؛ وشرائِعِه الباطِنةِ، كالمحَبَّةِ والخَوفِ، والرَّجاءِ، والإنابةِ؛ والإحسانِ في الشَّرائعِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ، بأن تَعبُدَ اللهَ فيها كأنَّك تَراه، فإنْ لم تكُنْ تَراه فإنَّه يَراك[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ هذا تَفسيرٌ لإقامةِ الوَجهِ للدِّينِ؛ فإنَّ الإنابةَ إنابةُ القَلبِ، وانجذابُ دَواعيه لِمَراضي اللهِ تعالى، ويَلزَمُ مِن ذلك حمْلُ البَدَنِ بمُقتَضى ما في القَلبِ، فشَمِلَ ذلك العباداتِ الظَّاهِرةَ والباطِنةَ، ولا يَتِمُّ ذلك إلَّا بتَركِ المعاصي الظَّاهِرةِ والباطِنةِ؛ فلذلك قال: ﴿وَاتَّقُوهُ﴾، فهذا يَشملُ فِعلَ المأموراتِ، وتَرْكَ المَنهيَّاتِ. وخَصَّ مِن المأموراتِ الصَّلاةَ؛ لِكَونِها تدعو إلى الإنابةِ والتَّقْوى؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ فهذا إعانتُها على التَّقْوى، ثمَّ قال: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ فهذا حَثُّها على الإنابةِ، وخَصَّ مِن المَنهيَّاتِ أصْلَها، والَّذي لا يُقبَلُ معه عَمَلٌ، وهو الشِّركُ، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ لِكَونِ الشِّركِ مُضادًّا للإنابةِ الَّتي رُوحُها الإخلاصُ مِن كُلِّ وَجهٍ[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ﴾ أي: خافوا أن تَزيغوا عن سَبيلِه تعالى، فإذا خِفتُموه فلَزِمتُموها كُنتُم ممَّن تخلَّى عن الرَّذائِلِ، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ تَصيروا ممَّن تحلَّى بالفَضائِلِ، وهكذا دأبُ الدِّينِ أبدًا: تخليةٌ ثمَّ تحليةٌ؛ أوَّلُ الدُّخولِ إلى الإسلامِ التَّنزيهُ، وأوَّلُ الدُّخولِ في القُرآنِ الاستعاذةُ، وهو أمرٌ ظاهِرٌ مَعقولٌ، مِثالُه: مَن أراد أن يكتُبَ في شَيءٍ إن مَسَح ما فيه مِنَ الكتابةِ انتَفَع بما كَتَب، وإلَّا

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أفسَدَ الأوَّلَ ولم يُقرَأِ الثَّاني. واللهُ الموَفِّقُ[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ في هذا تحذيرٌ للمُسلِمينَ مِن تَشَتُّتِهم وتفَرُّقِهم فِرَقًا، كُلُّ فَريقٍ يتعَصَّبُ لِما معه مِن حَقٍّ وباطِلٍ، فيَكونونَ مُشابِهينَ بذلك للمُشرِكينَ في التَّفَرُّقِ، بل الدِّينُ واحِدٌ، والرَّسولُ واحِدٌ، والإلهُ واحِدٌ.

وأكثرُ الأمورِ الدِّينيَّةِ وَقَع فيها الإجماعُ بينَ العلماءِ والأئمَّةِ، والأُخُوَّةُ الإيمانيَّةُ قد عَقَدها اللهُ ورَبَطها أتمَّ رَبطٍ، فما بالُ ذلك كُلِّه يُلْغَى ويُبْنَى التَّفرُّقُ والشِّقاقُ بيْن المُسلِمينَ على مَسائِلَ خَفيَّةٍ أو فُروعٍ خِلافيَّةٍ يُضَلِّلُ بها بَعضُهم بعضًا، ويتميَّزُ بها بعضُهم عن بعضٍ؟! فهل هذا إلَّا مِن أكبَرِ نَزَغاتِ الشَّيطانِ وأعظَمِ مَقاصِدِه الَّتي كاد بها للمُسلِمينَ؟ وهل السَّعيُ في جَمعِ كَلِمتِهم، وإزالةِ ما بيْنَهم مِنَ الشِّقاقِ المَبنيِّ على ذلك الأصلِ الباطِلِ إلَّا مِن أفضَلِ الجهادِ في سَبيلِ اللهِ، وأفضَلِ الأعمالِ المقَرِّبةِ إلى اللهِ[٢]؟!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ بَيَّن سُبحانَه أنَّ إقامةَ الوَجهِ -وهو إخلاصُ القَصْدِ، وبَذْلُ الوُسْعِ لدينِه، المُتضَمِّنُ محبَّتَه وعبادتَه، حنيفًا مُقْبِلًا عليه، مُعرِضًا عمَّا سِواه- هو فِطرتُه الَّتي فَطَرَ عليها عبادَه، فلو خُلُّوا ودواعيَ فِطَرِهم لَمَا رَغِبوا عن ذلك، ولا اختاروا سِواه، ولكنْ غُيِّرَتِ الفِطَرُ وأُفسِدَتْ، كما قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما مِن مَولودٍ إلَّا يُولَدُ على الفِطرةِ، فأبَواه يُهوِّدانِه أو يُنصِّرانِه أو يُمجِّسانِه،

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠).

كما تُنْتَجُ البَهيمةُ بهيمةً جَمعَاءَ، هل تُحِسُّونَ فيها مِن جَدْعَاءَ؟! ثمَّ يقولُ أبو هريرةَ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ﴾))[1].

٢- سَبَبُ الاجتِماعِ والأُلْفةِ جمْعُ الدِّينِ، والعَمَلُ به كُلِّه، وهو عِبادةُ اللهِ وَحْدَه لا شَريكَ له كما أمَرَ به، باطِنًا وظاهِرًا، وسَبَبُ الفُرقةِ: تَرْكُ حَظٍّ ممَّا أُمِرَ العبدُ به، والبَغيُ بيْنَهم؛ قال اللهُ تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أنَّ هذا الدِّينَ المَبنيَّ على الإخلاصِ اجتَمَعَ فيه الشَّرعُ والفِطرةُ؛ أمَّا الشَّرعُ فلأنَّه أُمِرَ به، وأمَّا الفِطرةُ فلأنَّ النَّاسَ خُلِقوا عليها وجُبِلوا عليها، ولولا ما يَحصُلُ مِن الموانعِ والعَوارِضِ لِبَني آدمَ لَكانَ النَّاسُ كلُّهم مُؤمِنينَ على الفِطرةِ، كما جاء في الحَديثِ: ((فأبواه يُهَوِّدانِه أو يُنَصِّرانِه أو يُمَجِّسانِه))[3].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أنَّ التَّفَرُّقَ والاختِلافَ يُوجِبُ الشِّركَ، ويُنافي حقيقةَ التَّوحيدِ الَّذي

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٨٧).
والحديث تقدَّم تخريجُه.

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ١٨٤).
والحديث تقدَّم تخريجُه.

هو إخلاصُ الدِّينِ كلِّه لله[١]، فالتَّوحيدُ أبدًا قرينُ الاجتماع؛ لأنَّ الاجتماعَ فيه الوحدةُ. والتَّفرُّقُ لا بُدَّ فيه مِن التَّثنيةِ والتَّعدُّدِ، كما أنَّ الإشراكَ مَقرونٌ بالتَّفرُّقِ[٢].

٥- القَلبُ إنْ لم يكُنْ حَنيفًا مُقبِلًا على الله مُعرِضًا عمَّا سِواه، وإلَّا كان مُشرِكًا؛ قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾[٣].

٦- قَولُه تعالى: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ كُلَّ مَولودٍ يُولَدُ على الفِطرةِ، أخرج الشَّيخانِ عن أبي هُريرةَ قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما مِن مَولودٍ يُولَدُ إلَّا على الفِطرةِ))، ثمَّ يقولُ [أي: أبو هُريرةَ]: اقرَؤوا: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾[٤].

٧- إنَّ أقْوَمَ الأديانِ ما بُنِيَ على الإخلاصِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾، فالمُشارُ إليه هو ما سَبَق مِن الفِطرةِ الَّتي فَطَرَ النَّاسَ عليها، وهي الَّتي أمَرَ اللهُ بها في قَولِه تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا﴾[٥].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ أكثَرَ النَّاسِ في هذا البابِ على جَهلٍ وضَلالٍ؛ فهُم بيْنَ أمْرينِ: إمَّا عالِمٌ مُستكبِرٌ،

---

(١) يُنظر: ((قاعدة في المحبة)) لابن تيمية (ص: ٤٣).

(٢) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٤/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٠٧).

والحديث تقدَّم تخريجُه.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ١٨٤).

فعِلْمُه لم ينفَعْه، وإمَّا جاهِلٌ[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ دَليلٌ على شَرَفِ الصَّلاةِ وفَضلِها، وأنَّها أهمُّ أعمالِ الجوارحِ؛ فإنَّه سُبحانَه خَصَّ بالذِّكرِ إقامةَ الصَّلاةِ، فلم يَذكُرْ مِن أعمالِ الجوارحِ باسمِه الخاصِّ سِواها[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ تَمْثيلٌ لإقبالِه على الدِّينِ، واستِقامَتِه وثَباتِه عليه، واهتِمامِه بتَرتيبِ أسبابِه؛ فإنَّ مَن اهتمَّ بشَيءٍ مَحسوسٍ بالبصَرِ عقَدَ عليه طَرْفَه، وسدَّدَ إليه نظَرَهُ، وقوَّمَ له وجْهَه، مُقبِلًا به عليه[٣].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَأَقِمْ﴾ فَصيحةٌ، والتَّقديرُ: إذا علِمْتَ أحوالَ المُعرِضينَ عن دَلائلِ الحقِّ، فأقِمْ وجْهَك للدِّينِ حَنيفًا[٤].

- والأمْرُ في قولِه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ مُستعمَلٌ في طلَبِ الدَّوامِ، والمقصودُ: ألَّا تَهْتَمَّ بإعراضِهم[٥].

- وذكَرَ الوجْهَ هنا؛ لأنَّه جامعُ حواسِّ الإنسانِ، وأشرَفُه[٦]. وقيل: خصَّ اللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٣/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٩).

إقامةَ الوجْهِ؛ لأنَّ إقبالَ الوجْهِ تبَعٌ لإقبالِ القلْبِ، ويَترتَّبُ على الأمْرينِ سَعْيُ البدَنِ؛ ولهذا قال: ﴿حَنِيفًا﴾، أي: مُقبِلًا على اللهِ في ذلك، مُعرِضًا عمَّا سِواهُ[١].

- و(حَنيف): صِيغةُ مُبالَغةٍ في الاتِّصافِ بالحَنَفِ، وهو المَيلُ، وغلَبَ استِعمالُ هذا الوصْفِ في المَيلِ عن الباطلِ، أي: العُدولِ عنه بالتَّوجُّهِ إلى الحقِّ[٢].

- قوله: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾ ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ﴾ بدَلُ اشتِمالٍ من ﴿حَنِيفًا﴾ -على أحدِ الأقوالِ-؛ فهو في معنى الحالِ من (الدِّينِ) أيضًا، وهو حالٌ ثانيةٌ؛ فإنَّ الحالَ كالخبَرِ تَتعدَّدُ بدونِ عطْفٍ. وهذا أحسَنُ؛ لأنَّه أصرَحُ في إفادةِ أنَّ هذا الدِّينَ مُختَصٌّ بوَصفينِ؛ هما: التَّبرُّؤُ من الإشراكِ، ومُوافقَتُه الفِطرةَ؛ فيُفيدُ أنَّه دِينٌ سَمْحٌ سهْلٌ، لا عنَتَ فيه[٣].

- وفي قولِه: ﴿ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا﴾ بيانٌ لِمَعنى الإضافةِ في قولِه: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ﴾، وتصْريحٌ بأنَّ اللهَ خلَقَ النَّاسَ سالِمةً عُقولُهم ممَّا يُنافي الفِطرةَ مِن الأديانِ الباطلةِ والعاداتِ الذَّميمةِ، وأنَّ ما يَدخُلُ عليهم مِن الضَّلالاتِ ما هو إلَّا من جرَّاءِ التَّلَقِّي والتَّعوُّدِ[٤].

- وقولُه: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾ تَعْليلٌ للأمْرِ بلُزومِ فِطرتِه تعالَى، أو لِوُجوبِ الامتِثالِ به[٥].

- وأيضًا قولُه: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾ جُملةٌ مُبيِّنةٌ لِمَعنى ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٠).

فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا﴾، فهي جاريةٌ مَجرَى حالٍ ثالثةٍ مِن (الدِّين)، على تَقديرِ رابطٍ مَحذوفٍ، والتَّقديرُ: لا تَبْديلَ لِخلْقِ اللهِ فيه، أي: في هذا الدِّينِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾ مُعترِضةً؛ لإفادةِ النَّهيِ عن تَغييرِ خَلْقِ اللهِ فيما أودَعَه الفِطرةَ؛ فتَكونَ ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾ خبرًا مُستعمَلًا في معنَى النَّهيِ على وَجْهِ المُبالَغةِ، كقولِه: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [النساء: ٢٩]؛ فنَفْيُ الجِنسِ مُرادٌ به جِنسٌ مِن التَّبديلِ خاصٌّ بالوصْفِ، لا نفْيُ وُقوعِ جِنسِ التَّبديلِ؛ فهو مِن العامِّ المُرادِ به الخُصوصُ بالقَرينةِ(١).

- دلَّ قولُه: ﴿لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾ على أنَّ معنَى ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ﴾: الخَلْقُ، وأنَّه مِن إقامةِ المُظهَرِ مَوضِعَ المُضمَرِ مِن غيرِ لَفْظِه السَّابِقِ، وفائدتُه: الإشعارُ بأنَّ أصْلَ الجِبِلَّةِ السَّليمةِ المُتهيِّئةِ لقَبولِ الحقِّ: ألَّا تُغيَّرَ ولا تُترَكَ لِمَحْضِ التَّقليدِ؛ فإنَّه مُجاوِبٌ للعقْلِ(٢).

- ولِعِظَمِ المقامِ كرَّرَ الاسمَ الأعظَمَ، فقال: ﴿لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾(٣).

- والتَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾؛ لزيادةِ تَمْييزِ هذا الدِّينِ مع تَعظيمِه(٤).

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ القيِّمُ: وصْفٌ بوزْنِ (فَيعِل)، مِثلُ هَيِّنٍ ولَيِّنٍ، يُفيدُ قوَّةَ الاتِّصافِ بمَصْدَرِه، أي: البالِغُ قوَّةَ القيامِ، مِثلُ (استقامَ) الَّذي هو مُبالَغةٌ في (قام)(٥). وإطلاقُ القيِّمِ على الدِّينِ فيه تَشبيهُ انتفاءِ الخطَأِ عنه باستقامةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٣).

العُودِ، وهو مِن تَشْبيهِ المَعقولِ بالمَحْسوسِ[(١)].

- والاستِدراكُ في قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ لِدفْعِ تَوهُّم واهِمٍ يقولُ: إذا كان هذا الدِّينُ هو دِينَ الفِطرةِ، وهو القيِّمُ؛ فكيف أعرَضَ كَثيرٌ مِن النَّاسِ عنه بعْدَ تَبليغِه؟! فاسْتدرَكَ ذلك بأنَّهم جُهَّالٌ لا عِلْمَ عِندَهم، فإنْ كان قد بلَغَهُم فإنَّهم جَهِلوا مَعانيَه؛ لإعراضِهم عن التَّأمُّلِ، ولا يَعلَمون منه إلَّا ما لا يُفيدُهم مُهِمَّهم؛ لأنَّهم لم يَسْعَوا في أنْ يَبلُغَهم على الوجْهِ الصَّحيحِ؛ ففِعلُ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ غيرُ مُتطلِّبٍ مَفعولًا، بلْ هو مُنزَّلٌ مَنزِلةَ اللَّازمِ؛ لأنَّ المعنى: لا عِلْمَ عِندَهم[(٢)].

٢- قَولُه تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾

وحَّدَ الخِطابَ أوَّلًا في قولِه: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا﴾، ثمَّ جمَعَ بعْدَ ذلك ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ﴾؛ لأنَّه قد خُوطِبَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أوَّلًا، وخِطابُ الرَّسولِ خِطابٌ لِأُمَّتِه، مع ما فيه مِن التَّعظيمِ للإمامِ، ثمَّ جمَعَ بعْدَ ذلك؛ للبَيانِ والتَّلخيصِ[(٣)].

- والأمْرُ الَّذي في قولِه: ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ مُستعمَلٌ في طلَبِ الدَّوامِ[(٤)].

٣- قَولُه تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٥).

- قولُه: ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ ﴾ أُعيدَ حَرفُ «مِن» في قَولِه تعالى: ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ ﴾؛ لِيُبيِّنَ أنَّ الثَّانيَ بَدَلٌ مِن الأوَّلِ ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾، والبَدَلُ هو المقصودُ بالكَلامِ، وما قبْلَه تَوطِئةٌ له[١]، وإظهارُ حرْفِ الجرِّ ثانيةً مع الاستِغناءِ عنه بالبدَليَّةِ، تأكيدٌ بإظهارِ العاملِ[٢]. وفائدةُ الإبدالِ التَّحذيرُ عن الانْتِماءِ إلى حِزبٍ مِن أحزابِ المشركينَ؛ ببَيانِ أنَّ الكلَّ على الضَّلالِ المُبينِ[٣].

- وجملةُ ﴿ كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ اعتراضٌ مُقرِّرٌ لِمَضمونِ ما قبْلَه مِن تَفريقِ دِينِهم، وكَونِهم شِيَعًا[٤].

- وقيل: يَجوزُ أنْ يكونَ ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ ﴾ مُنقطِعًا ممَّا قبْلَه، ومعناهُ: مِنَ المُفارقينَ دِينَهم كلُّ حِزْبٍ فَرِحينَ بما لَديهم؛ فكان مِن حقِّ الظَّاهِرِ أنْ يُجَرَّ ﴿فَرِحُونَ ﴾؛ لِكَونِه صِفةً ﴿حِزْبِۭ﴾؛ لأنَّ الصِّفةَ في الأعدادِ وما هو مِن قَبيلِها يَنْبغي أنْ تكونَ للمُضافِ إليه؛ لقولِه تعالى: ﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ ﴾ [يوسف: ٤٣]، ولكنَّه وصَفَ هاهنا المُضافَ؛ لِيُبيِّنَ أنَّ الفرَحَ شامِلٌ للكلِّ، وهو أبلَغُ[٥].



(١) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٠، ٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٠، ٣٩١).

الآيات (٣٣-٣٧)

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿ضُرٌّ﴾: أي: فقرٌ وقحطٌ وسُوءُ حالٍ، وأشباهُ ذلك، وأصلُ (ضرر) هنا: خلافُ النَّفعِ[1].

﴿سُلْطَٰنًا﴾: أي: حُجَّةً، وأصْلُ السُّلطانِ: القوَّةُ والقَهرُ، مِنَ التَّسلُّطِ؛ ولذلك سُمِّيَ السُّلطانُ سُلطانًا[2].

﴿يَقْنَطُونَ﴾: أي: يَيْأَسُونَ مِنَ الفَرَجِ، والقُنُوطُ هو: الإياسُ مِن الخيرِ، وأصلُ (قنط): يدُلُّ على اليأسِ مِنَ الشَّيءِ[3].

﴿يَبْسُطُ﴾: أي: يُوسِّعُ ويُكثِّرُ، وأصلُ (بسط): امْتِدادُ الشَّيءِ[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٢)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٥٠٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكِّي (٩/ ٥٦٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٥).

(٤) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٤٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، =

﴿وَيَقْدِرُ﴾: أي: يُضَيِّقُ، يُقالُ: قَدَرْتُ عليه الشَّيءَ: إذا ضيَّقتَه، كأنَّما جعَلْتَه بقَدْرٍ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ ونِهايتِه[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا أحوالَ النَّاسِ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ: وإذا أصاب النَّاسَ ضُرٌّ ما، كمَرَضٍ في أبدانِهم، أو قِلَّةٍ في أموالِهم؛ أخلَصوا الدُّعاءَ لله تائِبينَ مِنَ الشِّركِ؛ لِعلمِهم أنَّه لا يَكشِفُ الضُّرَّ غيرُه سُبحانَه، ثمَّ إذا رَحِمَهم اللهُ فكشَفَ ما أصابَهم مِنَ الضُّرِّ، وأكرَمَهم بعافيةٍ أو سَعةِ رِزقٍ؛ إذا جماعةٌ منهم يُشرِكونَ مع اللهِ غيرَه؛ لِيَكفُروا بما أعطَيْناهم مِنَ النِّعَمِ، فتمَتَّعوا -أيُّها المُشرِكونَ- فسوف تَعلَمونَ ما يُصيبُكم مِنَ العذابِ يومَ القيامةِ! فهل أنزَلْنا على هؤلاءِ المُشرِكينَ حُجَّةً ظاهِرةً بصِحَّةِ شِركِهم، حتَّى يَثبُتوا على شِركِهم؟!

وإذا أصَبْنا النَّاسَ برَحمةٍ مِنَّا فَرِحوا بها، وإن تُصِبْهم حالٌ سَيِّئةٌ بسَبَبِ ذُنوبِهم إذا هم يَيئَسونَ مِن رَحمةِ اللهِ وفَرَجِه، أوَلم يَرَوا أنَّ اللهَ يُوسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ، ويُضَيِّقُه على مَن يَشاءُ؟ إنَّ في ذلك لَدَلائِلَ للمُؤمِنينَ يَستدِلُّونَ بها على رَحمةِ اللهِ وحِكمتِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٧).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى التَّوحيدَ بالدَّليلِ وبالمَثَلِ؛ بيَّنَ أنَّ لهم حالةً يُعرَفونَ بها، وإن كانوا يُنكِرونَها في وقتٍ، وهي حالةُ الشِّدَّةِ(١).

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾.

أي: وإذا أصاب النَّاسَ ضَرَرٌ، كمَرَضٍ في أبدانِهم، أو قِلَّةٍ في أموالِهم، أو قَحطٍ وشِدَّةٍ في مَعيشتِهم؛ أخلَصوا الدُّعاءَ للهِ مُقبِلينَ عليه وَحْدَه، تائِبينَ مِنَ الشِّركِ؛ لِعِلْمِهم أنَّه لا يَكشِفُ الضُرَّ إلَّا اللهُ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١].

﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾.

أي: ثمَّ إذا رَحِمَهم اللهُ فكَشَفَ ما أصابَهم مِنَ الضُّرِّ، وأصابَهم بنِعمةٍ منه، كعافيةٍ أو سَعةِ رزقٍ وغيرِ ذلك؛ إذا جماعةٌ منهم يُبادِرونَ بنَقضِ تلك الإنابةِ الصَّادرةِ منهم، فيُشرِكونَ معه غَيرَه في عبادتِه، ولا يَشكُرونَه على نِعَمِه(٣)!

﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ٣٤﴾.

﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٠٢، ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤١).

أي: يُشرِكونَ لِيَكفُروا(١) بما(٢) أعطَيْناهم مِنَ النِّعَمِ، وصَرَفْنا عنهم مِنَ النِّقَمِ(٣)!

﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: فتمَتَّعوا -أيُّها المُشرِكونَ- مُدَّةَ حياتِكم بما أعطاكم اللهُ مِنَ النِّعَمِ، فسوفَ تَعلَمونَ ما ستَلقَونَه مِنَ العذابِ يومَ القيامةِ(٤).

---

(١) قال ابن كثير: (قَولُه: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ اللَّامُ هي لامُ العاقبةِ عند بَعضِهم، ولامُ التَّعليلِ عندَ آخَرينَ، ولكنَّها تعليلٌ لِتَقييضِ اللهِ لهم ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٧).
ومِمَّن قال بأنَّها للعاقبةِ: السمعانيُّ، والبيضاوي، وأبو السعود، والقاسمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٧٩) (٤/ ٢١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٠٥).
وممَّن اختار أنَّها لامُ كَيْ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ عطية، والنسفي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٧)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٧٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٦٠).
وقيل: يجوزُ أن تكونَ لامَ الأمرِ، ومعناه التَّهديدُ، نحو: ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]. وممَّن اختاره: مكِّي، وابنُ الجوزي، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦٩٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤١٣، ٤٢٤)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٢٨، ٤٢٩) و(٢/ ١٣٤). ويُنظر أيضًا: ((الدر المصون)) للحلبي (٩/ ٤٦).
(٢) قيل: المعنى: أنَّهم يَكفرون بهذا الَّذي آتَيْناهم، فيَجحَدونه ولا يَشكُرونه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٨).
وقيل: الباءُ للسَّببيَّةِ، أي: لِيَكفُروا بسَببِ ما آتَيْناهم مِنَ الرَّحمةِ، والإنقاذِ مِنَ الشِّدَّةِ، فصار ذلك سببًا لِكُفرِهم. ذكَرَ هذا المعنى احتمالًا: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٠٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٩، ٥٠٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢)، ((تفسير ابن =



﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِۦ يُشْرِكُونَ ۝٣٥﴾.

أي: فهل أنزَلْنا على المُشرِكينَ حُجَّةً ظاهِرةً تَشهَدُ بصِحَّةِ شِركِهم، حتَّى يُوجِبَ لهم ذلك شِدَّةَ التَّشَبُّثِ بالشِّركِ[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ۝ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الصافات: ١٥٦، ١٥٧].

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ۝٣٦﴾.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا﴾.

أي: وإذا أصَبْنا النَّاسَ برَحمةٍ، كحُصولِ الخِصْبِ والعافيةِ، فَرِحوا بذلك[2].

= عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٠٥، ٢٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٠٦-٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٢).

قيل: المرادُ بقولِه: ﴿فَرِحُوا بِهَا﴾: أي فَرَحَ بَطَرٍ بلا شُكرٍ لله على رحمتِه. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ كثير، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٢).

وقيل: الفرَحُ هنا وَصفٌ لحالِ النَّاسِ عندَما تُصيبُهم الرحمةُ؛ ليُبنى عليه ضِدُّه في قَولِه: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾؛ لما يَقتَضيه القُنوطُ مِن التَّذَمُّرِ والغَضَبِ. والمعنى: أنَّهم كما يَفرَحونَ عندَ الرَّحمةِ، ولا يخطُرُ ببالِهم زوالُها، ولا يحزَنونَ مِن خَشيتِه؛ فكذلك ينبغي أن يَصبِروا عندَما يَمَسُّهم الضُّرُّ، ولا يَقنَطوا مِن زوالِه؛ لأنَّ قُنوطَهم مِن زوالِه غيرُ جارٍ على قياسِ حالِهم عندَما تُصيبُهم رَحمةٌ حينَ لا يَتوقَّعونَ زوالَها. قاله: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٠).

قال ابن عاشور: (فليس في الكلامِ تَعريضٌ بإنكارِ الفَرَحِ حتَّى نُضطرَّ إلى تفسيرِ الفَرَحِ بالبَطَرِ =

﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ﴾.

أي: وإنْ تُصِبْهم حالٌ تَسوؤُهم -كقِلَّةٍ في أموالِهم، أو شِدَّةٍ في مَعيشَتِهم- بسَبَبِ ذُنوبِهم، أصابَهم يأسٌ شديدٌ مِن حُصولِ الرَّحمةِ والفَرَجِ، وزَوالِ تلك الحالِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠].

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٣٧﴾.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾.

أي: أوَلم يَرَ هؤلاءِ الَّذين يَفرَحونَ عندَ الرَّخاءِ، ويَيئَسونَ عندَ الشِّدَّةِ أنَّ اللهَ يُوَسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ، ويُضَيِّقُه على مَن يَشاءُ؟ فهو وَحْدَه المتصَرِّفُ في عبادِه بحِكمتِه؛ فيُغْني مَن يَشاءُ، ويُفقِرُ مَن يَشاءُ[(٢)]!

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

أي: إنَّ في تَوسيعِ اللهِ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ وتَضييقِه على مَن يَشاءُ لَدَلائِلَ وعَلاماتٍ للمُؤمِنينَ، يَستَدِلُّونَ بها على رَحمةِ اللهِ وحِكمتِه، وكَمالِ قُدرتِه،

= ونحوِه؛ لأنَّه عدولٌ عن الظَّاهِرِ بلا داعٍ... فالقُنوطُ هو محلُّ الإنكارِ عليهم، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ﴾ [فصلت: ٤٩]. ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢١٤، ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٨).



وغَيرِ ذلك[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ فينبغي للعبدِ أن يَعبُدَ اللهَ في الشِّدَّةِ والرَّخاءِ، وألَّا يكونَ مِمَّن يَعبُدونَ اللهَ للدُّنيا، فإذا آتاهم رَضُوا، وإذا منَعَهم سَخِطوا وقَنَطوا[٢]!

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ فالقُنوطُ بعدَما عُلِمَ أنَّ الخيرَ والشَّرَّ مِنَ اللهِ، والرِّزقَ -سَعَتَه وضِيقَه- مِن تقديرِه: ضائعٌ ليس له مَحَلٌّ، فلا تَنظُرْ أيُّها العاقِلُ لمُجَرَّدِ الأسبابِ، بل اجعَلْ نَظَرَك لِمُسَبِّبِها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾، فهم الذين يَعتَبِرونَ بَسْطَ اللهِ لِمَن يَشاءُ وقَبْضَه، ويَعرِفونَ بذلك حِكمةَ اللهِ ورَحمَتَه، وَجُودَه وجَذْبَ القُلوبِ لِسُؤالِه في جميعِ مَطالِبِ الرِّزقِ[٣]. فالمُحَقِّقُ ينبغي ألَّا يكونَ نَظَرُه على ما يُوجَدُ، بل إلى مَن يُوجِدُ، وهو اللهُ تعالى[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ دَليلٌ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٩٧، ٩٨)، ((البحر المديد)) لابن عجيبة (٤/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠١، ١٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٢).

أنَّ مَعرِفةَ الرَّبِّ في فِطرةِ كُلِّ إنسانٍ، وأنَّهم إن غَفَلوا في السَّرَّاءِ، فلا شَكَّ أنَّهم يَلوذونَ إليه في حالِ الضَّرَّاءِ[١]، فطبيعةُ الإنسانِ عندَ الضَّرَّاءِ اللُّجوءُ إلى رَبِّه، ويتفَرَّعُ على هذا أنَّ أولئك الَّذين إذا مَسَّهم الضُّرُّ لجؤوا إلى غيرِ اللهِ، أنَّهم خالَفوا جميعَ فِطَرِ البَشَرِ[٢]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ تهديدٌ للكافِرينَ، وأنَّ انبساطَهم بنِعَمِ اللهِ سُبحانَه وتعالى ضَرَرٌ عليهم؛ لِقَولِه تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾ أنَّ مَن صَنَعَ شيئًا بدَليلٍ صحيحٍ فلا لَومَ عليه؛ يُؤخَذُ ذلك مِن قَولِه تعالى: ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا ﴾، يعني: لو كان لهم سُلطانٌ لا نَلومُهم ولا نُعَذِّبُهم[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾ أنَّ المجتَهِدَ المتأوِّلَ لا إثمَ عليه؛ لاعتِمادِه في اجتِهادِه على دَليلٍ[٥].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾ قَولُه: ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ فيه معنًى لطيفٌ، وهو: أنَّ المتكَلِّمَ مِن غَيرِ دَليلٍ، كأنَّه لا كلامَ له؛ لأنَّ الكلامَ هو المسموعُ، وما لا يُقبَلُ فكأنَّه لم يُسمَعْ، فكأنَّ المتكَلِّمَ لم يتكَلَّمْ به، وما لا دليلَ عليه لا يُقبَلُ، فإذا جاز سَلْبُ الكلامِ عن المتكَلِّمِ عندَ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

عدَمِ الدَّليلِ وحَسُنَ، جاز إثباتُ التكَلُّمِ للدَّليلِ وحَسُنَ[١].

٦- قال تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ فيه أنَّه لا بُدَّ أنْ يكونَ السُّلطانُ أو الحُجَّةُ الَّتي يحتَجُّونَ بها واضِحةً؛ لِقَولِه تعالى: ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾، والتَّعبيرُ بالكَلامِ هو أوضَحُ ما يكونُ مِن الإظهارِ[٢].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ لم يَذكُرْ عند النِّعمةِ سَببًا لها؛ لتفَضُّلِه بها، وذَكَر عند العَذابِ سَبَبًا؛ لأنَّ الأوَّلَ يَزيدُ في الإحسانِ، والثَّاني يُحَقِّقُ العَدلَ[٣].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ فيه أنَّ المصائِبَ مُسَبَّبةٌ عن الذُّنوبِ[٤].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: مِن المُخالَفاتِ، وأسنَدَه إلى اليَدِ؛ لأنَّ أكثَرَ العَمَلِ بها[٥].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ دَلالةٌ على إثباتِ الاختيارِ للبَشَرِ، فيكونُ في ذلك رَدٌّ لِقَولِ الجَبريَّةِ الَّذين يَقولونَ: «إنَّ الإنسانَ ليس له اختيارٌ في العملِ»[٦]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٩٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٢١٨).

رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴾

- قولُه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا﴾ [الروم: ٣٢]، أي: فرَّقوا دِينَهم وكانوا شِيعًا، وإذا مسَّهم ضُرٌّ، فدَعَوُا اللهَ وحْدَه فرَحِمهم؛ عادوا إلى شِرْكِهم وكُفْرِهم نِعمةَ الَّذي رحِمَهم؛ فالمقصودُ مِن الجُملةِ هو قولُه: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾، فمَحلُّ انتظامِه في مَذامِّ المشركينَ أنَّهم يَرجِعون إلى الكفْرِ، بخِلافِ حالِ المؤمنينَ؛ فإنَّهم إذا أذاقَهم اللهُ رحمةً بعدَ ضُرٍّ، شَكَروا نِعمةَ ربِّهم، وذلك مِن إنابتِهم إلى اللهِ. ونُسِجَ الكلامُ على هذا الأُسلوبِ؛ ليكونَ بمَنزلةِ التَّذييلِ بما في لفْظِ (النَّاسِ) مِن العُمومِ، وإدْماجًا لِفَضيلةِ المؤمنينَ الَّذين لا يَكفُرون نِعمةَ الرَّحيمِ؛ فالتَّعريفُ في (النَّاسِ) للاستغراقِ[(١)].

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ (ثمَّ) للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ إشراكَهم باللهِ بعْدَ الدُّعاءِ والإنابةِ وحُصولِ رَحمتِه، أعجَبُ مِن إشراكِهم السَّابقِ؛ ففي التَّراخي الرُّتبيِّ معنَى التَّعجيبِ مِن تَجدُّدِ إشراكِهم[(٢)].

- وعُبِّرَ بالإذاقةِ؛ لأنَّ المعنى أصابَتْهم الرَّحمةُ حتَّى يَتحقَّقوها كما يَتحقَّقُ الإنسانُ الطَّعامَ في فَمِه[(٣)]. وقيل: اختِيرَ فِعلُ الإذاقةِ؛ لِمَا يدُلُّ عليه مِن إسراعِهم إلى الإشراكِ عندَ ابتداءِ إصابةِ الرَّحمةِ لهم، فالإذاقةُ: تُطلَقُ على الإصابةِ، وحقيقتُها: إصابةُ المَطْعومِ بطَرَفِ اللِّسانِ، وهي أضعَفُ إصاباتِ الأعضاءِ للأجسامِ؛ فهي أقلُّ مِن المَضْغِ والبلْعِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٦، ٩٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٧).

وقيل: الذَّوقَ يُقالُ في القَليلِ؛ فإنَّ العُرفَ أنَّ مَن أكلَ مأكولًا كثيرًا لا يقولُ: ذُقتُ، ويقالُ في النَّفيِ: ما ذُقتُ في بيتِه طعامًا، نفيًا للقليلِ؛ لِيَلزَمَ نَفْيُ الكثيرِ بالأَولى، ثمَّ إنَّ تلك الرَّحمةَ لَمَّا كانت خاليةً مُنقَطِعةً، ولم تكُنْ مُستمِرَّةً في الآخرةِ؛ إذ لهم في الآخرةِ عذابٌ- قال: ﴿أَذَاقَهُم﴾؛ ولهذا قال في العذابِ: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨]، ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٥]، ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]؛ لأنَّ عذابَ اللهِ الواصِلَ إلى العَبدِ بالنِّسبةِ إلى الرَّحمةِ الواصِلةِ إلى عَبيدٍ آخَرينَ: في غايةِ القِلَّةِ[١].

- وفي قولِه: ﴿أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً﴾ أسنَدَ الرَّحمةَ إليه؛ تَعظيمًا للأدَبِ، وإنْ كان الكلُّ منه[٢].

- وتَقْديمُ المجرورِ ﴿مِّنۡهُ﴾؛ للاهتمامِ به؛ لِيَظْهَرَ أنَّ الَّذي أصابَهم هو مِن فضْلِ اللهِ وتقْديرِه، لا غيرِ ذلك[٣].

- قولُه: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾، أي: فاجَأَ فريقٌ منهم الإشراكَ، وذلك بنِسبةِ خَلاصِهم إلى غيرِه تعالى مِن صنَمٍ أو كَوكبٍ أو نحوِ ذلك مِنَ المخلوقاتِ، وتَخْصيصُ هذا الفِعلِ ببعضِهم؛ لِمَا أنَّ بعضَهم ليسُوا كذلك، كما في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾ [لقمان: ٣٢]، أي: مُقيمٌ على الطَّريقِ القصْدِ، أو مُتوسِّطٌ في الكفْرِ؛ لانْزجارِه في الجُملةِ[٤]. وقيل: جاء هنا ﴿فَرِيقٌ﴾؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ﴾ عامٌّ للمؤمنِ والكافرِ، فلا يُشركُ إلَّا الكافرُ، و﴿ضُرٌّ﴾ هنا مُطلَقٌ، وفي آخرِ (العَنكبوتِ): ﴿إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦١)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٤٢).

[العنكبوت: ٦٥]؛ لأنَّه في مَخصوصينَ مِن المُشركينَ عُبَّادِ الأصنام، والضُّرُّ فيها مُعيَّنٌ، وهو ما يُتخوَّفُ مِن رُكوبِ البحرِ؛ قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[1] [العنكبوت: ٦٥].

- وحرْفُ المفاجأةِ (إذا) في قَولِه: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ يُفيدُ أنَّ هذا الفَريقَ أسْرَعوا العَودةَ إلى الشِّركِ بحِدْثانِ ذَوقِ الرَّحمةِ؛ لِتأصُّلِ الكفرِ منهم، وكُمونِه في نُفوسِهم[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ اللَّامُ في قولِه: ﴿لِيَكْفُرُوا۟﴾ قيل: هي لامُ التَّعليلِ، وهي مُستعارةٌ لِمَعنى التَّسبُّبِ الَّذي حقُّه أنْ يُفادَ بالفاءِ[3]. وقيل: اللَّامُ فيه للعاقِبةِ، وقيل: للأمْرِ بمعنى التَّهديدِ، كقولِه تعالى: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟﴾، غيرَ أنَّه التَفَت فيه مُبالَغةً[4].

- قولُه: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ الْتفَتَ عن الغَيبةِ إلى الخِطابِ بقولِه: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟﴾؛ تَوبيخًا لهم وإنْذارًا، وجِيءَ بفاءِ التَّفريعِ في قولِه: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟﴾؛ لأنَّ الإنذارَ والتَّوبيخَ مُفرَّعانِ عن الكلامِ السَّابقِ. والأمْرُ في (تَمَتَّعُوا) مُستعمَلٌ في التَّهديدِ والتَّوبيخِ[5].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٨).

- والفاءُ في ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تَفريعٌ للإنذارِ على التَّوبيخِ، وهو رشيقٌ. و(سوفَ تَعلَمونَ) إنْذارٌ بأنَّهم يَعلَمون في المُستقبَلِ شيئًا عَظيمًا، والعِلْمُ كِنايةٌ عن حُصولِ الأمْرِ الَّذي يُعلَمُ، أي: عن حُلولِ مَصائبَ بهِمْ لا يَعلَمون كُنْهَها الآنَ؛ وهو إيماءٌ إلى عظَمَتِها، وأنَّها غيرُ مُترَقَّبةٍ لهم[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾

- (أمْ) بمَعنى (بل)، والهمزةِ؛ و(بل) للإضرابِ عن الكَلامِ السَّابقِ، والهمزةُ للاستفهامِ عن الحُجَّةِ استفهامَ إنكارٍ وتَوبيخٍ[٢]. فالتَّقديرُ: بلْ أأنْزَلْنا عليهم سُلطانًا؟! أي: ما أنْزَلْنا عليهم سُلطانًا، ومعنى الاستفهامِ الإنكاريِّ أنَّه تَقريرٌ على الإنكارِ، كأنَّ السَّائلَ يَسأَلُ المسؤولَ؛ لِيُقِرَّ بنفْيِ المَسؤولِ عنه، وحيثُما وقَعَت (أمْ) فالاستفهامُ مُقدَّرٌ بعْدَها؛ لأنَّها مُلازِمةٌ لِمَعنى الاستفهامِ[٣].

- والالْتِفاتُ إلى الغَيبةِ في قولِه تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾؛ للإيذانِ بالإعراضِ عنهم، وتَعْديدِ جِناياتِهم لِغَيرِهم بطَريقِ المُباثَّةِ[٤].

- وقدَّمَ ﴿بِهِ﴾ على ﴿يُشْرِكُونَ﴾؛ للاهتِمامِ بالتَّنبيهِ على سَببِ إشراكِهم الدَّاخلِ في حيِّزِ الإنكارِ، وللرِّعايةِ على الفاصلةِ[٥].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٠).

- في هذه الآيةِ قُدِّمَت إصابةُ الرَّحمةِ على إصابةِ السَّيِّئةِ، عكْسَ الآيةِ الَّتي قبْلَها -في قولِه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً﴾ [الروم: ٣٣]-؛ للاهتمامِ بالحالةِ الَّتي جُعِلَت مَبدأَ العِبرةِ، وأصْلَ الاستِدلالِ؛ فقولُه: ﴿فَرِحُواْ بِهَا﴾ وصْفٌ لحالِ النَّاسِ عندَما تُصيبُهم الرَّحمةُ؛ لِيُبْنَى عليه ضِدُّه في قولِه: ﴿إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ﴾؛ لِمَا يَقْتضيه القُنوطُ مِن التَّذمُّرِ والغضَبِ[1].

- وعبَّر عِندَ الرَّحمةِ بأداةِ التحقيقِ (إذا)؛ إشارةً إلى أنَّ الرحمةَ أكثرُ من النِّقمةِ، وأَسنَد الفِعلَ إليه في مَقامِ العظَمةِ؛ إشارةً إلى سَعةِ جُودِه، فقال: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَا﴾، وجرَى الكلامُ على النَّمطِ الماضي في العمومِ؛ لمُناسَبةِ مَقصودِ السُّورةِ في أنَّ الأمرَ كُلَّه له في كُلِّ شيءٍ، وعِندَ المصيبةِ قال: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ﴾ بأداةِ الشَّكِّ (إنْ)؛ دَلالةً على أنَّ المصائبَ أقَلُّ وُجودًا. وقال: ﴿تُصِبۡهُمۡ﴾ غيرَ مُسنِدٍ لها إليه؛ تأْديبًا لِعبادِه، وإعلامًا بغَزيرِ كَرَمِه[2].

- وأدمَجَ في خلالِ الإنكارِ عليهم قولَه: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾؛ لِتَنْبيهِهم إلى أنَّ ما يُصيبُهم مِن حالةٍ سيِّئةٍ في الدُّنيا، إنَّما سَبَبُها أفعالُهم، فما على النَّاسِ إلَّا أنْ يُحاسِبوا أنفُسَهم، ويَتدارَكوا ما فات؛ فذلك أنْجَى لهم مِن السَّيِّئاتِ، وأجدَرُ مِن القُنوطِ[3].

٥- قَولُه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٩٤، ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠١).

﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ ...﴾ استفهامُ إنكارٍ؛ أنكرَ عليهم إهمالَ التَّأمُّلِ في سُنَّةِ اللهِ الشَّائعةِ في النَّاسِ: مِن لَحاقِ الضُّرِّ وانْفراجِه، ومِن قِسمةِ الحُظوظِ في الرِّزقِ بيْنَ بَسْطٍ وتَقْتيرٍ؛ فإنَّه كثيرُ الوُقوعِ كلَّ حِينٍ، فكما أنَّهم لم يَقْنَطوا مِن بَسْطِ الرِّزقِ عليهم في حِينِ تَقتيرِه، فكَدَحوا في طلَبِ الرِّزقِ بالأسبابِ والدُّعاءِ؛ فكذلك كان حقُّهم أنْ يَتلقَّوُا السُّوءَ النَّادرَ بمِثْلِ ما يَتلقَّون به ضِيقَ الرِّزقِ، فيَسْعَوا في كشْفِ السَّيِّئةِ بالتَّوبةِ، والابتهالِ إلى اللهِ، وبتَعاطي أسبابِ زَوالِها مِن الأسبابِ الَّتي نصَبَها اللهُ تعالى؛ فجُملةُ ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾ إلخ، عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَا﴾. والاستِفهامُ إنكاريٌّ في مَعنى النَّفيِ؛ أنْكرَ عليهم عدَمَ الرُّؤيةِ تَنزيلًا لِرُؤيتِهم ذلك مَنزِلةَ عدَمِ الرُّؤيةِ؛ لإهمالِ آثارِها مِن الاعتبارِ بها، فالتَّقديرُ: إذا همْ يَقنَطون، كيف لم يَرَوا بَسْطَ اللهِ الرِّزقَ وتقْتيرَه؟! كأنَّهم لم يَرَوا ذلك[1]!

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ ...﴾ الآيةَ، بلفْظِ ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾، وفي (الزُّمَر) بلفظِ: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ﴾ [الزمر: ٥٢]؛ وذلك لأنَّ بسْطَ الرِّزقِ ممَّا يُرى؛ فناسَبَ ذِكْرُ الرُّؤيةِ، وما في (الزُّمَرِ) تقدَّمَه ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍۭ﴾ [الزمر: ٤٩]، فناسَبَ ذِكْرُ العِلْمِ[2].

- وقولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ تذْييلٌ، أي: في جَميعِ ما ذُكِرَ آياتٌ كثيرةٌ حاصلةٌ كَثْرتُها مِن اشتِمالِ كلِّ حالةٍ مِن تلك الأحوالِ على أسبابٍ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٣، ٤٤٤).

خَفيَّةٍ وظاهرةٍ، ومُسبِّباتِها كذلك، ومِن تَعدُّدِ أحوالِ النَّاسِ مِن الاعتبارِ بها، والأَخْذِ منها، كلٌّ على حسَبِ استِعدادِه[1].

- وقيل: كانت الفاصلةُ قولَه تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ إيذانًا بأنَّ بسْطَ الرِّزقِ وتَقْديرَه بمَحْضِ مَشيئتِه تعالى، وبأنْ ليس الغِنى بفِعلِ العبْدِ وجهْدِه، ولا العُدْمُ بعَجْزِه وتَقاعُدِه، ولا يَعرِفُ ذلك إلَّا مَن آمَنَ بأنَّ ذلك تقْديرُ العزيزِ العليمِ[2].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠١، ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٤٣).

الآيات (٣٨-٤٠)

﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠) ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لِيَرْبُوَ﴾: أي: لِيَزدادَ، وأصلُ الرِّبا: الزِّيادةُ[١].

﴿الْمُضْعِفُونَ﴾: أي: ذَوُو المُضاعَفةِ والزِّيادةِ مِنَ الحَسَناتِ، وأصلُ (ضعف): يدُلُّ على أن يُزادَ الشَّيءُ مِثلَه[٢].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: فآتِ قَريبَك حَقَّه من البِرِّ والصِّلةِ، والمِسكينَ والمسافِرَ المُنقَطِعَ عن أهلِه، ذلك خيرٌ للمُخلِصينَ الَّذين يُريدونَ بذلك النَّظَرَ إلى وجهِ اللهِ يومَ القيامة، وأولئك هم الفائِزونَ في الدُّنيا والآخرةِ، وما آتيتُم -أيُّها النَّاسُ- مِن مالٍ تُريدونَ به زيادةً مِن أموالِ النَّاسِ بأن يَرُدُّوه إليكم أكثَرَ ممَّا آتَيْتُموهم، فلا يَنمو عندَ اللهِ، ولا خيرَ فيه؛ وما آتيتُم مِن زكاةٍ تُريدونَ بها وجهَ اللهِ فأولئك هم

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٨،٢٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٤).

الَّذين لهم الضِّعفُ مِنَ الأجرِ والثَّوابِ.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه مظاهرَ فضلِه على النَّاسِ، فيقولُ: اللهُ وَحْدَه هو الَّذي خلَقَكم مِنَ العدَمِ، ثم رزَقَكم، ثمَّ يُميتُكم مِن بَعدِ حياتِكم، ثمَّ يُحييكم للبَعثِ يومَ القيامةِ. هل مِن آلهتِكم -أيُّها المُشرِكونَ- مَن يَقدِرُ على فِعلِ شَيءٍ مِن ذلك؟! تنزَّه اللهُ وتقدَّس عن شِركِ هؤلاء المُشرِكينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكر أنَّه تعالى هو الباسِطُ القابِضُ، وجعَلَ في ذلك آيةً للمُؤمِنِ؛ أمَر نبيَّه بالإحسانِ لِمَن به فاقةٌ واحتياجٌ؛ لأنَّ مِنَ الإيمانِ الشَّفَقةَ على خَلقِ اللهِ؛ فخاطبَ مَن بَسَط له الرِّزقَ بأداءِ حَقِّ اللهِ مِن المالِ، وصَرْفِه إلى مَن يَقرُبُ منه؛ في رحِمٍ، وإلى غيرِه مِن مِسكينٍ وابنِ سَبيلٍ[(١)].

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ أنَّ اللهَ يَبسُطُ الرِّزقَ وَيقدِرُ، فلا ينبغي أن يَتوقَّفَ الإنسانُ في الإحسانِ؛ فإنَّ اللهَ إذا بسَطَ الرِّزقَ لا يَنقُصُ بالإنفاقِ، وإذا قَدَرَ لا يَزدادُ بالإمساكِ[(٢)].

وأيضًا فوَجهُ تعَلُّقِ الآيةِ بما قَبْلَها: هو أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّن أنَّ العبادةَ لا ينبغي أن تكونَ مقصورةً على حالةِ الشِّدَّةِ، بقَولِه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم﴾ [الروم: ٣٣]، ولا أن تكونَ مَقصورةً على حالةِ أخذِ شَيءٍ مِن الدُّنيا، بِقَولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٢).

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا﴾، وبيَّن أنَّه ينبغي أن يكونَ -في حالةِ بَسطِ الرِّزقِ وقَدْرِه عليه- نَظَرُه على اللهِ الخالقِ الرَّازِق؛ لِيَحصُلَ الإرشادُ إلى تعظيم الله. والإيمانُ قِسْمانِ: تَعظيمٌ لأمرِ اللهِ، وشَفَقةٌ على خَلقِ اللهِ، فقال بعد ذلك[١]:

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

أي: فآتِ[٢] قريبَك حقَّه مِنَ البِرِّ والصِّلةِ، والمِسكينَ حَقَّه مِنَ الصَّدَقةِ، والمسافِرَ المُنقَطِعَ حَقَّه مِنَ الإعانةِ على سَفَرِه[٣].

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾.

أي: إيتاءُ الأقاربِ والمساكِينِ وأبناءِ السَّبيلِ حُقوقَهم الشَّرعيَّةَ خَيرٌ للمُخلِصينَ الذين يُريدونَ بذلك وجهَ اللهِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٢).

(٢) قال القرطبي: (الخِطابُ للنبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والمرادُ هو وأمَّتُه). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٢٣-٢٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٤).

قال القاسمي: (﴿يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ أي: النَّظرَ إليه يومَ القيامةِ. وهو الغايةُ القُصْوى. أو يريدون ذاتَه بمعروفِهم، لا رياءً ولا سُمْعةً، ولا مُكافأةَ يَدٍ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٦).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾: أي: النَّظَرَ إليه سُبحانَه: ابنُ كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٢٦).

وقال ابن جرير: (خيرٌ لِلَّذين يُريدونَ اللهَ بإتيانِهم ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠٢).

وقال محمد رشيد رضا: (هذا التَّعبيرُ يَدُلُّ على الإخلاصِ للهِ تعالَى في العملِ، وابتغاءِ مَرْضاتِه به وحْدَه، وعدمِ الرِّياءِ فيه). ((تفسير المنار)) (٧/ ٣٦٤).

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

أي: وأولئك هم الفائِزونَ في الدُّنيا والآخِرةِ[1].

﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ٣٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى العملَ الَّذي يُقصَدُ به وجْهُه مِن النَّفَقاتِ، ذكَر العملَ الَّذي يُقصَدُ به مَقصدٌ دُنيويٌّ[2].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا جرى التَّرغيبُ والأمرُ بذلك المالِ لِذوي الحاجةِ، وصِلةِ الرَّحِم، وما في ذلك مِن الفَلاحِ؛ أعقَبَ بالتَّزهيدِ في ضَربٍ آخَرَ مِن إعطاءِ المالِ لا يَرضى اللهُ تعالى به، وكان الرِّبا فاشيًا في زَمَنِ الجاهليَّةِ وصَدرِ الإسلامِ، وخاصَّةً في ثَقيفٍ وقُرَيشٍ؛ فلمَّا أرشَد اللهُ المسلِمينَ إلى مُواساةِ أغنيائِهم فُقراءَهم؛ أَتْبَعَ ذلك بتهيئةِ نُفوسِهم للكَفِّ عن المعامَلةِ بالرِّبا للمُقتَرِضينَ منهم؛ فإنَّ المعاملةَ بالرِّبا تُنافي المواساةَ؛ لأنَّ شَأنَ المُقترِضِ أنَّه ذو حاجةٍ، وشأنَ المُقرِضِ أنَّه ذو سَعَةٍ، فمُعامَلتُه المُقترِضَ منه بالرِّبا استِغلالٌ لحاجتِه لاضْطِرارِه، وذلك لا يليقُ بالمُؤمِنينَ[3].

﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

أي: وما آتَيتم -أيُّها النَّاسُ- مِن عَطاءٍ تُريدونَ به زيادةً وأرباحًا تَحصُلُ لكم مِن أموالِ النَّاسِ، بأن يَرُدُّوه إليكم بأكثَرَ مِمَّا آتيتُموه؛ فلا يَزْكو ويَنمو عندَ اللهِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٤، ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٥).

فهو مالٌ مَمْحوقُ البَرَكةِ، ولا ثوابَ فيه[(١)].

﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ ما زيادتُه نَقصٌ؛ أتْبَعَه ما نَقصُه زيادةٌ، فقال[(٢)]:

﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾.

أي: وما آتيتُم مِن زكاةٍ عن إخلاصٍ لله تعالى، تريدونَ بها وجهَه؛ فأولئك هم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٥، ١٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٣٢-٢٣٤).

قال السمعاني: (أكثرُ أهلِ التَّفسيرِ أنَّ المرادَ مِنَ الآيةِ هو أن يُعطيَ الرَّجُلُ غيرَه عَطيَّةً لِيُعطيَه أكثَرَ منها، وهذا جائزٌ للنَّاسِ أن يَفعلوا، غيرَ أنَّه في القيامةِ لا يُثابُ عليه، فهو معنَى قولِه: ﴿فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢١٥).

وقال ابن كثير: (﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: مَن أعطى عَطيَّةً يُريدُ أن يَرُدَّ النَّاسُ عليه أكثَرَ ممَّا أهدى لهم، فهذا لا ثَوابَ له عندَ الله. بهذا فسَّره ابنُ عبَّاسٍ، ومُجاهِدٌ، والضَّحَّاكُ، وقَتادةُ، وعِكْرِمةُ، ومحمَّدُ بنُ كعبٍ، والشَّعْبيُّ. وهذا الصَّنيعُ مُباحٌ وإن كان لا ثَوابَ فيه، إلَّا أنَّه قد نُهِيَ عنه رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ خاصَّةً، قاله الضَّحَّاكُ، واستدَلَّ بقولِه: ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾ [المدثر: ٦]، أي: لا تُعطِ العطاءَ تُريدُ أكثَرَ منه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٨).

وقيل: هذه الآيةُ في معنى قولِه تعالى: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦] سواءً بسَواءٍ، وأنَّ المرادَ: ما أعطَيْتُم مِن أموالِكم على وجهِ الرِّبا فلا يَزْكو عندَ الله. وممَّن اختاره في الجملةِ: الزمخشريُّ، والنسفيُّ، وابنُ جُزَي، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٧٠٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣٤)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٠١).

الذين يُضاعِفُ اللهُ لهم ثوابَ صَدَقاتِهم[١].

كما قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما تصدَّقَ أحَدٌ بصَدقةٍ مِن طَيِّبٍ -ولا يقبَلُ اللهُ إلَّا الطَّيِّبَ- إلَّا أخَذَها الرَّحمنُ بيَمينِه وإن كانت تمرةً، فتَربو في كَفِّ الرَّحمنِ حتى تكونَ أعظَمَ مِن الجَبَلِ، كما يُرَبِّي أحَدُكم فَلُوَّه[٢] أو فَصيلَه[٣]!))[٤].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٣٥-٢٣٧).

قال البقاعي: (﴿ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ أي: الذين ضاعَفوا أموالَهم في الدُّنيا بسَبَبِ ذلك الحِفظَ والبَرَكةِ، وفي الآخرةِ بكَثرةِ الثَّوابِ عند اللهِ مِن عشرةِ أمثالٍ إلى ما لا حَصْرَ له). ((نظم الدرر)) (١٥/ ١٠١، ١٠٢).

(٢) الفَلُوُّ: المُهرُ، وهو الصَّغيرُ من أولادِ الفَرَسِ، سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه فُصِلَ وعُزِلَ عن أمِّه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٩٩).

(٣) الفَصيلُ: ولَدُ النَّاقةِ إذا فُصِلَ مِن إرضاعِ أمِّه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٩٩).

(٤) رواه البخاري (١٤١٠) ومسلم (١٠١٤)، واللفظ له.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا وَضَح أنَّه لا زيادةَ إلَّا فيما يَزيدُه اللهُ، ولا خيرَ إلَّا فيما يختارُه اللهُ، فكان ذلك مُزَهِّدًا في زيادةِ الاعتناءِ بطَلَبِ الدُّنيا- بيَّن ذلك بطريقٍ لا أوضحَ منه، فقال[1]:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾.

أي: اللهُ وَحْدَه هو الَّذي خَلَقكم مِنَ العَدَمِ، ثمَّ رَزَقكم وأنتم لا تَملِكونَ شَيئًا، ثمَّ يميتُكم مِن بعدِ حَياتِكم، ثمَّ يُحييكم للبَعثِ يومَ القيامةِ[2].

﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾.

أي: هل مِن آلهتِكم -أيُّها المُشرِكونَ- مَن يَقدِرُ على فِعلِ شَيءٍ مِن ذلك[3]؟

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

أي: تنزَّه اللهُ وتقدَّسَ وتعالى عن شِركِ هؤلاءِ المُشرِكينَ[4]!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ فاللهُ سُبحانَه لا يَقبَلُ إلَّا ما كان خالِصًا لِوَجهِه، لا رياءَ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣).

فيه[(١)].

٢- قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ مَن بَذَلَ مالَه مِن أجلِ الحُصولِ على أمْرِ الدُّنيا، فإنَّه لا أَجْرَ له في ذلك، تؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾[(٢)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ تَنبيهٌ على أهميَّةِ الإخلاصِ[(٣)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ فيه سؤالٌ: ذُكِر الأقارِبُ بلَفظِ ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾، ولم يُذكَرِ المِسكينُ بلَفظِ (ذي المَسكَنة).

الجوابُ: ذلك لأنَّ القرابةَ لا تتجدَّدُ؛ فهي شيءٌ ثابتٌ، و (ذو كذا) لا يقالُ إلَّا في الثَّابتِ؛ فإنَّ مَن صدَرَ منه رأيٌ صائِبٌ مرَّةً، أو حصَلَ له جاهٌ يومًا واحِدًا، أو وُجِدَ منه فَضلٌ في وقتٍ؛ لا يقالُ: (ذو رأيٍ) و(ذو جاهٍ)، و(ذو فضلٍ)، وإذا دام ذلك له، أو وُجِدَ منه ذلك كثيرًا؛ يقالُ له: (ذو الرَّأيِ) و(ذو الفَضلِ)؛ فقال: ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ هذا حَقٌّ مُتأكِّدٌ ثابتٌ.

وأمَّا المَسكَنةُ فتطرَأُ وتَزولُ؛ ولهذا المعنى قال: ﴿مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٦]؛ فإنَّ المسكينَ يدومُ له كَونُه ذا مَتربةٍ ما دامت مَسكَنتُه، أو يكونُ كذلك في أكثَرِ الأمرِ[(٤)].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ مُشعِرٌ بأنَّ المعطى مالٌ، ويُقوِّي

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٣).

ذلك وقوعُ الآيةِ عَقِبَ قولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾[1].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ فيه سؤالٌ: خَصَّصَ اللهُ تعالى الأقسامَ الثَّلاثةَ بالذِّكرِ دونَ غيرِهم، مع أنَّه تعالى ذكَرَ الأصنافَ الثَّمانيةَ في الصَّدَقاتِ؟

الجوابُ: أراد هاهنا بيانَ مَن يجِبُ الإحسانُ إليه على كُلِّ مَن له مالٌ، سواءٌ كان زكَويًّا أو لم يكُنْ، وسواءٌ كان بعد الحَولِ أو قَبْلَه؛ لأنَّ المقصودَ هاهنا الشَّفَقةُ العامَّةُ، وهؤلاء الثَّلاثةُ يجِبُ الإحسانُ إليهم وإنْ لم يكُنْ للمُحسِنِ مالٌ زائدٌ؛ أمَّا القريبُ فتَجِبُ نفقَتُه وإن كان لم تجِبْ عليه زكاةٌ، كعَقارٍ أو مالٍ لم يَحُلْ عليه الحَولُ، والمِسكينُ كذلك؛ فإنَّ مَن لا شيءَ له إذا بَقِيَ في ورطةِ الحاجةِ حتى بلَغ الشِّدَّةَ، يجِبُ على مَن له مَقدرةٌ دَفعُ حاجتِه، وإن لم يكُنْ عليه زكاةٌ، وكذلك من انقطعَ في مَفازةٍ ومع آخَرَ دابَّةٌ يُمكِنُه بها إيصالُه إلى مَأمَنٍ، يلزَمُه ذلك وإنْ لم تكُنْ عليه زكاةٌ، والفَقيرُ داخِلٌ في المِسكينِ؛ لأنَّ مَن أوصى للمساكينِ شَيئًا، يُصرَفُ إلى الفُقَراءِ أيضًا، وإذا نظَرْتَ إلى الباقينَ مِن الأصنافِ رأيتَهم لا يجِبُ صَرفُ المالِ إليهم إلَّا على الذين وَجَبَت الزكاةُ عليهم، واعتُبِرَ ذلك في العامِلِ، والمُكاتَبِ، والمؤلَّفةِ، والمَديونِ[2].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فيه سؤالٌ: لِمَ لم يَذكُرْ غيرَه من الأفعالِ، كالصَّلاةِ وغيرِها؟

الجوابُ: الصَّلاةُ مَذكورةٌ مِن قَبلُ؛ لأنَّ الخِطابَ هاهنا بقَولِه: ﴿فَآتِ﴾ مع

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٢).

النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم، وغيرُه تبَعٌ، وقد قال له مِن قَبلُ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾[الروم:٣٠]، وقال: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾[١][الروم: ٣١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ إثباتُ الوَجهِ للهِ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ مَن فَعَلَ مثلَ هذه الأمورِ لله، فإنَّه سوف يرى اللهَ عزَّ وجلَّ ويلقاه، كما ثبت ذلك في الكِتابِ والسُّنَّةِ وإجماعِ السَّلَفِ: أنَّ المُؤمِنينَ يَرَونَ ربَّهم كما يَرَونَ القَمَرَ ليلةَ البَدرِ[٣].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ ﴾ فيه أنَّ كُلَّ ما لا يَربو عندَ اللهِ، فهو ممحوقٌ لا وُجودَ له، فمآلُه إلى فَناءٍ وإن كَثُرَ[٤].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ ﴾ عبَّرَ عنها بذلك؛ لِيُفيدَ الطَّهارةَ والزِّيادةَ، أي: تُطهِّرونَ بها أموالَكم مِنَ الشُّبَهِ، وأبدانَكم مِن موادِّ الخبَثِ، وأخلاقَكم مِنَ الغِلِّ والدَّنَسِ[٥].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ لَمَّا كان الإخلاصُ عزيزًا، أشار إلى عَظَمتِه بتكريره، بقَولِه عَزَّ وجَلَّ: ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾، وقد قال في الآيةِ التي قبلَه: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾[٦].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٣، ١٠٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٢٢٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٧١).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٠١).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أنَّ الصَّدَقةَ تزيدُ المالَ[١]، وذلك على أحدِ القولينِ في الآيةِ.

١١- إنَّ مَن تَفرَّدَ بخَلقِ العَبدِ وبهدايتِه، وبرزقِه وإحيائِه وإماتتِه في الدُّنيا، وبمَغفرةِ ذُنوبِه في الآخرةِ: مُستحِقٌّ أنْ يُفرَدَ بالإلهيَّةِ والعبادةِ، والسُّؤالِ والتضرُّعِ إليه، والاستكانةِ له؛ قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ فاءُ التَّفريعِ تُفيدُ أنَّ الكلامَ بعْدَها مُترتِّبٌ على الكلامِ الذي قبْلَها، وقدِ اشتمَلَ الكلامُ قبْلَها على لَحاقِ آثارِ رَحمةِ اللهِ بالنَّاسِ، وإصابةِ السُّوءِ إيَّاهم، وعلى أنَّ ما يُصيبُهم مِن السُّوءِ بما قدَّمَتْ أيدي النَّاسِ، وذُكِرَ بسْطُ الرِّزقِ وتقْديرُه، وتضمَّنَ ذلك أنَّ الفرَحَ يُلْهيهم عن الشُّكرِ، وأنَّ القُنوطَ يُلْهيهم عن المُحاسَبةِ في الأسبابِ؛ فكان الأمْرُ بإيتاءِ الضُّعفاءِ والمنكوبينَ إرشادًا إلى وسائلِ شُكرِ النِّعمةِ عندَ حُصولِها شُكْرًا مِن نَوعِها واستكشافِ الضُّرِّ عندَ نُزولِه، وإلى أنَّ مِن الحقِّ التَّوسعةَ على المُضيَّقِ عليهم الرِّزقُ، كما يُحِبُّ أنْ يُوسَّعَ عليه رِزْقُه[٣].

- وفي قولِه: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ قُدِّمَ ذُو القُرْبى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٢).

على المسكينِ وابنِ السَّبيلِ؛ للاهتِمامِ به؛ لأنَّ برَّه صَدقةٌ وصِلَةٌ[١]، ولَمَّا كان المِسكينُ حاجتُه ليست مختَصَّةً بمَوضِعٍ، كان مُقدَّمًا على مَن حاجتُه مختَصَّةٌ بموضِعٍ دونَ مَوضِعٍ[٢].

- والتعبيرُ باسمِ الإشارةِ في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾؛ للتَّنويهِ بالمأمورِ به[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ صِيغَةُ قَصْرٍ مِن أجْلِ ضَميرِ الفَصْلِ، وهو قصْرٌ إضافيٌّ[٤]، أي: أولئك المُتفرِّدونَ بالفلاحِ، وهو نجاحُ عَمَلِهم في إيتاءِ مَن ذُكِرَ لوجْهِ اللهِ تعالى لا للرِّياءِ والفخْرِ، فمَن آتى للرِّياءِ والفخْرِ فلا فلاحَ له مِن إيتائِه[٥].

- وبيْن قولِه: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ وقولِه: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ ...﴾ مُقابَلَةٌ، وممَّا يدلُّ على أنَّ الآيتَينِ مُتقابلتانِ: تَكريرُ ﴿يُرِيدُونَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩١، ٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٤).

(٤) القَصرُ الإضافي: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدمِ صِحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه، أو ادَّعاه المقصود بالكلام، أو إزالة شكِّه وتردده، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حولَ احتمالينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨)، و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

وينظر ما تقدم في تعريف القصر (ص: ٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٤، ١٠٥).

﴿وَجۡهَ ٱللَّهِ﴾ فيهما، وتَخصيصُ كلٍّ مِن الآيتينِ باسمِ الإشارةِ الدَّالِّ على أنَّ ما قبْلَه جَديرٌ بما بعْدَه؛ لأجْلِ ذِكْرِ مُوجِبه(١).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ (ما) شرطيَّةٌ تُفيدُ العُمومَ، فالجُملةُ مُعترِضةٌ بعدَ جُملةِ ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الروم: ٣٨] إلخ، والواوُ اعتراضيَّةٌ، ومَضمونُ هذه الجُملةِ بمَنزلةِ الاستدراكِ؛ للتَّنبيهِ على إيتاءِ مالٍ هو ذَميمٌ. وجِيءَ بالجُملةِ شرطيَّةً؛ لأنَّها أنسَبُ بمَعنى الاستدراكِ على الكلامِ السَّابقِ(٢).

- قولُه: ﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾، أي: تَحصُلُ فيه زِيادةٌ تكونُ أموالُ النَّاسِ ظرْفًا لها؛ فهو كِنايةٌ عن أنَّ الزِّيادةَ التي يأخُذُها المُرْبي مِن أموالِهم لا يَملِكُها أصْلًا(٣).

- ومعنى ﴿فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أنَّه عمَلٌ ناقِصٌ عندَ اللهِ غيرُ زاكٍ عِنده، والنَّقصُ يُكْنى به عن المَذمَّةِ والتَّحقيرِ(٤).

- قولُه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾ فيه التعبيرُ باسمِ الإشارةِ (أولئك)؛ للتَّنويهِ بهؤلاء، والدَّلالةِ على أنَّهم أحْرياءُ بالفلاحِ. وكذلك اسمُ الإشارةِ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ اقْتضاهُ مَقامُ اجتلابِ اسمِ الإشارةِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٠٦، ١٠٧).

- قولُه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾، أي: ذوو الأضْعافِ مِن الثَّوابِ، أو الذين ضَعَّفوا ثوابَهم وأموالَهم بالبركةِ، وفي تَغْييرِ النَّظمِ الكريمِ والالْتِفاتِ ما لا يَخْفى مِن المُبالَغةِ والتَّعظيمِ؛ كأنَّه خاطَبَ به الملائكةَ وخواصَّ الخلْقِ تَعريفًا لحالِهم: فأولئك الذين يُريدون وجْهَ اللهِ بصَدقاتِهم، همُ المُضْعِفون؛ فهو أمدَحُ لهمْ مِن أنْ يقولَ: (فأنتم المُضعِفون)؛ لأنَّه إذا التفَتَ إلى الغيرِ شاكرًا لِصَنيعِهم، واستِحمادًا منه لهم، وترْغيبًا له فيما نالوا به هذه المَنزِلةَ؛ كان أبلَغَ وأنبَلَ ممَّا لو قال لهم: فأنتُم المُضعِفون. أو للتَّعميمِ؛ كأنَّه قال: فمَن فعَلَ ذلك ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾. وأيضًا فيه إشعارٌ بأنَّ أولئك مُحِقُّون بأنْ يَكونوا مُضعِفينَ؛ لاكتسابِهم تلك الفضيلةَ، وليس في (فأنتم المُضعِفون) مِن ذلك شَيءٌ[1].

- وضَميرُ الفصْلِ (هم) في قولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾ لِقَصْرِ جِنسِ المُضْعِفينَ على هؤلاء، وهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ للمُبالَغة؛ لعَدَمِ الاعتدادِ بإضعافِ مَن عَداهم؛ لأنَّ إضعافَ مَن عَداهم إضعافٌ دُنيويٌّ زائلٌ[2].

٣- قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾

استئنافٌ ممَّا أُقيمَ عليه دلائلُ انفرادِ اللهِ تعالى بالتَّصرُّفِ في النَّاسِ، وإبطالِ ما زَعَموه مِن الإشراكِ في الإلهيَّة، مُؤكِّدًا بالإنكارِ على ما دلَّ عليه البُرهانُ والعِيَانُ، ووقَعَ عليه الوِفاقُ، ثمَّ اسْتنتَجَ مِن ذلك تقدُّسَه عن أنْ يكونَ له شُركاءُ، فقال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٦).

﴿هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾. وفيه إدماجٌ[١] للاستدلالِ على وُقوعِ البعثِ[٢].

- قولُه: ﴿هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ في مَعنى النَّفيِ؛ ولذلك زِيدَت (مِن) الدَّالَّةِ على تَحقيقِ نفْيِ الجِنسِ كلِّه في قولِه: ﴿مِّن شَيۡءٖ﴾. والمعنى: ما مِن شُركائِكم مَن يَفعَلُ شيئًا مِن ذلِكُم؛ فـ (مِن) الأُولى بَيانيَّةٌ هي بَيانُ الإبهامِ الذي في ﴿مَّن يَفۡعَلُ﴾، فيكونُ ﴿مَّن يَفۡعَلُ﴾ مُبتدأً، وخبَرُه مَحذوفٌ دلَّ عليه الاستفهامُ، تقديرُه: حصَلَ، أو وُجِدَ، أو هي تَبعيضيَّةٌ صِفَةٌ لِمُقدَّرٍ، أي: هلْ أحدٌ مِن شُركائِكم. و(مِن) الثَّانيةُ في قولِه: ﴿مِن ذَٰلِكُم﴾ تَبعيضيَّةٌ في مَوضعِ الحالِ ﴿مِّن شَيۡءٖ﴾. و(مِن) الثَّالثةُ زائدةٌ لاستغراقِ النَّفيِ، وكلٌّ منها مُستقِلَّةٌ بتأْكيدٍ؛ لتَعجيزِ الشُّركاءِ وتَجهيلِ عَبَدتِهم[٣]. وقيل: هو استفهامٌ على جِهَةِ التَّقريرِ لهم والتَّوبيخِ[٤].

- قولُه: ﴿هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖ﴾ إضافةُ (شُركاء) إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ مِن المُشركينَ؛ لأنَّ المُخاطَبينَ همُ الذين خَلَعوا على الأصنامِ وصْفَ الشُّركاءِ للهِ؛ فكانوا شُركاءَ بزَعْمِ المُخاطَبينَ، وليسوا شُركاءَ في نفْسِ الأمْرِ، وهذا جارٍ مَجرى التَّهكُّمِ[٥].

---

(١) تقدم تعريفه (ص: ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٧، ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٨).

- وجُملةُ ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ مُستأْنفةٌ لإنشاءِ تَنزيهِ اللهِ تعالى عن الشَّريكِ في الإلهيَّةِ[1].

- وفي قولِه: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ الْتفاتٌ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ؛ للإيذانِ باقْتضاءِ ذِكْرِ قَبائحِهم للإعراضِ عنهم، وطَرْحِهم عن رُتبةِ الخِطابِ[2].

- والتَّعبيرُ بالمُضارِعِ ﴿يُشۡرِكُونَ﴾؛ لِمَا في الشِّركِ مِن الغَرابةِ، أو للإشعارِ باستمرارِه وتجدُّدِه منهم[3].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٤٧).

الآيات (٤١-٤٥)

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (٤٢) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٤٥)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿الْقَيِّمِ﴾: أي: المستقيمِ الَّذي لا عِوجَ فيه، وأصلُ (قوم) هنا: يدلُّ على انْتِصابٍ أو عَزْمٍ[1].

﴿يَصَّدَّعُونَ﴾: أي: يتفَرَّقونَ فيَصيرونَ فريقًا في الجنَّةِ وفريقًا في السَّعيرِ، وأصلُ (صدع): يدُلُّ على انفراجٍ في شَيءٍ[2].

﴿يَمْهَدُونَ﴾: أي: يُهَيِّئونَ ويُوطِّئونَ، وأصلُ (مهد): يدُلُّ على توطئةٍ وتَسهيلٍ للشَّيءِ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا الآثارَ السَّيِّئةَ التي تترتَّبُ على الكفرِ والمعاصي: ظهرَ الجَدْبُ

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٢)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٤).

وقِلَّةُ النَّباتِ ومَحْقُ البركاتِ وكَثرةُ الشُّرورِ في بَرِّ الأرضِ وبَحرِها؛ بسبَبِ وُقوعِ النَّاسِ في الشِّركِ والمعاصي؛ جزاءً لهم على بَعضِ ذُنوبِهم؛ لعلَّهم يتوبونَ إليه سُبحانَه ويَرجِعونَ إليه.

ثمَّ يأمرُ اللهُ نبيَّه أن يلفتَ الأنظارَ إلى سوءِ عاقبةِ المشركينَ، فيقول: قلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ مِن قَومِك: سيروا في الأرضِ، فانظُروا كيف كانت نهايةُ المكَذِّبينَ مِن قَبلِكم، كان أكثَرُهم مُشرِكينَ؛ فأهلَكَهم اللهُ.

ثمَّ يأمرُ اللهُ تعالى نبيَّه بالثباتِ على الحقِّ، مؤكدًا عليه، فيقولُ: فانصِبْ قَصْدَك وأقبِلْ على دينِ الإسلامِ المُستقيمِ الذي لا اعوِجاجَ فيه، من قَبلِ أن يأتيَ يَومُ القيامةِ الذي لا يَقدِرُ أحَدٌ على رَدِّه؛ ذلك اليومُ الذي يتفَرَّقُ النَّاسُ فيه إلى فريقينِ: فريقٍ في الجنَّةِ، وفريقٍ في النَّارِ.

ثمَّ يذكرُ اللهُ تعالى الفريقينِ فيقولُ: من كفَرَ باللهِ فإثمُ كُفرِه واقعٌ عليه، ومن عَمِلَ عَملًا صالِحًا فإنَّما يُهَيِّئونَ ويُوطِّئونَ لأنفُسِهم منازِلَهم في الجنَّةِ؛ لِيَجزيَ اللهُ الذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ ثوابًا حَسَنًا مِن فَضلِه، إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الكافِرينَ به.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ سُبحانَه مِن حَقارةِ شُرَكائِهم ما كان حقُّهم به أن يَرجِعوا، فلم يَفعَلوا؛ أتبَعَه ما أصابَهم به على غيرِ ما كان في أسلافِهم؛ عُقوبةً لهم على قَبيحِ

ما ارتكَبوا؛ استِعطافًا للتَّوبةِ[(١)].

وأيضًا فوَجهُ تعلُّقِ هذه الآيةِ بما قَبْلَها هو أنَّ الشِّركَ سَبَبُ الفسادِ، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وإذا كان الشِّركُ سَبَبَه، جَعَلَ اللهُ إظهارَهم الشِّركَ مُورِثًا لِظُهورِ الفَسادِ[(٢)].

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾.

أي: ظَهَر نَقصُ الخَيراتِ، وفِقدانُ المنافِعِ ومَحقُ البَرَكاتِ، وكَثرةُ الشُّرورِ وحُدوثُ المضارِّ والآفاتِ: في بَرِّ الأرضِ وبَحرِها؛ بسَبَبِ وُقوعِ النَّاسِ في الشِّركِ والكُفرِ والظُّلمِ، وارتكابِهم الذُّنوبَ والمعاصِيَ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٠)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٣٣٢)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٦٤، ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣٤، ١٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٠ - ١١٢).

قيل: المرادُ بظُهورِ الفسادِ: قحطُ المطرِ، ونقصُ الثِّمارِ. ﴿فِى ٱلْبَرِّ﴾ حيثُ لا يجري نهرٌ، وهو البَوادي، ﴿وَٱلْبَحْرِ﴾ وهو كلُّ قريةٍ على ماءٍ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والسمرقنديُّ، والواحدي، والبغوي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤١٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٨٠).

قال ابن جُزَي: (﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ قيل: البَرُّ: البلادُ البعيدةُ مِنَ البحرِ، والبحرُ: هو البلادُ الَّتي على ساحِلِ البحرِ... والصَّحيحُ أنَّ البَرَّ والبحرَ المعروفانِ؛ فظُهورُ الفسادِ في البَرِّ بالقَحطِ والفِتَنِ وشِبهِ ذلك، وظُهورُ الفسادِ في البحرِ بالغَرَقِ وقِلَّةِ الصَّيدِ وكَسادِ التِّجاراتِ وشبهِ ذلك، وكلُّ ذلك بسببِ ما يَفعَلُه النَّاسُ مِن الكفرِ والعِصيانِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣٤).

وقال السعدي: (أي: فسادُ مَعايشِهم ونقْصُها، وحُلولُ الآفاتِ بها، وفي أنفُسِهم مِن الأمراضِ والوباءِ وغيرِ ذلك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣). =

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠].

﴿لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾.

أي: ابتلاهم اللهُ بنَقصِ الخيراتِ وغَيرِها مِن أنواعِ الفَسادِ؛ جزاءً لهم على بَعضِ ذُنوبِهم[1]، لعلَّهم يتوبونَ إليه، ويَترُكونَ الكُفرَ والفُسوقَ والعِصيانَ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ

= وقيل: المرادُ: ظهَرَتْ مَعاصي الله في كلِّ مكانٍ؛ مِن بَرٍّ وبحرٍ. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦٩٤).

قال ابن القيِّم: (والظَّاهِرُ -والله أعلَمُ- أنَّ الفَسادَ المرادُ به: الذُّنوبُ ومُوجباتُها، ويدُلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾، فهذا حالُنا، وإنَّما أذاقَنا الشَّيءَ اليسيرَ مِن أعمالِنا، ولو أذاقنا كلَّ أعمالِنا لَما ترَكَ على ظَهرِها مِن دابَّةٍ). ((الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي)) (ص: ٦٥).

وقال الشوكاني: (والظَّاهرُ مِن الآيةِ ظُهورُ ما يصِحُّ إطلاقُ اسمِ الفسادِ عليه؛ سواءٌ كان راجعًا إلى أفعالِ بني آدَمَ مِن معاصيهم، واقترافِهم السَّيِّئاتِ، وتَقاطُعِهم وتَظالُمِهم وتَقاتُلِهم، أو راجعًا إلى ما هو مِن جهةِ الله سُبحانَه بسببِ ذُنوبِهم؛ كالقَحطِ، وكثرةِ الخَوفِ، والمُوتانِ [أي: الموت الكثير الوقوع]، ونُقصانِ الزَّرائعِ، ونُقصانِ الثِّمارِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٦٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الروم)) (ص: ٢٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين – سورة المائدة)) (٢/ ٢١٧، ٢١٨).

قال البقاعي: (ويعفو عن كثيرٍ إمَّا أصلًا ورأسًا، وإمَّا المعاجلةُ به، ويؤخِّرُه إلى وقتٍ ما في الدُّنيا، أو إلى الآخرةِ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين – سورة الروم)) (ص: ٢٥٦، ٢٥٧).

يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة: ٢١].

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى حالَ المُشرِكينَ بظُهورِ الفَسادِ في أحوالِهم؛ بسَبَبِ فَسادِ أقوالِهم؛ بيَّن لهم هلاكَ أمثالِهم وأشكالِهم الَّذين كانت أفعالُهم كأفعالِهم[١].

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ مِن قَومِك: سافِروا في الأرضِ، فانظُروا كيف كانت نهايةُ الأُمَمِ مِن قَبلِكم[٢].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١].

﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾.

أي: كان أكثَرُ الأُمَمِ الماضيةِ مُشرِكينَ، فعاقِبَتُهم كانت شَرَّ العواقِبِ؛ إذ أهلَكَهم اللهُ؛ فاحذَروا أن تَفعَلوا كأفعالِهم، فيُصيبَكم مِثلُ ما أصابَهم[٣].

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٠٦، ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٤).
قال السعدي: (الأمرُ بالسَّيرِ في الأرضِ يَدخُلُ فيه السَّيرُ بالأبدانِ، والسَّيرُ في القلوبِ لِلنَّظرِ والتَّأمُّلِ بعواقِبِ المُتقدِّمينَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٦٣، ٢٦٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نهى اللهُ تعالى الكافِرَ عمَّا هو عليه، أمَرَ المؤمِنَ بما هو عليه، وخاطَبَ النَّبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لِيَعلَمَ المؤمِنُ فَضيلةَ ما هو مُكَلَّفٌ به؛ فإنَّه أمَرَ به أشرَفَ الأنبياءِ، ولِلمُؤمِنينَ في التَّكليفِ مَقامُ الأنبياءِ(١).

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾.

أي: فانصِبْ قَصْدَك، وأقبِلْ بقَلبِك على دينِ الإسلامِ الذي جعَلَه اللهُ مُعتَدِلًا مُستقيمًا لا اعوِجاجَ فيه، وبادِرْ إلى العَمَلِ بأوامِرِه واجتِنابِ نواهيه مِن قَبلِ أن يأتيَ يومُ القيامةِ الذي لا يُمكِنُ ردُّ مَجيئِه(٢).

كما قال تعالى حاكيًا دُعاءَ نَبيِّه إبراهيمَ: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾.

أي: يومَ القيامةِ يتفَرَّقُ النَّاسُ فريقَينِ: فريقٌ في الجنَّةِ، وفريقٌ في النَّارِ(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٧٠، ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٧٤).

ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴾ [الروم: ١٤ - ١٦].

﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥ ﴾.

أي: مَن كفَرَ باللهِ فإنَّما وَبالُ كُفرِه واقِعٌ عليه، ولا يَضُرُّ بكُفرِه إلَّا نَفْسَه[1].

﴿ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ ﴾.

أي: ومَن عَمِلَ عَمَلًا صالحًا بإخلاصٍ لله تعالى ومُتابعةٍ لِشَرعِه، فإنَّما يُهَيِّئون لأنفُسِهم النَّجاةَ مِنَ النَّارِ، والفَوزَ بالجنَّةِ[2].

﴿ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى ذَكَر زيادةَ تَفصيلٍ لِما يُمَهِّدُه المؤمِنُ لِفعلِه الخيرَ وعَمَلِه الصَّالح، وهو الجزاءُ الَّذي يُجازيه به اللهُ، والمَلِكُ إذا كان كبيرًا كريمًا، ووعَدَ عَبدًا من عبادِه بأنِّي أُجازيك؛ يَصِلُ إليه منه أكثَرُ ممَّا يتوقَّعُه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٧٣، ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سور الروم)) (ص: ٢٧٤).

قال البقاعي: (﴿يَمۡهَدُونَ﴾ أي: يُسَوُّونَ ويُوطِّئونَ مَنازِلَ في القُبورِ والجنَّةِ، بل وفي الدُّنيا؛ فإنَّ اللهَ يُعِزُّهم بعِزِّ طاعتِه). ((نظم الدرر)) (١٥/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٦).

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ﴾.

أي: لِيَجزيَ[١] اللهُ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ ثوابًا حَسَنًا كريمًا مِن فَضْلِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الكافِرينَ به؛ بسَبَبِ كُفرِهم، وهو مُعاقِبُهم سُبحانَه بعَدلِه[٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ فيه أنَّ النَّاسَ لا يُعاقَبون إلَّا بكسبِهم؛

---

(١) قيل: قَولُه سُبحانَه: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ مُتعلِّقٌ بقَولِه تعالى: ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والسمرقندي، ومكي، وابن عطية، وأبو السعود، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١١١).

وقيل: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ متعلق بـ ﴿يَمْهَدُونَ﴾. وممَّن اختاره: الزمخشري، والقرطبي، والنسفي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٣)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٧٠٤)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٥٠).

وقيل: هو متعلِّقٌ بـ «يأتي» في قَولِه تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾. وقيل: هو خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ تقديرُه: ذلك. والمشارُ إليه ما سبق. واستحسن ابنُ عثيمين هذين القولين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٧٨-٢٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١١١، ١١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٨٤، ٢٨٥).

فيتفرَّعُ على ذلك أنَّ مَن أراد أنْ تُرفَعَ عنه العُقوبةُ فليَتُبْ إلى اللهِ؛ فإنَّ التوبةَ مِن أسبابِ رَفْعِ العُقوبةِ وجَلْبِ المَثوبةِ[(١)].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أي: أقبِلْ بقَلبِك، وتوجَّهْ بوَجهِك، واسْعَ ببَدَنِك؛ لإقامةِ الدِّينِ القَيِّمِ المُستقيمِ؛ فنفِّذْ أوامِرَه ونواهِيَه بجِدٍّ واجتهادٍ، وقُمْ بوظائِفِه الظَّاهِرةِ والباطِنةِ، وبادِرْ زَمانَك وحياتَك وشبابَك ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ وهو يومُ القيامةِ الذي إذا جاء لا يُمكِنُ ردُّه، ولا يُرجَأُ العامِلونَ أن يَستأنِفوا العَمَلَ، بل فُرِغَ مِنَ الأعمالِ لم يَبْقَ إلَّا جزاءُ العُمَّالِ[(٢)]!

٣- قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ ينبغي لِمَن أَمَرَ بشَيءٍ أنْ يَذكُرَ ما يُغري به ويُرَغِّبُ فيه؛ يُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿ٱلْقَيِّمِ﴾؛ فالإنسانُ إذا عَرَفَ أنَّ الدِّينَ قَيِّمٌ، لا شَكَّ أنَّه يتَّجِهُ إليه، فأنت إذا أردْتَ أنْ تأمُرَ بشَيءٍ فاذكُرِ الأسبابَ التي تُوجِبُ للنَّاسِ الإقبالَ عليه بأوصافِه المحبوبةِ، وثَمَراتِه الحَميدةِ[(٣)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- مِن آثارِ الذُّنوبِ والمعاصي أنَّها تُحدِثُ في الأرضِ أنواعًا مِن الفَسادِ؛ في المياهِ والهواءِ، والزَّرعِ والثِّمارِ والمساكِنِ؛ قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[(٤)]- فالفسادُ سببُه أعمالُ بني آدمَ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٢٥٧).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الرَّجاءُ المُستفادُ مِن (لعلَّ) يُشيرُ إلى أنَّ ما ظهَرَ مِن فسادٍ: كافٍ لإقلاعِهم عمَّا اكتَسَبوه، وأنَّ حالَهم حالُ مَن يُرجَى رُجوعُه؛ فإنْ هم لم يرجِعوا فقد تبيَّنَ تمرُّدُهم وعَدَمُ إجداءِ الموعِظةِ فيهم، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[1] [التوبة: ١٢٦].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ إثباتُ العِلَلِ والأسبابِ، وأنَّ أفعالَ اللهِ عزَّ وجلَّ معلَّلَةٌ لا بُدَّ لها مِن علَّةٍ؛ تُؤخذُ هذه مِن قَولِه سُبحانَه: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾، ولا شكَّ أنَّ أفعالَ اللهِ تعالى وأحكامَه مُعلَّلةٌ؛ لأنَّ مِن أسمائِه الحكيمَ[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ أنَّ الجزاءَ مِن جنسِ العَمَلِ، وبقَدْرِ العَمَلِ[3].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أنَّ العُقوباتِ قد تكونُ سَبَبًا في الرُّجوعِ إلى اللهِ تعالى[4].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ أنَّ أسبابَ هلاكِ الأُممِ السَّابِقينَ إشراكُ أكثرِهم[5].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٦).

قال: ﴿فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥ﴾ ولم يُبيِّنْ، وقال في المؤمِنِ: ﴿فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾ تحقيقًا لِكَمالِ الرَّحمةِ؛ فإنَّه عندَ الخيرِ بيَّنَ وفصَّلَ؛ بِشارةً، وعندَ غيرِه أشارَ إليه إشارةً[1].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾ قال: ﴿فَعَلَيۡهِ﴾ فوحَّد الضَّميرَ، وقال: ﴿فَلِأَنفُسِهِمۡ﴾ فجمَعَه؛ إشارةً إلى أنَّ الرحمةَ أعَمُّ مِن الغَضَبِ، فتَشمَلُه وأهلَه وذُرِّيَّتَه، أمَّا الغَضَبُ فمَسبوقٌ بالرَّحمةِ، لازِمٌ لِمَن أساء[2]. وفيه ترغيبٌ في العملِ مِن غيرِ نظرٍ إلى مُساعِد، وبأنَّه يَنفعُ نفْسَه وغيرَه؛ لأنَّ المؤمنَ للمؤمنِ كالبُنْيانِ يَشُدُّ بعضُه بعضًا، وأقَلُّ ما ينفَعُ والِدَيْهِ وشيخَه في ذلك العملِ[3].

٩- قَولُه تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ فيه أنَّ الجزاءَ ليس واجبًا على اللهِ تعالى، لكِنَّه أوجَبَه على نفسِه؛ لِقَولِه تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنعام: ٥٤]، فهو الذي أوجَبَه سُبحانَه[4].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ إثباتُ صفةِ المحبَّةِ لله؛ لأنَّه إذا انتَفَتْ محبَّتُه عن الكافِرينَ لَزِمَتْ محبَّتُه للمُؤمِنينَ، فإنْ لم يكُنْ، لم يكُنْ فرْقٌ بين المؤمِنينَ وبينَ الكافِرينَ[5]!

١١- أنَّ الحُكمَ إذا عُلِّقَ بمُشتقٍّ فهو دليلٌ على أنَّ ذلك المُشتقَّ هو عِلَّةُ الحُكْمِ، وهذه فائدةٌ أصوليَّةٌ؛ مثلًا قَولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ العِلَّةُ هنا كُفْرُهم،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٢٨٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٨٤).

أي: أنَّ الحُكمَ بعَدَمِ حُبِّهم عُلِّقَ على وَصفٍ هو كُفرُهم؛ إذَن فالكُفرُ عِلَّةُ انتفاءِ المحبَّةِ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

هذه الآيةُ مِن جوامعِ كَلِمِ القرآنِ، والمَقصِدُ منها هو الموعظةُ بالحوادثِ ماضِيها وحاضِرِها؛ للإقلاعِ عن الإشراكِ، وعن تَكْذيبِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(٢).

- ويَجوزُ أنْ تكونَ هذه الآيةُ مُتَّصلةً بقولِه قبْلَها: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الروم: ٩] الآياتِ، فلمَّا طُولِبوا بالإقرارِ على ما رَأَوه مِن آثارِ الأُمَمِ الخاليةِ، أو أنكَرَ عليهم عدَمَ النَّظرِ في تلك الآثارِ؛ أتْبَعَ ذلك بما أدَّى إليه طريقُ المَوعظةِ مِن قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: ٢٧]، ومِن ذِكْرِ الإنذارِ بعَذابِ الآخِرةِ، والتَّذكيرِ بدَلائلِ الوَحدانيَّةِ ونِعَمِ اللهِ تعالى، وتَفْريعِ استحقاقِه تعالى الشُّكرَ لِذاتِه ولأجْلِ إنعامِه استِحقاقًا مُستقِرًّا إدراكُه في الفِطرةِ البشريَّةِ، وما تخلَّلَ ذلك مِن الإرشادِ والموعظةِ؛ عاد الكلامُ إلى التَّذكيرِ بأنَّ ما حلَّ بالأُمَمِ الماضيةِ مِن المصائبِ ما كان إلَّا بما كسَبَت أيديهم، أي: بأعمالِهم؛ فيُوشِكُ أنْ يحُلَّ مِثْلُ ما حلَّ بهم بالمُخاطَبين الذين كسَبَتْ أيديهم مِثْلَ ما كسَبَت أيدِي أولئك؛ فمَوقِعُ هذه الجُملةِ على هذا الوجْهِ مَوقِعُ النَّتيجةِ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٢٨٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٩).

مَجموعِ الاستِدلالِ، أو مَوقعُ الاستئنافِ البَيانيِّ، بتَقديرِ سُؤالٍ عن سببِ ما حلَّ بأولئك الأُمَمِ.

ويجوزُ أنْ تقَعَ هذه الآيةُ مَوقِعَ التَّكملةِ لقولِه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوۡاْ رَبَّهُم﴾ [الروم: ٣٣] الآيةَ، فهي خبَرٌ مُستعمَلٌ في التَّنديمِ على ما حلَّ بالمُكذِّبين المُخاطَبين مِن ضُرٍّ؛ لِيَعْلَموا أنَّ ذلك عِقابٌ مِن اللهِ تعالى، فيُقْلِعوا عنه؛ خَشيةَ أنْ يُحيطَ بهم ما هو أشدُّ منه، كما يُؤذِنُ به قولُه عقِبَ ذلك: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾؛ فالإتيانُ بلَفْظِ النَّاسِ في قولِه: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لزِيادةِ إيضاحِ المقصودِ، ومُقْتَضى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: (بما كسَبَت أيديهم)، فالآيةُ تُشيرُ إلى مَصائبَ نزَلَتْ ببِلادِ المشركينَ، وعطَّلَت مَنافِعَها، ولعلَّها ممَّا نشَأَ عن الحرْبِ بينَ الرُّومِ وفارسَ، وكان العربُ مُنقسِمينَ بينَ أنصارِ هؤلاء وأنصارِ أولئك، فكان مِن جرَّاءِ ذلك أنِ انقطَعَت سُبلُ الأسفارِ في البرِّ والبحرِ، فتعطَّلَت التِّجارةُ، وقلَّتِ الأقواتُ بمكَّةَ والحجازِ، كما يَقْتَضيه سَوقُ هذه الموعظةِ في هذه السُّورةِ المُفتتَحةِ بـ ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم: ٢]؛ فمَوقعُ هذه الجُملةِ على هذا الوجْهِ مَوقعُ الاستِئنافِ البَيانيِّ لِسبَبِ مَسِّ الضُّرِّ إيَّاهم، حتَّى لَجَؤوا إلى الضَّراعةِ إلى اللهِ، وما بيْنها وبيْن جُملةِ ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾ [الروم: ٣٣] إلى آخِرِه، اعتراضٌ واستطرادٌ تخلَّلَ في الاعتراضِ.

ويجوزُ أنْ يكونَ مَوقِعُها مَوقعَ الاعتراضِ بيْن ذِكْرِ ابتهالِ النَّاسِ إلى اللهِ إذا أحاط بهمْ ضُرٌّ، ثمَّ إعراضِهم عن عِبادتِه إذا أذاقَهم منه رحمةً، وبيْن ذِكْرِ ما حلَّ بالأُمَمِ الماضيةِ اعتراضًا يُنبِئُ أنَّ الفسادَ الذي يَظهَرُ في العالمِ ما هو إلَّا مِن جرَّاءِ اكتسابِ النَّاسِ، وأنْ لو اسْتَقاموا لكان حالُهم على صَلاحٍ.

وعلى هذه الوُجوهِ الثَّلاثةِ يكونُ الباءُ في قولِه: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾

للعِوَضِ، أي: جزاءً لهم بأعمالِهم، كالباءِ في قولِه تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾ [الشورى: ٣٠]، ويكونُ اللَّامُ في قولِه: ﴿لِيُذِيقَهُم﴾ على معنى التَّعليلِ.

ويجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ بالفسادِ الشِّركَ، فتكونَ هذه الآيةُ مُتَّصلةً بقولِه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ﴾ إلى قولِه: ﴿هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖ ﴾ [الروم: ٤٠]، فتكونَ الجُملةُ إتْمامًا للاستدلالِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى؛ تَنْبيهًا على أنَّ اللهَ خلَقَ العالَمَ سالِمًا مِن الإشراكِ، وأنَّ الإشراكَ ظهَرَ بما كسَبَت أيدي النَّاسِ مِن صَنيعِهم؛ فذِكْرُ البَرِّ والبحرِ لتَعميمِ الجِهاتِ، بمعنى: ظهَرَ الفسادُ في جميعِ الأقطارِ الواقعةِ في البَرِّ، والواقعةِ في الجزائرِ والشُّطوطِ، ويكون الباءُ في قولِه: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ ﴾ للسَّببيَّةِ، ويكون اللَّامُ في قولِه: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ ﴾ لامَ العاقبةِ[(١)].

- قولُه: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ ﴾ إسنادُ الكَسْبِ إلى الأيدِي جَرَى مَجْرى المَثلِ في فِعلِ الشَّرِّ والسُّوءِ مِن الأعمالِ كلِّها، دونَ خُصوصِ ما يُعمَلُ منها بالأيدِي؛ لأنَّ ما يَكسِبُه النَّاسُ يكونُ بالجوارحِ الظَّاهرةِ كلِّها، وبالحواسِّ الباطنةِ مِن العَقائدِ الضَّالَّةِ والأدواءِ النَّفْسيَّةِ[(٢)]، ولأنه لَمَّا كان أكثَرُ الأفعالِ باليَدِ، أسنَدَ إليها ما يُرادُ به الجُملةُ، مُصَرِّحًا بعُمومِ كُلِّ ما له أهليَّةُ التحرُّكِ[(٣)].

- والبعضيَّةُ في قولِه: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ تَبْعيضٌ للجزاءِ؛ فالمُرادُ بَعضُ الجزاءِ على جميعِ العمَلِ، لا الجزاءُ على بعضِ العمَلِ، أي: إنَّ ما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٩ - ١١١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٠٥).

يُذِيقُهم مِن العذابِ هو بَعضُ ما يَستحِقُّونه. وفي هذا تَهديدٌ إنْ لم يُقلِعوا عن مَساوي أعمالِهم، كقولِه تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]. والعُدولُ عن أنْ يُقالَ: (بعضَ أعمالِهم) إلى ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾؛ للإيماءِ إلى ما في الموصولِ مِن قوَّةِ التَّعريفِ، أي: أعمالُهم المَعروفةُ عندَهم، المُتقرِّرُ صُدورُها منْهم(١).

٢- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾

لَمَّا وعَظَهم بما أصابَهم مِن فسادِ الأحوالِ، ونبَّهَهم إلى أنَّها بعضُ الجزاءِ على ما كسَبَت أيدِيهم؛ عرَّضَ لهم بالإنذارِ بفَسادٍ أعظمَ قد يحُلُّ بهم مِثْلُه؛ وهو ما أصاب الذين مِن قبْلِهم بسبَبِ ما كانوا عليه مِن نَظيرِ حالِ هؤلاء في الإشراكِ، فأمَرَهم بالسَّيرِ في الأرضِ والنَّظرِ في مَصيرِ الأُمَمِ التي أشْرَكَت وكذَّبَت، مِثْلُ عادٍ، وثمودَ، وقومِ لُوطٍ، وغيرِهم؛ لأنَّ كثيرًا مِن المشركينَ قد اجْتازُوا في أسْفارِهم بدِيارِ تلك الأُمَمِ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨]؛ فهذا تَكريرٌ وتأْكيدٌ لقولِه السَّابقِ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الروم: ٩]، وإنَّما أُعِيدَ اهتمامًا بهذه العِبرةِ، مع مُناسبةِ قولِه: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾(٢) [الروم: ٤١].

- وقولُه: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ استئنافٌ؛ للدَّلالةِ على أنَّ ما أصابَهم لِفُشوِّ الشِّركِ فيما بيْنَهم، أو كان الشِّركُ في أكثَرِهم، وما دُونه مِن المَعاصي في قَليلٍ منهم، أو أنَّ الشِّركَ وحْدَه لم يكُنْ سببَ تدْميرِهم، وأنَّ ما دُونه مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١١٤).

المعاصي يكونُ سببًا لذلك[1].

- وحِين ذكَرَ امتنانَه قالَ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ [الروم: ٤٠]، فذكَرَ الوجودَ، ثمَّ البَقاءَ بسَببِ الرِّزقِ. وحِينَ ذكَرَ خِذلانَهم بالطُّغيانِ، سلَب البقاءَ بإظهارِ الفسادِ، ثمَّ سلَب الوجودَ بالإهلاكِ[2].

٣- قَولُه تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ تَفرَّعَ على الإنذارِ والتَّحذيرِ مِن عواقبِ الشِّركِ تَثبيتُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على شَريعتِه، ووعْدٌ بأنْ يأْتيَه النَّصرُ، مع التَّعريضِ بالإرشادِ إلى الخَلاصِ مِن الشِّركِ باتِّباعِ الدِّينِ القيِّمِ. وهذا تأْكيدٌ للأمْرِ بإقامةِ الوجْهِ للدِّينِ في قولِه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم: ٣٠]؛ فإنَّ ذلك لَمَّا فُرِّعَ على قولِه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الروم: ٩]، وما اتَّصلَ مِن تَسلسُلِ الحُجَجِ والمواعظِ؛ فُرِّعَ أيضًا نَظيرُه هذا على قولِه: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾[3] [الروم: ٤٢].

- والخِطابُ في قولِه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بهذا الأمْرِ: إعراضٌ عن صَريحِ خِطابِ المشركينَ، والمَقصودُ التَّعريضُ بأنَّهم حَرَموا أنفُسَهم مِن اتِّباعِ هذا الدِّينِ العَظيمِ الذي فيه النَّجاةُ؛ يُؤخَذُ هذا التَّعريضُ مِن أمْرِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالدَّوامِ على الإسلامِ،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٤، ١١٥).

ومِن قولِه عَقِبَ ذلك: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ﴾[١].

- قولُه: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ يَتعلَّق بـ ﴿يَأۡتِيَ﴾؛ والمعنَى: مِن قبْلِ أنْ يأتِيَ مِن اللهِ يومٌ لا يرُدُّه أحدٌ. وقيل: يتعلَّقُ بـ ﴿مَرَدَّ﴾، على معنَى: لا يرُدُّه هو بعْدَ أنْ يَجيءَ به، ولا رَدَّ له مِن جِهَتِه. والوجْهُ الأوَّلُ أبلَغُ؛ لإطلاقِ الرَّدِّ وتَفخيمِ اليومِ، وأنَّ إتْيانَه مِن جِهَةِ عظيمٍ قادرٍ ذي سُلطانٍ قاهرٍ[٢].

٤- قولُه تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾

هذه الجُملةُ تَتنزَّلُ مَنزلةَ البَيانِ لإجمالِ الجُملةِ التي قبْلَها، وهي ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ﴾ [الروم: ٤٣]؛ إذ التَّثبيتُ على الدِّينِ بعدَ ذِكْرِ ما أصاب المُشركينَ مِن الفسادِ بسَببِ شِركِهم يَتضمَّنُ تَحْقيرَ شأْنِهم عندَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ، فبيَّن ذلك بأنَّهم لا يَضُرُّون بكُفْرِهم إلَّا أنفُسَهم، والذي يَكشِفُ هذا المعنى تقْديمُ المُسنَدِ في قولِه: ﴿فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥ﴾؛ فإنَّه يُفيدُ تَخصيصَه بالمُسنَدِ إليه، أي: فكُفْرُه عليه لا عليكَ ولا على المؤمنينَ، ولهذا ابتُدِئَ بذِكْرِ حالِ مَن كفَرَ، ثمَّ ذكَرَ بعْدَه مَن عمِلَ صالحًا[٣].

- وهذا التَّركيبُ ﴿فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥ﴾ مِن جوامعِ الكَلِمِ؛ لدَلالتِه على ما لا يُحْصى مِن المَضارِّ في الكفْرِ على الكافرِ، وأنَّه لا يَضُرُّ غيرَه، مع تَمامِ الإيجازِ، وهو وعيدٌ؛ لأنَّه في معنى: مَن كفَرَ فجزاؤهُ عِقابُ اللهِ، فاكْتُفِيَ عن التَّصريحِ بذلك؛ اكتفاءً بدَلالةِ (على) مِن قولِه: ﴿فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥ﴾، وبمُقابَلةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٦).

حالِهم بحالِ مَن عمِلَ صالحًا بقولِه: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾(١) [الروم: ٤٥].

- وتَقديمُ الظَّرفِ في الموضعين ﴿فَعَلَيۡهِ﴾ ﴿فَلِأَنفُسِهِمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على الاختِصاصِ، أي: أنَّ ضرَرَ الكفْرِ لا يَعودُ إلَّا على الكافرِ لا يتعدَّاهُ. ومَنفعةُ الإيمانِ والعمَلِ الصَّالحِ تَرجِعُ إلى المؤمنِ لا تَتجاوَزُه. وقِيل: التَّقديمُ للاهتمامِ، وليس للاختصاصِ(٢).

- وأيضًا اقْتَضى حرْفُ الاستعلاءِ (على) في قولِه: ﴿فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥ﴾ أنَّ في الكفْرِ تَبِعةً وشِدَّةً وضرًّا على الكافرِ؛ لأنَّ (على) تَقْتضي ذلك في مِثْلِ هذا المقامِ، كما اقْتَضى اللَّامُ في قولِه: ﴿فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾ أنَّ لِمَجْرورِها نفْعًا وغُنْمًا(٣).

- وأفرَدَ ضَميرَ كلمةِ ﴿كُفۡرُهُۥ﴾؛ رعْيًا لِلَفْظِ (مَن)(٤).

- قولُه: ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾ بيانٌ لِمَا في جُملةِ ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ﴾ [الروم: ٤٣]؛ مِن الأمرِ بمُلازَمةِ التَّحلِّي بالإسلامِ، وما في ذلك مِن الخيرِ العاجلِ والآجلِ، مع ما تَقْتضيه عادةُ القرآنِ مِن تَعقيبِ النِّذارةِ بالبِشارةِ، والتَّرهيبِ بالتَّرغيبِ؛ فهو كالتَّكملةِ للبَيانِ. وإنَّما قُوبِلَ ﴿مَن كَفَرَ﴾ بـ (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا)، ولم يُقابَلْ: بـ (مَن آمَنَ)؛ للتَّنويهِ بشأْنِ المؤمنينَ بأنَّهم أهلُ الأعمالِ الصَّالحةِ دونَ الكافرينَ، فاسْتُغْنِيَ بذِكْرِ العملِ الصَّالحِ عن ذِكْرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٩٦، ٣٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٦).

الإيمانِ؛ لأنَّه يَتضمَّنُه، ولِتَحريضِ المؤمنينَ على الأعمالِ الصَّالحةِ[١].

- وأظهرَ قَولَه تعالى ﴿صَٰلِحًا﴾، ولم يُضمِرْ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ عَودُ الضَّميرِ على مَن كَفَر، وبشارةً بأنَّ أهلَ الجنَّةِ كَثيرٌ، وإن كانوا قليلًا؛ لأنَّ الله تعالى هو مَولاهم، فهو مُزكِّيهم[٢].

- وقولُه: ﴿فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾ فيه تَقديمُ ﴿فَلِأَنفُسِهِمۡ﴾ على ﴿يَمۡهَدُونَ﴾؛ للرِّعايةِ على الفاصلةِ، مع الاهتمامِ بذِكرِ أنفُسِ المؤمنينَ؛ لأنَّ قَرينةَ عدَمِ الاختصاصِ واضحةٌ. ورُوعِيَ في جمْعِ ضَميرِ ﴿يَمۡهَدُونَ﴾ معنَى (مَن) دونَ لَفْظِها، مع ما تَقْتضِيه الفاصلةُ مِن ترْجيحِ تلك المُراعاةِ[٣].

٥- قَولُه تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿يَمۡهَدُونَ﴾، وهو تَعليلٌ له[٤].

- وعُدِلَ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾؛ للاهتمامِ بالتَّصريحِ بأنَّهم أصحابُ صِلَةِ الإيمانِ والعمَلِ الصَّالحِ، وأنَّ جزاءَ اللهِ إيَّاهم مُناسِبٌ لذلك؛ لِتَقريرِ ذلك في الأذهانِ، مع التَّنويهِ بوَصْفِهم ذلك بتَكريرِه وتَقريرِه، كما أنبأَ عن ذلك قولُه عَقِبَه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ المُقْتضي أنَّه يُحِبُّ الذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٦، ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٩)، ((حاشية =

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ تقريرٌ بعدَ تَقرير، على الطَّردِ والعكْس؛ فإنَّه تعالى قال أوَّلًا: ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾، ثمَّ علَّلَه بقولِه: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾، وكان مِن حقِّ الظَّاهرِ: (لِيَجْزِيَهم)؛ فوُضِعَ المُظهَرُ مَوضِعَ المُضمَرِ إشعارًا بالعِلِّيَّة، وأنَّ الإيمانَ والعمَلَ آذَنا بأنَّ اللهَ وليُّ صاحبِهما، حيث يَجْزيه مِن فضْلِه؛ فيكونُ مَفهومُ ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ الموافقُ: أنَّه يُحِبُّ المؤمنَ الصَّالحَ، ومَفهومُه المُخالِفُ: أنَّه لا يُحِبُّ الكافرَ، فقولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بمَنطوقِه مُقرِّرٌ لِمَفهومِ السَّابقِ، وبالعكْسِ[(١)].

- وقولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ وعيدٌ، ولم يُفصِّلْه، وهذا الإجمالُ فيه كالتَّفصيلِ؛ فإنَّ عدَمَ المَحبَّةِ مِن اللهِ تعالى غايةُ العذابِ. أو لأنَّ عدَمَ مَحبَّتِه تعالى كِنايةٌ عن بُغضِه المُوجِبِ لِغَضَبِه المُستتبعِ للعُقوبةِ لا مَحالةَ[(٢)].

- والظَّاهرُ أنَّ قولَه تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ﴾ الآيةَ، كالموردِ للسُّؤال، والخِطابُ لكلِّ أحدٍ مِن المُكلَّفينَ. وقولُه: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥ﴾ الآيةَ، واردٌ على الاستِئنافِ، مُنطَوٍ على الجوابِ؛ فكأنَّه لَمَّا قِيل: أقيموا على الدِّينِ القيِّمِ قَبْلَ مَجيءِ يَومٍ يَتفرَّقون فيه، فقِيل: ما للمُقيمينَ على الدِّينِ؟ وما على المُنحرِفين عنه؟ وكيف يَتفرَّقون؟ فأُجيبَ: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥ﴾ الآيةَ. وأمَّا قولُه: ﴿لِيَجۡزِيَ

= الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٣).

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ...﴾ الآيةَ؛ فيَنْبغي أنْ يكونَ تَعليلًا للكلِّ؛ لِيَفْصِلَ ما تَرتَّبَ على ما لهمْ وعليهم، ولكنْ يَتعلَّقُ بـ﴿يَمۡهَدُونَ﴾ وحْدَه؛ لشِدَّةِ العِنايةِ بشأْنِ الإيمانِ والعمَلِ الصَّالحِ وعدَمِ العبْءِ بعمَلِ الكافرِ؛ ولذلك وُضِعَ مَوضعُه ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[١].

- وفي هذه الآيةِ لَطيفةٌ ومُناسَبةٌ حَسَنةٌ، وهي أنَّ اللهَ تعالى عندما أسْنَدَ الكُفْرَ والإيمانَ إلى العبْدِ قدَّمَ الكافرَ، وعنْدَما أسنَدَ الجَزاءَ إلى نفْسِه قدَّمَ المؤمِنَ؛ لأنَّ قولَه: ﴿مَن كَفَرَ﴾ وعيدٌ للمُكلَّفِ؛ لِيَمتنعَ عمَّا يَضُرُّه، فيُنقِذَه مِن الشَّرِّ. وقولُه: ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ تَحريضٌ له وتَرغيبٌ في الخيرِ؛ لِيُوصِلَه إلى الثَّوابِ، والإيعادُ مُقدَّمٌ، وأمَّا عندَ الجزاءِ ابتدَأَ بالإحسانِ؛ إظهارًا للكرَمِ والرَّحمةِ[٢].



(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٦٠).

الآيات (٤٦-٥٣)

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ٱلْفُلْكُ﴾: أي: السُّفنُ، وواحدُه وجمْعُه بلفظٍ واحدٍ، وأصلُ (الفلك): الاستدارةُ في الشَّيءِ، ولعلَّ السُّفنَ سُمِّيت فُلكًا؛ لأنَّها تُدارُ في الماءِ(١).

﴿فَتُثِيرُ﴾: أي: فتُنشِئُ، وأصلُ (ثور): يدُلُّ على انبعاثِ الشَّيءِ(٢).

﴿فَيَبْسُطُهُۥ﴾: أي: يَنشُرُه، والبَسطُ: النَّشرُ، وأصلُ (بسط): يَدُلُّ على امتِدادِ شَيءٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢١).

﴿كِسَفًا﴾: أي: قِطَعًا، وأصلُ (كسف): يدُلُّ على قَطعِ شَيءٍ مِن شَيءٍ[(١)].

﴿ٱلْوَدْقَ﴾: أي: المطَرَ، وأصلُ (ودق): يدُلُّ على إتيانٍ؛ لأنَّ المطَرَ يَجيءُ مِنَ السَّماءِ[(٢)].

﴿لَمُبْلِسِينَ﴾: أي: لَيائسينَ، وأصْلُ (بلس): يدُلُّ على يأسٍ[(٣)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا آياتِه الدَّالَّةَ على قدرتِه، ومظاهِرِ فضلِه على النَّاسِ ورحمتِه بهم: ومِن العَلاماتِ الدَّالَّةِ على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى وكَمالِ قُدرتِه وغَيرِ ذلك: أن يُرسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ لكم بما فيه نَفعُكم، كنُزولِ المطَرِ، ولِيُصيبَكم ببَعضِ نِعَمِه، ولِتَسيرَ السُّفُنُ في البِحارِ بأمرِه تعالى، ولِتَلتَمِسوا الرِّزقَ بالسَّيرِ في البَحرِ، ولعلَّكم تَشكُرونَ رَبَّكم على هذه النِّعَمِ.

ولقد أرسَلْنا من قَبلِك -يا مُحمَّدُ- رُسُلًا إلى قَومِهم، فجاؤُوهم بالآياتِ الواضِحةِ الدَّالَّةِ على صِدقِهم، فأهلَكْنا الَّذين كَفَروا وكذَّبوا، وكان واجِبًا علينا نصرُ المؤمنينَ.

اللهُ وَحْدَه الَّذي يُرسِلُ الرِّياحَ فتُنشِئُ سَحابًا وتُسَيِّرُه، فيَنشُرُه في السَّماءِ كما

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٨١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧٧)، ((التبيان لابن الهائم)) (ص: ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٤)، ((التبيان لابن الهائم)) (ص: ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٣، ٣٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٥).

يَشاءُ، ويجعَلُه قِطَعًا، فتَرى المطَرَ يَقطُرُ مِن بَينِ السَّحابِ، فإذا أصاب ذلك المطَرُ مَن يشاءُ اللهُ مِن عبادِه، فَرِحوا به، والحالُ أنَّهم كانوا قبْلَ نُزولِ المطَرِ عليهم يائِسينَ، فانظرْ إلى آثارِ المطَرِ الَّذي يُنزِلُه اللهُ رَحمةً لِعِبادِه، كيف يُحيي به اللهُ الأرضَ اليابِسةَ بعدَ جُدوبِها؟!

إنَّ اللهَ الَّذي أحيا الأرضَ الميِّتةَ بالمطَرِ لَمُحيي الموتَى في الآخرةِ بقُدرتِه، وهو على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

ولَئِنْ أرسَلْنا ريحًا أفسَدَت زَرْعَهم فرآه أصحابُه قد اصفَرَّ ويَبِسَ بعدَما كان أخضَرَ، لَظَلُّوا مِن بعدِ ذلك يَكفُرون برَبِّهم ويَجحَدونَ نِعَمَه سُبحانه!

ثمَّ يسلِّي الله تعالى نبيَّه عمَّا لَحِقه منهم مِن أذى، فيقولُ: فإنَّك -يا محمَّدُ- لا تُسمِعُ هؤلاء الكُفَّارَ الَّذين ماتت قلوبُهم، ولا تُسمِعُ الكُفَّارَ الَّذين أصَمَّ اللهُ آذانَهم سَماعًا ينتَفِعونَ به، وما أنت بهادي الكُفَّارِ الَّذين أعمى اللهُ قلوبَهم فترُدَّهم عن ضَلالتِهم إلى الإيمانِ؛ ما تُسمِعُ -يا محمَّدُ- الحَقَّ سَماعَ انتِفاعٍ به إلَّا الَّذين يُؤمِنونَ بآياتِنا، فهم خاضِعونَ لله، مُنقادونَ لطاعتِه سُبحانَه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى ظُهورَ الفَسادِ والهلاكِ بسبَبِ الشِّركِ؛ ذكَرَ ظُهورَ الصَّلاحِ، ولم يذكُرْ أنَّه بسبَبِ العَمَلِ الصَّالحِ؛ لأنَّ الكريمَ لا يَذكُرُ لإحسانِه عِوَضًا، ويَذكُرُ لأضْدادِه سَبَبًا؛ لئَلَّا يُتوهَّمَ به الظُّلمُ(١).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٧).

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾.

أي: ومِن العَلاماتِ الدَّالَّةِ على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وعِلمِه ورَحمتِه، وحِكمتِه وكَمالِ قُدرتِه، وغيرِ ذلك: أنْ يُرسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ لكم بحُصولِ ما فيه نَفعُكم، مِن نُزولِ المطَرِ أو غَيرِه(١).

كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾[الأعراف: ٥٧].

﴿ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾.

أي: ولِيُصيبَكم ببَعضِ نِعَمِه(٢).

﴿ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ ﴾.

أي: ولِتَسيرَ السُّفُنُ في البِحارِ عندَ هُبوبِها بأمرِ اللهِ لها، وتقديرِه وتَسخيرِه ذلك(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١١٣، ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢١)، ((تفسير القرطبي)) (ص: ٦٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١١٣، ١١٤).

قال البقاعي: (من المياهِ العَذبةِ، والأشجارِ الرَّطبةِ، وصِحَّةِ الأبدانِ، وخِصبِ الزَّمانِ، وما يَتبَعُ ذلك من أمورٍ لا يُحصيها إلَّا خالِقُها، ولا يتصَوَّرُها حَقَّ تصَوُّرِها إلَّا مَن فَقَدَ الرِّياحَ؛ من وجودِ الرَّوحِ، وزكاءِ الأرضِ، وإزالةِ العُفونةِ مِن الهواءِ، والإعانةِ على تذريةِ الحُبوبِ، وغيرِ ذلك). ((نظم الدرر)) (١٥/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٩).

قال القرطبي: (وإنما زاد ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾؛ لأنَّ الرِّياحَ قد تَهُبُّ ولا تكونُ مؤاتيةً، فلا بُدَّ مِن إرساءِ =

﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

أي: ولِتَلتَمِسوا بالسَّيرِ في البَحرِ مِن رِزقِ اللهِ[١].

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أي: ولعلَّكم تَشكُرونَ رَبَّكم على تلك النِّعَمِ الإلهيَّةِ، فتَقومونَ بتَوحيدِه وطاعتِه سُبحانَه[٢].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى البراهينَ، ولم ينتَفِعْ بها الكُفَّارُ؛ سلَّى قَلبَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، وقال: حالُ مَن تقدَّمَك كان كذلك، وجاؤوا أيضًا بالبيِّناتِ، وكان في قَومِهم كافِرٌ ومُؤمِنٌ كما في قَومِك، فانتقَمْنا مِنَ الكافرينَ، ونصَرْنا المؤمِنينَ[٣].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

أي: ولقدْ أرسَلْنا مِن قَبْلِك -يا محمَّدُ- رُسُلًا إلى قَومِهم الكافِرينَ، فجاؤوهم

= السُّفُنِ والاحتيالِ بحَبسِها، وربمَّا عَصَفت فأغرقَتْها بأمرِه). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٣). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١١٤، ١١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٨).

بالدَّلائِلِ الواضِحاتِ على صِدقِهم[١].

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾.

أي: فأهلَكْنا الَّذين كَفَروا وكَذَّبوا بآياتي ورُسُلي؛ فكذلك نُهلِكُ مَن كَفَر وكَذَّب بالحَقِّ مِن قَومِك يا محمَّدُ[٢].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ * كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [المرسلات: ١٦ - ١٨].

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

أي: ونجَّيْنا المؤمِنينَ باللهِ ورَسولِه، وكان واجِبًا علينا ذلك؛ فحَقٌّ علينا أيضًا أن ننصُرَك -يا محمَّدُ- والمؤمِنينَ بك[٣].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٤٨﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾.

أي: اللهُ وَحْدَه الذي يُرسِلُ الرِّياحَ مَرَّةً بعدَ أخرى، فتُحرِّكُ سَحابًا مِن سُكونِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٨، ٥١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: المصادر السابقة.

وتُسَيِّرُه، فيَمُدُّه اللهُ ويَنشُرُه في السَّماءِ على الهيئةِ والصِّفةِ الَّتي يَشاؤُها سُبحانَه بحِكمتِه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ [فاطر: ٩].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور: ٤٣].

﴿وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿كِسَفًا﴾ قراءتانِ:

١- قراءةُ ﴿كِسْفًا﴾ قيل: هي اسمٌ مُفردٌ بمعنى: قِطعةٍ واحِدةٍ، وقيل: هي جَمعُ كِسْفةٍ، فتكونُ ﴿كِسْفًا﴾ بمعنى: قِطَعًا، وهي معنى القراءةِ الثانيةِ[2].

٢- قِراءةُ ﴿كِسَفًا﴾ أي: قِطَعًا، جمعُ كِسْفةٍ، وهي القِطعةُ[3].

﴿وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١١٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣٠٨).

(٢) قرأ بها هشامٌ بخُلفٍ عنه، وابن ذكوان، وأبو جعفر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٩). ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٢٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٠٠، ١٠١)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ٥١، ٥٢).

(٣) قرأ بها الباقون، وهو الوجه الثاني لهشام. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٩). ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٢٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٠٠، ١٠١)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ٥١).

أي: ويجعَلُ اللهُ السَّحابَ قِطَعًا[1].

﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾.

أي: فترى المطَرَ يَقطُرُ مِن بينِ السَّحابِ[2].

﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

أي: فإذا أنزل اللهُ المطَرَ على مَن يَشاءُ مِن عِبادِه، تراهم يَفرَحونَ بنُزولِه[3].

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: والحالُ أنَّهم قَبلَ نُزولِ المطَرِ عليهم كانوا حزينينَ يائِسينَ باحتِباسِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١١٩).

قال البقاعي: (﴿كِسَفًا﴾ أي: قِطَعًا غيرَ متَّصِلٍ بَعضُها ببعضٍ اتِّصالًا يمنَعُ نزولَ الماءِ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ١١٩، ١٢٠).

وقال ابن عثيمين: (قال بعضُ المفَسِّرين: معنى كونِه كِسَفًا: أنَّه قِطَعٌ مُتراكِبةٌ بَعضُها فوقَ بعضٍ، حتَّى يَسْوَدَّ ويَدْلَهِمَّ ويحصُلَ فيه الرَّعدُ والبَرقُ، وهذا أَولى، وهو في الغالِبِ أكثَرُ مَطرًا). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣٠٨).

قال ابنُ كثير: (﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ قال مجاهدٌ، وأبو عمرو بنُ العلاءِ، ومطرٌ الورَّاقُ، وقَتادةُ: يعني قِطَعًا. وقال غيره: مُتراكِمًا، قاله الضَّحَّاكُ. وقال غيره: أسوَدُ من كثرةِ الماءِ، تراه مُدْلَهِمًّا ثقيلًا قريبًا مِن الأرضِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣٠٩).

قال ابن عاشور: (الخطابُ في ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ خِطابٌ لِغَيرِ مُعَيَّنٍ، وهو كُلُّ مَن يتأتَّى منه سماعُ هذا، وتتأتَّى منه رؤيةُ الوَدْقِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٢).

عنهم[١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٢١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣١١).

قيل: الضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ يعودُ إلى المطرِ. ومِمَّن قال بذلك: ابن جرير، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٧).

وقيل: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ تكريرٌ معناه التَّأكيدُ. وممن اختاره الأخفشُ، والشوكاني، ونَسَبه النَّحاسُ إلى أكثَرِ النَّحْويِّينَ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٦٦)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٥/ ٢٦٨).

قال الشوكاني بعدَ أنْ رجَّح هذا الوجهَ: (ما بعدَه مِن هذه الوجوهِ كُلِّها ففي غايةِ التَّكلُّفِ والتَّعسُّفِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٦٦).

وقيل: الضَّميرُ عائِدٌ إلى استبشارِهم. ومِمَّن قال بهذا المعنى: البقاعي، وأبو السعود، واستحسَنه ابن عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣١٣).

وقيل: الضميرُ يعود إلى القَبْلِ المذكورِ في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾، فهُم مِن قَبلِ هذا القَبلِ مُبلِسونَ؛ إشارةً إلى أنَّ الإبلاسَ مُستَمِرٌّ معهم مِن قديم الزمان. ذكر هذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣١٣).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (وأمَّا قولُه تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾ فهي مِن أشكَلِ ما أُورِدَ، وممَّا أعضَلَ على النَّاسِ فَهمُها... وأمَّا قَولُه: ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ﴾ فليس مِن التَّكرارِ، بل تحتَه معنًى دقيقٌ، والمعنى فيه: وإن كانوا من قَبلِ أن يُنَزَّلَ عليهم الوَدْقُ مِن قَبلِ هذا النُّزولِ لَمُبلسينَ؛ فهنا قبليَّتانِ: قبليَّةٌ لِنُزولِه مُطلقًا، وقبليَّةٌ لذلك النُّزولِ المعَيَّنِ ألَّا يكونَ متقَدِّمًا على ذلك الوَقتِ؛ فيَئِسوا قبلَ نُزولِه يأسَين: يأسًا لِعَدمِه مَرئيًّا، ويأسًا لتأخُّرِه عن وَقتِه؛ فـ «قَبلُ» الأولى: ظرفُ اليأسِ، و«قبلُ» الثَّانيةُ: ظرفُ المجيءِ والإنزالِ؛ ففي الآيةِ ظَرفانِ مَعمولانِ وفِعلانِ مُختَلِفانِ عاملانِ فيهما، وهما الإنزالُ والإبلاسُ، فأحدُ الظَّرفَينِ متعَلِّقٌ بالإبلاسِ، والثَّاني متعَلِّقٌ بالنُّزولِ؛ وتمثيلُ هذا: أن تقولَ إذا كنتَ مُعتادًا للعطاءِ مِن شَخصٍ فتأخَّرَ عن ذلك الوَقتِ ثمَّ أتاك به: قد كنتُ آيِسًا). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٢٧٧-٢٧٩). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٣).

﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه رَتَّب على ما تقَرَّر مِن استِحضارِ صورةِ تكوينِ أسبابِ المطَرِ، واستِبشارِ النَّاسِ بنُزولِه بعدَ الإبلاسِ: أنِ اعترَضَ بذِكرِ الأمرِ بالنَّظَرِ إلى أثَرِ الرَّحمةِ، وإغاثةِ اللهِ عِبادَه حينَ يُحيي لهم الأرضَ بعدَ مَوتِها بالجَفافِ[(١)].

﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

أي: فانظُرْ إلى آثارِ المطَرِ الَّذي رَحِمَ اللهُ به عِبادَه: كيف يُحيي به اللهُ الأرضَ اليابِسةَ، فيُنبِتُها بعدَ قُحوطِها وجُدوبِها[(٢)]؟

كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى﴾.

أي: إنَّ اللهَ الَّذي أحيا الأرضَ المَيتةَ بالمطَرِ، لَمُحْيي الموتى في الآخِرةِ بقُدرتِه[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ٩ - ١١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٣).

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: واللهُ على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ، لا يُعجِزُه شَيءٌ سُبحانَه، ومِن ذلك: بعْثُ عِبادِه بعدَ مَوتِهم[1].

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ۝٥١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّهم عندَ توقُّفِ الخيرِ يكونونَ مُبلِسينَ آيسينَ، وعندَ ظُهورِه يكونونَ مُستَبشِرينَ؛ بيَّنَ أنَّ تلك الحالةَ أيضًا لا يَدومونَ عليها، فهم مُتقَلِّبونَ غيرُ ثابتينَ؛ لِنَظَرِهم إلى الحالِ لا إلى المآلِ[2].

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ۝٥١﴾.

أي: ولَئِنْ أرسَلْنا ريحًا مُفسِدةً للزَّرعِ، فرأى أصحابُ الزَّرعِ زَرعَهم قد فَسَد بالرِّيحِ فاصفرَّ ويَبِسَ؛ لَظَلُّوا مِن بعدِ هذه الحالِ[3] يَكفُرونَ برَبِّهم، فيَيئَسونَ من رَحمتِه، ويَجحَدونَ نِعَمَه سُبحانَه[4]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٧٩)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٩).

(٣) قيل: المرادُ: مِن بعدِ اصفِرارِ زَرعِهم بالرِّيحِ. وممَّن قال بذلك: السمرقندي، وابن الجوزي، والبقاعي والعليمي والقاسمي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٢٣)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٩٤)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٠).

وقيل: المرادُ: مِن بعدِ استبشارِهم وفرحتِهم بزَرعِهم الأخضرِ قبلَ اصفرارِه. وممَّن قال بذلك: ابن جرير، ومكي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٧٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي =

كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ * لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣ - ٦٧].

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا عَلَّمَ رَسولَه أنواعَ الأدِلَّةِ وأصنافَ الأمثلةِ، ووعَدَ وأوعَدَ، ولم يَزِدْهم دعاؤُه إلَّا فِرارًا، وإنباؤُه إلَّا كُفرًا وإصرارًا؛ قال له[1]:

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

أي: فإنَّك -يا محمَّدُ- لا تَستطيعُ أن تُسمِعَ هؤلاء الكُفَّارَ الَّذين ماتت قُلوبُهم سَماعًا ينتَفِعونَ به، إنْ لم يُرِدِ اللهُ أن يَهديَهم[2].

كما قال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

= (١٥/ ١٢٣-١٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٥).

وقيل: الضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ يعودُ إلى الرِّيحِ. ومِمَّن قال بذلك: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٥).

قال القرطبي: (الريحُ يجوزُ تذكيرُه. قال محمَّدُ بنُ يزيدَ: لا يمتَنِعُ تذكيرُ كُلِّ مُؤنَّثٍ غيرِ حقيقيٍّ، نحو: أعجبَني الدَّارُ، وشِبهُه. وقيل: فرأوا السَّحابَ. وقال ابنُ عبَّاسٍ: الزَّرعَ، وهو الأثَرُ، والمعنى: فرَأَوُا الأثَرَ مُصفَرًّا، واصفِرارُ الزَّرعِ بعدَ اخضِراره يدُلُّ على يُبسِه، وكذا السَّحابُ يدُلُّ على أنَّه لا يُمطِرُ، والرِّيحُ على أنَّها لا تُلقِحُ). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٥). ويُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٣/ ١٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٢٤، ١٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣٢٨-٣٣٠).

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿يَسْمَعُ﴾ بفَتحِ الياءِ والميمِ، و﴿الصُّمُّ﴾ بالرَّفعِ فاعِلًا للفِعلِ، أي: لا يَنقادون للحَقِّ كما لا يُجيبُ الأصَمُّ النِّداءَ الموَجَّهَ إليه[١].

٢- قراءةُ ﴿تُسۡمِعُ﴾ بالتَّاءِ المضمومةِ وكَسرِ الميمِ، و﴿ٱلصُّمَّ﴾ بالنَّصبِ مَفعولًا به، والخِطابُ لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أي: إنَّك لا تَقدِرُ أن تُسمِعَ دُعاءَك الصُّمَّ المعرِضينَ عنك[٢].

﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾.

أي: ولا تَقدِرُ -يا مُحمَّدُ- أن تُسمِعَ الحَقَّ الكُفَّارَ الَّذين أصَمَّ اللهُ آذانَهم سَماعًا ينتَفِعونَ به، إذا أعرَضوا عن سَماعِ الحَقِّ وتدَبُّرِه[٣].

كما قال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

---

(١) قرأ بها ابن كثير. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٤٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٣٦).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٣٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٣٦)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ١١٠، ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢٨).

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣].

﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٥٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بدأ بفاقِدِ حاسَّةِ السَّمعِ؛ لأنَّها أنفَعُ مِن حيثُ إنَّ الإنسانَ إنَّما يفارِقُ غيرَه مِن البهائِمِ بالكلامِ، أتْبَعَها حاسَّةَ البصَرِ[(١)].

﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ﴾.

أي: وما أنت -يا مُحمَّدُ- بهادِي الكُفَّارِ الَّذين أعمى اللهُ بصائرَهم وقُلوبَهم عن الحَقِّ؛ فتَصرِفَهم عن ضَلالِهم وكُفرِهم، وتَرُدَّهم إلى الإيمانِ[(٢)].

﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾.

أي: ما تُسمِعُ -يا مُحمَّدُ- الحَقَّ سَماعَ انتِفاعٍ به إلَّا الَّذين يُؤمِنونَ بآياتِنا، فهم مُتذَلِّلونَ وخاضِعونَ لله، مُنقادونَ لطاعتِه سُبحانَه[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٤).

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ أي: هؤلاءِ الَّذين ينفَعُ فيهم إسماعُ الهُدى: المؤمِنونَ بآياتِنا بقُلوبِهم، المُنقادونَ لأوامِرِنا، المُسلِمونَ لنا؛ لأنَّ معهم الدَّاعيَ القَويَّ لِقَبولِ النَّصائحِ والمواعِظِ، وهو استِعدادُهم للإيمانِ بكُلِّ آيةٍ مِن آياتِ اللهِ، واستِعدادُهم لِتَنفيذِ ما يَقدِرونَ عليه مِن أوامِرِ اللهِ ونواهيه[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ﴾، فجمَع الرِّياحَ هنا؛ إشارةً إلى باهِرِ القُدرةِ؛ فإنَّ تحويلَ الرِّيحِ الواحدةِ مِن جهةٍ إلى أخرى أمرٌ عظيمٌ، لا قُدرةَ لغيرِه عليه في الفضاءِ الواسِعِ، وكذا إسكانُه، فكيف إذا كانت رياحٌ مُعاكِسةٌ؟ ففي إثارتِها كذلك ثمَّ إسكانِها من باهِرِ القُدرةِ ما لا يَعلَمُه إلَّا أُولو البصائِرِ[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ إثباتُ العِلَلِ والحِكَمِ في أفعالِ اللهِ تعالى؛ لِقَولِه: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾؛ لأنَّها للتعليلِ[3].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا﴾ تنبيهًا على أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خاتَمُ النَّبيِّينَ، بتَخصيصِ إرسالِ غَيرِه بما قبْلَ زَمانِه[4].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ﴾ أنَّ الرِّسالاتِ السَّابقةَ خاصَّةٌ، ويُبيِّنُه

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٤).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١١٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٢٩٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٧٤).

الحديثُ الثَّابِتُ في الصَّحيحَينِ: ((وكان النَّبيُّ يُبعثُ إلى قَومِه خاصَّةً، وبُعِثْتُ إلى النَّاسِ عامَّةً[١]))[٢].

٥- في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جعَلَ عزَّ وجَلَّ على نفْسِه حقًّا لِعبادِه المؤمنينَ، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وفي الصَّحيحَينِ: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال لِمُعاذِ بنِ جبَلٍ وهو رَديفُه: يا مُعاذُ، أتَدْري ما حقُّ الله على عِبادِه؟ قُلْتُ: الله ورسولُه أعلَمُ، قال: حقُّه عليهم أن يَعبُدوه، ولا يُشركوا به شيئًا. أتَدري ما حقُّ العِبادِ على الله إذا فعَلوا ذلك؟ قلتُ: الله ورسولُه أعلَمُ. قال: حقُّهم عليه ألَّا يُعَذِّبَهم))[٣]. فهذا حقٌّ وجَبَ بكَلِماتِه التَّامَّةِ، ووعْدِه الصَّادِقِ، وقد اتَّفَقَ العلماءُ على وُجوبِ ما يجِبُ بوَعْدِه الصَّادِقِ[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ قال: ﴿يُرْسِلُ﴾ ﴿فَتُثِيرُ﴾ فأضاف الإثارةَ إلى السَّحابِ؛ لأنَّها سَبَبُ هذه الإثارةِ، فتُثيرُ سَحابًا فيَبسُطُه في السَّماءِ كيف يشاءُ؛ فلا بأسَ بإضافةِ الشَّيءِ إلى سَبَبِه مع اعتِقادِ أنَّه سَبَبٌ محضٌ، وأنَّ خالِقَ السَّبَبِ هو اللهُ عزَّ وجَلَّ[٥].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أنَّ السَّماءَ تُطلَقُ على كُلِّ ما علا؛ فإنَّ السَّحابَ لا يُبسَطُ في السَّماءِ التي هي السَّقفُ المحفوظُ، وإنَّما

(١) أخرجه مطولًا البخاري (٣٣٥) واللفظ له، ومسلم (٥٢١) من حديث جابرِ بنِ عبدِ الله رَضيَ الله عنهما.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٣٠١).

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٥٦، ٥٩٦٧)، ومسلم (٣٠) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٣٠٩، ٣١٠).

(٥) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ١٢٣).

يُبسَطُ في الجوِّ العالي[(١)].

٨- في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾ دليلٌ على جواز التَّأكيدِ في القرآن وزيادةِ البيان -على القولِ بأنَّ ﴿مِن قَبْلِ﴾ للتأكيدِ-، وهو رَدٌّ على مَن قال: «ليس ذلك في القرآن»[(٢)]!

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الجَمادَ يُوصَفُ بالحياةِ والموتِ؛ ففيه رَدٌّ على الفلاسِفةِ الَّذين يقولونَ: «إنَّ الجَمادَ لا يمكِنُ أن يُوصَفُ بالحياةِ والموتِ؛ لأنَّه غيرُ قابلٍ لها»، فنقولُ: إنَّ اللهَ وَصَفَ الجمادَ بأنَّه حَيٌّ ومَيِّتٌ كما في هذه الآيةِ، وكما في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ [النحل: ٢٠، ٢١] مع أنَّها أصنامٌ مِن الأحجارِ والأشجارِ وما أشبَهَها[(٣)].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ * وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ بيانُ أنَّ مُجَرَّدَ دُعائِك وتبليغِك وحِرصِك على هُدى النَّاسِ: ليس بموجِبٍ ذلك، وإنَّما يَحصُلُ ذلك إذا شاء اللهُ هُداهم فشَرَح صدورَهم للإسلامِ، كما قال تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾[(٤)] [النحل: ٣٧].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ لَمَّا نفى إسماعَ الميِّتِ والأصَمِّ، وأثبت إسماعَ المؤمِنِ بآياته؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((النُّكَت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٣٢٥).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٩١).

لزِمَ أن يكونَ المؤمِنُ حَيًّا سَميعًا، وهو كذلك؛ لأنَّ المؤمِنَ تَرِدُ على قَلبِه أمطارُ البراهينِ، فتَنبُتُ في قَلبِه العقائِدُ الحَقَّةُ، ويَسمَعُ زواجِرَ الوَعظِ، فتَظهَرُ منه الأفعالُ الحَسَنةُ[1].

١٢- قولُه: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡ﴾ سُمُّوا عُمْيًا؛ إمَّا لعَمَى قُلوبِهم، أو لِفَقْدِهم المقصودَ الحَقيقيَّ مِن الإبصارِ[2]. فإنَّه يُقالُ لكلِّ صحيحِ البصَرِ ولا يُعمِلُ بصَرَه: أعمى، وإنَّما يُرادُ به: أنَّه قد حلَّ محلَّ مَن لا يُبصِرُ الْبَتَّةَ، إذا لم يُعمِلْ بصَرَه، وكذلك يُقالُ للسَّميعِ الَّذي لا يَقْبَلُ: أصَمُّ، قال الله جلَّ ذِكرُه: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ [البقرة: ١٨]، كما قال جل ثناؤه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، وكذلك: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [النمل: ٨٠]، وقوله عز وجل: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗ﴾[3] [البقرة: ١٧١].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ أشار بالإفرادِ في الشَّرطِ إلى أنَّ لَفتَ الواحِدِ عن رأيِه أقرَبُ مِن لَفتِه وهو مع غيرِه، وأشار بالجَمعِ في الجزاءِ إلى أنَّ هذه الطَّريقةَ إن سُلِكَت كثُرَ التَّابعُ، فقال: ﴿فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾[4].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ عَوْدٌ إلى تَعدادِ الآياتِ الدَّالَّةِ على

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((الكامل في اللغة والأدب)) للمبرد (٢/ ١١٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٢٧).

تفرُّدِه بالإلهيَّةِ؛ فهو عَطْفٌ على جُملةِ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥]، وما تَخلَّلَ بيْنَهما مِن أفانينِ الاستِدلالِ على الوَحدانيَّةِ والبعثِ ومِن طرائقِ الموعظةِ، كان لِتَطْريةِ نَشاطِ السَّامعينَ لهذه الدَّلائلِ المُوضِّحةِ المُبيِّنةِ(١).

- قولُه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ ليس تَبشيرُها مُقتَصرًا به على المطَرِ، بلْ لها تبْشيراتٌ بسبَبِ السُّفنِ والسَّيرِ بها إلى مَقاصدِ أهْلِها؛ وكأنَّه بدَأَ أوَّلًا بشَيءٍ عامٍّ، وهو التَّبشيرُ، ثمَّ ذكَرَ مِن أعظَمِ تَباشيرِها إذاقةَ الرَّحمةِ، وهي نُزولُ المطَرِ، ويَتبَعُه حُصولُ الخِصْبِ، والرِّيحِ الذي معه الهُبوبُ، وإزالةِ العُفونةِ مِن الهواءِ، وتَذْريةِ الحُبوبِ، وغيرِ ذلك(٢).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾، وقال في سُورةِ (الجاثية): ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الجاثية: ١٢]، فزادَ: ﴿فِيهِ﴾ في سُورةِ (الجاثية)، وترَكَها في سُورةِ (الرُّومِ)؛ وذلك لأنَّ الهاءَ في قولِه: ﴿فِيهِ﴾ عائدةٌ إلى البحرِ، وقد ذُكِرَ في سُورةِ (الجاثيةِ)، فعاد إليه الضَّميرُ، وهو قولُه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الجاثية:١٢]، ولم يَتقدَّمْ للبحرِ ذِكْرٌ في الآيةِ التي ذكَرَ فيها جَرْيَ الفُلكِ في سُورةِ (الرُّوم)، وإنَّما نبَّهَ على النِّعمةِ بالرِّياحِ وإظهارِ آياته فيها، فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم:٤٦]، أي: باجتِلابِ السَّحابِ واعتِصارِه للأمطارِ، وهو الذي يُذيقُنا مِن رَحمتِه، مع ما تُلقَّحُ منه الأشجارُ في وقْتِه، وقال: ﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٨).

بِأَمۡرِهِۦ﴾، أي: بالرِّياحِ إذا أذِنَ اللهُ تعالى[1].

- قولُه: ﴿وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ﴾ التَّقييدُ بقوله: ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾ تَعليمٌ للمؤمنينَ وتَحقيقٌ للمِنَّةِ، أي: لولا تَقديرُ اللهِ ذلك وجعْلُه أسبابَ حُصولِه؛ لَمَا جَرَتِ الفُلْكُ، وتحتَ هذا مَعانٍ كثيرةٌ يَجمَعُها إلهامُ اللهِ البشرَ لِصُنْعِ الفُلْك، وتَهذيبِ أسبابِ سَيْرِها. وخلَقَ نِظامَ الرِّيحِ والبحرِ؛ لِتَسخيرِ سَيرِها، كما دلَّ على ذلك قولُه: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[2].

- وإنَّما زاد ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾؛ لأنَّ الرِّيحَ قد تهُبُّ ولا تكونُ مُوافِقةً، فلا بُدَّ مِن إرساءِ السُّفنِ، والاحتيالِ لِحبْسِها، وربَّما عصَفَت فأغْرَقَتْها[3].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لعلَّ توسيطَ هذه الآيةِ الكريمةِ بطَريقِ الاعتراضِ بيْنَ ما سبَقَ وما لَحِقَ مِن أحوالِ الرِّياحِ وأحكامِها؛ لإنذارِ الكَفَرةِ وتَحْذيرِهم عن الإخلالِ بمَواجبِ الشُّكرِ المطلوبِ بقولِه تعالى: (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)، بمُقابَلةِ النِّعمِ المَعدودةِ المَنُوطةِ بإرسالِها؛ كيْلَا يحُلَّ بهم مِثْلُ ما حَلَّ بأولئك الأُمَمِ مِن الانتقامِ[4]. فجاءَتْ هذه الآيةُ تأْنيسًا للرَّسولِ وتَسليةً، ووعْدًا بالنَّصرِ، ووَعيدًا لأهْلِ الكُفْرِ[5].

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٠٥٤، ١٠٥٥)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٠٣)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٠١)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٣٦٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٨).

- وفي قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ ﴾ [الروم: ٤٧]، وقولِه السابقِ في هذه السُّورة: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ [الروم: ٩]: إنْ قيل: لِمَ لَمْ يَرِدْ ذِكْرُ أَخْذِهم بالانتقامِ منهم لَمَّا أجْرَموا مُتَّصِلًا بالتَّذكيرِ بالاعتبارِ بهم، وكان يَحصُلُ ذلك كلُّه في كلامٍ مُتَّصلٍ بعضُه ببَعضٍ؟ ولِمَ وقَعَ ذِكْرُ أخْذِهم بالانتقامِ منهم لمَّا كذَّبوا مُتأخِّرًا عن الواردِ مِن حالِهم أوَّلًا التي أُمِرَ هؤلاء ونُهُوا عن الاعتبارِ بها؟

فالجوابُ: جَرى ذلك على المُعتادِ منه سُبحانه في دُعاءِ الخلْقِ إلى الإيمانِ مِن التَّلطُّفِ والرِّفقِ في الدُّعاءِ، وهذا في القرآنِ كثيرٌ، فلمَّا أُمِرَ هؤلاء وذُكِّروا بالاعتبارِ بمَن تقدَّمَ مِن القُرونِ، ولم يَتقدَّمْ قبْلَ الآيةِ إلَّا التَّلطُّفُ والتَّأنيسُ؛ لم يكُنْ لِيُناسِبَ ذلك مِن أخْذِ المُكذِّبين إلَّا ما يكونُ إيماءً وإشارةً لا إفصاحًا؛ فلذلك اكْتَفى أوَّلًا مِن الإشارةِ إلى أخْذِهم بقولِه سُبحانه: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾[الروم: ٩]، وترَكَ الإفصاحَ بالانتقامِ إلى أنْ ورَدَ إخبارًا منه سُبحانَه لنَبيِّه -عليه السَّلامُ- في غيرِ مَعرضِ الدُّعاءِ إلى الإيمانِ، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ ﴾ [الروم: ٤٧]، وحصَلَ التَّعريفُ بغايةِ حالِ المَذْكورين قبْلُ في تكذيبِهم؛ فهذا مُوجِبُ تَفريقِ هذا الإخبارِ(١).

- وقد اختصَرَ طريقَ الإفصاحِ عن غرَضِ الوعْدِ بالنَّصرِ والوعيدِ له؛ فأدرَجَ تحتَ ذِكْرِ النَّصرِ معنى الانتِصارِ، وأدْرَجَ ذِكْرَ الفريقَينِ: فريقِ المُصدِّقين

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٩٥).

المَوعودِ، وفريقِ المُكذِّبين المُتوعَّدِ، وقد أُخلِيَ الكلامُ أوَّلًا عن ذِكْرِهما. وفي هذا تَبشيرٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ بالنَّصرِ في العاقبةِ على المُكذِّبين، وأكَّدَ ذلك بقولِه: ﴿حَقًّا﴾[١].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾ فَصيحةٌ، أي: فكذَّبُوهم فانْتَقمْنا منهم، وإنَّما وُضِعَ ضَميرُهم الموصولُ؛ للتَّنبيهِ على مكانِ المَحذوفِ، والإشعارِ بكَونِه عِلَّةً للانتقامِ[٢].

- قولُه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في لفْظِ ﴿حَقًّا﴾ مُبالَغةٌ في التَّحتُّمِ، وتعْظيمٌ للمؤمنينَ، ورفْعٌ مِن شأْنِهم، وتأْهيلٌ لكَرامةٍ سَنيَّةٍ، وإظهارٌ لفضْلٍ سابقةٍ ومَزيَّةٍ؛ حيث جعَلَهم مُستَحقِّينَ على اللهِ أنْ يَنصُرَهم، مُستوجِبينَ عليه أنْ يُظهِرَهم ويُظفِرَهم[٣].

- والظَّاهرُ أنَّ ﴿حَقًّا﴾ خبَرُ (كان)، و﴿نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الاسمُ، وأُخِّرَ لكونِ ما تعلَّقَ به فاصلةً؛ للاهتمامِ بالجزاءِ؛ إذ هو مَحطُّ الفائدةِ[٤].

- ومَوقعُ قولِه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ مَوقعُ التَّوكيدِ والتَّذييلِ والتَّعليلِ مِن قولِه: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾؛ لأنَّ المعنى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾، فكذَّبوهم واسْتَهزؤوا بهم وقَصَدوا الفتْكَ بهم، ﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾ منهم ونصَرْنا المؤمنينَ، وقد جرَتْ سُنَّةُ اللهِ بالانتقامِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٨).

والنَّصرِ[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لِبَيانِ ما أُجْمِلَ فيما سبَقَ مِن أحوالِ الرِّياحِ[٢].

- وقد جاءتِ المُناسَبةُ هنا لذِكْرِ الاستِدلالِ بإرسالِ الرِّياحِ في قولِه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾ [الروم: ٤٦]؛ استِدلالًا على التَّفرُّدِ بالتَّصرُّفِ، وتَصويرِ الصُّنْعِ الحكيمِ الدَّالِّ على سَعةِ العِلْمِ، ثمَّ أعقَبَ بالاستدلالِ بإرسالِ الرِّياحِ؛ توسُّلًا إلى ذِكْرِ إحياءِ الأرضِ بعدَ مَوتِها المُستدَلِّ به على البَعثِ؛ فقد أفادَتْ صِيغَةُ الحصْرِ بقولِه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ ﴾ أنَّه هو المُتصرِّفُ في هذا الشَّأنِ العَجيبِ دونَ غيرِه، وكَفى بهذا إبطالًا لإلَهيَّةِ الأصنامِ؛ لأنَّها لا تَستطيعُ مِثْلَ هذا الصُّنعِ الذي هو أقربُ التَّصرُّفاتِ في شُؤونِ نفْعِ البشَرِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ ﴾ جمعَ الرِّياحَ؛ لِمَا شاع في استعمالِهم مِن إطلاقِها بصِيغَةِ الجمْعِ على رِيحِ البِشارةِ بالمطَرِ؛ لأنَّ الرِّياحَ التي تُثيرُ السِّحابَ هي الرِّياحُ المُختلفةُ جِهاتُ هُبوبِها بين: جَنوبٍ، وشِمالٍ، وصَبًا ودَبورٍ، بخلافِ اسمِ الرِّيحِ المُفرَدةِ؛ فإنَّه غلَبَ في الاستعمالِ إطلاقُه على رِيحِ القوَّةِ والشِّدَّةِ؛ لأنَّها تتَّصِلُ واردةً من صَوبٍ واحدٍ، فلا تَزالُ تَشتَدُّ[٤].

- والتَّعبيرُ بصِيغَةِ المُضارعِ في ﴿ يُرْسِلُ ﴾ و﴿ فَتُثِيرُ ﴾ و﴿ فَيَبْسُطُهُۥ ﴾

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٢١).

﴿وَيَجۡعَلُهُۥ﴾؛ لاستحضارِ الصُّورِ العجيبةِ في تلك التَّصرُّفاتِ، حتَّى كأنَّ السَّامعَ يُشاهِدُ تكوينَها، مع الدَّلالةِ على تَجدُّدِ ذلك[1].

- وذِكْرُ اختلافِ أحوالِ العِبادِ في وقْتِ نُزولِ المطَرِ، وفي وقْتِ انحِباسِه بيْن استبشارٍ وإبلاسٍ في قولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾: إدْماجٌ[2] للتَّذكيرِ برَحمةِ اللهِ إيَّاهم، وللاعتبارِ باختلافِ تأثُّراتِ نُفوسِهم في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، وفي ذلك إيماءٌ إلى عظيمِ تَصرُّفِ اللهِ في خِلْقةِ الإنسانِ؛ إذ جعَلَهُ قابلًا لاختلافِ الانفعالِ مع اتِّحادِ العقْلِ والقلْبِ، كما جعَلَ السَّحابَ مُختلفَ الانفعالِ مِن بسْطٍ وتقطُّعٍ مع اتِّحادِ الفِعلِ، وهو خُروجُ الودْقِ مِن خِلالِه[3].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ﴾

- قولُه: ﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ من بابِ التَّكريرِ والتَّوكيدِ وتَقريرِه في نُفوسِ السَّامعينَ -على قولٍ-؛ وهذا التَّأكيدُ قِيل: إنَّه قد أفادَ الإعلامَ بسُرعةِ تقلُّبِ قُلوبِ البشَرِ من الإبلاسِ إلى الاستبشارِ؛ فإعادةُ قوله: ﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ زيادةُ تَنْبيهٍ على الحالةِ التي كانت مِن قبْلِ نُزولِ المطَرِ. وقِيل: فيه الدَّلالةُ على أنَّ عَهْدَهم بالمطَرِ قد تطاوَلَ، فاسْتَحْكَم إبلاسُهم، فكان الاستبشارُ على قدْرِ اغتمامِهم؛ ففائدةُ إعادةِ ﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ أنَّ مدَّةَ ما قبْلَ نُزولِ المطَرِ مُدَّةٌ طويلةٌ، فأُشِيرَ إلى قوَّتِها بالتَّوكيدِ[4]. ....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٠، ١٢١).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) =

وقيل: ليس مِن التكرار[(١)].

- وأخَّرَ الإبلاسَ عن الاستبشارِ، وأبْرَزَه في صُورةِ الشَّرطيَّةِ؛ إرادةً للمُبالَغةِ، وتثْنيةً للتَّقريعِ؛ إذ لو أُرِيدَ الظَّاهرُ لَقِيلَ: فإذا أصابَ به القانِطينَ فَعَلوا كذا، كقولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ [الشورى: ٢٨]، ولذلك قطَعَ ما هو مُتَّصِلٌ بأصلِ الكلامِ مِن قولِه: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾، وعلَّقَ به نوعًا آخرَ مِن التَّوبيخِ؛ إشعارًا بتَعديدِ النِّعَمِ، وتَكريرِ تلقِّيهم إيَّاها بالكُفْرانِ؛ ألَا ترَى كيف عقَّبَ ذلك بقولِه: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الروم: ٥٢] الآيةَ[(٢)]؟

٥- قَولُه تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالةِ على سُرعةِ ترتُّبِ النِّعَمِ المُترتِّبةِ على تنزيلِ المَطرِ؛ مِن النَّباتِ، والأشجارِ، وأنواعِ الثِّمارِ[(٣)].

- والمُرادُ بالأمْرِ بالنَّظرِ التَّنبيهُ على عِظَمِ قُدرتِه تعالى وسَعَةِ رَحمتِه، مع ما فيه مِن التَّمهيدِ لِمَا يَعقُبُه مِنْ أمْرِ البعثِ[(٤)].

- وفي قولِه: ﴿فَٱنظُرْ﴾ جاء الخِطابُ بالنَّظرِ لغَيرِ مُعيَّنٍ؛ ليَعُمَّ كلَّ مَن يتأتَّى

= (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٢، ١٢٣).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٧٨). وقد تقدَّم ذكرُ توجيهِه لذلك تحتَ تفسيرِ الآيةِ.

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٦٥).

منه النَّظرُ[١].

- قولُه: ﴿كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ﴿يُحْيِ﴾ حِكايةُ حالٍ ماضيةٍ؛ بدَليلِ قولِه: ﴿فَانظُرْ﴾؛ لأنَّ الأمْرَ بالنَّظرِ مَسبوقٌ بوُجودِ المَنظورِ إليه، وإنَّما عُدِلَ إلى المُضارعِ؛ لإحضارِ تلك الحالةِ العجيبةِ الشَّأْنِ في مُشاهَدةِ السَّامعِ، وهي اخضرارُ الأرضِ بآثارِ رَحمةِ اللهِ بعدَ جَفافِها[٢].

- وعبَّرَ عن الجَفافِ بالموتِ؛ لأنَّ قِوامَ الحياةِ الرُّطوبةُ، وعُبِّرَ عن ضِدِّه بالإحياءِ[٣].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتَى﴾ استِئنافٌ، وهو إدْماجٌ؛ أُدْمِجَ دليلُ البعثِ عقِبَ الاعتبارِ بإحياءِ الأرضِ بعدَ مَوتِها. وحرْفُ التَّوكيدِ يُفيدُ مع تقريرِ الخبرِ زِيادةَ معنَى فاءِ التَّسبُّبِ[٤].

- واسمُ الإشارةِ ﴿ذَلِكَ﴾ عائدٌ إلى اسمِ اللهِ تعالى بما أُجْرِيَ عليه مِن الإخبارِ بإحياءِ الأرضِ بعدَ مَوتِها؛ لِيُفيدَ اسمُ الإشارةِ معنَى أنَّه جديرٌ بما يَرِدُ بعْدَه مِن الخبَرِ عن المُشارِ إليه، وعُدِلَ عن الموصولِ إلى الإشارةِ؛ للإيجازِ، ولِمَا في الإشارةِ مِن التَّعظيمِ[٥].

- قولُه: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتَى﴾ لَمَّا كان وعْدُ اللهِ مَقطوعَ الحُصولِ، جِيءَ في التَّنزيلِ ﴿لَمُحْيِ﴾ اسمًا مع اللَّامِ خبرًا لـ (إنَّ)، واسْمُه اسمُ الإشارةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٢٣، ١٢٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٢٤).

وذُيِّلَت بقولِه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[(١)].

- وقولُه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تَذْييلٌ؛ فإنَّه يعُمُّ جميعَ الأشياءِ، والبعثُ مِن جُملتِها؛ إذ ليس هو إلَّا إيجادَ خَلْقٍ، وهو مَقدورٌ للهِ تعالى، كما أنشَأَ الخلْقَ أوَّلَ مرَّةٍ، والشَّبَهُ تامٌّ؛ لأنَّ إحياءَ الأرضِ إيجادُ أمثالِ ما كان عليها مِن النَّباتِ، فكذلك إحياءُ الموتَى إيجادُ أمثالِهم[(٢)].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ سِيقَت هذه الجُملةُ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الكُفرانَ مَطْبوعٌ في نُفوسِهم، بحيث يُعاوِدُهم بأدْنى سبَبٍ؛ فهمْ إذا أصابَتْهم النِّعمةُ اسْتَبْشروا ولم يَشكُروا، وإذا أصابَتْهم البأساءُ أسْرَعوا إلى الكُفرانِ؛ فصوَّرَ لِكُفْرِهم أعجَبَ صُورةٍ؛ وهي إظهارُهم إيَّاهُ بحِدْثانِ ما كانوا مُسْتبشرينَ منه؛ إذ يكونُ الزَّرعُ أخضَرَ، والأملُ في الارتزاقِ منه قريبًا، فيُصيبُه إعصارٌ، فيَحترِقُ، فيَضِجُّون مِن ذلك، وتكونُ حالُهم حالةَ مَن يَكفُرُ باللهِ، وتَجْري على أقوالِهم عباراتُ السَّخَطِ والقُنوطِ[(٣)]؛ فهذه الآيةُ ناعيةٌ على الكفَّارِ بقِلَّةِ تَثبُّتِهم وعدَمِ تَدبُّرِهم، وسُرعةِ تَزَلْزُلِهم؛ لِعدَمِ تفكُّرِهم وسُوءِ رأْيِهم؛ فإنَّ النَّظرَ السَّوِيَّ يَقْتضي أنْ يتوكَّلوا على اللهِ، ويَلْتجِئوا إليه بالاستغفارِ إذا احتبَسَ القَطْرُ عنهم، ولا يَيْئَسوا مِن رَحمتِه، وأنْ يُبادِروا إلى الشُّكرِ والاستدامةِ بالطَّاعةِ إذا أصابَهم برَحمتِه، ولم يُفرِطُوا في الاستبشارِ، وأنْ يَصبِروا على بلائِه إذا ضرَبَ زُروعَهم بالاصفِرارِ، ولا يَكْفُروا نِعَمَه[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٤، ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٥، ٤٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٥).

- والفاءُ في ﴿فَرَأَوۡهُ﴾ فَصيحةٌ، واللَّامُ في قولِه تعالى: ﴿لَّظَلُّواْ﴾ لامُ جوابِ القسَمِ سادٌّ مَسدَّ الجوابين، أي: وباللهِ لَئِنْ أرسَلْنا رِيحًا حارَّةً أو باردةً، فضَرَبتْ زرْعَهُم بالصَّفارِ، فرأَوه مُصفرًّا لِيَظَلُّنَّ...[1].

- و(المُصفَرُّ): اسمُ فاعلٍ مُقتضٍ الوصفَ بمعناهُ في الحالِ، أي: فرأَوهُ يَصيرُ أصفَرَ، فالتَّعبيرُ بـ ﴿مُصۡفَرّٗا﴾؛ لتَصويرِ حِدْثانِ الاصفرارِ عليه دونَ أنْ يُقالَ: فرأَوهُ أصفَرَ[2].

- والإتيانُ بفِعلِ التَّصييرِ ﴿لَّظَلُّواْ﴾، مع الإخبارِ عنه بالفِعلِ المُضارعِ ﴿يَكۡفُرُونَ﴾؛ لِتَصويرِ مُبادرتِهم إلى الكفْرِ، ثمَّ استمرارِهم عليه، واعْلَمْ أنَّ الإتيانَ بالأفعالِ الثَّلاثةِ ماضيةٌ؛ لأنَّ وُقوعَها في سِياقِ الشَّرطِ يُمحِّضُها للاستقبالِ، فأُوثِرَت صِيغَةُ المُضِيِّ؛ لأنَّها أخفُّ[3].

وقيل: عبَّرَ بالماضي مَوضِعَ المُستقبَلِ نحوَ: (لَيظلَلْنَ واللهِ)؛ تأكيدًا لتحقيقِه[4].

- فإنْ قِيل: مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُوضَعَ مَوضِعَ ﴿إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ (لم يَحْمَدوا)، ومَوضِعَ ﴿لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ﴾ (لَضَجُّوا وجَزِعوا).

فالجوابُ: إنَّما عدَلَ في الأوَّلِ؛ لِيُؤْذِنَ بأنَّ الفرَحَ المُفرِطَ بطَرٌ وأَشَرٌ، وليس ذلك مِن شأْنِ الشَّاكِرِ الحامِدِ، بلْ مِن دَيْدَنِ الكافرِ، وأشعَرَ بالثَّاني أنَّ فُقدانَ الصَّبرِ عندَ نُزولِ البلاءِ دَليلٌ على عدَمِ الرِّضا بالقضاءِ، وهو إخراجٌ لِربْقةِ العُبوديَّةِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٢٣).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٦٩).

٧- قَولُه تعالى: ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ الفاءُ للتَّرتيبِ على قولِه: ﴿لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ [الروم: ٥١] المُفيدِ أنَّ الكفْرَ غالبُ أحوالِهم؛ لأنَّهم بيْن كُفْرٍ باللهِ وبيْن إعراضٍ عن شُكْرِه. أو الفاءُ فَصيحةٌ تَدلُّ على كلامٍ مُقدَّرٍ، أي: إنْ كَبُرَ عليك إعراضُهم، وساءَكَ استرسالُهم على الكُفْرِ؛ فإنَّهم كالمَوتى، وإنَّك لا تُسمِعُ المَوتى. وهذا مَعذِرةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ونِداءٌ على أنَّه بذَلَ الجهْدَ في التَّبليغِ[1].

- وتقْييدُ الحُكْمِ المَذكورِ بقولِه: ﴿إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾؛ لِبَيانِ كَمالِ سُوءِ حالِ الكَفَرةِ، والتَّنبيهِ على أنَّهم جامِعُون لِخَصْلتَيِ السُّوءِ: نُبُوِّ أسْماعِهم عن الحقِّ، وإعراضِهم عن الإصغاءِ إليه، ولو كانَ فيهم إحداهُما لَكفاهُم ذلك، فكيفَ وقدْ جمَعُوهما؟! فإنَّ الأصمَّ المُقبِلَ إلى المُتكلِّمِ ربَّما يَفطُنُ مِن أوضاعِه وحرَكاتِه لشَيءٍ مِن كلامِه وإنْ لم يَسْمَعْهُ أصلًا، وأمَّا إذا كانَ مُعرِضًا عنه، فلا يَكادُ يَفهَمُ منه شيئًا[2].

٨- قَولُه تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾

- ومِن المُناسَبةِ الحَسنةِ في قولِه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴾ وقولِه: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ *

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٥، ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٥).

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ * وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾: أنَّ تَعدادَ التَّشابيهِ في هذه الآياتِ مَنظورٌ فيه إلى اختلافِ أحوالِ طوائفِ المُشرِكين، فكان لكلِّ فريقٍ تَشبيهٌ: فمنْهم مَن غلَبَ عليهم التَّوغُّلُ في الشِّركِ، فلا يُصدِّقون بما يُخالِفُه، ولا يَتأثَّرون بالقرآنِ، والدَّعوةِ إلى الحقِّ، فهؤلاء بمَنزلةِ الأمواتِ؛ أشباحٌ بلا إدراكٍ، وهؤلاء همْ دَهْماؤهم وأغلَبُهم، ولذلك ابتُدِئَ بهم. ومِنهم مَن يُعرِضُ عن استماعِ القرآنِ، وهم الذين يَقولون: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ [فصلت: ٥]، ويقولون: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦]، وهؤلاء همْ ساداتُهم ومُدبِّرو أمْرِهم؛ يَخافون إنْ أصْغَوا إلى القرآنِ أنْ يَملِكَ مَشاعِرَهم؛ فلذلك يَتباعَدون عن سَماعِه؛ ولهذا قُيِّدَ الذي شُبِّهوا به بوقْتِ تَولِّيهم مُدْبِرين إعراضًا عن الدَّعوةِ؛ فهو تَشبيهُ تَمثيلٍ. ومنهم مَن سَلَكوا مَسلَكَ ساداتِهم، واقْتَفَوا خُطاهم، فانحرَفَتْ أفهامُهم عن الصَّوابِ، فهمْ يسْمَعون القرآنَ، ولا يَسْتطيعون العمَلَ به، وهؤلاء همُ الذين اعْتادُوا مُتابَعةَ أهوائِهم، وهمُ الذين قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، ويَحصُلُ مِن جميعِ ذلك تشْبيهُ جَماعتِهم بجماعةٍ تَجمَعُ أمواتًا وصُمًّا وعُمْيًا، فليس هذا مَن تَعدُّدِ التشبيهِ لِمُشبَّهٍ واحدٍ، كالذي في قولِه تعالى: ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[1] [البقرة: ١٩].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٦).

الآيات (٥٤-٥٧)

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُؤْفَكُونَ﴾: أي: يُصرَفون عن الحقِّ، ويُصَدُّون عن الصواب، يُقالُ: أَفَكَ الرَّجلُ عن كذا: إذا عدَل عنه، والإفْكُ: كلُّ مصروفٍ عن وجهِه الَّذي يحقُّ أن يكونَ عليه، وأصلُ (أفك): قلْبُ الشَّيءِ، وصَرْفُه عن جهتِه[(١)].

﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾: أي: يُطلَبُ منهم أن يُزيلوا غَضَبَ رَبِّهم بالتَّوبةِ وصالحِ العَمَلِ؛ مِن الاستِعتابِ: وهو الرُّجُوعُ عن الإساءةِ، والتَّعَرُّضُ لِطَلَبِ الرِّضا، وأصلُ الكَلِمةِ مِن (العَتْبِ): وهو الغضَبُ والمَلامةُ، يُقالُ: عتَبَ عليه يَعتِبُ: إذا غَضِبَ عليه ولامَه، وأعتبَه: إذا أزالَ عنه عَتْبَه، واستَعْتَبَه: إذا طلَبَ منه الإعتابَ، أي: الرِّضا[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٣)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣/ ٣٠٩)، ((فتح القدير)) للشوكاني (٣/ ٢٢٣).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مذكِّرًا الناسَ بمراحلِ حياتِهم، وسَعةِ عِلمِه وعظيمِ اقتِدارِه، وكمالِ حكمتِه: اللهُ الَّذي خَلَقَكم -أيُّها النَّاسُ- مِن ضَعفٍ، ثمَّ جَعَل لكم مِن بَعدِ ضَعفِكم قُوَّةً، ثمَّ جَعَل فيكم مِن بَعدِ قُوَّتِكم ضَعفًا بالشَّيبِ والهرَمِ، يخلُقُ اللهُ ما يشاءُ، وهو العَليمُ القَديرُ.

ثمَّ يُذكِّرُهم بأحوالِهم يومَ القيامةِ، فيقولُ: ويومَ تقومُ القيامةُ يُقسِمُ الكُفَّارُ بأنَّهم ما مَكَثوا غيرَ ساعةٍ واحدةٍ، كذلك كانوا يُكَذِّبونَ ويُصرَفونَ عن الحَقِّ في الدُّنيا.

وقال الَّذين أُعطوا العِلمَ لأولئك الكُفَّارِ الكاذِبينَ: لقد مكَثْتُم الوَقتَ الَّذي كتَبَه اللهُ في اللَّوحِ المحفوظِ إلى يومِ بَعثِكم، ولم تَلبَثوا ساعةً كما زعمتُم! فهذا هو يومُ القيامةِ، ولكِنَّكم كُنتُم في الدُّنيا لا تَعلَمونَ -أيُّها الكُفَّارُ- أنَّكم تُبعَثونَ بعدَ مَوتِكم وتُحاسَبونَ، فيومَ القيامةِ لا يَنفَعُ المكَذِّبينَ بالبَعثِ اعتِذارُهم، ولا يُطلَبُ منهم أن يَرجِعوا إلى ما يُرضي اللهَ عنهم بالتَّوبةِ والإيمانِ حتَّى تُزالَ عنهم المُعاتبةُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أعاد سُبحانَه مِنَ الدَّلائِلِ الَّتي مَضَت دليلًا مِن دلائِلِ الآفاقِ، وهو قَولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم: ٤٨]، وذكَرَ أحوالَ

الرِّيح مِن أوَّلِه إلى آخِرِه؛ أعاد دليلًا مِن دلائِلِ الأنفُسِ، وهو خَلقُ الآدميِّ، وذكَرَ أحوالَه[١]، فقال:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٍ﴾.

أي: اللهُ الَّذي خلَقَكم -أيُّها النَّاسُ- وابتدأ إنشاءَكم مِن ضَعفٍ[٢].

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ﴾.

أي: ثمَّ جَعَل اللهُ لكم قُوَّةً مِن بَعدِ ضَعفِكم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٤).

قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿مِّن ضَعۡفٍ﴾ أي: مِن نُطفةٍ ضَعيفةٍ. ومِمَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ جرير، والزجاج، والسمرقندي، والبغوي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٩١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٦).

ومِمَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٦).

وقيل: المرادُ: بدَأكم وأنشأكم على ضَعفٍ، وجعَلَ الخَلْقَ مِن ضَعفٍ؛ لكثرةِ ضَعفِ الإنسانِ أوَّلَ نشأتِه وطفوليَّتِه. ومِمَّن اختاره في الجملةِ: الخازنُ، وأبو حيان، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٠١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣٣٦).

وذكر ابن عثيمين أنَّ هذا الضَّعفَ يَبتدئُ بعدَ نَفخِ الرُّوحِ في الجنينِ؛ إذا صار حيًّا في بطنِ أمِّه. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣٣٦).

ومِمَّن جمَع بينَ القولينِ في الجملةِ: ابنُ جُزَي، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٤).

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ﴾.

أي: ثمَّ جَعَل اللهُ فيكم ضَعفًا مِن بَعدِ قُوَّتِكم، فتهرَمونَ وتَشيبونَ[1].

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔا﴾ [النحل: ٧٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ﴾ [يس: ٦٨].

﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾.

أي: يَخلُقُ اللهُ ما يَشاءُ في عِبادِه مِن ضَعفٍ وقُوَّةٍ، ويتصَرَّفُ في خَلقِه بما يريدُ بحَسَبِ حِكمتِه سُبحانَه[2].

﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾.

أي: واللهُ هو العَليمُ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بتدبيرِ عِبادِه، وهو القادِرُ على كُلِّ شَيءٍ[3].

﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ٥٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الله سبحانه وتعالى لَمَّا ذكَر الإبداءَ -والإعادةُ كالإبداءِ- ذكَر أحوالَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٢٩).

الإعادةِ وأوقاتَها[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ الله تعالى عَدَمَ انتِفاعِ المُشرِكينَ بآياتِ القُرآنِ، وشُبِّهوا بالأمواتِ والصُّمِّ والعُمْيِ، فظَهَرت فَظاعةُ حالِهم في العاجِلةِ؛ أتْبع ذلك بوَصفِ حالِهم حينَ تقومُ السَّاعةُ[٢].

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾.

أي: ويومَ تأتي القيامةُ يُقسِمُ الكُفَّارُ بأنَّهم ما مَكَثوا مِن قَبْلُ[٣] غيرَ ساعةٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٨).

(٣) اختلف المفسِّرون في موضِعِ هذا المُكثِ الَّذي يُقسِمُ المجرِمونَ أنَّهم لم يَلبَثوا فيه سِوى ساعةٍ واحدةٍ. فقيلَ: المرادُ به: القَبرُ. وممَّن قال بذلك: ابن جرير، والواحدي، وابن عطية، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٩).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: الكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٨٣).

قال ابن عاشور: (يريدونَ أن يُقنِعوا أنفُسَهم بصِحَّةِ دليلِهم القديم، ويلتَمِسونَ اعتلالًا لتخَلُّفِ المدلولِ بعِلَّةِ أنَّ بَعْثَهم ما كان إلَّا بعد ساعةٍ قليلةٍ مِن وقتِ الدَّفنِ قَبْلَ أن تنعَدِمَ أجزاءُ أجسامِهم! فيُخيَّلُ إليهم أنَّهم مُحِقُّونَ في إنكارِه في الدُّنيا؛ إذ كانوا قد أُخبِروا أنَّ البعثَ يكونُ بعدَ فناءِ الأجسامِ، فهم أرادوا الاعتذارَ عن إنكارِهم البعثَ حين تحقَّقوه بما حاصِلُه: أنَّهم لو عَلِموا أنَّ البَعثَ يكونُ بعد ساعةٍ مِن الحلولِ في القبرِ لأقَرُّوا به. وقد أنبأ عن هذا تسميةُ كلامِهم هذا معذرةً بقولِه عقِبَه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ [الروم: ٥٧]. وهذه فِتنةٌ أُصيبوا بها حينَ البَعثِ جَعَلَها اللهُ لهم؛ لِيَكونوا هُزْأةً لأهلِ النُّشورِ، ويتَّضِحَ غَلَطُهم وسوءُ فَهمِهم، كما دَلَّ عليه قَولُه تعالى بعدَ ذلك: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ ...﴾ [الروم: ٥٦]، وقد أومأَ إلى أنَّ هذا هو المرادُ مِن الآيةِ أنَّه قال عَقِبَ ذلك: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كهذا الخطأِ كانوا في الدُّنيا يُصرَفونَ عن الحَقِّ بمثلِ هذه التُّرَّهاتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٩).

وقيل: المرادُ: الدُّنيا. وممَّن قال بذلك: ابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٥). =

واحِدةٍ[1].

﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ﴾.

أي: كما كذَّبَ الكُفَّارُ وصُرِفوا عن الحَقِّ في قَسَمِهم بأنَّهم ما لَبِثوا غيرَ ساعةٍ، كانوا يُكَذِّبونَ ويُصرَفونَ عن الحَقِّ والصَّوابِ في الدُّنيا أيضًا، فذاك خُلُقٌ قَبيحٌ تخَلَّقوا به، فصار لهم سَجِيَّةً وطَبعًا[2].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٥٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا وصَفَ اللهُ تعالى الجاهِلينَ؛ أتبَعَه صِفةَ العُلَماءِ[3].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾.

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٥٠٢).

قال ابن كثير: (ومقصودُهم بذلك عدَمُ قيامِ الحُجَّةِ عليهم، وأنَّهم لم يُنظَروا حتى يُعذَرَ إليهم). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٨).

وممَّن جمَع بيْنَ القولَينِ: يحيى بنُ سلام، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٦، ٥٢٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٧، ٤٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٣٠، ١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٩، ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٣١).

أي: وقال أهلُ العِلمِ المُؤمِنونَ باللهِ[١] لأولئك الكُفَّارِ الكاذِبينَ: واللهِ لقد مكَثْتُم الوَقتَ الَّذي قدَّرَه اللهُ لكم وكَتَبه في اللَّوحِ المحفوظِ إلى يومِ بَعثِكم، ولم تَلبَثوا ساعةً كما زعَمْتُم[٢].

﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أي: فهذا هو يومُ القيامةِ الَّذي يَبعَثُ اللهُ فيه النَّاسَ مِن قُبورِهم، ولكِنَّكم كنتُم في الدُّنيا -أيُّها الكُفَّارُ- لا تَعلَمونَ أنَّكم تُبعَثونَ بعدَ موتِكم، بل كان دَأْبُكم الإنكارَ والتَّكذيبَ بذلك[٣].

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝٥٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت الآياتُ دالَّةً على أنَّ هذه الدَّارَ دارُ عمَلٍ، وأنَّ الآخِرةَ دارُ جزاءٍ،

(١) قال الشوكاني: (اختُلِفَ في تعيينِ هؤلاء الَّذين أُوتوا العِلمَ؛ فقيل: الملائكةُ. وقيل: الأنبياءُ. وقيل: عُلماءُ الأُمَمِ. وقيل: مؤمِنو هذه الأمَّةِ. ولا مانِعَ مِن الحَملِ على الجميعِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٥).

قال البيضاوي: (﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ في عِلمِه أو قَضائِه، أو ما كتَبَه لكم، أي: أوجَبَه، أو اللَّوحِ، أو القرآنِ). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١١).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: فيما كتَبَ الله لكم في سابِقِ عِلمِه: الثعلبيُّ، والبغوي، والخازن، وابن عادل. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٣٠٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٨٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٥/ ٤٣٠).

وقيل: إنَّ في الآيةِ تقديمًا وتأخيرًا، تقديرُه: وقال الَّذين أُوتوا العِلمَ بكتابِ الله والإيمانَ بالله عزَّ وجَلَّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣١، ١٣٢).

وأنَّ البَرزخَ حائِلٌ بيْنَهما، فلا يكونُ في واحدةٍ منهما ما للأخرى؛ تَسَبَّب عن ذلك قَولُه تعالى[١]:

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾.

أي: فيومَ القيامةِ لا يَنفَعُ المكَذِّبينَ بالبَعثِ اعتِذارُهم[٢].

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

أي: ولا يُطلَبُ يومَ القيامةِ مِن الظَّالِمينَ أن يَرجِعوا إلى ما يُرضي اللهَ -عزَّ وجَلَّ- بالتَّوبةِ والإيمانِ والطَّاعةِ، حتى تُزالَ عنهم المُعاتَبةُ والمُؤاخَذةُ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- بعدَ الأربعينَ يأخُذُ ابنُ آدَمَ في النُّقصانِ وضَعفِ القُوى على التَّدريجِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٥).

قيل: المرادُ: اعتذارُهم بقَولِهم: ما عَلِمْنا أنَّ القيامةَ كائنةٌ، ولا أنَّا نُبعَثُ. وممَّن قال بذلك: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٨). ويُنظر أيضًا: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٧٠٦).

وقال ابنُ كثير: (أي: لا ينفَعُهم اعتذارُهم عَمَّا فَعَلوا). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٨).

وقال السعدي: (﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ فإن كَذَّبوا وزَعَموا أنَّهم ما قامت عليهم الحُجَّةُ، أو ما تمكَّنوا من الإيمانِ؛ ظهَر كَذِبُهم بشهادةِ أهلِ العلم والإيمانِ، وشهادةِ جُلودِهم وأيديهم وأرجُلِهم، وإن طَلَبوا الإعذارَ وأنَّهم يُرَدُّونَ ولا يعودونَ لِما نُهُوا عنه، لم يُمَكَّنوا؛ فإنَّه فات وقتُ الإعذارِ، فلا تُقبَلُ مَعذِرتُهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٣).

كما أخذ في زيادتِها على التَّدريج؛ قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾، فقُوَّتُه بيْنَ ضَعفَينِ، وحياتُه بيْن مَوتَين[1].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ مِن حِكمتِه تعالى أن يُرِيَ العَبدَ ضَعْفَه، وأنَّ قُوَّتَه محفوفةٌ بضَعفَينِ، وأنَّه ليس له مِن نَفْسِه إلَّا النَّقصُ، ولولا تقويةُ اللهِ له لَما وصَلَ إلى قوَّةٍ وقُدرةٍ، ولو استمرَّت قوَّتُه في الزِّيادةِ لطغَى وبغَى وعتا، ولِيَعلمَ العبادُ كَمالَ قُدرةِ اللهِ التي لا تزالُ مُستَمِرَّةً يَخلَقُ بها الأشياءَ، ويُدبِّرُ بها الأمورَ، ولا يَلحَقُها إعياءٌ ولا ضَعفٌ ولا نَقصٌ بوَجهٍ مِن الوُجوهِ[2].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ والمعنَى: أنَّ ذلك خُلُقٌ تَخلَّقوا به وصارَ لهم كالسَّجيَّةِ في حياتِهم الدُّنْيا، حتَّى إذا أعاد اللهُ إليهم أرواحَهم صَدَرَ عنهم ما كانوا تَخَلَّقوا به، وفي هذا الخبَرِ أدَبٌ عظيمٌ للمُسلِمينَ: أن يَتحامَوُا الرَّذائلَ والكبائرَ في الحياةِ الدُّنيا؛ خشيةَ أن تَصيرَ لهم خُلُقًا، فيُحشَروا عليها[3].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ الظَّاهِرُ أنَّ المؤمنينَ يَسمَعونَ تحاجَّ المُشركينَ بَعضِهم مع بَعضٍ، فيُبادِرونَ بالإنكارِ عليهم؛ لأنَّ تغييرَ المنكَرِ سَجيَّتُهم التي كانوا عليها، وفي هذا أدَبٌ إسلاميٌّ، وهو أنَّ الذي

(١) يُنظر: ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٠).

يَسمَعُ الخطأَ في الدِّينِ والإيمانِ: لا يُقرُّه، ولو لم يكُنْ هو المخاطَبَ به[1].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ في التَّعبيرِ بنَفيِ العِلمِ وقَصدِ نَفيِ الاهتمامِ به والعنايةِ بتلقِّيه: إشارةٌ إلى أنَّ التصَدِّيَ للتعلُّمِ وَسيلةٌ لحُصولِه[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ سُمِّيَت القيامةُ بالسَّاعةِ؛ إعلامًا بيُسْرِها عليه سُبحانَه وتعالى[3].

٢- ليس العِلمُ في الحقيقةِ إلَّا ما أخبَرَت به الرُّسُلُ عن اللهِ عَزَّ وجَلَّ طَلبًا وخَبرًا، فهو العِلمُ المزكِّي للنُّفوسِ، المكَمِّلُ للفِطَرِ، المصَحِّحُ للعُقولِ، الَّذي خَصَّه الله باسمِ العِلمِ، وسمَّى ما عارَضَه ظَنًّا لا يُغْني من الحَقِّ شَيئًا، وخَرْصًا وكَذِبًا؛ فقال تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٦١]، وشَهِدَ لأهلِه أنَّهم أولو العِلم، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾، وقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، والمرادُ أولو العِلمِ بما أنزَلَه على رُسُلِه ليس إلَّا، وليس المرادُ أولي العِلمِ بالمنطِقِ والفَلسفةِ وفُروعِهما[4].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ حُجَّةٌ على المُعتزِلةِ فيما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٣٠).

(٤) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ٨٧٦).

يَزعُمونَ «أنَّ الإيمانَ مُكتسَبٌ غيرُ مَوهوبٍ»[(١)]!

٤- قال الله تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ قولُه تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ لا يُنافي قولَه تعالى: ﴿وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦] المُقْتضيَ نفْيَ وُقوعِ الاعتذارِ منهم؛ لأنَّ الاعتذارَ المَنفيَّ هو الاعتذارُ المأذونُ فيه، أي: المقبولُ؛ لأنَّ اللهَ لو أذِنَ لهم في الاعتذارِ لكان ذلك تَوطئةً لِقَبولِه اعتذارَهم، نظيرُ قولِه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، والمُثبَتُ هنا مَعذِرةٌ مِن تِلقاءِ أنفُسِهم لم يُؤذَنْ لهم بها، فهي غيرُ نافعةٍ لهم، كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ * رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ * قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٦ - ١٠٨]، وقَولِه: ﴿لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾[(٢)] [المؤمنون: ٦٥].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ فيه سؤالٌ: كيف جُعِلوا غيرَ مُستعتَبينَ في بعضِ الآياتِ، وغَيرَ مُعتَبينَ في بَعضِها، وهو قَولُه: ﴿وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤]؟

الجوابُ: أمَّا كَونُهم غيرَ مُستعتَبينَ، فمعناه: أي: لا يُقالُ لهم: أرْضُوا ربَّكم بتوبةٍ وطاعةٍ، وأمَّا كَونُهم غيرَ مُعتَبينَ، فمعناه: أنَّهم غيرُ راضينَ بما هم فيه؛ فشُبِّهَت حالُهم بحالِ قَومٍ جُنيَ عليهم، فهم عاتِبونَ على الجاني، غيرُ راضينَ منه، فإنْ يَستعتِبوا اللهَ، أي: يَسألوه إزالةَ ما هم فيه، فما هم مِنَ المجابينَ إلى إزالتِه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((النُّكَت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٢، ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٠٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾

- قولُه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ استِئنافٌ يُفيدُ الاستِدلالَ على عَظيمِ القُدْرةِ في مُختلَفِ المَصنوعاتِ من العوالِمِ، ولِتَقريرِ إمكانيَّةِ البَعثِ، وتَقريبِ حُصولِه إلى عُقولِ مُنْكِريه؛ لأنَّ تَعدُّدَ صُوَرِ إيجادِ المَخلوقاتِ وكيفيَّاتِه؛ من ابتدائِها عن عدَمٍ، أو من إعادتِها بعدَ انعدامِها، وبِتَطوُّرٍ وبدونِه؛ ممَّا يَزيدُ إمكانَ البعثِ وُضوحًا عندَ مُنكِريه؛ فمَوقعُ هذه الآيةِ كمَوقعِ قولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم: ٤٨] ونَظائرِها؛ ولذلك جاءتْ فاتحتُها على أُسلوبِ فواتِحِ نظائرِها، وهذا ما يُؤذِنُ به تَعقيبُها بقولِه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الروم: ٥٥] الآيةَ[1].

- وفي قولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ...﴾ الآيةَ، قال ذلك، مع أنَّ الضَّعفَ صِفةٌ، والمُخاطَبون لم يُخْلَقوا من صِفةٍ بلْ مِن عَينٍ، وهي الماءُ أو التُّرابُ؛ لأنَّ المُرادَ بالضَّعفِ الضَّعيفُ؛ مِن إطلاقِ المصدرِ على اسمِ الفاعلِ، كقولِهم: رجُلٌ عَدْلٌ، أي: عادلٌ، فمعناه: من ضَعيفٍ، وهو النُّطفةُ[2]. وقيل: (مِن) ابتِدائيَّةٌ، أي: مُبتدَأُ خلْقِه من ضَعفٍ، أي: مِن حالةِ ضَعفٍ، يدُلُّ على تمكُّنِ الوصْفِ مِن الموصوفِ حتَّى كأنَّه مُنتزَعٌ منه[3]. وقيل: جعَلَ الخلْقَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٧، ١٢٨).

مِن ضَعفٍ؛ لكثرةِ ضَعفِ الإنسانِ أوَّلَ نشْأتِه وطُفوليَّتِه[١].

- وفي كلمةِ ﴿ضَعْفٍ﴾ تنكيرٌ مع التَّكريرِ؛ لأنَّ المُتأخِّرَ ليس عَينَ المُتقدِّمِ[٢].
وقيل: تَنكيرُ (ضَعْفٍ) و(قُوَّةٍ) للنَّوعيةِ؛ فـ (ضَعْفٌ) المذكورُ ثانيًا هو عينُ (ضَعْفٍ) المذكورِ أوَّلًا، و(قُوَّةٌ) المذكورةُ ثانيًا عَينُ (قُوَّةٍ) المذكورةِ أوَّلًا.
وقولُهم: النَّكرةُ إذا أُعِيدَتْ نكرةً كانتْ غيرَ الأُولى، يُريدون به التَّنكيرَ المقصودَ منه الفرْدُ الشَّائعُ، لا التَّنكيرَ المرادَ به النَّوعيَّةُ[٣].

- وعطَفَ ﴿وَشَيْبَةً﴾ على ﴿ضَعْفًا﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ هذا الضَّعفَ لا قُوَّةَ بعْدَه، وأنَّ بعْدَه العدَمَ بما شاع مِن أنَّ الشَّيبَ نَذيرُ الموتِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ ذكَرَ وصْفَ العِلْمِ والقُدرةِ؛ لأنَّ التَّطوُّرَ هو مُقْتضى الحِكمةِ، وهي مِن شُؤونِ العِلْمِ، وإبرازُه على أحكَمِ وجْهٍ هو مِن أثَرِ القُدرةِ[٥].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾

- جُملةُ ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ استِئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ غرابةَ حالِهم مِن فسادِ تَقديرِ المُدَّةِ والقَسَمِ عليه، مع كونِه توهُّمًا؛ يُثيرُ سُؤالَ سائلٍ عن مَثارِ هذا الوهْمِ في نُفوسِهم، فكان قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ بيانًا لذلك.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٠١).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٨).

و﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ إشارةٌ إلى انصرافِهم عن الحقِّ يومَ البعْثِ، والمُشارُ إليه هو المُشبَّهُ به، والمُشبَّهُ محذوفٌ دلَّ عليه كافُ التَّشبيهِ، والتَّقديرُ: إفكًا مِثلَ إفْكِهم هذا كانوا يُؤفَكونَ به في حياتِهم الدُّنيا. والمقصودُ مِن التَّشبيهِ المُماثَلةُ والمُساواةُ[١].

- ولم يُسنَدْ إفْكُهم إلى آفكٍ مُعيَّنٍ في قولِه: ﴿ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ﴾؛ لأنَّ بعضَ صَرْفِهم يكونُ مِن أوليائِهم وأئمَّةِ دِينِهم، وبعْضَه مِن طَبْعِ اللهِ على قُلوبِهم[٢]. وقيل: لعلَّه بَنى الفِعلَ للمجهولِ؛ إشارةً إلى سُهولةِ انقيادِهم إلى الباطلِ مع أيِّ صارفٍ كان[٣].

- وذِكرُ فِعلِ ﴿ كَانُواْ ﴾ في قولِه: ﴿ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ المُرادَ في زمانٍ قبْلَ ذلك الزَّمنِ، أي: في زمَنِ الحياةِ الدُّنيا، والمعنى: أنَّ ذلك خُلُقٌ تَخلَّقوا به، وصار لهم كالسَّجِيَّةِ في حياتِهم الدُّنيا، حتَّى إذا أعاد اللهُ إليهم أرواحَهم صَدَرَ عنهم ما كانوا تَخلَّقوا به[٤].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِ ... ﴾ فيه رَدٌّ لِمَا قاله المُجرِمون مِن إنكارِ البَعْثِ، وأكَّدَ باليمينِ في (لقد)[٥].

- وهذا الخبَرُ مُستعمَلٌ في التَّحزينِ والتَّرويعِ، باعتبارِ ما يَرِدُ بعْدَه مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٩، ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٠).

(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٦).

الإفصاحِ عن حُضورِ وقْتِ عذابِهم[١].

- وعطَف الإيمانَ على العلمِ للاهتمامِ به؛ لأنَّ العلمَ بدونِ إيمانٍ، لا يرشدُ إلى العقائدِ الحقِّ التي بها الفوزُ في الحياةِ الآخرةِ[٢].

- وعَبَّرَ بقَولِه: ﴿أُوتُوا۟ ٱلۡعِلۡمَ﴾؛ تنبيهًا على شُكرِ مَن آتاهموه، وبناه للمَجهولِ؛ إشارةً إلى تَسهيلِ أخْذِه عليهم مِنَ الجَليلِ والفَقيرِ[٣].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَهَـٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ﴾ فاءُ الفصيحةِ؛ أفْصَحَتْ عن شَرطٍ مُقدَّرٍ، وتُفيدُ معنى المُفاجأةِ، أي: إذا كان كذلك فهذا يَومُ البَعثِ[٤]. وقيل: الفاءُ في ﴿فَهَـٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ﴾ عاطفةٌ لهذه الجُملةِ المَقولةِ على الجُملةِ التي قبْلَها، وهي ﴿لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ﴾، اعْتَقَبها في الذِّكرِ[٥].

- قولُه: ﴿فَهَـٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ﴾ هذا تَوبيخٌ لهم وتَهديدٌ، وتعْجيلٌ لإساءتِهم بما يَترقَّبُهم مِن العذابِ. والاقتِصارُ على ﴿فَهَـٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ﴾؛ لِيَتوقَّعوا كلَّ سُوءٍ وعذابٍ[٦]. وفيه تبْكيتٌ واستهزاءٌ بهم[٧].

- وفي التَّعبيرِ بنفْيِ العِلْمِ في قولِه: ﴿وَلَـٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ وقَصْدِ نفْيِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٠٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣١).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٦).

الاهتمامِ به، والعِنايةِ بتَلقِّيه: إشارةٌ إلى أنَّ التَّصدِّيَ للتَّعلُّمِ وسَيلةٌ لحُصولِه[1].

٤- قَولُه تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ تَفْريعٌ على جُملةِ ﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: ٥٥]، و﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ هم المُشرِكون الذين أقْسَموا: ﴿مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾؛ فالتَّعبيرُ عنهم بـ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لِغرَضِ التَّسجيلِ عليهم بوَصْفِ الظُّلمِ، وهو الإشراكُ باللهِ؛ لأنَّه جامعٌ لفُنونِ الظُّلمِ؛ ففيه الاعتداءُ على حَقِّ اللهِ، وظُلْمُ المُشرِكِ نفْسَه بتَعريضِها للعذابِ، وظُلْمُهم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالتَّكذيبِ، وظُلْمُهم المُؤمنينَ بالاعتداءِ على أمْوالِهم وأبشارِهم[2].



---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٥٨-٦٠)

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُبْطِلُونَ﴾: أي: أصحابُ باطلٍ، والباطِلُ: نقيضُ الحقِّ، والإبطالُ يُقالُ في إفسادِ الشَّيءِ وإزالتِه؛ حقًّا كان ذلك الشيءُ أو باطلًا، وأصلُ (بطل): ذَهابُ الشَّيءِ وقِلَّةُ مُكْثِه ولُبْثِه[١].

﴿يَطْبَعُ﴾: أي: يختِمُ، وطبْعُ القلبِ: الختمُ عليه حتَّى لا يَصِلَ إليه هُدًى، والطَّبْعُ: أنْ تصوِّرَ الشَّيءَ بصورةٍ ما، وهو أعمُّ مِن الختم وأخصُّ مِن النَّقشِ، وبه اعتُبِرُ الطَّبْعُ والطَّبيعةُ الَّتي هي السَّجيَّةُ؛ فإنَّ ذلك هو نقْشُ النَّفْسِ بصورةٍ ما؛ إمَّا مِن حيثُ الخِلقةُ، وإمَّا مِن حيثُ العادةُ، وأصلُ (طبع): هو مَثَلٌ على نهايةٍ يَنْتَهي إليها الشَّيءُ حتَّى يُخْتَمَ عندَها[٢].

﴿يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾: أي: يُزعِجَنَّك ويَستفِزَّنَّك عن اعتِقادِك، وأصلُ (خفف): يدُلُّ على خِلافِ الثِّقَلِ والرَّزانةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢١)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٤/ ١١٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٣).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا فضائلَ القرآنِ، وشِدَّةَ تعنُّتِ الكافرين: ولقدْ ذكَرْنا للنَّاسِ في هذا القُرآنِ من كُلِّ مَثَلٍ، ولَئِنْ جِئتَ الكُفَّارَ -يا محمَّدُ- بدَلالةٍ تُثبِتُ صِدقَك، لَيَقولُنَّ: ما أنتم إلَّا مُتَّبِعونَ للباطِلِ! كذلك الخَتمِ يختِمُ اللهُ على قُلوبِ الكُفَّارِ، فَلا يُؤمنونَ أبدًا.

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ بالصَّبرِ والثَّباتِ، فيقولُ: فاصبِرْ -يا محمَّدُ- على دَعوةِ الكُفَّارِ وعِنادِهم؛ فإنَّ ما وعَدَك اللهُ به حَقٌّ، ولا يَستفِزَّك عن اتِّباعِ الحقِّ الَّذين لا يُوقِنونَ بوَعدِ اللهِ، فتَترُكَ الثَّباتَ على الحَقِّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُبۡطِلُونَ ٥٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا انتهَى ما أُقيمَت عليه السُّورةُ مِن دلائِلِ الوحدانيَّةِ، وإثباتِ البَعثِ؛ عقَّبَ ذلك بالتَّنويهِ بالقُرآنِ، وبلوغِه الغايةَ القُصوى في البيانِ والهُدى[1].

﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾.

أي: ولقَدْ ذكَرْنا للنَّاسِ في هذا القُرآنِ كُلَّ مَثَلٍ تتبيَّنُ به الحقائِقُ، وتنقَطِعُ به الحُجَّةُ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٣، ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٥).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩].

﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾.

أي: ولَئِنْ جِئتَ الكُفَّارَ -يا محمَّدُ- بأيِّ علامةٍ ودَلالةٍ تُثبِتُ صِدقَك، لَيقولُنَّ: ما أنتُم -أيُّها الرَّسولُ والمُؤمِنونَ به- إلَّا مُتَّبِعونَ للباطِلِ[١]!

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧].

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩)﴾.

أي: مِثْلَما خَتَمَ اللهُ على قُلوبِ أولئك الكُفَّارِ فلا يَفقَهونَ آياتِ اللهِ، يَختِمُ أيضًا على قُلوبِ غَيرِهم مِنَ الكُفَّارِ، فلا يُؤمِنونَ بالحَقِّ أبدًا[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٤).

قيل: المرادُ بالَّذين لا يَعلَمونَ: أي: الَّذين لا يَعلَمونَ حَقيقةَ ما يأتيهم به محمَّدٌ مِن عندِ الله مِن هذه العِبَرِ والعِظاتِ، والآياتِ البيِّناتِ؛ فلا يَفقَهونَ عن الله حُجَّةً، ولا يَفهَمونَ عنه ما يَتلو عليهم مِن آيِ كتابِه؛ فهم لذلك في طُغيانِهم يَتردَّدونَ. قاله ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٩). ويُنظر أيضًا: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٧٠٧).

وقيل: الذين لا يَعلَمونَ توحيدَ الله. وممَّن قال به: الواحديُّ، والبغوي، وابن الجوزي، والقرطبي، والخازن، والعُلَيمي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٨٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٩٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٩٧). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٤). =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ * خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [البقرة: ٦، ٧].

﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ٦٠﴾.

﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾.

أي: فاصبِرْ -يا مُحمَّدُ- على دَعوةِ الكُفَّارِ وتَعَنُّتِهم وعِنادِهم؛ فإنَّ ما وعَدَ اللهُ به مِن نَصرِ المؤمِنينَ، وإهلاكِ الكافِرينَ في الدُّنيا والآخرةِ: آتٍ لا مَحالةَ[1].

﴿وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾.

أي: ولا يَستَفِزَّك -يا مُحمَّدُ- عن اتِّباعِ الحقِّ وتَبليغِه: الَّذين لا يُوقِنونَ بوَعدِ اللهِ، فيَحمِلوك بأقوالِهم أو أفعالِهم على الطَّيشِ وعدَمِ الصَّبرِ، فتَترُكَ الثَّباتَ على الحَقِّ[2].

= وقيل المعنى: لا يَطلُبون عِلمَ ما يَجهَلونه، ولا يَتحرَّون الحقَّ، بل يُصِرُّون على خرافاتٍ اعتقَدوها، وتُرَّهاتٍ ابتدعُوها. وممَّن قال به في الجملةِ: البيضاوي، والبقاعي، وأبو السعود، والألوسي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٧)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٣٦، ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٤)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٣٧-١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٥).

قال القرطبي: (الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمرادُ أمَّتُه). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٩).

كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۞ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۞ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٣ - ٧٥].

وقال سُبحانَه: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۞ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٨، ٩].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ هذا ممَّا يُعينُ على الصَّبرِ؛ فإنَّ العَبدَ إذا عَلِمَ أنَّ عَمَلَه غَيرُ ضائعٍ، بل سيَجِدُه كاملًا؛ هانَ عليه ما يَلْقاه مِنَ المكارِهِ، ويُسِّرَ عليه كلُّ عسيرٍ، واستقَلَّ مِن عَمَلِه كُلَّ كثيرٍ[1].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ فيه الحثُّ على التَّصلُّبِ في الدِّينِ، وقد قال تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ [الواقعة: ٨١] أي: متهاونون؟! وقال السَّحرةُ لِفرعونَ لَمَّا تَهدَّدهم: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾[2] [طه: ٧٢].

٣- وفي هذا الخِتامِ الجليلِ لهذه السُّورةِ الجليلةِ: دَعوةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وللمؤمنينَ معه إلى الصَّبرِ على المَكارِهِ، واحتمالِ الشَّدائِدِ، على طريقِ الإيمانِ، وذلك بما يمتلئُ به القلبُ من إيمانٍ باللهِ، ومن يقينٍ راسخٍ في لِقاءِ ما وعَدَ اللهُ النَّبيَّ والمؤمنينَ مِن نصرٍ وإعزازٍ وتمكينٍ، وأنَّهم إذا كانوا على يَقينٍ مِن الفَوزِ والرِّضوانِ في الآخِرةِ، فلْيَكونوا على هذا اليقينِ مِن النَّصرِ والتَّمكينِ في الدُّنيا، وأنَّه إذا طالَ انتظارُهم لِمَا وُعِدوا به في الدُّنيا، فهو -على أيِّ حالٍ-

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٥).

(٢) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٦٣).

أقرَبُ ممَّا وُعِدَوا به في الآخرةِ. فلْيَصبِروا إذَنْ حتَّى يَلْقَوا ما وَعدَهم اللهُ به في الدُّنيا؛ لِيَزدادَ يقينُهم بما وعَدَهم اللهُ به في الآخِرةِ[١].

٤- قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾، فمَن وَفَى الصَّبرَ حقَّه، وتيَقَّنَ أنَّ وعْدَ الله حقٌّ؛ لم يَستفِزَّه المُبطِلون، ولم يَستخِفَّه الَّذين لا يوقِنون، ومتى ضَعُفَ صبرُه ويقينُه أو كِلاهما، استفَزَّه هؤلاء، واستخَفَّه هؤلاء، فجذَبوه إليهم بحسَبِ ضَعفِ قوَّةِ صبرِه ويقينِه، فكُلَّما ضَعُفَ ذلك منه قَوِيَ جَذْبُهم له، وكُلَّما قَوِيَ صبرُه ويقينُه قَوِيَ انجذابُه منهم، وجَذْبُه لهم[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ فيه إشارةٌ إلى إزالةِ الأعذارِ، والإتيانِ بما فوقَ الكفايةِ مِن الإنذارِ، وإلى أنَّه لم يبقَ مِن جانبِ الرَّسولِ تقصيرٌ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ واضِحةٌ في إنكارِهم أنَّ الهِدايةَ والإضلالَ مِنَ اللهِ تعالى[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾

- قوله: ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ ضَميرُ جمْعِ المُخاطَبِ

---

(١) يُنظر: ((التفسير القرآني للقرآن)) لعبد الكريم الخطيب (١١/ ٥٥٢).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١٢).

(٤) يُنظر: ((النُّكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٢٣).

في ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لِقَصْدِ تَعظيمِه مِن جانبِ اللهِ تعالى، وإنَّما يقولُ الَّذين كَفَروا: إنْ أنت إلَّا مُبطِلٌ، فحُكِيَ كلامُهم بالمعنى؛ للتَّنويهِ بشأْنِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. وقيل: الخِطابُ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمُؤمِنينَ؛ فهو حِكايةٌ باللَّفظِ. وهذا تأْييسٌ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من إيمانِ مُعانديه، أي: أئمَّةِ الكُفْرِ منهم؛ ولذلك اعترَضَ بعْدَه بجُملةِ ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بيْنَ الجُملتينِ المُتعاطفتَينِ؛ تَمْهيدًا للأمْرِ بالصَّبرِ على غُلَوائِهم[1].

- وفي تَوحيدِ الخِطابِ بقولِه: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم﴾، والجمْعِ في قولِه: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ لَطيفةٌ؛ وهي: أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قال: ولئنْ جِئتَهم بكلِّ آيةٍ جاءتْ بها الرُّسلُ، فيُمكِنُ أنْ يُجاوِبوه بقولِه: أنتم كلُّكم أيُّها المُدَّعون الرِّسالةَ مُبطِلون[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مُرادٌ به الَّذين كَفَروا أنفُسُهم؛ فعُدِلَ عن الإضمارِ؛ لزِيادةِ وَصْفِهم بانتفاءِ العِلْمِ عنهم بعدَ أنْ وُصِفوا بالمُجْرِمين، والَّذين ظَلَموا، والَّذين كَفَروا[3].

٣- قَولُه تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ الأمْرُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالصَّبرِ، تفرَّعَ على جُملةِ ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ﴾ [الروم: ٥٨]؛ لتَضمُّنِها تأْييسَه مِن إيمانِهم.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٤).

وحُذِفَ مُتعلَّقُ الأمْرِ بالصَّبرِ؛ لدَلالةِ المَقامِ عليه، أي: اصبِرْ على تَعنُّتِهم. وجُملةُ ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ بالصَّبرِ، وهو تأْنيسٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتَحقيقِ وعْدِ اللهِ مِن الانتقامِ مِن المُكذِّبينَ، ومِن نصْرِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[1].

- وظاهِرُ النَّظمِ الكريمِ في قولِه: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ وإنْ كان نَهْيًا للكَفَرةِ عن استِخفافه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، لكنَّه في الحَقيقةِ نَهْيٌ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن التَّأثُّرِ من استخفافِهم على طَريقِ الكِنايةِ[2].

- والاستخفافُ: مُبالَغةٌ في جَعْلِه خفيفًا؛ فالسِّينُ والتَّاءُ للتَّقويةِ، مِثْلُها في نحْوِ: استجابَ واستمسَكَ[3].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ همُ المُشركون الذين أُجْرِيَت عليهم الصِّفاتُ المُتقدِّمةُ مِن الإجرامِ، والظُّلمِ، والكُفرِ، وعدَمِ العِلْمِ؛ فهو إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ للتَّصريحِ بمَساوِيهم[4].

- ومِن تناسُبِ فواتحِ سورةِ الرُّومِ مع خواتيمِها: أنَّها بدأتْ بوعدِ اللهِ تعالى بغلبة الروم ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ...﴾ إلى قوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ١- ٦]، وفي خاتمتِها قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]؛ ففي البداية ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ...﴾، وفي الختام: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾[5]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٥).

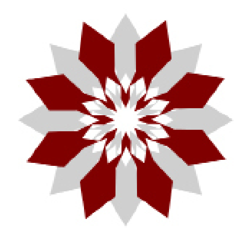
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٣٥، ١٣٦).

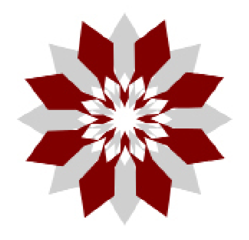
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٣٨)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١١/ ١٠٣).



تَفْسِيرُ
سُورَةِ لُقمانَ







سورةُ لُقمانَ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (لُقمانَ)(١).

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ لُقمانَ مَكِّيَّةٌ(٢).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصدِ هذه السُّورةِ:

مُخاطَبةُ النَّفْسِ البَشَريَّةِ بما مِن شأنِه أن يُسعِدَها ويُحيِيَها حياةً طَيِّبةً(٣).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ المَوضوعاتِ الَّتي تناولَتْها هذه السُّورةُ:

١- الثَّناءُ على القُرآنِ الكريمِ، وأنَّه هِدايةٌ ورَحمةٌ للمُؤمِنينَ، مع ذِكرِ بَعضِ

---

(١) سُمِّيَت سورةَ لقمانَ؛ لاشتِمالِها على قِصَّتِه وجُمَلٍ مِن حِكمتِه الَّتي أدَّبَ بها ابنَه. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٧).

قال ابنُ عاشور: (وليس لها اسمٌ غيرُ هذا الاسم، وبهذا الاسم عُرِفَت بينَ القُرَّاءِ والمفَسِّرينَ، ولم أقِفْ على تصريح به فيما يُروَى عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بسَندٍ مَقبولٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٧).

(٢) وقيل: مكِّيَّةٌ إلَّا الآياتِ الثَّلاثَ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [لقمان: ٢٧] إلى آخِرِ الآيةِ الثَّالثة: ﴿... وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٩]؛ فمَدَنيَّةٌ. وقيل: قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ...﴾ والآيةُ الَّتي بعدَها مَدَنيَّتانِ. وقيل: السُّورةُ مَكِّيَّةٌ إلَّا قَولَه تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [لقمان: ٤]. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٣١)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٢٩).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١١/ ١٠٨).

صِفاتِهم.

٢- ذِكرُ جانِبٍ مِن صِفاتِ المُشرِكينَ الَّذين يَستَهزِئونَ بآياتِ اللهِ تعالى، ويُعرِضونَ عنها.

٣- إقامةُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى وقُدرتِه.

٤- ذِكرُ لُقمانَ وما أُعطِيَ مِن الحِكمةِ، ووصاياه لابنِه المُشتَمِلةِ على الدَّعوةِ إلى العَقيدةِ الصَّحيحةِ، ومكارِمِ الأخلاقِ، وأداءِ العباداتِ، ومُراقبةِ اللهِ.

٥- بيانُ ألوانٍ مِن نِعَمِ اللهِ على عِبادِه، وإحاطةِ عِلمِه سُبحانَه بكُلِّ شَيءٍ.

٦- النَّعيُ على المُشرِكينَ في رُكونِهم إلى التَّقليدِ إذا دُعُوا إلى النَّظَرِ في الكَونِ، وعِبادةِ اللهِ تعالى الَّذي خَلَقَه.

٧- تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على عَدَمِ إيمانِ المُشرِكينَ.

٨- دعوةُ النَّاسِ جَميعًا إلى تَقْوى اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وعَدَمِ الاغترارِ بالدُّنيا.

٩- ذِكرُ مَفاتيحِ الغَيبِ الخَمسةِ الَّتي استأثَرَ اللهُ بعِلمِها.



الآيات (١-٥)

﴿الٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾.

المعنى الإجماليُّ:

افتتَح الله تعالى هذه السُّورةَ ببعضِ الحروفِ المقطَّعةِ، وتقدَّم الكلامُ عن الحروفِ المُقطَّعةِ في تَفسيرِ أوَّلِ سُورةِ الرُّوم. ثمَّ أخبَرَ تعالى أنَّ تلك الآياتِ آياتُ الكِتابِ الحَكيمِ، حالَ كَونِها هُدًى مِن كُلِّ ضَلالةٍ، ورَحمةً للمُحسِنينَ الَّذين يؤَدُّون الصَّلَواتِ تامَّةً، ويؤدُّونَ الزَّكاةَ للمُستحِقِّينَ لها، ويُؤمِنونَ بالآخِرةِ وما يكونُ فيها إيمانًا جازمًا، أولئك على هُدًى مِن رَبِّهم، وأولئك هم الفائِزونَ في الدُّنيا والآخرة.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿الٓمٓ ١﴾.

تقدَّم الكلامُ عن هذه الحروفِ المُقطَّعةِ في تفسيرِ أوَّلِ سُورةِ الرُّومِ[١].

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ٢﴾.

أي: تلك الآياتُ العاليةُ الرُّتبةِ، العَظيمةُ الشَّأنِ: آياتُ الكتابِ المُشتَمِلِ على الحِكمةِ، المحكَمِ في ألفاظِه ومعانيه، فلا نَقصَ فيه، ولا تناقُضَ، ولا خلَلَ[٢].

(١) يُنظر ما تقدَّم (ص: ١٠، ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٣-١٥).

قيل: الإشارةُ هنا تعودُ إلى جميعِ آياتِ القُرآنِ الكريمِ. وهو ظاهرُ اختيارِ السعديِّ، واختيار =

كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ٣﴾.

أي: تلك آياتُ الكتابِ حالَ كَونِها هُدًى مِن كُلِّ ضَلالةٍ، ورَحمةً في الدُّنيا والآخرةِ للمُحسِنينَ في عبادةِ اللهِ، المُحسِنينَ إلى عبادِ اللهِ[1].

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

أي: أولئك المُحسِنونَ هم الَّذين يُؤَدُّونَ الصَّلَواتِ تامَّةً مُستقيمةً على الوجهِ الَّذي شرَعَه اللهُ تعالى، ويؤدُّونَ زكاةَ أموالِهم لأهلِها المُستَحِقِّينَ لها، كما فرَضَ

= ابنِ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٣).

وقيل: الإشارةُ هنا ترجِعُ إلى آياتِ هذه السُّورةِ؛ سورةِ لُقمانَ. وممَّن قال بهذا: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٠).

قال الشوكاني: (و﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ إمَّا أن يكونَ بمعنَى مُفْعَلٍ، أو بمعنَى فاعلٍ، أو بمعنَى ذي الحكمةِ أو الحكيمِ قائلُه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٦٩).

وقال ابن عطية: (و﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ يَصِحُّ أن يكونَ مِنَ الحكمةِ، ويصِحُّ أن يكونَ مِنَ الحُكمِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٥).

وقال الفيروزابادي: (وإذا وُصِف القرآنُ بالحكمةِ فلِتَضَمُّنِه الحكمةَ، نحو: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يونس: ١]. وقيل: معنى الحكيم: المحكَمُ، نحو: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١]. وكِلا المعنَيَينِ صحيحٌ). ((بصائر ذوي التمييز)) (٢/ ٤٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٣١، ٥٣٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين – سورة لقمان)) (ص: ١٦، ١٧).

اللهُ تعالى[١].

﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾.

أي: وهم يُؤمِنونَ إيمانًا جازِمًا لا شكَّ فيه بالآخِرةِ، وما يكونُ فيها مِن ثوابٍ وعِقابٍ، وبَعثٍ ونُشورٍ وغَيرِ ذلك[٢].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ﴾.

أي: أولئك المتَّصِفونَ بتلك الصِّفاتِ: على هُدًى حاصِلٍ لهم مِن رَبِّهم الَّذي لولا إحسانُه إليهم وتَربيتُه الخاصَّةُ لهم لَمَا تمكَّنوا مِن هُداه[٣].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

أي: وأولئك هم الفائِزونَ في الدُّنيا والآخِرةِ[٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أنَّ الإحسانَ سببٌ لِنَيلِ العِلمِ والعَمَلِ الصَّالحِ؛ فالله تعالى جَعَل القرآنَ هُدًى ورَحمةً للمُحسِنينَ، هدًى في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ١٩، ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٣٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٢٢، ٢٣).

العِلمِ، ورحمةً في العملِ[١]، وأنَّه كُلَّما ازدادَ إحسانُ العبدِ ازدادَ عِلمُه وعمَلُه الصالِحُ؛ لأنَّ الحُكمَ إذا عُلِّقَ على وَصفٍ ازدادَ بزيادتِه، ونَقَصَ بنَقصِه[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ ﴾ حَثٌّ على إقامةِ الصَّلاةِ؛ يُؤخَذُ ذلك مِن ثناء اللهِ تعالى على المقيمينَ لها، والثَّناءُ لا يكونُ إلَّا على فِعْلِ شَيءٍ محبوبٍ مَرغوبٍ مِن اللهِ تعالى[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ مِن إحكام آياتِ الكِتابِ: أنَّها جاءت بأجَلِّ الألفاظِ وأفصَحِها وأبيَنِها، الدَّالَّةِ على أجَلِّ المعاني وأحسَنِها.

ومِن إحكامِها: أنَّها مَحفوظةٌ مِنَ التَّغييرِ والتَّبديلِ، والزِّيادةِ والنَّقصِ والتَّحريفِ.

ومِن إحكامِها: أنَّ جميعَ ما فيها مِنَ الأخبارِ السَّابِقةِ واللَّاحِقةِ والأمورِ الغَيبيَّةِ: كُلُّها مُطابِقةٌ للواقِعِ، مُطابِقٌ لها الواقِعُ، لم يخالِفْها كِتابٌ مِنَ الكُتُبِ الإلهيَّةِ، ولم يُخبِرْ بخلافِها نبيٌّ مِنَ الأنبياءِ، ولم يأتِ ولن يأتيَ عِلمٌ مَحسوسٌ ولا مَعقولٌ صَحيحٌ يناقِضُ ما دلَّت عليه.

ومِن إحكامِها: أنَّها ما أمَرَت بشَيءٍ إلَّا وهو خالِصُ المَصلَحةِ أو راجِحُها، ولا نَهَت عن شَيءٍ إلَّا وهو خالِصُ المَفسَدةِ أو راجِحُها، وكثيرًا ما يجمَعُ بيْنَ الأمرِ بالشَّيءِ مع ذِكرِ حِكمتِه وفائِدتِه، والنَّهيِ عن الشَّيءِ مع ذِكرِ مَضَرَّتِه.

ومِن إحكامِها: أنَّها جَمَعت بينَ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ، والوَعظِ البَليغِ الَّذي تعتَدِلُ به النُّفوسُ الخَيِّرةُ وتحتَكِمُ، فتَعمَلُ بالحَزمِ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١).

ومِن إحكامِها: أنَّك تجِدُ آياتِه المتكرِّرةَ -كالقَصَصِ والأحكامِ ونَحوِها- قد اتَّفَقَت كُلُّها وتواطأَتْ، فليس فيها تناقُضٌ ولا اختِلافٌ؛ فكلَّما ازداد بها البَصيرُ تدَبُّرًا، وأعمَل فيها العَقلَ تفكُّرًا؛ انبهَرَ عَقلُه، وذَهَل لُبُّه مِن التَّوافُقِ والتَّواطُؤِ، وجَزَم جزمًا لا يُمترى فيه أنَّه تنزيلٌ مِن حكيمٍ حَميدٍ[١].

٢- قال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ * هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ القرآنُ الكريمُ جمعَ الخيرَ كلَّه، فهو هدايةٌ ورحمةٌ، مَن تمسَّك به نجا واهتدَى، فمَنْ أراد العِلمَ النَّافعَ فعليه بالقرآنِ؛ لأنَّه هدًى، ومَن أراد الرَّحمةَ فعليه بالقرآنِ؛ لأنَّه رحمةٌ، ولا تُنالُ الرحمةُ إلَّا بالعملِ الصَّالحِ[٢].

٣- إقامةُ الصَّلاةِ مِن الإحسانِ؛ لأنَّ قَولَه سُبحانَه: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بيانٌ لقولِه: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ وصَفَهم اللهُ تعالى بالعَمَلِ، وخَصَّ مِن العَمَلِ عمَلَينِ فاضِلَينِ: الصَّلاةَ المُشتَمِلةَ على الإخلاصِ، ومُناجاةِ الله تعالى، والتعبُّدِ العامِّ للقَلبِ واللِّسانِ والجوارحِ المُعينةِ على سائرِ الأعمالِ؛ والزَّكاةَ الَّتي تُزَكِّي صاحِبَها مِن الصِّفاتِ الرَّذيلةِ، وتنفَعُ أخاه المُسلِمَ وتسُدُّ حاجتَه، ويَبِينُ بها أنَّ العَبدَ يُؤْثِرُ محبَّةَ الله على محبَّتِه للمالِ، فيُخرِجُ محبوبَه مِن المالِ لِما هو أحَبُّ إليه، وهو طَلَبُ مَرضاةِ الله[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٦).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾

- صُدِّرَت هذه السُّورةُ بالتَّنويهِ بهَدْيِ القرآنِ؛ لِيَعلَمَ النَّاسُ أنَّه لا يَشتمِلُ إلَّا على ما فِيه هُدًى وإرشادٌ للخيَرِ، ومُثُلِ الكَمالِ النَّفسانيِّ؛ فلا الْتِفاتَ فيه إلى أخبارِ الجَبابرةِ، وأهْلِ الضَّلالِ إلَّا في مقامِ التَّحذيرِ ممَّا همْ فيه ومِن عواقِبِه؛ فكان صدْرُ هذه السُّورةِ تَمْهيدًا لقِصَّةِ لُقمانَ[١].

- قولُه: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ في اسمِ الإشارةِ ﴿ تِلْكَ ﴾ تَنْبيهٌ على تَعظيمِ قَدْرِ تلك الآياتِ بما دَلَّ عليه اسمُ الإشارةِ مِن البُعدِ المُستعمَلِ في رِفعةِ القَدْرِ، وبما دلَّتْ عليه إضافةُ (الآيات) إلى (الكِتاب) الموصوفِ بأنَّه الحكيمُ، وأنَّه هدًى ورحمةٌ وسبَبُ فلاحٍ[٢].

- في قولِه: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ وصَفَ الكتابَ بالحَكيمِ؛ لاشتمالِه على الحِكَمِ، أو لأنَّه كلامٌ حَكيمٌ، أو مُحكَمٌ آياتُه لم يُنسَخْ شَيءٌ منها. ويجوزُ أنْ يكونَ الأصلُ: ﴿ٱلْحَكِيمِ ﴾ قائلُه؛ فحُذِفَ المضافُ، وأُقِيمَ المضافُ إليه مُقامَه[٣].

- وفي وصْفِ الكِتابِ بهذا الوصْفِ ﴿ٱلْحَكِيمِ ﴾ بَراعةُ استهلالٍ للغرَضِ مِن ذِكرِ حِكْمةِ لُقمانَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٨، ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٠).

٢- قوله تعالى: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾

- في قولِه: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ زيادةُ وصْفِ الكتابِ بـ (رَحْمة) بعدَ (هُدًى)؛ لأنَّه لَمَّا كان المقصدُ مِن هذه السُّورةِ قِصَّةَ لُقمانَ، نبَّه على أنَّ ذِكْرَ القصَّةِ رحمةٌ لِمَا تَتضمَّنُه مِن الآدابِ والحِكمةِ؛ لأنَّ في ذلك زِيادةً على الهُدَى: أنَّه تخلَّقَ بالحِكمةِ، ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[1] [البقرة: ٢٦٩].

- قولُه: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ خُصَّ المُحسِنونَ؛ لأنَّهم هم الَّذين انتَفَعوا به، ونَظَروه بعَينِ الحَقيقةِ[2].

٣- قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ بَيانٌ لِمَا عَمِلَ المُحسِنونَ مِن الحسناتِ، إنْ أُريدَ بقولِه: ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾: العاملونَ للحَسَناتِ المشهورةِ المعهودةِ في الدِّينِ. وإنْ أُريدَ بها جَميعُ الحَسناتِ، فهو تَخصيصٌ لهذه الثَّلاثِ (إقامة الصَّلاة- إيتاء الزَّكاة- الإيقان بالآخِرة) بالذِّكرِ مِن بينِ سائرِ شُعَبِها؛ لإظهارِ فَضْلِها وعُلوِّها على غَيرِها، وفيه إيجازٌ بليغٌ[3].

- قَولُه: ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ قَدَّمَ الصَّلاةَ على إيتاءِ الزَّكاة؛ لأنَّ الصَّلاةَ أحَبُّ الأعمالِ إلى اللهِ تعالى؛ ومع أنَّ إيتاءَ الزَّكاةِ فيه نَفعٌ مُتعَدٍّ للغيرِ، ولكِنَّ الصَّلاةَ أحَبُّ إلى الله تعالى منها وأفضَلُ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٩، ٤٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٢١).

- قولُه: ﴿وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ فيه تكريرُ الضَّميرِ (هم)؛ للتَّوكيدِ، ولأنَّه فُصِلَ بيْنَه وبيْنَ خَبَرِه[1].

٤- قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾

- ﴿عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ أتَى بـ «على» الدَّالَّةِ على الاستِعلاءِ، يعني: أنَّهم على هدًى يَسيرونَ عليه، وهم به عالونَ مرتفعونَ؛ لارتفاعِ مَرتبتِهم[2].

- قولُه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ كرَّرَ الإشارةَ إليهم؛ تنْبيهًا على عِظَمِ قَدْرِهم[3].

- والحصرُ في قولِه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أفاد أنَّه لا سبيلَ إلى الفَلاحِ إلَّا بما سَبق[4].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٢٣).

الآيات (٦-٩)

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ٨ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾: أي: باطِلَه وما يَشغَلُ عن الخَيرِ، أو الغِناءَ والمعازِفَ، وأصلُ (لهو): يدُلُّ على شُغلٍ عن شَيءٍ بشَيءٍ[(١)].

﴿وَقۡرٗا﴾: أي: ثِقلًا، وصَمَمًا، وأصلُ (وقر): يدُلُّ على ثِقلِ الشَّيءِ[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا حالَ الَّذين أعرَضوا عن القرآنِ، مُشتغِلينَ بغيرِه: ومِنَ النَّاسِ مَن يَشتري الحديثَ الباطِلَ المُلْهيَ؛ لِيَصُدَّ عن اتِّباعِ سَبيلِ اللهِ بغيرِ عِلمٍ، ويَستهزِئَ بسَبيلِ اللهِ ويَسخَرَ منها؛ أولئك لهم عذابٌ مُهينٌ مُذِلٌّ، وإذا تُتلَى عليه آياتُ القُرآنِ أعرَضَ عنها متكَبِّرًا عن قَبولِها، كأنَّه لم يَسمَعْها، كأنَّ في أُذُنَيه صَمَمًا يَحولُ دونَ سَماعِه لها؛ فبَشِّرْه بعذابٍ مُؤلمٍ مُوجِعٍ.

ثُمَّ يذكُرُ الله تعالى الجزاءَ الحسَنَ الَّذي أعدَّه للمؤمنينَ، فيقولُ: إنَّ الَّذين

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠، ٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٦).

آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ لهم في الآخرةِ جَنَّاتُ النَّعيمِ، ماكِثينَ فيها أبدًا، وعَدَهم اللهُ هذا وعدًا حقًّا، وهو العزيزُ الحَكيمُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ القُرآنَ كِتابٌ حَكيمٌ، يَشتَمِلُ على آياتٍ حَكيمةٍ؛ بيَّنَ مِن حالِ الكُفَّارِ أنَّهم يترُكونَ ذلك، ويَشتَغِلونَ بغَيرِه[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى المُهتَدينَ بالقُرآنِ المُقبِلينَ عليه؛ ذكَرَ مَن أعرَضَ عنه، ولم يرفَعْ به رأسًا، وأنَّه عوقِبَ على ذلك، بأن تعوَّضَ عنه كُلَّ باطلٍ مِن القَولِ، فترَكَ أعلى الأقوالِ، وأحسَنَ الحديثِ، واستبدَلَ به أسفَلَ قَولٍ وأقبَحَه[٢]!

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿لِيُضِلَّ﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿لِيَضِلَّ﴾ بفَتحِ الياءِ، على معنى: أنَّه يَضِلُّ هو نَفْسُه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٦).

(٣) قرأ بها ابنُ كثيرٍ، وأبو عمرٍو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٨٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٥٦). =

٢- قراءةُ ﴿لِيُضِلَّ﴾ بضَمِّ الياءِ، على معنى: أنَّه يُضِلُّ غَيرَه، وإذا أضلَّ غيرَه فقد أضلَّ نفْسَه أيضًا[1].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾.

أي: ومِنَ النَّاسِ مَن يَشتري[2] الحديثَ الباطِلَ المُلْهيَ للقُلوب[3]؛ لِيَصُدَّ عن

= قال ابنُ كثير: (على قراءةِ فَتحِ الياءِ تكونُ اللَّامُ لامَ العاقبةِ، أو تعليلًا للأمرِ القَدَريِّ، أي: قُيِّضوا لذلك؛ لِيَكونوا كذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣١).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٨٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٥٦).

قال ابن عثيمين: (وفائدةُ القراءتينِ هنا: اشتِمالُ هذه الكَلِمةِ على المعنيَينِ، وهما: الضَّلالُ بنفْسِه، وإضلالُ غَيرِه). ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٢٥).

(٢) قال الرسعني: (قولُه تعالى: ﴿يَشۡتَرِي﴾ إمَّا أن يكونَ على حقيقتِه... أو على مجازِه، وهو إيثارُ اللَّهوِ، واختيارُه). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣٧).

وممَّن اختار الأوَّلَ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٣٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢١).

وممَّن اختار الثَّانيَ، أي: يختارُ ويرغَبُ رَغبةَ مَن يَبذُلُ الثَّمَنَ في الشَّيءِ: السعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٢٤).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٨٦).

قال الواحدي: (قال أهلُ المعاني: ويَدخُلُ في هذا كُلُّ مَن اختار اللَّهوَ والغناءَ والمزاميرَ والمعازفَ على القرآنِ. وإنْ كان اللَّفظُ قد ورد بالشِّراءِ). ((البسيط)) (١٨/ ٩٥).

(٣) قيل: المرادُ به: الغِناءُ. وممَّن ذهب إليه: القرطبي، وابنُ جُزَي، وابن كثير، ونسَبه الواحديُّ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٥١، ٥٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٤١).

وقيل: المرادُ به العمومُ؛ فيَعُمُّ كُلَّ حديثٍ باطلٍ ولَهْوٍ عن سبيلِ الله، فيَدخُلُ فيه الغِناءُ، وأخبارُ الأعاجمِ ومُلوكِها، ونحو ذلك. وممَّن قال بالعموم: ابنُ جرير، وابن القيم، والبِقاعي، =

اتِّباعِ الهُدى والحَقِّ بلا عِلمٍ[(١)].

= والشوكاني، والألوسي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٣٩)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٢٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٤٦، ١٤٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٢٨).

قال الشوكاني: (ولهوُ الحديثِ: كلُّ ما يُلْهي عن الخيرِ؛ مِن الغناءِ، والملاهي، والأحاديثِ المكذوبةِ، وكلُّ ما هو منكَرٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٧٠).

وقال ابنُ القيِّم: (لا تَعارُضَ بينَ تفسيرِ «لهوِ الحديثِ» بالغِناءِ، وتفسيرِه بأخبارِ الأعاجمِ ومُلوكِها وملوكِ الرُّومِ، ونحو ذلك ... فكِلاهما لهوُ الحديثِ؛ ولهذا قال ابنُ عبَّاسٍ: «لهوُ الحديثِ: الباطِلُ والغِناءُ»، فمِنَ الصَّحابةِ مَن ذكَرَ هذا، ومنهم مَن ذكَرَ الآخَرَ، ومنهم مَن جمَعَهما). ((إغاثة اللهفان)) (١/ ٢٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٣٤، ٥٣٩، ٥٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٠، ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧).

قال الرسعني: (قوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ في محلِّ الحالِ من الضَّميرِ في ﴿يَشْتَرِي﴾، أو في ﴿لِيُضِلَّ﴾، فهو تجهيلٌ للمُضِلِّ أو تجهيلٌ للمشتري، حيثُ لم يَهتَدِ إلى التِّجارةِ الرَّابحةِ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٦).

قيل: المرادُ بقَولِه: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: أنَّه جاهلٌ فيما يَفعلُ، لا يَفعلُه عن عِلمٍ، بل عن جهلٍ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: الواحديُّ، والبَغَوي، والعُلَيمي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٤٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٨٦)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٠١).

وقيل: المرادُ بقولِه تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: الجَهلُ بعاقبةِ ذلك وإثمِه. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٠).

وقيل: المرادُ أنَّ فِعلَه هذا ناشئٌ عن الجَهلِ باللهِ عزَّ وجَلَّ، وعن الجَهلِ بشَرعِه، وعن الجَهلِ بحَقيقةِ ما خُلِقَ له. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٢٦).

وقيل: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي بحالِ ما يَشتريه، أو بالتِّجارةِ وما يَنفعُ منها وما يَضُرُّ، حيثُ استبدَلَ الشَّرَّ البَحتَ بالخَيرِ المَحضِ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: أبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٧٠).

كما قال الله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٢٧].

﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ﴾.

أي: ولِيَستهزِئَ بسَبيلِ اللهِ، ويَسخَرَ منها[1].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾.

أي: أولئك لهم عذابٌ يُخزيهم، ويُهينُهم، ويُذِلُّهم[2].

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان الإنسانُ قد يكونُ غافِلًا، فإذا نُبِّه انتبَه؛ نبَّه سبحانَه وتعالى على أنَّ هذا الإنسانَ المُنهَمِكَ في أسبابِ الخُسرانِ لا يَزدادُ على مَرِّ الزَّمانِ إلَّا مُفاجأةً لكُلِّ ما يَرِدُ عليه مِنَ البَيانِ بالبَغيِ والطُّغيانِ[3].

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾.

أي: وإذا تُتلَى عليه آياتُ القُرآنِ؛ لِيُؤمِنَ بها، ويَنقادَ إليها، أعرَضَ عنها وهو شَديدُ التَّكَبُّرِ عن قَبولِها، فلم تَدخُلْ قَلْبَه ولا انتفَعَ بها، بل أدبَرَ عنها، كأنَّه لا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٠، ٥٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٤٩).

يَسمَعُها[١]!

﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗا﴾.

أي: كأنَّ في أُذُنَيه صَمَمًا وثِقلًا يمنَعُه مِن سَماعِها[٢]!

كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾ [الكهف: ٥٧].

﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

أي: فبَشِّرْه بعَذابٍ مُؤلِمٍ مُوجِعٍ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ * يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ * وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ * مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الجاثية: ٧ - ١٠].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٤٠، ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧).

قال السَّعدي: (﴿فَبَشِّرۡهُ﴾ بشارةً تُؤثِّرُ في قلبِه الحُزنَ والغَمَّ، وفي بَشَرتِه السُّوءَ والظُّلْمةَ والغَبَرةَ ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ مُؤلِمٍ لِقَلبِه ولِبَدَنِه، لا يُقادَرُ قَدْرُه، ولا يُدرَى بعظيمِ أمرِه، وهذه بِشارةُ أهلِ الشَّرِّ، فلا نِعْمَتِ البِشارةُ!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى حالَ مَن إذا تُتلَى عليه الآياتُ ولَّى؛ بيَّنَ حالَ مَن يُقبِلُ على تلك الآياتِ ويَقبَلُها[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَر الله تعالى عذابَ مَن يُضِلُّ عن سبيلِه؛ أَتْبَع بِبشارةِ المحسنينَ[2].

وأيضًا لَمَّا كانت معرفةُ ما لأحدِ الحِزبَينِ باعثةً على السُّؤالِ عمَّا للحزبِ الآخَرِ، وكانت إجابةُ السُّؤالِ عن ذلك مِن أتمِّ الحكمةِ؛ استأنَف تعالى قولَه مؤكِّدًا لأجْلِ إنكارِ الكفرةِ[3]:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ٨﴾.

أي: إنَّ الذين آمَنوا بكُلِّ ما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ بإخلاصٍ لله تعالى، ومُتابَعةٍ لِشَرعِه: لهم في الآخرةِ جَنَّاتٌ يتنعَّمونَ فيها بأنواعِ النَّعيمِ[4].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩﴾.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: ماكِثينَ فيها أبدًا[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧).

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾.

أي: وَعَدهم اللهُ هذا وعْدًا حَقًّا، لا يُمكِنُ أن يَتخَلَّفَ وُقوعُه، أو يَتغيَّرَ ويَتبدَّلَ[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو الَّذي له كَمالُ العِزَّة؛ فقَهَر وغلَبَ كُلَّ شَيءٍ، ودانَ له كُلُّ شَيءٍ، ومِن عِزَّته أنَّه لا يمنَعُه شيءٌ مِن تنفيذِ وَعدِه ووعيدِه، وله كَمالُ الحِكمةِ والإحكامِ في أقوالِه وأفعالِه، ومِن عِزَّتِه وحِكمتِه أنَّه وَفَّق مَن وَفَّق مِن عبادِه، وخَذَل مَن خَذَل منهم[2].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ...﴾ ذمٌّ لِمَن يَركَنُ إلى لَهْوِ الحديثِ، وهو ما لا خيرَ فيه[3] مِن كُلِّ كلامٍ مُحرَّمٍ، وكُلِّ لَغْوٍ وباطلٍ وهَذَيانٍ مِن الأقوالِ المرَغِّبةِ في الكُفرِ والفُسوقِ والعِصيانِ، ومِن أقوالِ الرَّادِّينَ على الحَقِّ، المجادِلينَ بالباطِلِ؛ لِيُدْحِضوا به الحَقَّ، ومِن غِيبةٍ ونَميمةٍ، وكَذِبٍ وشَتمٍ وسَبٍّ، ومِن غِناءٍ ومَزاميرِ شَيطانٍ، ومِن الماجَرَياتِ[4] المُلْهيةِ الَّتي لا نَفْعَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧).

قال الخازنُ: (﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ يعني: وعَدَكم الله ذلك وعْدًا حقًّا). ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٣٣).

(٤) الماجريات: جمعُ (ما جرَى)، مولَّدٌ، يُرادُ به الأمورُ التي يُسألُ عنها بـ (ما جرَى؟). ((معجم متن اللغة)) لأحمد رضا (١/ ٥١٩).

فيها في دينٍ ولا دُنيا[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ذمٌّ لكُلِّ ما يَصُدُّ عن سَبيلِ الله تعالى، ثمَّ إنْ كان يُضِلُّ عن واجبٍ صار حَرامًا، وإنْ كان يُضِلُّ عن مُستحَبٍّ لم يكُنْ حَرامًا، لكِنَّه يُذَمُّ بلا شَكٍّ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ دليلٌ على تحريمِ الغِناءِ وما أخَذَ أخْذَه ممَّا يُضِلُّ عن سَبيلِ اللهِ[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فيه سؤالٌ: ما مَعنى إضافةِ اللَّهوِ إلى الحَديثِ؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ معناها التَّبيينُ، وهي الإضافةُ بمعنى (مِن)، وأن يُضافَ الشَّيءُ إلى ما هو منه، كقَولِه: (صُفَّةُ خَزٍّ، وبابُ ساجٍ)، والمعنى: مَن يشتري اللَّهوَ مِن الحديثِ؛ لأنَّ اللَّهوَ يكونُ مِن الحديثِ ومِن غَيرِه، فبُيِّنَ بالحديثِ، والمرادُ بالحديثِ: الحَديثُ المُنكَرُ.

الوجهُ الثاني: أنَّه يجوزُ أنْ تكونَ الإضافةُ بمعنى (مِن) التَّبعيضيَّةِ، كأنَّه قيل: ومِنَ النَّاسِ مَن يَشتري بعضَ الحديثِ الَّذي هو اللَّهوُ منه[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا﴾ ثُبوتُ المدحِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٣٨).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩١).

والثَّناءِ لِمَن كان على العَكسِ مِن ذلك؛ لأنَّ الذَّمَّ على صِفةٍ يَقتضي مَدْحَ مَن اتَّصفَ بضِدِّها، وهذه قاعدةٌ مُفيدةٌ، فيؤخَذُ منه: مَدْحُ مَن إذا تُلِيَتْ عليه آياتُ الرَّحمنِ أقْبَل إليها واستمَعَ إليها(١).

٤- قولُه: ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ فيه رمْزٌ إلى أنَّ مَن سمِعَها لا يُتصوَّرُ منه التَّوليةُ والاستِكبارُ؛ لِمَا فيها مِنَ الأمورِ المُوجِبةِ للإقبالِ عليها، والخضوعِ لها(٢).

٥- حُجَّةُ اللهِ برُسُلِه قامتْ بالتَّمَكُّنِ مِن العِلمِ، فليس مِن شَرْطِ حُجَّةِ اللهِ تعالى عِلْمُ المَدْعوِّينَ بها؛ ولهذا لم يكُنْ إعراضُ الكُفَّارِ عن استِماعِ القرآنِ وتدَبُّرِه مانِعًا مِن قيامِ حُجَّةِ اللهِ تعالى عليهم، وكذلك إعراضُهم عن استِماعِ المنقولِ عن الأنبياءِ، وقراءةِ الآثارِ المأثورةِ عنهم: لا يمنعُ الحُجَّةَ؛ إذِ المُكْنة حاصِلةٌ؛ فلذلك قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ۞ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [فصلت: ٢٦، ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۞ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾(٣) [الفرقان: ٣٠، ٣١].

٦- قال تعالى هنا: ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ على سَبيلِ التَّشبيهِ، وصَرَّح في غيرِ هذا الموضعِ أنَّه جعَلَ في أُذُنيه الوَقرَ بالفعلِ، في قَولِه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: ٥٧]، والظَّاهِرُ أنَّ الوَقْرَ المذكورَ: على سَبيلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٩).
(٣) يُنظر: ((الرَّد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٩٩).

التَّشبيهِ بالوَقرِ الحِسِّيِّ؛ لأنَّ الوَقْرَ المعنويَّ يُشبِهُ الوَقرَ الحِسِّيَّ، والوَقْرُ المجعولُ على آذانِهم بالفِعلِ: هو الوَقرُ المعنويُّ المانِعُ مِن سَماعِ الحَقِّ فقط دونَ سَماعِ غَيرِه، والعِلمُ عندَ اللهِ تعالى[١].

٧- قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾ تَضمَّنتْ هذه الآيةُ ذمَّ المُشتري لِلَهْوِ الحَديثِ مِن وُجوهٍ: التَّوليةِ عن الحِكمةِ، ثمَّ الاستِكبارِ، ثمَّ عدَمِ الالتِفاتِ إلى سماعِها كأنَّه غافِلٌ عنها، ثمَّ الإيغالِ في الإعراضِ بكَونِ أُذنَيْه كأنَّ فيهما صَممًا يَصُدُّه عن السَّماعِ[٢].

٨- في قولِه تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أنَّ البِشارةَ تُطْلَقُ على ما يَسوءُ[٣]، وهي تُطلَقُ غالِبًا على الإخبارِ بما يَسُرُّ[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ أنَّ الإيمانَ لا يكفي، بل لا بُدَّ مِن عَمَلٍ صالحٍ؛ فمُجَرَّدُ العقيدةِ لا يكفي إذا لم يَكُنْ عَمَلٌ صالحٌ، بل رُبَّما نقولُ: إنَّه إذا لم يكُنْ عَمَلٌ صالحٌ فهو دَليلٌ على أنَّه لا عقيدةَ؛ لأنَّ النَّبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يقولُ: ((ألَا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كلُّه، وإذا فَسَدتْ فَسَدَ الجسدُ كلُّه))[٥].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٤٤).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٥٠).

والحديث أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) مطوَّلًا من حديثِ النُّعمانِ بنِ بشيرٍ رضي الله عنهما.

﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ تنكيرُ العذابِ، وتَعريفُ الجنَّةِ بالإضافةِ إلى المعرَّفِ: إشارةٌ إلى أنَّ الرَّحيمَ يُبَيِّنُ النِّعمةَ ويُعَرِّفُها؛ إيصالًا للرَّاحةِ إلى القَلبِ، ولا يُبيِّنُ النِّقمةَ، وإنَّما ينبِّهُ عليها تنبيهًا[1].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ دَلالةٌ على أنه لا مرضَ في الجنَّةِ، ووجهُه قولُه تعالى: ﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ لأنَّ المرضَ يُنافي النَّعيمَ؛ وعلى أنَّه ليس فيها شَيخوخةٌ؛ لأنَّ الشَّيْخوخةَ تُنافي ذلك أيضًا؛ وعلى أنَّه ليس فيها هَمٌّ أو كَدَرٌ أو تَنغِيصٌ أبدًا، كلُّ هذا يُنافي النَّعيمَ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

- قولُه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ ...﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾، وهذا من مُقابَلةِ الثَّناءِ على آياتِ الكِتابِ الحَكيمِ بضِدِّ ذلك في ذَمِّ ما يأتي به بعضُ النَّاسُ، وهذا تخلُّصٌ مِن المُقدِّمةِ إلى مَدخلٍ للمقصودِ[3].

- وتَقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ للتَّشويقِ إلى تلقِّي خبَرِه العَجيبِ[4].

- قَولُه: ﴿مَن يَشْتَرِي﴾ عبَّرَ عن الاختيارِ بالاشتراءِ، وهو إشارةٌ إلى حِرصِهم على هذا الأمرِ؛ لأنَّ الاشتراءَ إنَّما يكونُ بالمُعاوَضةِ، فكأنَّهم لِقُوَّةِ اختيارِهم

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٤٢).

هذا الشَّيءَ بذَلوا فيه أموالَهم لِيَنالوه[١].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ اسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ وما فيه مِن مَعنى البُعْد، مع قُرْبِ العهْدِ بذِكْرِ المُشارِ إليه؛ للإيذانِ ببُعدِ مَنزلتِهم في الشَّرارةِ، أي: أولئك المَوصوفون بما ذُكِرَ مِنَ الاشتراءِ للإضلالِ ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾[٢]. واختيرَ اسمُ الإشارةِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ ما يَرِدُ بعدَ اسمِ الإشارةِ مِن الخبرِ إنَّما استحَقَّه لِأجْلِ ما سبَقَ اسمَ الإشارةِ من الوصْفِ[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

- قولُه: ﴿وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا ...﴾ تمْثيلٌ للإعراضِ عن آياتِ اللهِ، كقولِه تعالى: ﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ﴾ [النازعات: ٢٢]، وشُبِّه في ذلك بالَّذي لا يَسمَعُ الآياتِ الَّتي تُتْلَى عليه، ووجْهُ الشَّبهِ هو عدَمُ التَّأثُّرِ ولو تأثُّرًا يَعقُبُه إعراضٌ، كتأثُّرِ الوَليدِ بنِ المُغيرةِ. و(كأنْ) مُخفَّفةٌ من (كأنَّ)، وكرَّرَ التَّشبيهَ؛ لتَقْويتِه مع اختِلافِ الكَيفيَّةِ في أنَّ عدَمَ السَّمْعِ مرَّةً مع تمكُّنِ آلةِ السَّمْعِ، ومرَّةً مع انعدامِ قوَّةِ آلَتِه؛ فشُبِّهَ ثانيًا بمَن في أُذُنَيْه وقْرٌ، وهو أخصُّ مِن معنى ﴿كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾[٤].

- قولُه: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ قيل: ذِكْرُ البِشارةِ؛ للتَّهكُّمِ[٥]، وذلك على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٢٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٥).

القَولِ بأنَّ البِشارةَ هي الخبرُ السَّارُّ الَّذي ليس عندَ المُخبَرِ عِلمٌ به[1].

- وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ ورَدَ قولُه: ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ...﴾ هنا بزيادةِ ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾، وفي (الجاثيةِ) بحَذْفِه: ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ [الجاثية: ٨]، ووجْهُه: أنَّ اللهَ تعالى بالَغَ في ذَمِّه هنا؛ فناسَبَ زيادةُ ذلك، بخِلافِ ما في (الجاثيةِ): لم يُبالِغْ فيها هذه المُبالَغةَ؛ لِمَا ذَكَر بعدَه ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ [الجاثية: ٩]؛ لأنَّ العِلْمَ لا يَحصُلُ إلَّا بالسَّماعِ، أو ما يقومُ مَقامَه مِن خَطٍّ أو غيرِه[2].

وفيه وجْهٌ آخرُ: أنَّ آيةَ (الجاثيةِ) لَمَّا تقدَّمَ فيها: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾ [الجاثية: ٧، ٨] فوصَفَه بسَماعِ آياتِ اللهِ؛ لم يكُنْ لِيُطابِقَه ذِكْرُ الوقْرِ في الأُذُنِ؛ لأنَّه قد ذكَرَ سماعَه الآياتِ، والوقْرُ مانعٌ مِن السَّمعِ؛ فلم يُناسِبِ الإعلامَ بالسَّماعِ ذِكْرُ الوقْرِ المانعِ منه. ولَمَّا لم يقَعْ ذِكْرُ سماعِ الآياتِ في آيةِ (لُقمانَ)، وتقدَّمَ ذِكْرُ المُشارِ إليه فيها بقولِه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ [لقمان: ٦]، وهذه زيادةُ مُرتكَبٍ؛ فناسَبَها ذِكْرُ زيادةِ الوقْرِ، مع أنَّه لم يَرِدْ فيها ذِكْرُ سماعِه الآياتِ كما ورَدَ في آيةِ (الجاثيةِ)، فازدادَ وُضوحُ التَّلاؤُمِ، وإنْ عُكِسَ الواردُ لا يُلائِمُ[3].

٣- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ بيانٌ لحالِ المُؤمنينَ بآياتِه تعالى، إثْرَ بَيانِ حالِ الكافرينَ بها[4].

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٠٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٧١، ٣٧٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٩).

- قولُه: ﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: النَّعيمِ الكثيرِ، وإضافةُ الجنَّاتِ إليه باعتِبارِ اشتمالِها عليه، نظيرُ قولِك: (كتب الفقهِ)[(١)]. وقيل: ﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: نَعيمُ جَنَّاتٍ؛ فعُكِسَ للمُبالَغةِ[(٢)].

٤- قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

- قولُه: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗا﴾ (وَعْدَ) و(حَقًّا) مَصْدَرانِ مُؤكِّدانِ: الأوَّلُ لنفْسِه، والثَّاني لغَيرِه؛ لأنَّ قولَه تعالَى: ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ في معنى: وعَدَهم اللهُ جنَّاتِ النَّعيمِ؛ فأكَّدَ معنى الوعْدِ بالوعْدِ، وأمَّا ﴿حَقّٗا﴾ فدالٌّ على معنَى الثَّباتِ، أكَّدَ به معنى الوعْدِ، ومُؤكِّدُهما جميعًا ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾[(٣)].

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ فيه إجراءُ هذَينِ الاسمينِ الجَليلينِ على ضَميرِ الجلالةِ؛ لتَحقيقِ وعْدِه؛ لأنَّه -لعِزَّتِه- لا يُعجِزُه الوفاءُ بما وعَدَ، ولحِكمْتِه لا يُخطِئُ، ولا يَذهَلُ عمَّا وعَدَ؛ فمَوقعُ جُملةِ ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ موقعُ التَّذييلِ بالأعمِّ[(٤)].



(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٧٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٩، ٧٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٥).

الآيتان (١٠-١١)

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ١٠ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ١١﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿رَوَٰسِيَ﴾: أي: جِبالًا ثوابِتَ، وأصلُ (رسي): يدُلُّ على ثَباتٍ[1].

﴿تَمِيدَ﴾: أي: تَميلَ وتَضطَرِبَ، والمَيْدُ: الحَركةُ والمَيلُ، وأصلُ (ميد): يدُلُّ على حَركةٍ[2].

﴿وَبَثَّ﴾: أي: فرَّق ونشَرَ، وأصلُ (بثث): يدُلُّ على تفريقِ الشَّيءِ[3].

﴿زَوۡجٖ﴾: أي: لَونٍ وصِنفٍ، يُقالُ لِكُلِّ ما يَقترِنُ بآخَرَ مُماثِلًا له أو مُضادًّا: زَوجٌ، وأصلُ (زوج): يدُلُّ على مُقارَنةِ شَيءٍ لِشَيءٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٠).

المعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ اللهُ تعالى عبادَه عن بعضِ آثارِ قدرتِه، وبدائعِ حكمتِه، ونِعَمِه الَّتي هي مِن آثارِ رحمتِه، فيقولُ: خلَقَ اللهُ السَّمَواتِ مَرفوعةً بغيرِ أعمِدةٍ كما تَرَونَها، وجعَلَ في الأرضِ جِبالًا ثابتةً؛ لِئَلَّا تَميلَ الأرضُ وتَضطَرِبَ بكم، ونشَرَ في الأرضِ مِن كُلِّ الدَّوابِّ، وأنزَلَ اللهُ مِن السَّماءِ مَطَرًا، فأنبَتَ بسَبَبِه مِن كُلِّ أصنافِ النَّباتاتِ الكثيرةِ المنافعِ، الحَسَنةِ المنظَرِ.

هذا خَلْقُ اللهِ وَحْدَه؛ فأرُوني -أيُّها المُشرِكونَ- ماذا خلَقَ الَّذين تَعبُدونَهم مِن دونِ اللهِ، بل المُشرِكونَ في ضَلالٍ واضحٍ ظاهرٍ بتَركِهم عِبادةَ رَبِّهم، وعبادتِهم سِواه.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا خَتَمَ اللهُ تعالى الآيةَ السَّابقةَ بصِفتَيِ العِزَّةِ -وهي غايةُ القُدرةِ- والحِكمةِ -وهي ثمرةُ العِلمِ-: دلَّ عليها بإتقانِ أفعالِه وإحكامِها، فقال[١]:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا﴾.

أي: خلَقَ اللهُ السَّمَواتِ السَّبْعَ مَرفوعةً بلا أعمِدةٍ، كما تَرَونَها[٢].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٨، ٤٢٩) و(٦/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٥٤). =

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥].

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾.

أي: وجعَلَ اللهُ في الأرضِ جِبالًا ثابتةً؛ لِئَلَّا تَتمايَلَ الأرضُ، وتَضطَرِبَ بكم[1].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٧].

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾.

أي: وفرَّق اللهُ في الأرضِ ونشَرَ مِن كُلِّ أنواعِ الدَّوابِّ[2].

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾.

أي: وأنزَلْنا مِنَ السَّماءِ مَطرًا، فأنبَتْنا بسَبَبِه مِن كُلِّ أصنافِ النَّباتاتِ الحَسَنةِ المنظَرِ، الكثيرةِ المنافِعِ[3].

= قال ابن جُزَي في نظيرِ هذه الآيةِ من سورةِ الرَّعدِ، الآية (٢): (﴿تَرَوْنَهَا﴾ قيل: الضَّميرُ للسَّموات، و﴿تَرَوْنَهَا﴾ على هذا في موضعِ الحالِ، أو استئنافًا. وقيل: الضَّميرُ للعَمَدِ، أي: ليس لها عَمَدٌ مَرئيَّةٌ، فيَقتضي المفهومُ مِن أنَّ لها عَمَدًا لا تُرى. وقال الجمهورُ: لا عَمَدَ لها البَتَّةَ، فالمرادُ نَفْيُ العَمَدِ، ونفْيُ رُؤيتِها). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٩٩).

قال الرَّسْعَني: (لأنَّها لو احتاجتْ إلى عَمَدٍ لافتقَرَ العَمَدُ إلى دِعامةٍ أيضًا، وتَسلسَلَ إلى ما لا نهايةَ له). ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٤٣٧). ويُنظر ما تقدَّم في تفسير سورة الرعد من ((التفسير المحرر)) (١٢/ ١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٦).

كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه: ٥٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ * وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ [ق: ٩ - ١١].

﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (١١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ثبَتَ بهذا الخَلقِ العظيمِ على هذا الوَجهِ المُحكَمِ: عِزَّتُه تعالى وحِكمتُه؛ ثَبَتتْ ألوهيَّتُه، فألزَمَ الكافِرينَ وُجوبَ تَوحيدِه في العبادةِ كما تَوحَّدَ بالخَلقِ؛ لأنَّ ذلك عَينُ الحِكمةِ، كما كان خَلقُه لهذا الخَلقِ على هذا النِّظامِ -لِيَدُلَّ عليه سُبحانَه- سِرَّ الحِكمةِ[١].

﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾.

أي: هذا الَّذي تقَدَّمَ ذِكرُه مِن خَلقِ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما هو خَلْقُ اللهِ وَحْدَه؛ فأَرُوني -أيُّها المُشرِكونَ- أيَّ شَيءٍ خَلَقَ الَّذين تَعبُدونَهم مِن دونِ اللهِ حتَّى استحَقُّوا تلك العبادةَ منكم[٢]؟!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٦٧).

كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

﴿بَلِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

أي: بل المُشرِكونَ في ذَهابٍ عن الحَقِّ واضِحٍ ظاهِرٍ؛ حيثُ عَبَدوا ما لا يَخلُقُ شَيئًا، وتَرَكوا عِبادةَ الخالِقِ وحْدَه سُبحانَه[1]!

كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ بيانُ قدرةِ الله عزَّ وجلَّ ببَثِّ هذه الدَّوابِّ في الأرضِ، ووجهُ دَلالتِها على القُدرةِ اختِلافُ هذه الدَّوابِّ في أجناسِها وأنواعِها، وأشكالِها وأحوالِها[2].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ إنزالُ الماءِ نعمةٌ ظاهِرةٌ مُتكرِّرةٌ في كُلِّ زمانٍ، مُتكَثِّرةٌ في كُلِّ مكانٍ؛ فأسندَه تعالى إلى نَفْسِه صَريحًا؛ لِيَتنَبَّهَ الإنسانُ لِشُكرِ نِعمتِه، فيَزيدَ له مِن رحمتِه[3].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ دَليلٌ على الرَّحمةِ؛ حيث كان نُزولُه مِن العُلوِّ لأجْلِ أنْ يَشملَ المرتَفِعَ والمنخَفِضَ[4].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا﴾ إثباتُ الأسبابِ، ويُؤخَذُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٦٥).

إثباتُ الأسبابِ مِن فاءِ السَّببيَّةِ ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾، وإثباتُ الأسبابِ مِن حِكمةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ فالمنكِرُ للأسبابِ طاعِنٌ في حِكمةِ اللهِ تعالى لا شَكَّ[1].

٥- في قَوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ بيانُ قدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ على تصنيفِ هذا النَّباتِ، مع أنَّ أرضَه واحِدةٌ وماءَه واحِدٌ؛ لِقَولِه سُبحانَه وتعالى: ﴿مِن كُلِّ زَوۡجٖ﴾، أي: مِن كُلِّ صِنفٍ، فتَرى هذه الشَّجرةَ كبيرةً وهذه صَغيرةً، وهذه خَضراءَ وهذه بُنِّيَّةً؛ هذه زهرتُها بَيضاءُ، وهذه صَفراءُ، وهذه بلَونٍ آخَرَ؛ ألوانٌ مختلفةٌ مع أنَّ الماءَ واحدٌ والأرضَ واحدةٌ! وهذا دليلٌ على كَمال قدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ[2].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ الاستدلالُ بتوحيدِ الرُّبوبيةِ على توحيدِ الألوهيَّةِ؛ فالمُشركونَ يُقِرُّونَ بأنَّه خَلْقُ اللهِ تعالى، فإذا أقَرُّوا به يَلزَمُهم الإقرارُ بتَوحيدِ الألوهيَّةِ[3]، فتَوحيدُ الرُّبوبيَّةِ أعظَمُ دليلٍ على توحيدِ الإلهيَّةِ؛ ولذلك وقَع الاحتِجاجُ به في القرآنِ أكثَرَ ممَّا وقَع بغيرِه؛ لِصحَّةِ دَلالتِه، وظُهورِها، وقَبولِ العُقولِ والفِطَرِ لها، ولاعتِرافِ أهلِ الأرضِ بتوحيدِ الرُّبوبيَّةِ، وكذلك كان عُبَّادُ الأصنامِ يُقِرُّون به، ويُنكِرونَ توحيدَ الإلهيَّةِ، ويقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥]، مع اعترافِهم بأنَّ اللهَ وحْدَه هو الخالقُ لهم ولِلسَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما، وأنَّه المُنفرِدُ بملْكِ ذلك كلِّه، فأرسَل اللهُ تعالى الرُّسلَ تُذَكِّرُهم بما في فِطَرِهم الإقرارُ به مِن تَوحيدِه وحْدَه لا شريكَ له، وأنَّهم لو رجَعوا إلى فِطَرِهم وعُقولِهم لَدَلَّتْهم على امتناعِ إلهٍ آخَرَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٦٦). ويُنظر أيضًا: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٣/ ٢٣٤)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٠).

معه، واستِحالتِه وبُطلانِه[١].

٧- قَولُه تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ فلِلَّهِ ما أحلَى هذا اللَّفْظَ وأوجَزَه، وأدَلَّه على بُطلانِ الشِّركِ! فإنَّهم إن زعَموا أنَّ آلهتَهم خَلَقت شيئًا مع اللهِ طُولِبوا بأنْ يُرُوه إيَّاه، وإن اعترَفوا بأنَّها أعجَزُ وأضعَفُ وأقَلُّ مِن ذلك كانت إلهيَّتُها باطِلًا ومُحالًا[٢]!

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ الاستِدلالُ بالأظهَرِ على ما يُنكِرُه الخَصمُ؛ فإنَّ هذا استِدلالٌ بأمرٍ ظاهرٍ واضِحٍ على أمرٍ يُنكِرُه الخَصمُ، وهو إنكارُ انفرادِ اللهِ تعالى بالأُلوهيَّةِ[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ استِعمالُ التَّحدِّي في المُناظَرةِ[٤].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ استئنافٌ للاستِدلالِ على الَّذين دأْبُهم الإعراضُ عن آياتِ اللهِ بأنَّ اللهَ هو خالِقُ المخلوقاتِ، فلا يَستحِقُّ غيرُه أنْ تُثْبَتَ له الإلهيَّةُ؛ فكان ادِّعاءُ الإلهيَّةِ لغيرِ اللهِ هو العِلَّةَ للإعراضِ عن آياتِ الكتابِ الحكيمِ؛ فهمْ لَمَّا أثْبَتوا الإلهيَّةَ لِمَا لا يَخلُقُ شيئًا، كانوا كمَن يَزعُمُ أنَّ الأصنامَ مُماثِلةٌ للهِ تعالى في أوصافِه؛ فذلك يَقْتضي

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) لابن القيم (ص: ٤٥).

(٢) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٧٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

انتِفاءَ وصْفِ الحِكمةِ عنه، كما هو مُنتَفٍ عنها؛ ولذا فإنَّ مَوقِعَ هذه الآياتِ مَوقِعُ دَليلِ الدَّليلِ، وهو المقامُ المُعبَّرُ عنه في عِلمِ الاستِدلالِ بالتَّدقيقِ؛ وهو ذِكْرُ الشَّيءِ بدَليلِه ودَليلِ دَليلِه[١].

- وأدمَجَ في أثناءِ دَلائلِ صِفَةِ الحِكمةِ الامتِنانَ بما في ذلك مِن منافِعَ للخَلْقِ بقولِه: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾؛ فإنَّ من الدَّوابِّ المَبثوثةِ ما يَنتفِعُ به النَّاسُ؛ مِن أكْلِ لُحومِ أوانسِها ووُحوشِها، والانتِفاعِ بألْبانِها وأصوافِها، وجُلودِها وقُرونِها وأسنانِها، والحمْلِ عليها، والتَّجمُّلِ بها في مَرابطِها، وغُدوِّها ورَواحِها، ثمَّ مِن نعمةِ مَنافعِ النَّباتِ؛ مِن الحَبِّ والثَّمرِ، والكلَأَ والكَمْأةِ. وإذ كانتِ البحارُ مِن جُملةِ الأرضِ، فقد شمِلَ الانتفاعَ بدَوابِّ البحرِ؛ فاللهُ كما أبدَعَ الصُّنعَ أسبَغَ النِّعمةَ، فأرانا آثارَ الحِكمةِ والرَّحمةِ[٢].

- وقولُه: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ استئنافٌ جِيءَ بِه للاستِشهادِ على ما ذُكِرَ مِن خَلْقِه تعالى لها غيرَ مَعهودةٍ بمُشاهَدتِهم لها كذلك. أو صِفةٌ لـ﴿عَمَدٍ﴾، أي: خلَقَها بغيرِ عمَدٍ مَرئيَّةٍ[٣].

- قولُه: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا﴾، في قولِه: ﴿وَبَثَّ﴾ التِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ في الفِعلينِ (أَنْزَلْنَا) و﴿فَأَنۢبَتْنَا﴾؛ للاهتِمامِ بهذه النِّعمةِ الَّتي هي أكثَرُ دوَرانًا عندَ النَّاسِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٥، ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٦).

٢- قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ جُملةُ ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾ إلى آخِرِها، نتيجةُ الاستدلالِ بخلْقِ السَّماءِ والأرضِ، والجبالِ والدَّوابِّ، وإنزالِ المطَرِ. و﴿ هَٰذَا ﴾ إشارةٌ إلى ما تَضمَّنَه قولُه: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ إلى قولِه: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾، والإتيانُ به مُفردًا بتأْويلِ: (المذكور)[١].

- وفي قولِه: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ... ﴾ بكَّتَهم بأنَّ هذه الأشياءَ العظيمةَ ممَّا خلَقَه اللهُ وأنشَأَه؛ ففيه توبيخٌ للكفَّارِ، وإظهارٌ للحُجَّةِ عليهم[٢].

- والانتِقالُ مِن التَّكلُّمِ إلى الغَيبةِ في قولِه: ﴿خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾ الْتفاتًا؛ لزِيادةِ التَّصريحِ بأنَّ الخِطابَ واردٌ مِن جانبِ اللهِ؛ بقَرينةِ قولِه: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾، وكذلك يكونُ الانتقالُ من التَّكلُّمِ إلى الغَيبةِ في قولِه: ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ الْتفاتًا؛ لمُراعاةِ العَودِ إلى الغَيبةِ في قولِه: ﴿خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾[٣].

- ويجوزُ أنْ تكونَ الرُّؤيةُ مِن قولِه: ﴿فَأَرُونِى ﴾ عِلْميَّةً، أي: فأَنْبِئوني، والفعلُ مُعلَّقًا عن العمَلِ بالاستفهامِ بـ(ماذا)؛ فيتعيَّنُ أنْ يكونَ ﴿فَأَرُونِى ﴾ تهكُّمًا؛ لأنَّهم لا يُمكِنُ لهم أنْ يُكافِحوا اللهَ، زيادةً على كَونِ الأمرِ مُستعمَلًا في التَّعجيزِ، لكنَّ التَّهكُّمَ أسبَقُ؛ للقطْعِ بأنَّهم لا يَتمكَّنون مِن مُكافَحةِ اللهِ قبْلَ أنْ يَقطَعوا بعَجْزِهم عن تعْيينِ مَخلوقٍ خلَقَه مَن دونَ اللهِ قطْعًا نظَريًّا، وصَوْغُ أمْرِ التَّعجيزِ من مادَّةِ الرُّؤيةِ البصَريَّةِ أشدُّ في التَّعجيزِ؛ لاقتِضائِها الاقتناعَ منهم بأنْ يُحضِروا شيئًا يَدَّعون أنَّ آلهتَهم خلَقَتْه[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٧).

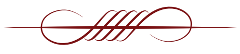
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ فيه إجراءُ اسم مَوصولِ العُقلاءِ (الَّذين) على الأصنامِ؛ مُجاراةً للمُشرِكين؛ إذ يَعُدُّونهم عُقلاءَ[١].

- وفي قولِه: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ إضرابٌ عن تَبْكيتِهم إلى التَّسجيلِ عليهم بالضَّلالِ الَّذي لا يَخْفَى على ناظرٍ، المُستدعي للإعراضِ عن مُخاطَبتِهم بالمُقدِّماتِ المَعقولةِ الحقَّةِ؛ لاستِحالةِ أنْ يَفْهَموا منها شيئًا، فيَهْتدوا به إلى العِلمِ ببُطلانِ ما هُم عليه، أو يَتأثَّروا مِن الإلزامِ والتَّبكيتِ، فيَنزجِرُوا عنه، وهذا يدُلُّ على أنَّهم في حَيْرةٍ واضحةٍ لمَن يَتدبَّرُ؛ لأنَّ مَن عبَدَ صَنمًا وترَكَ خالِقَه جديرٌ بأنْ يكونَ في حَيرةٍ وتِيهٍ لا يُقلِعُ عنه[٢].

- وفي قولِه: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ وَضْعُ الظَّاهرِ مَوضِعَ ضَميرِهم -حيثُ لم يقُلْ: (بل هم)-؛ للدَّلالةِ على أنَّهم بإشراكِهم واضِعونَ للشَّيءِ في غيرِ مَوضعِه، ومُتعَدُّون عن الحُدودِ، وظالِمون لأنفُسِهم بتَعريضِها للعذابِ الخالِدِ[٣].

- وجِيءَ بحرْفِ الظَّرفيةِ (في)؛ لإفادةِ اكتِنافِ الضَّلالِ بهم في سائرِ أحوالِهم، أي: شدَّةِ مُلابسَتِه إيَّاهم[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٠، ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٨).

الآيتان (١٢-١٣)

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾.

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾

قَولُه: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾: في (أَنْ) وَجهانِ؛ أحدُهما: أنَّها مُفَسِّرةٌ؛ لأنَّ إيتاءَ الحِكمةِ في معنى القَولِ دونَ حُروفِه، ففسَّرَ إيتاءَ الحِكمةِ بالبَعثِ على الشُّكرِ. وجملةُ ﴿ٱشْكُرْ﴾ تَفسيريَّةٌ لا محَلَّ لها مِنَ الإعرابِ. والثَّاني: أن تكونَ مَصدريَّةً في موضعِ نَصبٍ أو جَرٍّ على إسقاطِ حَرفِ الجَرِّ، أي: (بأنِ اشكُرْ لله) أو (لِأَنِ اشكُرْ لله)، أو المصدَرُ المؤَوَّلُ (أنِ اشكُرْ) بدَلُ اشتِمالٍ مِن الحِكمةِ[١].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى عن امتنانِه على عبدِه لُقْمانَ بالحكمةِ، فيقولُ: ولقد آتَيْنا لُقمانَ العِلمَ والفِقهَ في الدِّينِ؛ أنِ اشكُرْ لله على ما آتاك مِن فَضلِه، ومَن يَشكُرِ اللهَ فإنَّما يَعودُ نَفعُ شُكرِه إلى نَفْسِه، ومَن كفَرَ نِعَمَ اللهِ عليه فاللهُ غنيٌّ عنه، محمودٌ في ذاتِه وأسمائِه وصِفاتِه سُبحانَه، حامِدٌ لِمَن يَشكُرُه.

ثمَّ يحكي اللهُ تعالى طرَفًا ممَّا قاله لقمانُ لابنِه على سبيلِ النُّصحِ والإرشادِ ممَّا يدُلُّ على حكمتِه، فيقولُ: وإذ قال لُقمانُ لابنِه واعِظًا له: يا بُنَيَّ لا تُشرِكْ

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ١٠٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٢)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٨٣)، ((المجتبى)) لأحمد الخراط (٣/ ٩٤٦).

باللهِ؛ إنَّ الشِّركَ لَذَنْبٌ عَظيمٌ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن بَيَّنَ اللهُ عزَّ وجلَّ فَسادَ اعتِقادِ المُشرِكينَ بإشراكِ مَن لا يَخلُقُ شَيئًا بمَن خلَق كُلَّ شَيءٍ، ثمَّ بَيَّن أنَّ المُشرِكَ ظالِمٌ ضالٌّ- أعقَبَ ذلك ببَيانِ أنَّ نِعَمه الظَّاهِرةَ في السَّمَواتِ والأرضِ، والباطِنةَ؛ مِن العِلمِ والحِكمةِ: تُرشِدُ إلى وحدانيَّتِه، وقد آتاها لِبَعضِ عبادِه، كلُقْمانَ[1]، فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾.

أي: ولقدْ آتَيْنا لُقمانَ[2] الفَهمَ والعِلمَ والفِقهَ في الدِّينِ، والإصابةَ في القَولِ والعَمَلِ؛ أي: اشكُرْ للهِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢١/ ٧٩).

(٢) قال ابنُ كثير: (جمهورُ السَّلَفِ على أنَّه لم يكُنْ نَبيًّا). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٤).

ونسَب النووي ذلك إلى الجماهيرِ مِن العلماءِ، وذكَر أنَّ مَن قال: إنَّه نبيٌّ قد شذَّ، ولا التفاتَ إليه، ولا تعريجَ عليه. يُنظر: ((الأذكار)) (ص: ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٧).

ممَّن اختار أنَّ ﴿أَنِ﴾ تفسيريَّةٌ، وأنَّ المعنى: أي: اشكُرْ لله: ابنُ جرير، والزمخشري، والرازي، والرسعني، والنسفي، وأبو السعود، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٧١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٧٣، ٧٦). =

كما قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

عن أنس رضيَ الله عنه: (أنَّ لُقمانَ كان عندَ داودَ وهو يَسْرُدُ الدِّرعَ[١]، فجعَل يَفتِلُه هكذا بيَدِه، فجعَل لُقمانُ يتعجَّبُ ويُريدُ أن يَسألَه، فتَمنَعُه حِكمتُه أن يَسألَ، فلمَّا فرَغ منها ضمَّها على نفْسِه، وقال: نِعْمَ دِرعُ الحربِ هذه! فقال لقمانُ: إنَّ الصَّمتَ مِن الحُكمِ[٢]، وقليلٌ فاعِلُه، كنتُ أريدُ أن أسألَك فسكَتُّ حتَّى كَفَيْتَني)[٣].

﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾.

أي: ومَن يَشكُرِ اللهَ على نِعَمِه، فإنَّما يَعودُ نَفْعُ ذلك وثَوابُه إليه لا إلى اللهِ سُبحانَه[٤].

= قال ابنُ عطية: (يجوزُ أن تكونَ مفسِّرةً، أي: كانت حكمتُه دائرةً على الشُّكرِ لله ومعانيه، وجميعُ العباداتِ والمعتقَداتِ داخلةٌ في شكرِ الله تعالى). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٨).

وقيل: إنَّ (أن) هنا مصدريَّةٌ. وممَّن اختاره الزَّجَّاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٩٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٣)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٨٣).

وقيل: المرادُ: أنه لمَّا آتاه الله تعالى الحكمةَ أمَرَه بأن يَشكُرَه على ذلك. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨).

(١) يسرُدُ الدِّرعَ، أي: يَنسُجُها ويُدخِلُ الحِلَقَ بَعضَها في بَعضٍ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١٤٥).

(٢) الحُكم: أي: الحِكمة؛ لأنَّه يَمنَعُ مِن الجَهلِ والسَّفَه. يُنظر: ((التنوير شرح الجامع الصغير)) للصنعاني (٧/ ٧٠).

(٣) أخرجه الحاكم (٣٥٨٢)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٥٠٢٦) واللفظ له.

صحَّحه الحاكمُ على شرطِ مسلم، وصحَّحه البيهقيُّ، وأقرَّه العِراقي في ((تخريج الإحياء)) (٣/ ١٠٨)، وصحَّح إسنادَه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٦/ ٥٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير القرطبي)) =

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

أي: ومَن كَفَر نِعَمَ اللهِ عليه، فإنَّما يَرجِعُ ضَرَرُ كُفرِه ووَبالُه عليه؛ فاللهُ غَنيٌّ عن شُكرِ العبادِ، فشُكرُهم لا يَنفَعُ اللهَ بشَيءٍ، وكُفرُهم لا يضُرُّ اللهَ في شَيءٍ؛ فهو مَحمودٌ في ذاتِه وأسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه على كُلِّ حالٍ، وهو حامِدٌ لِمَن يَشكُرُه سُبحانَه[١].

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ مَضمونَ هذه الجُملةِ يُفَسِّرُ بَعضَ الحِكمةِ الَّتي أُوتِيَها لُقمانُ، وهذا انتِقالٌ مِن وَصفِه بحِكمةِ الاهتِداءِ إلى وَصفِه بحِكمةِ الهُدى والإرشادِ[٢]، فعُلُوُّ مَرتَبةِ الإنسانِ بأن يكونَ كامِلًا في نَفْسِه، ومُكَمِّلًا لِغَيرِه؛ فقَولُه: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾ إشارةٌ إلى الكَمالِ، وقَولُه: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ إشارةٌ إلى التَّكميلِ[٣].

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾.

= (١٤/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٥).

قال ابنُ عثيمين: (الشُّكرُ هو القيامُ بطاعةِ المنعِمِ؛ اعتِرافًا بالقَلبِ، وثَناءً باللِّسانِ، وطاعةً بالأركانِ؛ فمُتعَلَّقُ الشُّكرِ ثلاثةٌ: اللِّسانُ، والقَلبُ، والجوارِحُ، وسَبَبُه واحِدٌ، وهو النِّعمةُ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥٣، ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١٩).

أي: واذكُرْ إذ[١] أوصَى لُقمانُ ابنَه بعِبادةِ اللهِ وَحْدَه، وحَذَّره مِنَ الشِّركِ، فقال له ناصِحًا بما يَنفَعُه، ويُهَذِّبُ نفْسَه، ويُرقِّقُ قلْبَه: يا بُنَيَّ لا تُشرِكْ باللهِ شَيئًا[٢].

﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: إنَّ الشِّركَ باللهِ خَطأٌ وذَنْبٌ عَظيمٌ؛ فالمُشرِكُ يَظلِمُ نفْسَه بصَرفِ العِبادةِ إلى مَن لا يَستَحِقُّها[٣]!

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا نَزَلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] قُلْنا: يا رَسولَ اللهِ، أيُّنا لا يَظلِمُ نَفْسَه؟! قال: ليس كما تَقولونَ؛ (لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْم) بشِركٍ، أوَلَم تَسمَعوا إلى قَولِ لُقمانَ لابنِه: ﴿يَـٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾؟))[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٦٠، ١٦١).

وقيل: (إذ) ظرفٌ متعلِّقٌ بالفعلِ المقدَّرِ الَّذي دلَّت عليه واوُ العطفِ، والتَّقديرُ: (وآتَيْناه الحكمةَ إذ قال لابنِه). وممَّن قال بهذا المعنى: الزَّجَّاجُ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥٣، ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٧٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٦)، ((جامع العلوم والحِكَم)) لابن رجب (٢/ ٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨).

قال ابنُ عطيةَ: (ظاهرُ قولِه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ أنَّه مِن كلامِ لقمانَ، ويَحتمِلُ أن يكونَ خبرًا مِن اللهِ تعالى منقطعًا مِن كلامِ لقمانَ، متَّصلًا به في تأكيدِ المعنَى). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٨).

(٤) رواه البخاري (٣٣٦٠) واللفظ له، ومسلم (١٢٤).

الفَوَائِدُ التَّربَوِيَّةُ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ تَنْبيهٌ منه سُبحانه على أنَّ الحِكمةَ الأصليَّةَ والعِلْمَ الحقيقيَّ هو العمَلُ بهما، أو عِبادةُ اللهِ والشُّكرُ له؛ حيث فسَّرَ إيتاءَ الحِكمةِ بالبعثِ على الشُّكرِ[1].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ يُبيِّنُ اللهُ تعالى أنَّ بالشُّكرِ لا ينتَفِعُ إلَّا الشَّاكِرُ، بِقَولِه: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾، وأنَّ بالكُفرانِ لا يتضرَّرُ غَيرُ الكافِرِ، بقولِه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ أي: أنَّ اللهَ غَيرُ مُحتاجٍ إلى شُكرٍ حتَّى يتضَرَّرَ بكُفرانِ الكافِرِ، وهو في نَفْسِه محمودٌ، سَواءٌ شَكَرَه النَّاسُ أو لم يَشكُروه[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ﴾ مُلاطَفةُ المخاطَبِ لاستِدعاءِ قَبولِه لِمَا يُوَجَّهُ إليه؛ لِقَولِه تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ﴾، فإنَّ هذا من بابِ المُلاطَفةِ[3]، فخاطَبَه بأحَبِّ ما يُخاطَبُ به، مع إظهارِ التَّرحُّمِ والتَّحَنُّنِ والشَّفَقةِ؛ لِيَكونَ ذلك أدعى لِقَبولِ النُّصحِ[4].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ فيه حَثٌّ على التَّخَلُّقِ بما مُدِحَ به لُقمانُ بما يَحمِلُ على الصَّبرِ والشُّكرِ والمُداوَمةِ على كُلِّ خَيرٍ، وعلى تأديبِ الوَلَدِ، بسَوقِ الكَلامِ على وَجهٍ يدُلُّ على تكريرِ وَعظِه[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٨٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٦١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ تَوجيهُ المواعِظِ مِن الآباءِ إلى أبنائِهم؛ لأنَّ هذا مِن الحِكمةِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أنَّ كلَّ مَنْ مَنَّ اللهُ تعالى عليه بالحِكمةِ، فعليه أنْ يَشكُرَ اللهَ تعالى أكثرَ مِن غَيرِه[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ أنَّ اللهَ تعالى لا ينتَفِعُ بطاعةِ الطَّائِعينَ، بل طاعةُ الطَّائِعينَ لأنفُسِهم، ويتفَرَّعُ على هذه الفائِدةِ: أنَّ أمرَ اللهِ عزَّ وجلَّ عِبادَه بطاعتِه أو بعبادتِه: أنَّه مُجَرَّدُ إحسانٍ إليهم؛ لأنَّ هذا النَّفعَ لهم، كما لو كنتَ تربِّي الصَّغيرَ وتقولُ: كُلْ مِن هذا الطَّعامِ، والْبَسْ هذا الثَّوبَ، واشرَبْ هذا الماءَ؛ فأنت تأمُرُه، لكِنَّ الأمرَ لمصلحتِه هو[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أنَّ شُكْرَ اللهِ تعالى مِن الحِكمةِ؛ لأنَّ قَولَه تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾ هذا مِن تفسيرِ الحِكمةِ، والشُّكرُ لله لا شَكَّ أنَّه مِن الحِكمةِ؛ لأنَّ الحِكمةَ هي مُوافَقةُ الصَّوابِ، أو وَضْعُ الشَّيءِ في مَوضِعِه، ولا شَكَّ أنَّ شُكْرَ اللهِ تعالى مُوافِقٌ للصَّوابِ، وأنَّه وَضعٌ للشَّيءِ في مَوضِعِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٨٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٦).

قال ابن القيم: (الحكمةُ: فِعلُ ما ينبغي، على الوجهِ الذي يَنْبغي، في الوقتِ الذي يَنْبغي). ((مدارج السالكين)) (٢/ ٤٤٩).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ ﴾ فيه لَطيفةٌ، وهي أنَّ اللهَ تعالى ذكَرَ لُقمانَ، وشَكَر سَعْيَه حيثُ أرشَدَ ابنَه؛ لِيُعلَمَ منه فضيلةُ النَّبيِّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- الَّذي أرشَدَ الأجانِبَ والأقارِبَ؛ فإنَّ إرشادَ الوَلَدِ أمرٌ مُعتادٌ، وأمَّا تحمُّلُ المشَقَّةِ في تعليمِ الأباعِدِ فلا[1].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ﴾ وُجوبُ توحيدِ اللهِ سبحانه وتعالى؛ لأنَّ النَّهيَ عن الشِّركِ يقتضي وُجوبَ التَّوحيدِ[2].

٦- قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ فظُلْمُه ظاهِرٌ من جِهاتٍ عديدةٍ جِدًّا؛ أظهَرُها: أنَّه تَسويةُ المملوكِ -الَّذي ليس له من ذاتِه إلَّا العَدَمُ، فلا نِعمةَ منه أصلًا- بالمالكِ الَّذي له وُجوبُ الوُجودِ؛ فلا خيرَ ولا نِعمةَ إلَّا منه، وفي هذا تنبيهٌ لِقُريشٍ وكُلِّ سامِعٍ على أنَّ هذه وصيَّةٌ لا يُعدَلُ عنها؛ لأنَّها مِن أبٍ حَكيمٍ لابنٍ محنُوٍّ عليه محبوبٍ، وأنَّ آباءَهم لو كانوا حُكَماءَ ما فَعَلوا إلَّا ذلك؛ لأنَّه يترتَّبُ عليها ما عليه مَدارُ النِّعَمِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ، الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، العاجِلةِ والآجِلةِ، وهو الأمنُ والهدايةُ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[3] [الأنعام: ٨٢].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لبَيانِ بُطلانِ الشِّركِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٨١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٦١، ١٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧١).

- وافتِتاحُ القصَّةِ بحَرْفَيِ التَّوكيدِ: (لامِ القسَمِ) و(قد)؛ للإنباءِ بأنَّها خَبرٌ عن أمْرٍ مُهِمٍّ واقعٍ[(١)].

- قوله: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ الشُّكرُ هو مبدَأُ الكمالاتِ عِلْمًا، وغايتُها عمَلًا، وللتَّنبيهِ على هذا المعنى أعقَبَ اللهُ الشُّكرَ المأمورَ به ببيانِ أنَّ فائدتَه لنفْسِ الشَّاكرِ لا للمشكورِ بقولِه: ﴿وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦ﴾؛ لأنَّ آثارَ شُكرِ اللهِ كمالاتٌ حاصلةٌ للشَّاكرِ، ولا تَنفَعُ المشكورَ شيئًا؛ لغِناهُ سُبحانه عن شُكرِ الشَّاكرينَ، ولذلك جِيءَ به في صُورةِ الشَّرطِ؛ فإنَّ الشَّرطَ أدَلُّ على ذلك من الإخبارِ. وجِيءَ بصِيغةِ حَصْرِ نَفْعِ الشُّكرِ في الثُّبوتِ للشَّاكرِ بقولِه: ﴿فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦ﴾، أي: ما يَشكُرُ إلَّا لفائدةِ نفْسِه، ولامُ التَّعليلِ مُؤذِنةٌ بالفائدةِ. وزِيدَ ذلك تبيُّنًا بعطْفِ ضِدِّه بقولِه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾؛ لإفادةِ أنَّ الإعراضَ عن الشُّكرِ بعدَ استِشعارِه كُفْرٌ للنِّعمةِ، وأنَّ اللهَ غَنيٌّ عن شُكْرِه، بخِلافِ شأْنِ المخلوقاتِ؛ إذ يُكسِبُهم الشُّكرُ فوائدَ بيْنَ بني جِنسِهم تجُرُّ إليهم منافِعَ الطَّاعةِ، أو الإعانةِ، أو الإغناءِ، أو غير ذلك من فوائدِ الشُّكرِ للمشكورينَ، على تفاوُتِ مَقاماتِهم، واللهُ غنيٌّ عن جميعِ ذلك[(٢)].

- ومِن بلاغةِ القرآنِ وبديعِ إيجازِه: أنْ كان قولُه: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِ﴾ جامعًا لِمَبدأِ الحِكمةِ التي أُوتِيها لُقمانُ، ولأمْرِه بالشُّكرِ على ذلك؛ فقد جمَعَ قولُه: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِ﴾ الإرشادَ إلى الشُّكرِ، مع الشُّروعِ في الأمْرِ المشكورِ عليه؛ تنْبيهًا على المُبادَرةِ بالشُّكرِ عندَ حُصولِ النِّعمةِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٥٢، ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٥٣).

- وأيضًا قولُه: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ استئنافٌ مُقرِّرٌ لِمَضمونِ ما قبْلَه، مُوجِبٌ للامتثالِ بالأمْرِ[(١)]. وجِيءَ في فِعلِ (يَشكُر) بصِيغةِ المُضارِعِ؛ للإيماءِ إلى جدارةِ الشُّكرِ بالتَّجديدِ، واللَّامُ في قولِه: ﴿يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ داخلةٌ على مَفعولِ الشُّكرِ، وهي لامٌ مُلتزَمٌ زِيادتُها مع مادَّةِ الشُّكرِ؛ للتَّأكيدِ والتَّقويةِ[(٢)].

- وفي قولِه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ قُوبِلَ الإعراضُ عن الشُّكرِ بوصْفِ اللهِ بأنَّه حميدٌ؛ لأنَّ الحَمْدَ والشُّكرَ مُتقارِبانِ؛ فلمَّا لم يكُنْ في أسماءِ اللهِ تعالى اسمٌ مِن مادَّةِ الشُّكرِ إلَّا اسمَه الشَّكورَ، وهو بمعنى شاكرٍ، أي: شاكرٌ لعِبادِه عِبادتَهم إيَّاه؛ عُبِّرَ هنا باسمِه ﴿حَمِيدٌ﴾[(٣)].

- وعدَمُ التَّعرُّضِ لكونِه تعالى مَشكُورًا؛ لأنَّ الحمدَ مُتضمِّنٌ للشُّكرِ، بلْ هو رأْسُه؛ فإثباتُه له تعالى إثباتٌ للشُّكرِ له قطعًا[(٤)].

- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ قال في الشُّكرِ: ﴿وَمَن يَشْكُرْ﴾ بصيغةِ المُستقبَلِ، وفي الكُفرانِ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾، وإن كان الشَّرطُ يَجعَلُ الماضيَ والمُستقبَلَ في معنًى واحدٍ، كقَولِ القائلِ: مَن دخَلَ داري فهو حُرٌّ، ومَن يدخُلْ داري فهو حُرٌّ، وذلك فيه إشارةٌ إلى مَعنًى، وإرشادٌ إلى أمرٍ، وهو أنَّ الشُّكرَ ينبغي أن يتكرَّرَ في كُلِّ وَقتٍ لتكرُّرِ النِّعمةِ، فمَن شَكَر ينبغي أن يُكرِّرَ؛ والكُفرَ ينبغي أن ينقَطِعَ، فمَن كفَرَ ينبغي أن يترُكَ الكُفرانَ، وأيضًا لأنَّ الشُّكرَ مِن الشَّاكرِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧١).

لا يقَعُ بكَمالِه، بل أبدًا يكونُ منه شَيءٌ في العَدَمِ يريدُ الشَّاكِرُ إدخالَه في الوُجودِ، كما قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ [النمل: ١٩]، وكما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]، فأشار إليه بصيغةِ المُستقبَلِ؛ تنبيهًا على أنَّ الشُّكرَ بكَمالِه لم يُوجَدْ، وأمَّا الكُفرانُ فكُلُّ جُزءٍ يقَعُ منه تامٌّ، فقال بصيغةِ الماضي[(١)].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾، فقدَّم الشُّكرَ على الكُفرانِ، وقال في سُورةِ (الرُّوم): ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤]، فقدَّمَ الكُفرانَ؛ ووجْهُه: أنَّ الذِّكرَ في سُورةِ (الرُّوم) للتَّرهيبِ؛ لقولِه تعالى مِن قبْلُ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣]، والذِّكرُ هاهنا للتَّرغيبِ؛ لأنَّ وَعْظَ الأبِ للابنِ يكونُ بطريقِ اللُّطفِ والوعْدِ، وقولُه: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [الروم: ٤٤] يُحقِّقُ ما ذكَرْنا أوَّلًا؛ لأنَّ المذكورَ في سُورةِ (الرُّوم) لَمَّا كان بعدَ اليومِ الَّذي لا مرَدَّ له، تكونُ الأعمالُ قد سبقَت، فقال بلفظِ الماضي: ﴿وَمَنْ عَمِلَ﴾ [الروم: ٤٤]، وهاهنا لَمَّا كان المذكورُ في الابتداءِ قال: ﴿وَمَن يَشْكُرْ﴾ بلفظِ المُستقبَلِ[(٢)].

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: ١٢]؛ لأنَّ الواوَ نائبةٌ مَنابَ الفِعلِ؛ فمَضمونُ هذه الجُملةِ يُفسِّرُ بَعضَ الحِكمةِ الَّتي أُوتِيَها لُقمانُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥٣، ١٥٤).

- وافتِتاحُ المَوعظةِ بقولِه: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ بنداءِ المَخاطَبِ المَوعوظِ، مع أنَّ تَوجيهَ الخِطابِ مُغْنٍ عن ندائِه؛ لحُضورِه بالخِطابِ؛ فالنِّداءُ مُستعمَلٌ في طلَبِ حُضورِ الذِّهنِ لوعْيِ الكلامِ، وذلك مِن الاهتمامِ بالغرَضِ المَسوقِ له الكلامُ[1].

- قولُه: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ بصيغةِ التَّصْغيرِ؛ لِتَنزيلِ المُخاطَبِ الكبيرِ مَنزلةَ الصَّغيرِ؛ كِنايةً عن الشَّفقةِ به والتَّحبُّبِ له، وهو في مَقامِ المَوعظةِ والنَّصيحةِ إيماءٌ وكِنايةٌ عن إمْحاضِ النُّصحِ، وحُبِّ الخيرِ، ففيه حثٌّ على الامتثالِ للموعظةِ[2].

- قولُه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ ابْتدَأَ لُقمانُ مَوعظةَ ابنِه بنَهْيِه عن الشِّركِ باللهِ؛ لأنَّ النَّفْسَ المُعرَّضةَ للتَّزكيةِ والكَمالِ يجِبُ أنْ يُقدَّمَ لها قبْلَ ذلك تَخليتُها عن مَبادِئِ الفسادِ والضَّلالِ؛ فإنَّ إصلاحَ الاعتقادِ أصْلٌ لإصلاحِ العمَلِ[3].

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ، أو للانتِهاءِ عن الشِّركِ، وتهْويلٌ لأمْرِه؛ فإنَّه ظُلْمٌ لحُقوقِ الخالِقِ، وظُلْمُ المرْءِ لنفْسِه؛ إذ يضَعُ نفْسَه في حَضيضِ العُبوديَّةِ لأخَسِّ الجَماداتِ، وظُلْمٌ لأهْلِ الإيمانِ الحقِّ؛ إذ يَبعَثُ على اضْطِهادِهم وأذاهُمْ، وظُلْمٌ لحَقائقِ الأشياءِ بقلْبِها، وإفسادِ تعلُّقِها[4].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥٥).

الآيتان (١٤-١٥)

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿وَهْنًا﴾: أي: ضَعْفًا، وأصلُ (وهن): يدُلُّ على ضَعفٍ[1].

﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾: أي: فِطامُه، وأصلُ (فصل): يدُلُّ على تمييزِ الشَّيءِ مِن الشَّيءِ، وإبانتِه عنه[2].

﴿أَنَابَ﴾: أي: رجَعَ وتابَ، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على اعتيادِ مكانٍ، ورُجوعٍ إليه[3].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥١).

عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴾

قَولُه: ﴿وَهۡنًا﴾ مَنصوبٌ على الحالِ مِن ﴿أُمُّهُۥ﴾ أي: ذاتَ وَهْنٍ، أو مَوهونةً؛ أو من مَفعولِ ﴿حَمَلَتۡهُ﴾ وهو: الولدُ، أي: حملَتْه ضعيفًا؛ عَلَقةً، ثمَّ نُطْفةً، ثُمَّ مُضغةً. و﴿عَلَىٰ وَهۡنٍ﴾ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ صِفةٌ لـ﴿وَهۡنًا﴾.

قَولُه تعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي﴾: (أنْ) مُفَسِّرةٌ لِفعلِ (وَصَّينا)؛ لأنَّ فيه معنى القَولِ دونَ حُروفِه، وجملةُ (اشكُرْ) تفسيريَّةٌ لا محَلَّ لها مِنَ الإعرابِ. ويجوزُ أن تكونَ (أن) مَصدريَّةً في مَوضِعِ نَصبٍ أو جَرٍّ على حَذفِ الخافِضِ، وهو مُتعَلِّقٌ بـ(وصَّينا)، أي: (بأن اشكُرْ)، أو (لأنِ اشكُرْ)، أو يكونُ مَوضِعُ المصدَرِ المؤوَّلِ: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ﴾ بدَلَ اشتِمالٍ من (والِدَيه)، كأنَّه قيل: وصَّيْنا الإنسانَ بوالِدَيه بشُكرِهما. وعلى هذه الأوجُهِ يكونُ قَولُه تعالى: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ﴾ إلى ﴿عَامَيۡنِ﴾ اعتِراضًا للتَّعليلِ مُؤكِّدًا للتَّوصيةِ في حَقِّ الأُمِّ خُصوصًا.

قَولُه: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾ ﴿مَعۡرُوفٗا﴾ نائِبٌ عن المَصدَرِ مَنصوبٌ على المفعوليَّةِ المُطلَقةِ، صِفةٌ لِمَصدرٍ مَحذوفٍ، أي: صِحابًا، أو مُصاحَبًا مَعروفًا[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا علوَّ منزلةِ الوالدينِ: وعَهِدْنا إلى الإنسانِ ببرِّ والِدَيه والإحسانِ إليهما؛ ثمَّ يُبيِّنُ سبحانه السَّببَ الموجبَ لذلك، فيَذكُرُ ما بذَلَتْه الأُمُّ مِن جهدٍ يُوجِبُ الإحسانَ إليها، فيقولُ: حملَتْه أمُّه في بَطنِها، وعانت في حَملِه ضَعْفًا على ضَعفٍ، وثِقْلًا وشِدَّةً، وفِطامُه في عامَينِ مِن وِلادتِه، ووصَّيْنا الإنسانَ

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٩٦)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٥٦٥)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ١٠٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٣)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٨٥).

بالشُّكرِ لله تعالى، ولِوالِدَيه؛ فإلى الله وَحْدَه لا إلى غَيرِه المرجِعُ والمآبُ، فيَسأَلُك -أيُّها الإنسانُ- عن شُكرِه وشُكرِ والِدَيك، ويُجازيك على عَمَلِك.

ثمَّ يُبيِّنُ الله سبحانَه حدودَ الطَّاعةِ للوالدينِ، فيقولُ: وإن كان والِداك مُشرِكَين، وجاهَداك على أن تُشرِكَ باللهِ ما لا بُرهانَ على صِحَّةِ ألوهيَّتِه؛ فلا تُطِعْهما، وصاحِبْهما في الدُّنيا مُصاحَبةً حَسَنةً.

ثمَّ يرشِدُ سبحانَه إلى وجوبِ اتِّباعِ أهلِ الحقِّ، فيقول: واسلُكْ طَريقَ الَّذين تابوا إلَيَّ، واقتَدِ بهم، ثمَّ إلَيَّ مَصيرُكم جَميعًا -أيُّها النَّاسُ- فأُنَبِّئُكم بجَميعِ أعمالِكم، وأُجازيكم عليها.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ لُقمانُ لابنِه أنَّ الشِّركَ ظُلْمٌ، ونهاه عنه؛ كان ذلك حَثًّا على طاعةِ اللهِ، ثمَّ بيَّنَ أنَّ الطَّاعةَ أيضًا تكونُ للأبوَينِ، وبيَّنَ السَّبَبَ في ذلك[(١)].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانَه وتعالى ما أوصى به لُقمانُ وَلَدَه من شُكرِ المُنعِمِ الأوَّلِ الَّذي لم يَشرَكْه في إيجادِه أحَدٌ، وذكَرَ ما عليه الشِّركُ مِن الفَظاعةِ والشَّناعةِ والبَشاعةِ- أتبَعَه سُبحانَه وصيَّتَه للولَدِ بالوالِدِ؛ لِكَونِه المنعِمَ الثَّانيَ، المتفَرِّدَ سُبحانَه بكَونِه جَعَلَه سَبَبَ وُجودِ الوَلَدِ[(٢)].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٦٢، ١٦٣).

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾.

أي: وعَهِدْنا إلى الإنسانِ وأمَرْناه ببرِّ والِدَيه، والإحسانِ إليهما[١].

كما قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ...﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾.

مناسبتُها لما قبلَها:

لما خصَّ الله تعالى الأُمَّ بالمشقَّاتِ مِن الحَملِ والنِّفاسِ والرَّضاعِ والتَّربيةِ؛ نبَّه على السببِ الموجِبِ للإيصاءِ بها[٢]، فقال:

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾.

أي: حمَلَت الأمُّ ولَدَها في بَطنِها، وهي تزدادُ ضَعفًا على ضَعفٍ، وثِقلًا وشِدَّةً، إلى أن تضَعَه بمشَقَّةٍ وألمٍ[٣].

﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾.

أي: وفِطامُ الولَدِ في عامَينِ مِن ولادتِه، فلا ينفَصِلُ مِن أمِّه إلَّا بعدَ عامَين،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨).

تُعاني فيهما الأمُّ مَشقَّةَ رَضاعِه، وتَربيتِه، والقيامِ على شُؤونِه[1].

﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾.

أي: ووصَّيْنا الإنسانَ أنِ اشكُرِ اللهَ على إنعامِه عليك، وذلك بالقيامِ بعُبوديَّتِه وطاعتِه وَحْدَه، وأداءِ حُقوقِه، واشكُرْ والِدَيك على تحمُّلِهما ما لَقِيَا مِنَ المشَقَّةِ، وما بَذَلاه مِنَ الجُهدِ لأجْلِك؛ فأطِعْهما، وأحسِنْ إليهما[2].

﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾.

أي: إلَيَّ لا إلى غَيري مَرجِعُك -أيُّها الإنسانُ- فأسألُك عن شُكري، وشُكرِ والِدَيك، وأُجازيك على عَمَلِك[3].

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانَه وَصِيَّتَه بالوالِدَينِ، وأكَّد حَقَّهما؛ أتبَعَه الدَّليلَ على ما ذَكَر

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨).

قال القُشَيْريُّ: (أوجَب الله شُكرَ نفْسِه وشُكرَ الوالدَين. ولَمَّا حصَل الإجماعُ على أنَّ شُكْرَ الوالدين بدَوام طاعتِهما، وألَّا يُكْتَفى فيه بمُجرَّدِ النُّطقِ بالثَّناءِ عليهما؛ عُلِم أنَّ شُكرَ الحقِّ لا يَكفي فيه مجرَّدُ القولِ ما لم تَكُنْ فيه موافقةُ العملِ؛ وذلك بالتِزامِ الطَّاعةِ، واستِعمالِ النِّعمةِ فى وجهِ الطَّاعةِ، دُونَ صَرفِها فى الزَّلَّة). ((تفسير القشيري)) (٣/ ١٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨).

لُقمانُ من قَباحةِ الشِّركِ، فقال[١]:

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَا ﴾.

أي: وإن اجتَهَد والِداك المُشركانِ -أيُّها المسلِمُ- وحَرَصا كُلَّ الحِرصِ على أن تجعَلَ لي شَريكًا، لا بُرهانَ على صِحَّةِ ألوهيَّتِه؛ فلا تُطِعْهما فيما يأمُرانِك به مِنَ الشِّركِ[٢].

عن عليٍّ رَضيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا طاعةَ في مَعصيةٍ، إنَّما الطَّاعةُ في المعروفِ))[٣].

﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾.

أي: وصاحِبْهما في الدُّنيا[٤] مُصاحَبةً حَسَنةً؛ بالإحسانِ إليهما، والطَّاعةِ لهما فيما لا إثمَ فيه عليك[٥].

﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ﴾.

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٦٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨).
(٣) رواه البخاري (٧٢٥٧) واللفظ له، ومسلم (١٨٤٠).
(٤) قيل: المرادُ: مُصاحبَتُهما في أمورِ الدُّنيا الَّتي لا تَتعلَّقُ بالدِّينِ مُدَّةَ حياتِهما. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٥/ ١٦٨).
قال ابنُ عثيمين: (يحتمِلُ أن يكونَ المرادُ بالدُّنيا شُؤونَها، يعني: في أمورِ الدُّنيا صاحِبْهما معروفًا، أمَّا في أمورِ الدِّينِ فلا تَتعَدَّ ما أمَرَك اللهُ به. ويحتمِلُ أن يكونَ ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: في هذه الدُّنيا. لكِنَّ المعنى الأوَّلَ أبلَغُ؛ لأنَّه مِنَ المعلومِ أنَّ المصاحَبةَ بينَ الوالِدَينِ والولَدِ إنَّما تكونُ في الدُّنيا، فلا حاجةَ إلى التَّقديرِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٩٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨).

أي: واسلُكْ طَريقَ الَّذين أقبَلوا علَيَّ، ورَجَعوا وتابوا إلَيَّ، واقتَدِ بهم[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

أي: ثمَّ إلَيَّ مَصيرُكم جميعًا -أيُّها النَّاسُ- فأُنَبِّئُكم بجَميعِ أعمالِكم: خَيرِها وشَرِّها[2].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ بيانُ عِظَمِ حُقوقِ الوالِدَينِ؛ ولهذا جعَلَها اللهُ وَصيَّةً، والوصيَّةُ: هي أنْ يُعهَدَ إلى شَخصٍ بأمرٍ هامٍّ[3]، ثمَّ قال: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ أي: بالإحسانِ إليهما؛ بالقَولِ اللَّيِّنِ، والكَلامِ اللَّطيفِ، والفِعلِ الجَميلِ، والتَّواضُعِ لهما، وإكرامِهما وإجلالِهما، والقيامِ بمَؤونتِهما، واجتنابِ الإساءةِ إليهما مِن كُلِّ وَجهٍ، بالقَولِ والفِعلِ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٩٥، ٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أنَّه يَنبغي أنْ يُذكَرَ للمُخاطَبِ ما يحمِلُه على امتِثالِ ما وُجِّهَ إليه[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ أنَّه ينبغي تقويةُ الجانبِ الضَّعيفِ بما يُقَوِّيه؛ فإنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَ ما يَحسُنُ للأمِّ إغراءً للقيامِ بحَقِّها، ولم يَذْكُرْ ما يَحسُنُ للأبِ؛ لأنَّ الأمَّ ضَعيفةٌ تحتاجُ إلى مَن يُقوِّي جانِبَها[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ تَحريمُ طاعةِ الوالِدَينِ إذا أمَرَا بالشِّركِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾، ويُقاسُ على ذلك كلُّ مَعصيةٍ أمَرَا بها، فإنَّهما لا يُطاعانِ؛ لِقَولِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((لا طاعةَ في معصيةِ الله، إنَّما الطاعةُ في المعروفِ))[3].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ فأمَرَ اللهُ بمُصاحَبةِ الوالِدَينِ بالمعروفِ في الدُّنيا مع أنَّهما مُشرِكانِ ويُجاهِدانِ ولَدَهما على الشِّركِ؛ فدَلَّ هذا على أنَّ المعاصيَ لا تُوجِبُ قَطيعةَ الرَّحِم، ولا عُقوقَ الوالِدَينِ[4]، ففُسوقُ الوالِدَينِ وكُفرُهما لا يُسقِطُ حقَّهما مِن البِرِّ[5]، فذِكرُ ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٩٦).

والحديث تقدَّم تخريجُه قريبًا.

(٤) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٢/ ٣١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٩٧).

﴿ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾ إثرَ قَولِه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي﴾ فُهِمَ منه أنَّ الأمرَ بمُعاشَرتِهما بالمعروفِ شاملٌ لحالةِ كَونِ الأبوَينِ مُشرِكَينِ؛ فإنَّ على الابنِ مُعاشَرتَهما بالمعروفِ، كالإحسانِ إليهما وصِلَتِهما[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ حقَّ الأمِّ أوجَبُ مِن حَقِّ الأبِ؛ فاللهُ تعالى ذَكَرَ ما تُعانيه الأمُّ مِن المَشاقِّ؛ إشارةً إلى أنَّها أحَقُّ[2].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾ أنَّ أقلَّ الحَملِ سِتَّةُ أشهرٍ، وقد قال تعالى: ﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]؛ فإذا أَسقَطْتَ عامَينِ مِن ثلاثينَ شَهرًا بَقِيَ سِتَّةُ أشهُرٍ[3].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾ يُفهَمُ منه اجتنابُ ما يُنكَرُ في مُصاحَبتِهما، فشَمِلَ ذلك مُعامَلةَ الابنِ أبوَيه بالمُنكَرِ، وشَمِلَ ذلك أن يدعُوَ الوالِدُ إلى ما يُنكِرُه اللهُ ولا يَرضى به؛ ولذلك لا يُطاعانِ إذا أمَرَا بمَعصيةٍ[4].

٩- قال الله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٨٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٣، ١١٤).

وذكَر ابنُ كثيرٍ أنَّ عليًّا رَضيَ الله عنه استدلَّ بقولِه تعالى: ﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًا﴾ [الأحقاف: ١٥] مع قولِه: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾ [لقمان: ١٤]، وقَولِه: ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]: على أنَّ أقَلَّ مُدَّةِ الحَملِ سِتَّةُ أشهُرٍ، ثم قال: (وهو استِنباطٌ قَويٌّ صَحيحٌ، ووافقَه عليه عثمانُ وجماعةٌ مِن الصَّحابةِ رَضيَ اللهُ عنهم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦١).

تُطِعۡهُمَا﴾ قَولُه: ﴿مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه لا يُمكِنُ أن يَدُلَّ عِلمٌ مِن أنواعِ العُلومِ على شَيءٍ مِنَ الشِّركِ بنَوعٍ مِن أنواعِ الدَّلالاتِ، بل العُلومُ كُلُّها دالَّةٌ على الوحدانيَّةِ على الوَجهِ الَّذي تطابَقَت عليه العُقولُ، وتظافَرَت عليه مِنَ الأنبياءِ والرُّسُلِ النُّقولُ[(١)].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ﴾ فيه حَثٌّ على مَعرفةِ الرِّجالِ بالحَقِّ، وأمرٌ بحَكِّ المشايخِ وغَيرِهم على مَحَكِّ الكِتابِ والسُّنَّةِ، فمَن كان عَمَلُه مُوافِقًا لهما اتُّبِعَ، ومَن كان عمَلُه مُخالِفًا لهما اجتُنِبَ[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ أنَّه سُبحانَه أرحمُ بالوالِدَينِ مِن أولادِهما؛ لأنَّ اللهَ تعالى أوصَى الأولادَ بالوالِدَينِ[(٣)].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ لَمَّا خَصَّ تعالى الأُمَّ بدَرَجةِ ذِكرِ الحَملِ، وبدَرَجةِ ذِكرِ الرَّضاعِ، حَصَل لها بذلك ثلاثُ مراتِبَ، وللأبِ واحِدةٌ، وأشبَهَ ذلك قَولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ جاء إليه رجُلٌ، فقال: ((يا رسولَ اللهِ، مَن أحقُّ بحُسنِ صَحابتي؟ قال: أُمُّك. قال: ثمَّ مَن؟ قال: أُمُّك. قال: ثمَّ مَن؟ قال: أُمُّك. قال: ثمَّ مَن؟ قال: ثمَّ أبوك))[(٤)]. فجعَل له الرُّبُعَ مِنَ المبَرَّةِ كما في هذه الآيةِ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٦٩، ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٨٧).

(٤) أخرجه البخاري (٥٩٧١) واللفظ له، ومسلم (٢٥٤٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٦٤).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾، ذكرَ الفِصالَ في مَعرِضِ تَعليلِ حَقِّيَّةِ الأمِّ بالبرِّ؛ لأنَّه يَستلزِمُ الإرضاعَ مِن قبْلِ الفِصالِ، وللإشارةِ إلى ما تَتحمَّلُه الأمُّ مِن كدَرِ الشَّفقةِ على الرَّضيعِ حينَ فِصالِه، وما تُشاهِدُه مِن حُزْنِه وألَمِه في مَبدأِ فِطامِه(١).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾، التَّعبيرُ بـ(في) يشيرُ إلى أنَّ الوالِدَين لهما أن يَفطِماه قبْلَ تمامِهما، على حَسَبِ ما يحتَمِلُه حالُه، وتدعو إليه المصلَحةُ مِن أمْرِه(٢).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ فيه رَدٌّ على مَن قال: مُدَّةُ الرَّضاعِ ثلاثونَ شَهرًا، أو ثلاثُ سِنينَ(٣).

٦- قَولُه تعالى: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ هو قَيدٌ لبيانِ الواقعِ، وليس قَيدًا احترازيًّا؛ لأنَّه لا يمكِنُ أنْ يوجَدَ عِلْمٌ بأنَّ لله تعالى شَريكًا، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ [المؤمنون: ١١٧]. فإنْ قال قائِلٌ: ما فائدةُ هذا القَيدِ، وقد عُلِمَ أنَّه لن يُوجَدَ؟

فالجوابُ: أنَّ الفائدةَ فيه تحقيقُ هذا الأمرِ حتَّى لا يحاوِلَ أحدٌ أن يبحَثَ ويَطلُبَ عِلمًا أو بُرهانًا بأنَّ اللهَ سُبحانه وتعالى له شَريكٌ، فكأنَّه يقولُ: هذا هو حَقيقةُ الواقعِ، وما كان حقيقةَ الواقعِ فلا يمكِنُ أنْ يَتخلَّفَ(٤).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾، وكذا في قَولِه سُبحانَه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٩٠).

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨]- دَلالةٌ على وُجوبِ الإنفاقِ على الأقارِبِ وإنِ اختلفَ الدِّينانِ؛ فإنَّه ليس مِن الإحسانِ ولا مِن المعروفِ تَرْكُ الإنسانِ لأبيه وأمِّه في غايةِ الضَّرورةِ والفاقةِ، وهو في غايةِ الغِنى[١].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ فيه سُؤالٌ: هذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على الأمرِ ببِرِّ الوالِدَينِ الكافِرَين، وقد جاءت آيةٌ أُخرى يُفهَمُ منها خِلافُ ذلك، وهي قَولُه تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ثمَّ نصَّ على دُخولِ الآباءِ في هذا بقَولِه: ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]؟

الجوابُ: أنَّه لا مُعارَضةَ بينَ الآيتَينِ، ووجهُ الجَمعِ بيْنَهما أنَّ المصاحَبةَ بالمعروفِ أعَمُّ مِن الموادَّةِ؛ لأنَّ الإنسانَ يُمكِنُه إسداءُ المعروفِ لِمَن يَوَدُّه ومَن لا يَوَدُّه، والنَّهيُ عن الأخَصِّ لا يَستلزِمُ النَّهيَ عن الأعَمِّ؛ فكأنَّ اللهَ تعالى حَذَّر مِن المَوَدَّةِ المُشعِرةِ بالمحبَّةِ، والموالاةِ بالباطِنِ لجَميعِ الكُفَّارِ، يدخُلُ في ذلك الآباءُ وغَيرُهم، وأمَرَ الإنسانَ بألَّا يفعَلَ لوالِدَيه إلَّا المعروفَ، وفِعلُ المعروفِ لا يَستلزِمُ المَوَدَّةَ؛ لأنَّ المودَّةَ مِن أفعالِ القُلوبِ لا مِن أفعالِ الجوارِحِ، وممَّا يدُلُّ لذلك إذْنُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لأسماءَ بنتِ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ أن تَصِلَ أمَّها، وهي كافِرةٌ[٢]، وقال بعضُ العُلَماءِ: إنَّ قِصَّتَها سَبَبٌ لِنُزولِ قَولِه تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾[٣] [الممتحنة: ٨].

٩- قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ﴾ فيه وُجوبُ اتِّباعِ السَّلَفِ، لأنَّ

---

(١) يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ٧٩١).

(٢) يُنظر ما أخرجه البخاري (٢٦٢٠)، ومسلم (١٠٠٣).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٨٢).

السَّلَفَ المؤمنينَ مُنيبُون[(١)]، وكُلٌّ مِنَ الصَّحابةِ مُنيبٌ إلى اللهِ، فيَجِبُ اتِّباعُ سَبيلِه، وأقوالُه واعتِقاداتُه مِن أكبَرِ سَبيلِه، والدَّليلُ على أنَّهم مُنيبونَ إلى اللهِ تعالى أنَّ اللهَ تعالى قد هداهم، وقد قال: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[(٢)] [الشورى: ١٣].

١٠- قوله تعالَى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ يدُلُّ علَى صِحَّةِ الإجماعِ؛ لأنَّ في الأُمَّةِ لا مَحالةَ مَنْ أنابَ إليه، فوَجَب اتِّباعُ جَماعَتِها، فإذا أجْمَعَت الأُمَّةُ على شَيءٍ فقد عَلِمْنا أنَّ المُنيبينَ الَّذين فيها قد قالوا ذلك واعتَقَدوه، فهو حُكْمُ اللهِ تعالَى لا مَحالةَ[(٣)].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ وُجوبُ اتِّباعِ سَبيلِ المؤمنينَ، ويؤيِّدُه قولُه سُبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[(٤)] [النساء: ١١٥].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾

- الآيتانِ ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ و﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ، اعترِضَ بهِ على نَهجِ الاستِطرادِ في أثناءِ وصيَّةِ لُقمانَ؛ تأكيدًا لِما فيها مِن النَّهيِ عن الشِّركِ، كأنَّه قال: وقد وصَّيْنا بمِثلِ ما وصَّى به[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٥٠٠).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((الفصول في الأصول)) للجصاص (٣/ ٢٦٣). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ١٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٤)، ((تفسير أبي =

وذَكَرَ الوالدينِ؛ للمُبالَغةِ في ذلك؛ فإنَّهما مع أنَّهما تِلْوَ الباري في استِحقاقِ التَّعظيمِ والطَّاعةِ لا يجوزُ أنْ يَستحِقَّاهُ في الإشراكِ، فما ظنُّك بغَيرِهما[1]؟!

- وهذا الكلامُ اعتراضٌ بيْنَ كلامَيْ لُقمانَ؛ لأنَّ صِيغةَ هذا الكلامِ مَصوغةٌ على أُسلوبِ الإبلاغِ والحِكايةِ لقولٍ مِن أقوالِ اللهِ، والضَّمائرُ ضمائرُ العَظَمةِ جرَّتْه مُناسَبةُ حِكايةِ نهْيِ لُقمانَ لابنِه عن الإشراكِ وتَفظيعِه بأنَّه ظُلْمٌ عظيمٌ، فذكَرَ اللهُ هذا؛ لتأْكيدِ ما في وَصيَّةِ لُقمانَ مِن النَّهيِ عن الشِّركِ بتَعميمِ النَّهيِ في الأشخاصِ والأحوالِ؛ لئلَّا يَتوهَّمَ مُتوهِّمٌ أنَّ النَّهيَ خاصٌّ بابنِ لُقمانَ أو ببعضِ الأحوالِ؛ فحَكى اللهُ أنَّ اللهَ أَوصى بذلك كلَّ إنسانٍ، وأنْ لا هوادةَ فيه ولو في أحرَجِ الأحوالِ؛ وهي حالُ مُجاهَدةِ الوالدَينِ أولادَهم على الإشراكِ. وأحسَنُ مِن هذه المُناسَبةِ: أنْ تُجعَلَ مُناسَبةُ هذا الكلامِ أنَّه لَمَّا حكى وِصايةَ لُقمانَ لابنِه بما هو شُكْرُ اللهِ بتَنزيهِه عن الشِّركِ في الإلهيَّةِ؛ بيَّن اللهُ أنَّه تعالى أسبَقُ مِنَّةً على عِبادِه؛ إذ أَوصى الأبناءَ ببِرِّ الآباءِ؛ فدخَلَ في العُمومِ المِنَّةُ على لُقمانَ جزاءً على رَعْيِه لحقِّ اللهِ في ابتداءِ مَوعظةِ ابنِه، فاللهُ أسبَقُ بالإحسانِ إلى الَّذين أحْسَنوا برَعْيِ حَقِّه. ويُقوِّي هذا التَّفسيرَ اقترانُ شُكْرِ اللهِ وشُكْرِ الوالدينِ في الأمْرِ[2].

- وجُملةُ ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ﴾ في مَوضعِ التَّعليلِ للوِصايةِ بالوالدينِ؛ قصْدًا لتأْكيدِ تلك الوِصايةِ؛ لأنَّ تَعليلَ الحُكْمِ يُفِيدُه تأْكيدًا، ولأنَّ في مَضمونِ هذه الجُملةِ ما يُثِيرُ الباعثَ في نفْسِ الولَدِ على أنْ يَبَرَّ بأُمِّه ويَستتبِعَ البِرَّ بأبِيه.

= حيان)) (٨/ ٤١٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥٦، ١٥٧).

وإنَّما وقَعَ تَعليلُ الوِصايةِ بالوالدينِ بذِكرِ أحوالٍ خاصَّةٍ بأحَدِهما -وهي الأُمُّ-؛ اكتِفاءً بأنَّ تلك الحالةَ تَقْتضي الوِصايةَ بالأبِ أيضًا للقياس؛ فإنَّ الأبَ يُلَاقي مَشاقَّ وتعَبًا في القيام على الأمِّ؛ لتَتمكَّنَ من الشُّغلِ بالطِّفلِ في مُدَّةِ حَضانتِه، ثمَّ هو يَتولَّى تربيتَه والذَّبَّ عنه حتَّى يَبلُغَ أشُدَّهُ ويَسْتغنيَ عن الإسعافِ، كما قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤]، فجمَعَهما في التَّربيةِ في حالِ الصِّغَرِ ممَّا يَرجِعُ إلى حِفْظِه وإكمالِ نشْأتِه، فلمَّا ذُكِرَت هنا الحالةُ الَّتي تَقْتضي البِرَّ بالأمِّ مِن الحمْلِ والإرضاعِ، كانتْ مُنبِّهةً إلى ما للأبِ مِن حالةٍ تَقْتضي البِرَّ به على حِسابِ ما تَقْتضيه تلك العلَّةُ في كِلَيْهما قوَّةً وضَعفًا. وقد نبَّه على هذا القياسِ تَشْريكُهما في الحُكْمِ عقِبَ ذلك بقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾، وقوله: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾، وحصَلَ مِن هذا النَّظمِ البديعِ قَضاءُ حقِّ الإيجازِ[١].

- وأيضًا قولُه: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ﴾ اعتراضٌ بيْنَ المفسَّرِ والمُفسِّرِ، بينَ الوَصيَّةِ والمُوصَى به، وهو اعتراضٌ في أعلَى درجاتِ الحُسْنِ؛ لأنَّه لَمَّا وصَّى بالوالدينِ، ذَكَر ما تُكابِدُه الأُمُّ وتُعانيه مِن المَشاقِّ والمَتاعبِ في حمْلِه وفِصالِه هذه المُدَّةَ المُتطاوِلةَ؛ إيجابًا للتَّوصيةِ بالوالدةِ خُصوصًا، وتذْكيرًا بحَقِّها العظيمِ مُفْردًا[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥٨).

وقال البقاعي: (ولَمَّا كانت الأمُّ في مَقام الاحتقار؛ لِما للأبِ مِن العَظَمة بالقُوَّة والعَقلِ والكَدِّ عليها وعلى وَلَدِها؛ نَوَّهَ بها، ونبَّه على ما يختَصُّ بها من أسبابِ وُجودِ الولَدِ وبقائِه عن الأبِ؛ ممَّا حَصَل لها مِنَ المشَقَّةِ بسَبَبِه، وما لها إليه مِن التربيةِ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩٤، ٤٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٢٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧١).

- وانتصَبَ ﴿وَهۡنًا﴾ على الحالِ مِن ﴿أُمُّهُۥ﴾؛ مُبالَغةً في ضَعْفِها، حتَّى كأنَّها نفْسُ الوهْنِ[1].

- وذكَرَ لِمُدَّةِ فِطامِه أقْصاها -وهو عامانِ-؛ لأنَّ ذلك أنسَبُ بالتَّرقيقِ على الأمِّ[2].

- وجُملةُ ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ تَفسيرٌ لفِعلِ (وصَّينا)، وما بيْنَهما اعْتِراضٌ مُؤكِّدٌ للوصيَّةِ في حَقِّها خاصَّةً، وإنَّما فُسِّرتِ الوصيَّةُ بالوالدَينِ بما فيه الأمْرُ بشُكْرِ اللهِ مع شُكْرِهما على وجْهِ الإدماجِ[3]؛ تمْهيدًا لقولِه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي﴾[4].

- وجُملةُ ﴿إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ استئنافٌ للوعْظِ، والتَّحذيرِ مِن مُخالَفةِ ما أوْصى اللهُ به مِن الشُّكرِ له[5]. وتَعليلٌ أيضًا لوُجوبِ الامتثالِ، أي: إلَيَّ الرُّجوعُ لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٥٩).

(٣) الإدماجُ: هو أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمدِ. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢٢٥)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٠).

إلى غيري، فأُجازيك على ما صَدَر عنْك مِن الشُّكرِ والكُفرِ(١).

- وتَعريفُ المصيرِ في قولِه: ﴿إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ تعريفُ الجِنسِ، أي: مَصيرُ النَّاسِ كلِّهم. ولك أنْ تَجعَلَ (أل) عِوَضًا عن المُضافِ إليه. وتقْديمُ المجرورِ للحصْرِ، أي: ليس للأصنامِ مَصيرٌ في شَفاعةٍ ولا غيرِها(٢).

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ المقصودُ من هذا الكلامِ -﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ ...﴾ إلى قولِه: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾- هو قولُه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي﴾ إلى آخِره، وما قَبْلَه تمْهيدٌ له، وتقريرٌ لواجبِ برِّ الوالدينِ؛ لِيَكونَ النَّهيُ عن طاعتِهما إذا أمَرَا بالإشراكِ باللهِ نَهْيًا عنه في أَولى الحالاتِ بالطَّاعةِ؛ حتَّى يكونَ النَّهيُ عن الشِّركِ فيما دونَ ذلك مِن الأحوالِ مَفهومًا بفَحْوى الخِطابِ(٣)، مع ما في ذلك مِن حُسنِ الإدماجِ المُناسِبِ لِحكمةِ لُقمانَ(٤).

- وفي قولِه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي﴾ أشارَ بصِيغةِ المُفاعَلةِ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٠).

(٣) فَحْوى الخِطابِ: هو إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطَريقِ الأَولى، وهو نوعان:
الأوَّلُ: تنبيهٌ بالأقَلِّ على الأكثَرِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ فإنَّه نبَّه بالنَّهيِ عن قَولِ أُفٍّ على النَّهيِ عن الشَّتمِ والضَّربِ وغيرِ ذلك، ومِثلُه قَولُه تعالى: ﴿مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ [آل عمران: ٧٥].
الثَّاني: تنبيهٌ بالأكثَرِ على الأقَلِّ، كقَولِه تعالى: ﴿مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]. يُنظر: ((الفقيه والمتفقه)) للخطيب البغدادي (١/ ٢٣٣)، ((تقريب الوصول إلى علم الأصول)) لابن جزي (ص: ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥٧).

مُخالفَتِهما، وإنْ بالَغا في الحَمْلِ على ذلك، وأشارَ بأداةِ الاستِعلاءِ إلى أنَّه لا مَطْمَعَ لِمَن أطاعَهُما في ذلك -ولو باللَّفظِ فقطْ- أنْ يكونَ في عِدادِ المحسنينَ، وإنْ كان الوالدانِ في غايةِ العُلوِّ والتَّمكُّنِ مِن الأسبابِ الفاتنةِ له، بخِلافِ سُورةِ (العنكبوتِ)؛ فإنَّها لِمُطلَقِ الفِتنةِ، وليست لقوَّةِ الكفَّارِ، فعبَّرَ فيها بلامِ العِلَّةِ، فقال: ﴿لِتُشْرِكَ بِي﴾ [العنكبوت: ٨]؛ إشارةً إلى مُطلَقِ الجِهادِ الصَّادقِ بقَويِّهِ وضَعيفِه، ففي الموضعينِ نوعُ رمْزٍ إلى أنَّه إنْ ضعُفَ عنهما أطاع باللِّسانِ، ولم يُخرِجْه ذلك عن الإيمانِ، كما أخْرَجَه هنا عن الوصْفِ بالإحسانِ، ولذلك حذَّرَ في الآيةِ الَّتي بعدَ تلك مِن النِّفاقِ؛ لأجْلِ الفِتنةِ[١].

- وفي قولِه: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ فنُّ عكْسِ الظَّاهرِ، أو نفْيُ الشَّيءِ بإيجابِه؛ فقد أراد بنفْيِ العِلْمِ نفْيَه، أي: لا تُشرِكْ بي ما ليس بشَيءٍ، يُريد الأصنامَ، على حدِّ قولِ الشَّاعرِ[٢]:

على لاحبٍ لا يُهتَدى بمَنارِهِ[٣]

أي: ما ليس بإلهٍ، فيكون لك عِلْمٌ بإلهيَّتِه[٤].

- وذِكرُ ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾؛ لِتَهوينِ أمرِ الصُّحبةِ، والإشارةِ إلى أنَّها في أيامٍ قلائِلَ وَشيكةِ الانقِضاءِ، فلا يَضُرُّ تحَمُّلُ مَشقَّتِها؛ لقِلَّةِ أيَّامِها، وسُرعةِ انصرامِها.

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٦٦، ١٦٧).

(٢) القائلُ هو امرُؤ القيس. يُنظر: ((ديوان امرئ القيس)) (ص: ٩٦).

(٣) اللاحبُ: الطَّريقُ الواضحُ، ولم يُرِدْ أن فيه منارًا لا يُهتدَى به، ولكنَّه نفَى أن يكون به منارٌ. والمعنى: لا منارَ فيه فيُهتدَى به. يُنظر: ((خزانة الأدب)) للبغدادي (١٠/ ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٩١)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٨٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٣٩).

وقيل: للإشارةِ إلى أنَّ الرِّفقَ بهما في الأمورِ الدُّنيويَّةِ دونَ الدِّينيَّةِ[١].

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ مَعطوفٌ على الجُمَلِ السَّابقةِ، و(ثمَّ) للتَّراخي الرُّتْبيِّ المُفيدِ للاهتمام بما بعْدَها. وتقْديمُ المَجرورِ؛ للاهتِمام بهذا الرُّجوعِ، أو هو للتَّخصيصِ، أي: لا يَنفَعُكم شَيءٌ ممَّا تَأملُونه مِن الأصنامِ. وجُملةُ ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ وعْدٌ ووَعيدٌ[٢].

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في هذه الضَّمائرِ تَغليبُ الخِطابِ على الغَيبةِ؛ لأنَّ الخِطابَ أهمُّ؛ لأنَّه أعرَفُ[٣].

- في قَولِه تعالى: ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ بُلوغُ الغايةِ في البلاغةِ في القُرآنِ الكريمِ، فلم يَقُلْ سُبحانَه: «فأُجازيكم»؛ وذلك أنَّه قد يُنَبَّأُ الإنسانُ يومَ القيامة بما عَمِلَ، ثمَّ يُغفَرُ له، فذَكَرَ اللهُ تعالى الإنباءَ لأنَّه مُؤكَّدٌ، أمَّا المجازاةُ فإنَّ اللهَ تعالى قد يغفِرُ للمُذنِبِ ذُنوبَه[٤]. وقيل: الإنباءُ كِنايةٌ عن إظْهارِ الجزاءِ على الأعمالِ؛ لأنَّ المُلازَمةَ بيْنَ إظهارِ الشَّيءِ وبيْنَ العِلْمِ به ظاهرةٌ[٥].



(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦١، ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦١).

الآيات (١٦-١٩)

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿مِثۡقَالَ﴾: أي: زِنَةَ، وأصلُ (ثقل): يدُلُّ على ضِدِّ الخِفَّةِ[١].

﴿خَرۡدَلٖ﴾: الخَردَلُ: حُبوبٌ دَقيقةٌ كحَبِّ السِّمسِمِ هي بُزورُ شَجَرٍ يُسَمَّى عند العَرَبِ الخَرْدَلَ. ويُضرَبُ به المَثَلُ في الصِّغَرِ والحَقارةِ[٢].

﴿تُصَعِّرۡ﴾: أي: تُعْرِضْ بوَجهِك وتتكَبَّرْ، والتَّصعيرُ: إمالةُ الخَدِّ عن النَّظَرِ؛ عُجْبًا، وأصلُ (صعر): يدُلُّ على مَيلٍ[٣].

﴿مَرَحًا﴾: أي: اختيالًا وبطرًا وكبرًا وفخرًا، والمَرَحُ: شدَّةُ الفرح والتَّوسُّعُ فيه، وأصلُ (مرح): يدلُّ على مَسَرَّةٍ لا يكادُ يستَقِرُّ معها المرءُ طَرَبًا[٤].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١١/ ٢٠٣)، ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ٩٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩٧)، ((مقاييس =

﴿مُخۡتَالٖ﴾: أي: مُتكَبِّرٍ ذي فَخرٍ وخُيَلاءَ، والاختيالُ: مأخوذٌ مِنَ (التَّخَيُّل)، والتخيُّلُ: التَّشبُّهُ بالشَّيءِ، فالمُختالُ يَتخيَّلُ في صورةِ مَن هو أعظَمُ منه؛ كِبْرًا، وأصلُ (خيل): يدُلُّ على حركةٍ في تلَوُّنٍ، والمختالُ في مِشيتِه يتلَوَّنُ في حركتِه ألوانًا[1].

﴿وَٱقۡصِدۡ﴾: أي: تَواضَعْ واعتَدِلْ، وأصلُ القَصدِ: استِقامةُ الطَّريقِ[2].

﴿وَٱغۡضُضۡ﴾: أي: أنقِصْ واخْفِضْ، يقالُ: غضَّ منه، إذا نقَص منه، وأصلُ (غضض) هنا: يدُلُّ على كَفٍّ ونقصٍ[3].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ﴾

قَولُه تعالى: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ﴾: الضَّميرُ (ها) في ﴿إِنَّهَآ﴾ ضميرُ

= اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٦/ ١٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٦).

قال الشنقيطي: (وأصلُ المرح في اللُّغة: شِدَّةُ الفرحِ والنَّشاطِ، وإطلاقُه على مشْيِ الإنسانِ مُتَبَخْتِرًا مَشْيَ المُتكبِّرينَ؛ لأنَّ ذلك مِن لوازمِ شِدَّةِ الفرحِ والنَّشاطِ عادةً). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (٥/ ٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٣)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٤/ ١٣٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٣).

القِصَّةِ، والجملةُ الشَّرطيَّةُ في محلِّ رفعٍ خبَرُ (إنَّ)، أو الضَّميرُ في ﴿إِنَّهَآ﴾ للخَصلةِ مِن الإساءةِ والإحسانِ، أو يَعودُ على ما يُفهَمُ مِن سياقِ الكلامِ، أي: إنَّ الَّتي سألْتَ عنها (إنْ تَكُ). و﴿مِثْقَالَ﴾ بالنَّصبِ خَبَرُ ﴿تَكُ﴾ النَّاقصةِ، واسمُها مُضمَرٌ فيها يعودُ على (ها) في ﴿إِنَّهَآ﴾. وقُرِئَ برَفعِ ﴿مِثْقَالَ﴾[1] على أنَّه فاعِلُ ﴿تَكُ﴾ مِن «كان» التَّامَّةِ، ولَحِقَت فِعلَه تاءُ المضارَعةِ للمُؤنَّثةِ، وأُعيدَ عليه الضَّميرُ في ﴿بِهَا﴾ مُؤنَّثًا، مع أنَّ ﴿مِثْقَالَ﴾ لفظٌ غيرُ مُؤنَّثٍ؛ لأنَّه أُضيفَ إلى ﴿حَبَّةٍ﴾ فاكتسَبَ التَّأنيثَ منها، أو لأنَّه بمعنى: زِنةُ حبَّةٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ اللهُ تعالى بقيَّةَ وصايا لُقمانَ لابنِه، وأنَّه قال له: يا بُنيَّ، لو كان العملُ مِن خيرٍ أو شرٍّ زِنةَ حبَّةٍ مِن خَردلٍ، فكان في صَخرةٍ أو في جِهةٍ ما في السَّمواتِ أو في الأرضِ؛ فإنَّ اللهَ يأتي به يومَ القيامةِ، ويُوَفِّي جَزاءَه. إنَّ اللهَ يعلَمُ دقائقَ الأشياءِ وخفايا الأُمورِ، فلا يخفَى عليه شَيءٌ سُبحانَه. يا بُنيَّ، أدِّ الصَّلاةَ تامَّةً، وأْمُرِ النَّاسَ بطاعةِ اللهِ، وانهَهم عن الشِّركِ والمعاصي، وتحمَّلْ ما أصابَك في سَبيلِ ذلك مِن بلاءٍ وأذًى؛ إنَّ ذلك مِن الأمورِ الَّتي أوجَبَها اللهُ على عِبادِه، عَزمًا منه تعالى.

ولا تُمِلْ خَدَّك وتُعرِضْ بوَجهِك عن النَّاسِ؛ تكبُّرًا عليهم، ولا تَمشِ في الأرضِ مُتبختِرًا؛ إنَّ اللهَ لا يحِبُّ كُلَّ مُتكبِّرٍ فَخورٍ على النَّاسِ بما أُعطِيَ مِنَ النِّعَمِ، واعتَدِلْ في مِشيَتِك فامشِ بسَكينةٍ ووَقارٍ وتواضُعٍ، واخفِضْ مِن صَوتِك،

---

(١) قرأه بالرَّفعِ: نافعٌ وأبو جعفرٍ، وقرأه الباقونَ بالنَّصبِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٥٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٤)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٦).

إنَّ أقبَحَ الأصواتِ لَصوتُ الحَميرِ إذا رفَعَت صَوتَها بالنَّهيقِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا نهى لُقمانُ ابنَه عن الشِّركِ؛ نبَّهَه على قُدرةِ اللهِ، وأنَّه لا يُمكِنُ أن يتأخَّرَ عن مَقدورِه شَيءٌ[(١)].

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ﴾.

أي: قال لُقمانُ لابنِه: يا بُنَيَّ، لو كان العملُ مِن خيرٍ أو شرٍّ زِنةَ حبَّةٍ من خَردلٍ، فكان في صَخرةٍ أو في جِهةٍ ما في السَّمواتِ أو في الأرضِ؛ فإنَّ اللهَ يأتي به يومَ القيامةِ، ويحاسِبُ عليه، ويُوَفِّي جَزاءَه[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣٨)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥٩).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: أنَّ الله تعالى يحاسِبُ على الأعمالِ مهما دقَّت وصَغُرت وخَفِيَت، فيأتي بها يومَ القيامة، ويحاسِبُ عليها، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

ممَّن اختار هذا في الجملةِ: ابنُ جرير، وابن جُزَي، والبِقاعي، والعليمي، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٥، ٥٥٦)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧١)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٠٠، ١٠١). =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يَعلَمُ دقائِقَ الأشياءِ، ويَسلُكُ في إيصالِها لبُلوغِ أمرٍ يُريدُه مَسلَكَ الرِّفقِ، بالوُجوهِ الخَفيَّةِ الغامِضةِ، وهو بالغُ العِلمِ بخَفايا الأمورِ وبواطِنِها؛ فلا يخفى عليه شَيءٌ سُبحانَه[1].

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾.

= قال الزجاج: (هذا مَثَلٌ لأعمالِ العبادِ، أنَّ الله يأتي بأعمالِهم يومَ القيامةِ؛ ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ * وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]. ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ١٩٧).

وقيل: هذا القَولُ مِن لُقمانَ إنَّما قَصَد به إعلامَ ابنِه بقَدْرِ قُدرةِ الله تعالى، وهذه الغايةُ الَّتي أمكَنَه أن يفهِّمَه؛ لأنَّ الخَرْدَلةَ يُقالُ: إنَّ الحسَّ لا يُدرِكُ لها ثِقَلًا، إذ لا تُرَجِّحُ ميزانًا. أي: لو كان للإنسانِ رِزقٌ مِثقالَ حبَّةِ خَرْدَلٍ في هذه المواضِعِ، جاء الله بها حتَّى يَسوقَها إلى مَن هي رِزقُه، أي: لا تهتمَّ للرِّزقِ حتَّى تشتغِلَ به عن أداءِ الفرائضِ، وعن اتِّباعِ سبيلِ مَن أنابَ إليَّ. قاله القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٦٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٥٠).

والضَميرُ في ﴿إِنَّهَآ﴾ قيل: إنه عائدٌ إلى الخَصلةِ السَّيِّئةِ أو الحَسَنةِ. وممَّن قال بذلك: القاسمي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٠٠).

وقيل: الضَّميرُ عائدٌ إلى الخطيئةِ. وممَّن اختار ذلك: البغوي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٨٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٧٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٧).

وقيل: الضَميرُ للقِصَّةِ والحادثةِ، وهو المسمَّى بضميرِ الشَّأنِ، ويقَعُ بصورةِ ضَميرِ المُفرَدةِ المؤنَّثةِ بتأويلِ القِصَّةِ. وممَّن قال: الضَّميرُ ضميرُ القِصَّةِ: أبو حيَّان، والسمين الحلبي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧٢، ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نهى لُقمانُ ابنَه أوَّلًا عن الشِّركِ، وأخبَرَه ثانيًا بعِلمِه تعالى وباهِرِ قُدرتِه؛ أمَرَه بما يتوسَّلُ به إلى اللهِ مِن الطَّاعاتِ، فبدأ بأشرَفِها، وهو الصَّلاةُ؛ حيث يَتوجَّهُ إليه بها، ثمَّ بالأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكَرِ، ثمَّ بالصَّبرِ على ما يُصيبُه مِنَ المِحَنِ جميعِها، أو على ما يُصيبُه بسَبَبِ الأمرِ بالمعروفِ ممَّن يَبعَثُه عليه، والنَّهيِ عن المنكَرِ ممَّن يُنكِرُه عليه؛ فكثيرًا ما يُؤذَى فاعِلُ ذلك[١].

وأيضًا انتَقَل مِن تعليمِه أصولَ العَقيدةِ إلى تعليمِه أصولَ الأعمالِ الصَّالحةِ، فابتدَأها بإقامةِ الصَّلاةِ[٢].

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

أي: يا بُنَيَّ، أدِّ الصَّلاةَ تامَّةً مُستقيمةً، كما أمَرَ اللهُ تعالى[٣].

﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ بتَكميلِه في نَفْسِه؛ تَوفيةً لحَقِّ الحَقِّ؛ عَطَف على ذلك تَكميلَه لِنَفسِه بتكميلِ غَيرِه؛ توفيةً لحَقِّ الخَلقِ؛ وذلك أنَّه لَمَّا كان النَّاسُ في هذه الدَّارِ سَفْرًا، وكان المسافِرُ إنْ أهملَ رَفيقَه حتَّى أُخِذَ، أوشَكَ أن يُؤخَذَ هو- أمَرَه بما يُكَمِّلُ نجاتَه بتكميلِ رَفيقِه، فقال[٤]:

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧٣، ١٧٤).

﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾.

أي: وأْمُرِ النَّاسَ بتَوحيدِ اللهِ وطاعتِه، واتِّباعِ شَرْعِه[(١)].

﴿وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾.

أي: وانْهَ النَّاسَ عن الشِّركِ باللهِ ومَعصِيَتِه[(٢)].

﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا علِم أنَّه لا بدَّ أن يُبتلَى إذا أمَر ونهَى، وأنَّ في الأمرِ والنَّهيِ مَشَقَّةً على النُّفوسِ؛ أمَره بالصَّبرِ على ذلك[(٣)]، فالقابِضُ على دينِه في غالِبِ الأزمانِ كالقابِضِ على الجَمرِ؛ لأنَّه يُخالِفُ المُعظَمَ، فيَرمونَه عن قَوسٍ واحدةٍ، لا سيَّما أنَّه أمَرَهم ونهاهم[(٤)].

﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾.

أي: وتحمَّلْ ما أصابَك مِن بلاءٍ وأذًى[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٥).

قيل: المرادُ: الصَّبرُ على ما يَنالُه مِن أذَى الخَلقِ؛ بسَبَبِ أمْرِهم بالمعروفِ، ونَهْيِهم عن المنكَرِ. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ جرير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن =

كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ١٠٩].

وقال سُبحانه: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [المزمل: ١٠].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

أي: إنَّ ذلك[1] مِن الأمورِ الَّتي أوجبَها اللهُ تعالى على عِبادِه، وتحتاجُ إلى حَزمٍ وعَزمٍ للقيامِ بها[2].

= سليمان)) (٣/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ، وابنُ جُرَيْجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٥٢٣).

وقيل: المرادُ: عمومُ الصَّبرِ على كُلِّ بلاءٍ، سواءٌ كان ما يَلحَقُ الإنسانَ مِن أذى الخَلقِ؛ لقيامِه بعبادةِ الله تعالى، أو لأمْرِهم بالمعروفِ ونَهْيِهم عن المنكَرِ، أو لغيرِ ذلك مِن الأسبابِ، كالمَرَضِ وغَيرِه. وممَّن ذهب إلى العموم: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧٥).

قال القرطبي: (قيل: أمَرَه بالصَّبرِ على شدائدِ الدُّنيا، كالأمراضِ وغَيرِها، وألَّا يَخرُجَ مِنَ الجَزَعِ إلى معصيةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وهذا قولٌ حَسَنٌ؛ لأنَّه يعُمُّ). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٦٨).

(١) قيل: الإشارةُ تعودُ إلى المذكورِ مِن إقامةِ الصَّلاةِ، والأمرِ بالمعروفِ، والنَّهيِ عن المنكرِ، والصَّبرِ على ما أصاب المرءَ. وممَّن قال بذلك: العُليمي، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٦).

وقيل: تعودُ إلى الأمرِ والنَّهيِ والصَّبرِ. وممَّن اختاره: الواحدي، والبغوي يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ١١٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٨٩).

وقيل: تعودُ إلى الصَّبرِ على أذى النَّاسِ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ومكِّي، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٣٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٧٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: سعيدُ بنُ جُبَيرٍ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٥٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧٥، ١٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٦).

قال ابن جُزَي: (﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ يحتملُ أن يُريدَ: ممَّا أمَرَ اللهُ به على وجهِ العزمِ والإيجابِ، أو مِن مكارِمِ الأخلاقِ الَّتي يعزِمُ عليها أهلُ الحزمِ والجِدِّ، ولفظُ العزمِ مصدرٌ يُرادُ به =

كما قال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝١٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

انتقَلَ لُقمانُ بابنِه إلى الآدابِ في مُعاملةِ النَّاسِ، فنهاه عن احتِقارِ النَّاسِ، وعن التَّفَخُّرِ عليهم، وهذا يقتَضي أمْرَه بإظهارِ مُساواتِه مع النَّاسِ، وعَدِّ نَفْسِه كواحِدٍ منهم[(١)].

وأيضًا لَمَّا كان مِن آفاتِ العبادةِ -لا سِيَّما الأمرِ والنَّهيِ؛ لتصَوُّرِهما بصورةِ الاستِعلاءِ- الإعجابُ الدَّاعي إلى الكِبْرِ، قال مُحَذِّرًا مِن ذلك مُعبِّرًا عن الكِبْرِ بلازِمِه؛ لأنَّ نَفْيَ الأعَمِّ نَفيٌ للأخَصِّ، مُنبِّهًا على أنَّ المطلوبَ في الأمرِ والنَّهيِ اللِّينُ لا الفَظاظةُ والغِلظةُ الحامِلانِ على النُّفورِ[(٢)]:

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾.

أي: ولا تُمِلْ خَدَّك، وتُعرِضْ بوَجهِك عن النَّاسِ؛ تكَبُّرًا عليهم، وتهاوُنًا واستِحقارًا لشَأنِهم[(٣)].

= المفعولُ، أي: مِن معزوماتِ الأمورِ. ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٨، ٣٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٨٠).

عن أبي ذَرٍّ رَضيَ اللهُ عنه، قال: قال لي النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا تَحقِرَنَّ مِنَ المعروفِ شَيئًا، ولو أنْ تَلْقَى أخاك بوَجهٍ طَلْقٍ))(١).

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾.

أي: ولا تَمشِ في الأرضِ فَرِحًا مُتبَختِرًا(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُتكَبِّرٍ، مَزهُوٍّ، مُعجَبٍ بنَفْسِه، شديدِ الفَخرِ على النَّاسِ بما أُعطِيَ مِن النِّعَمِ(٣).

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نهَى لُقمانُ ابنَه عن الخُلُقِ الذَّميمِ؛ أمَرَه بالخُلُقِ الكريمِ(٤).

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٩).

قال القرطبي عن المرَحِ: (هو النَّشاطُ والمشْيُ فَرَحًا في غيرِ شُغلٍ وفي غيرِ حاجةٍ، وأهلُ هذا الخُلُقِ ملازِمونَ للفَخرِ والخُيَلاءِ، فالمرِحُ مختالٌ في مِشيَتِه). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٥).

وأيضًا بعدَ أن بيَّنَ لُقمانُ لابنِه آدابَ حُسنِ المعامَلةِ مع النَّاسِ؛ قفَّاها بحُسنِ الآدابِ في حالتِه الخاصَّةِ، وتلك حالتا المَشيِ والتَّكَلُّمِ، وهما أظهَرُ ما يَلوحُ على المرءِ مِن آدابِه[1].

﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾.

أي: وتوسَّطْ، واعتَدِلْ في مِشيَتِك بلا تكَبُّرٍ ولا استِعجالٍ، بل امشِ بسَكينةٍ ووَقارٍ وتواضُعٍ، بلا سُرعةٍ ولا تباطُؤٍ[2].

﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ﴾.

أي: واخفِضْ مِن صَوتِك، فلا ترفَعْه مِن غيرِ حاجةٍ[3].

﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾.

أي: إنَّ أقبَحَ الأصواتِ وأشنَعَها لَصوتُ الحَميرِ إذا رفَعَت صَوتَها بالنَّهيقِ[4]!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى حكايةً عن لُقمانَ: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٨).

قال القرطبي: (فإنَّ الجَهرَ بأكثَرَ مِنَ الحاجةِ تكَلُّفٌ يؤذي. والمرادُ بذلك كُلِّه التَّواضُعُ). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧١).

وقال السعدي: (﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ﴾ أدَبًا مع النَّاسِ ومع اللهِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧١، ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩).

فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾؛ لِسَعةِ عِلمِه، وتمام خبرتِه، وكمالِ قُدرتِه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي: لطفَ في علمِه وخبرتِه، حتَّى اطَّلَع على البواطنِ والأسرارِ، وخفايا القِفارِ والبحارِ، والمقصودُ مِن هذا: الحثُّ على مُراقَبةِ الله، والعملِ بطاعتِه، مهما أمكَن، والتَّرهيبُ من عملِ القبيحِ، قلَّ أو كثُر[1].

٢- قال الله تعالى حكايةً عن لُقمانَ: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ * وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ دَعَت هذه الآياتُ إلى معالي الأخلاقِ، وهي أمَّهاتُ الفضائلِ الثَّلاثِ: الحِكمةِ، والعِفَّةِ، والشَّجاعةِ؛ وأمَرَت بالعَدلِ فيها، وهي وظيفةُ التَّقسيطِ الَّذي هو الوَسَطُ الَّذي هو مَجمَعُ الفضائلِ، ونَهَت عن مساوئِ الأخلاقِ، وهي الأطرافُ الَّتي هي مَبدأُ الرَّذائلِ، الحاصلُ بالإفراطِ والتَّفريطِ؛ فإقامةُ الصَّلاةِ الَّتي هي رُوحُ العبادةِ المبنيَّةِ على العِلمِ هي سِرُّ الحِكمةِ، والأمرُ والنَّهيُ أمرٌ بالشَّجاعةِ ونهيٌ عن الجُبنِ، وفي النَّهيِ عن التَّصعيرِ وما معه نهيٌ عن التَّهوُّرِ، والقَصدُ في المشيِ والغَضُّ في الصَّوتِ أمرٌ بالعِفَّةِ، ونهيٌ عن الاستِماتةِ والجُمودِ، والخَلاعةِ والفُجورِ[2].

٣- يؤخَذُ من قَولِ لُقمانَ لابنِه -فيما حكاه الله عنه-: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ تلَطُّفُ الإنسانِ بمُخاطَبةِ ابنِه، لا سيَّما في مقامِ الموعِظةِ، ويتفرَّعُ على هذا بيانُ سوءِ معاملةِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٨٠).

بعضِ الآباءِ: إذا أراد أنْ يَعِظَ ابنَه عامَلَه بالعُنفِ والشِّدَّةِ! وهذا خطأٌ، وقد قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((إنَّ اللهَ رفيقٌ يحِبُّ الرِّفقَ، ويُعطي على الرِّفقِ ما لا يُعطي على العُنفِ))[١]، وأنت إذا عَمِلْتَ بهذا فإنَّك سوف تُعامَلُ بالرِّفقِ؛ لأنَّ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم أخبَرَ بأنَّ اللهَ تعالى يُعطي على الرِّفقِ ما لا يُعطي على العُنفِ، فإذا كان يحصُلُ لك مَقصودُك بالعُنفِ؛ فإنَّ حُصولَه بالرِّفقِ مِن بابِ أَولى[٢].

٤- الصَّبرُ على أذَى الخَلقِ عندَ الأمرِ بالمعروفِ، والنَّهيِ عن المنكَرِ: إن لم يُستعمَلْ لَزِمَ أحدُ أمْرَينِ: إمَّا تعطيلُ الأمرِ والنَّهيِ، وإمَّا حُصولُ فِتنةٍ ومَفسَدةٍ أعظَمَ مِن مَفسَدةِ تَركِ الأمرِ والنَّهيِ، أو مِثلِها، أو قريبٍ منها، وكِلاهما معصيةٌ وفَسادٌ؛ قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾، فمَن أمَرَ ولم يصبِرْ، أو صبَرَ ولم يأمُرْ، أو لم يأمُرْ ولم يصبِرْ: حَصَل مِن هذه الأقسامِ الثَّلاثةِ مَفسَدةٌ، وإنَّما الصَّلاحُ في أن يأمُرَ ويَصبِرَ[٣].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾، وقَولُه: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقَولُه: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] هذا عامٌّ في وُلاةِ الأُمورِ وفي الرَّعيَّةِ: إذا أمَروا بالمَعروفِ ونَهَوا عن المنكَرِ، فعليهم أن يَصبِروا على ما أُصيبوا به في ذاتِ اللهِ، كما يَصبِرُ المجاهِدونَ على ما يُصابُ مِن أنفُسِهم وأموالِهم؛ فالصَّبرُ على الأذى في العِرْضِ أوْلَى وأوْلَى؛ وذلك لأنَّ مَصلحةَ الأمرِ والنَّهيِ لا تَتِمُّ إلَّا بذلك، وما لا يَتِمُّ الواجِبُ إلَّا به فهو واجِبٌ، ويَندرِجُ في ذلك وُلاةُ الأمورِ؛

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٣) من حديث عائشةَ رضي الله عنها.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (٣/ ٢٠٦).

فإنَّ عليهم مِن الصَّبرِ والحِلمِ ما ليس على غَيرِهم، كما أنَّ عليهم مِنَ الشَّجاعةِ والسَّماحةِ ما ليس على غَيرِهم؛ لأنَّ مَصلحةَ الإمارةِ لا تَتِمُّ إلَّا بذلك. فكما وَجَب على الأئمَّةِ الصَّبرُ على أذى الرَّعيَّةِ وظُلْمِها إذا لم تَتِمَّ المصلحةُ إلَّا بذلك، أو كان تَركُه يُفضي إلى فسادٍ أكثَرَ منه- فكذلك يجبُ على الرَّعيَّةِ الصَّبرُ على جَورِ الأئمَّةِ وظُلمِهم، إذا كان في تَركِ الصَّبرِ مَفسَدةٌ راجِحةٌ[1].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ يَستلزِمُ العِلمَ بالمعروفِ ليأمُرَ به، والعِلمَ بالمُنكَرِ لِيَنهَى عنه، والأمرَ بما لا يَتِمُّ الأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عن المنكَرِ إلَّا به؛ مِنَ الرِّفقِ والصَّبرِ، وقد صَرَّح به في قَولِه: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾، ومِن كَونِه فاعِلًا لِما يَأمُرُ به، كافًّا لِما ينهَى عنه، فتضَمَّن هذا تكميلَ نَفْسِه بفِعلِ الخَيرِ، وتَركِ الشَّرِّ، وتكميلَ غَيرِه بذلك بأمرِه ونَهيِه[2].

٧- قال الله تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ الأمرُ بأن يأمُرَ بالمعروفِ ويَنهى عن المنكَرِ يَقتضي إتيانَ الأمرِ وانتهاءَه في نَفْسِه؛ لأنَّ الَّذي يأمُرُ بفِعلِ الخَيرِ ويَنهى عن فِعلِ الشَّرِّ: يعلَمُ ما في الأعمالِ مِن خيرٍ وشَرٍّ، ومصالِحَ ومفاسِدَ؛ فلا جَرَمَ أن يَتوقَّاها في نَفْسِه بالأولويَّةِ مِن أمْرِه النَّاسَ ونَهْيِه إيَّاهم[3].

٨- قال تعالى حكايةً عن لقمانَ: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾، فالآمِرُ بالمعروفِ والنَّاهي عن المنكَرِ إذا أمَر ونهَى، فلا بُدَّ أن يُؤذَى في العادةِ؛ فعليه أن يَصبِرَ ويَحلُمَ[4].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ تنبيهٌ على فَضيلةِ العَزمِ في

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٥).

(٤) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٢٥٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٨).

الأمورِ، وكلَّما كان الإنسانُ عازمًا في أمورِه، كان ذلك أنجحَ له وأحسَنَ[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ زَجْرٌ عن احتِقارِ النَّاسِ، ومِشْيةِ الخُيَلاءِ؛ وحثٌّ على التَّواضُعِ، وأخْذِ السَّكينةِ والوَقارِ[٢].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: اختيالًا وتَبختُرًا؛ ومشيُ الأَشَرِ والبطَرِ والتَّكبرِ جديرٌ بأن يظلِمَ صاحِبُه ويُفحِشَ ويَبغيَ، بل امْشِ هَونًا؛ فإنَّ ذلك يُفضي بك إلى التَّواضُعِ، فتَصِلُ إلى كلِّ خيرٍ[٣].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يكونَ مَشيُه قَصْدًا: لا إسراعًا مُخِلًّا، ولا دَبيبًا مُتباطِئًا؛ فالإسراعُ الَّذي فيه التَّهوُّرُ والعَجَلةُ والطَّيشُ: مذمومٌ، والتَّباطؤُ والدَّبيبُ أيضًا مَذمومٌ[٤].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾، قيل: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾: إشارةٌ إلى الأفعالِ، وقَولُه: ﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾: إشارةٌ إلى الأقوالِ؛ فنبَّه على التَّوسُّطِ في الأفعالِ والأقوالِ، وعلى الإقلالِ من فُضولِ الكلامِ[٥].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ دَليلٌ على أنَّ الإجهارَ الشَّديدَ في المنطِقِ مذمومٌ[٦].

١٥- قوله تعالى: ﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ (مِنْ) هذه للتَّبعيضِ، فلم يقُلْ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٢٣).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٢٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١١٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٧)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٤٢٧).

(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٦٢٧).

(اغضضْ صوتَك)، بل قال: (منه)؛ وذلك لأنَّ الإنسانَ لا يُحْمَدُ على رفعِ الصَّوتِ جدًّا، ولا على خَفضِه جدًّا، بل يكونُ أيضًا قَصْدًا بينَ رفعِ الصَّوتِ والإخفاءِ[1].

١٦- قال تعالى: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ﴾، النَّهيُ عن رفعِ الصَّوتِ فوقَ الحاجةِ، فيه إشارةٌ إلى أنَّ فاعلِ ما لا حاجةَ إليه غيرُ حكيم[2].

١٧- قال الله تعالى: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ هذه الآيةُ أَدَبٌ مِنَ اللهِ تعالى بتَركِ الصِّياحِ في وُجوهِ النَّاسِ تهاوُنًا بهم، أو بتَركِ الصِّياحِ جُملةً، وكانت العَرَبُ تَفخَرُ بجَهارةِ الصَّوتِ الجَهيرِ وغيرِ ذلك؛ فمَن كان منهم أشَدَّ صَوتًا كان أعَزَّ، ومَن كان أخفَضَ كان أذَلَّ[3]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ﴾ أبلَغُ مِن قَولِ القائِلِ: (يَعلَمُها اللهُ)؛ لأنَّ مَن يَظهَرُ له الشَّيءُ، ولا يَقدِرُ على إظهارِه لغَيرِه، يكونُ حالُه في العِلمِ دونَ حالِ مَن يَظهَرُ له الشَّيءُ، ويُظهِرُه لِغيرِه[4].

٢- قال الله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ﴾، قيل: خَفاءُ الشَّيءِ يُعرَفُ بصِغَرِه عادةً، وببُعْدِه عن الرَّائي، وبكَونِه في ظُلمةٍ وباحتجابِه؛ فـ﴿فِي صَخۡرَةٍ﴾ إشارةٌ إلى الحِجابِ، و﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إشارةٌ إلى البُعدِ، و﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إشارةٌ إلى الظُّلمةِ؛ فإنَّ جوفَ الأرضِ أظلَمُ الأماكنِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١١٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٥).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ بدَأ هذه الوَصِيَّةَ بالصَّلاةِ، وختَمَها بالصَّبرِ؛ لأنَّهما مِلاكُ الاستِعانةِ ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[1] [البقرة: ٤٥].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يُعلَمُ منه أنَّ الصَّلاةَ كانت في سائِرِ المِلَلِ، غيرَ أنَّ هيئَتَها اختلَفَت[2].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ لذِكْرِ الحِمارِ مِن بلاغةِ الذَّمِّ والشَّتمِ ما ليس لِغَيرِه؛ ولذلك يُستهجَنُ التَّصريحُ باسمِه، وهذا يُفهِمُ أنَّ الرَّفعَ مع الحاجةِ غيرُ مَذمومٍ؛ فإنَّه ليس بمُستنكَرٍ ولا مُستَبشَعٍ[3].

٦- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ رَفْعَ الصَّوتِ في غيرِ محَلِّه مُحرَّمٌ؛ لأنَّ هذا التَّشبيهَ يقتضي التَّنفيرَ منه، وقد قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((ليس لنا مَثَلُ السَّوءِ))[4].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ هذا شُروعٌ في حِكايةِ بقيَّةِ وَصايا لُقْمانَ، بعدَ تَقريرِ ما في مَطلَعِها مِن النَّهيِ عن الشِّركِ، وتأْكيدِه بالاعتراضِ[5].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١١٧).

والحديث أخرجه البخاري (٢٦٢٢) من حديث عبد الله بنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما.

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٢).

- وتكريرُ النِّداءِ ﴿ يَٰبُنَيَّ ﴾؛ لِتَجديدِ نشاطِ السَّامعِ لوَعْيِ الكلامِ[١]، وفيه تنبيهٌ على فَرطِ النَّصيحةِ؛ لِفَرطِ الشَّفَقةِ[٢].

- وقدِ اجتمَعَ في هذه الجُملةِ ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ ... ﴾ ثلاثةُ مُؤكِّداتٍ: النِّداءُ، و(إنَّ)، وضميرُ القصَّةِ -على قولٍ-؛ لِعِظَمِ خطَرِ ما بعْدَه، المُفيدِ تقْريرَ وصْفِه تعالى بالعلْمِ المحيطِ بجميعِ المعلوماتِ مِن الكائناتِ، ووَصْفِه بالقُدْرةِ المُحيطةِ بجميعِ المُمْكناتِ؛ بقَرينةِ قولِه: ﴿يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾. وقد أُفيدَ ذلك بطَريقِ دَلالةِ الفَحْوى[٣]؛ فذُكِر أدَقُّ الكائناتِ حالًا مِن حيثُ تعلُّقُ العِلْمِ والقُدرةِ به، وذلك أدقُّ الأجسامِ المُخْتفي في أصلَبِ مكانٍ أو أقصاهُ وأعَزِّه مَنالًا، أو أوسَعِه وأشَدِّه انتشارًا؛ لِيُعلَمَ أنَّ ما هو أقْوى منه في الظُّهورِ والدُّنُوِّ مِن التَّناوُلِ أَولى بأنْ يُحيطَ به عِلْمُ اللهِ وقُدْرتُه[٤].

- وفي قولِه: ﴿إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ ...﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالتَّتميمِ[٥]، والمعنى -على قول-: أنَّه تمَّمَ خَفاءَ الخَطيئةِ في نفْسِها بخَفاءِ مكانِها مِن الصَّخرةِ، والأخْفى مِن الصَّخرةِ؛ كأنْ تكونَ في صَخرةٍ مُستقِرَّةٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧٣).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٣٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٢).

(٥) التَّتميم: هو أن يُؤتَى في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفضلةٍ تُفيدُ نكتةً. أو بعبارةٍ أخرى هو: الإتيانُ بكلِمةٍ أو كلامٍ متمِّمٍ للمقصودِ، لرَفْعِ اللَّبسِ عنه، وتقريبِه للفَهمِ، أو لزيادةٍ حسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِح مِن الكلامِ نقَص معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢١٧)، ((تفسير أبي حيَّان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٣)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٥٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٢٤٠).

في أغوارِ الأرضِ السَّحيقةِ، أو في الأعالي مِن أجوازِ[(١)] الفضاءِ[(٢)].

- وقولُه: ﴿أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ عطْفٌ على ﴿فِي صَخۡرَةٍ﴾؛ لأنَّ الصَّخرةَ مِن أجزاءِ الأرضِ، فذكَرَ بعْدَها ﴿أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، على مَعنى: أو كانت في أعزَّ مَنالًا مِن الصَّخرةِ، وعطَفَ عليه ﴿أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وإنَّما الصَّخرةُ جُزءٌ مِن الأرضِ؛ لقصْدِ تَعميمِ الأمكنةِ الأرضيَّةِ؛ فإنَّ الظَّرفيَّةَ تَصدُقُ بهما، أي: ذلك كلُّه سواءٌ في جانبِ عِلمِ اللهِ وقُدرتِه، كأنَّه قال: فتكُنْ في صَخرةٍ، أو حيث كانت مِن العالَمِ العُلويِّ والعالَمِ السُّفليِّ[(٣)].

- قولُه: ﴿يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ قيل: الإتيانُ كِنايةٌ عن التَّمكُّنِ منها، وهو أيضًا كِنايةٌ رَمْزيَّةٌ عن العِلْمِ بها؛ لأنَّ الإتيانَ بأدقِّ الأجسامِ مِن أقْصى الأمكنةِ وأعمَقِها وأصلَبِها، لا يكونُ إلَّا عن عِلْمٍ بكَونِها في ذلك المكانِ، وعِلْمٍ بوسائلِ استخراجِها منه[(٤)].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ مِن كلامِ لُقْمانَ؛ فهي كالمَقصدِ مِن المُقدِّمةِ، أو كالنَّتيجةِ مِن الدَّليلِ؛ ولذلك فُصِلَت ولم تُعطَفْ؛ لأنَّ النَّتيجةَ كبدَلِ الاشتمالِ يَشتمِلُ عليها القياسُ؛ ولذلك جِيءَ بالنَّتيجةِ كُلِّيَّةً بعدَ الاستدلالِ بجُزئيَّةٍ. ويجوزُ أنْ تكونَ مُعترِضةً بيْنَ كلامِ لُقْمانَ؛

(١) جوزُ كلِّ شَيءٍ: وَسَطُه، والجمعُ أجوازٌ. قيل: مِن هذا اشتقاقُ الجَوزاءِ؛ لأنَّها تعترِضُ جوزَ السَّماءِ، أي: وسَطَها. يُنظر: ((جمهرة اللغة)) لابن دُرَيد (١/ ٤٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٣/ ٤٩٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٩٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تَعليمًا مِن اللهِ للمُسلِمينَ[١].

- واللَّطيفُ: مَن يَعلَمُ دقائقَ الأشياءِ، ويَسلُكُ في إيصالِها إلى مَن تَصلُحُ به مَسلَكَ الرِّفقِ؛ فهو وصْفٌ مُؤْذِنٌ بالعِلْمِ والقُدرةِ الكاملَينِ؛ ففي تعقيبِ ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ بوَصْفِه بـ (اللَّطيف) إيماءٌ إلى أنَّ التَّمكُّنَ منها وامتلاكَها بكَيفيَّةٍ دَقيقةٍ، تُناسِبُ فَلْقَ الصَّخرةِ، واستخراجَ الخَرْدَلةِ منها، مع سَلامتِها وسلامةِ ما اتَّصلَ بهما مِن اختلالِ نِظامِ صُنْعِه[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾

- قولُه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ خصَّ الصَّلاةَ؛ لأنَّها أكبَرُ العباداتِ البَدَنيَّةِ[٣].

- وقَدَّم الأمرَ بالمعروفِ -وإن كان مِن جَلبِ المصالحِ- لأنَّه يَستَلزِمُ تَرْكَ المنكَرِ، وأمَّا تَركُ المُنكَرِ فلا يَستلزِمُ فِعلَ الخَيرِ؛ فإنَّك إذا قُلتَ: لا تأتِ مُنكَرًا، لم يَتناوَلْ ذلك في العُرفِ إلَّا الكَفَّ عن فِعلِ المعصيةِ، لا فِعلَ الطَّاعةِ[٤].

- وفيه تَعقيبُ الأمْرِ بالمعروفِ، والنَّهيِ عن المُنكَرِ بمُلازَمةِ الصَّبرِ؛ ووجْهُه: أنَّ الأمْرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عن المُنكَرِ قد يَجُرَّانِ للقائمِ بهما مُعاداةً مِن بعضِ النَّاسِ، أو أذًى مِن بعضٍ، فإذا لم يَصبِرْ على ما يُصيبُه مِن جرَّاءِ الأمْرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المُنكَرِ، أوشَكَ أنْ يَترُكَهما. ولَمَّا كانت فائدةُ الصَّبرِ عائدةً على الصَّابرِ بالأجرِ العظيمِ، عُدَّ الصَّبرُ هنا في عِدادِ الأعمالِ القاصرة

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧٣، ١٧٤).

على صاحِبِها، ولم يُلتفَتْ إلى ما في تَحمُّلِ أذَى النَّاسِ مِن حُسنِ المُعامَلةِ معهم، حتَّى يُذكَرَ الصَّبرُ مع قولِه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨]؛ لأنَّ ذلك ليس هو المقصودَ الأوَّلَ مِن الأمْرِ بالصَّبرِ[١].

- قَولُه: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ حقَّق بالماضي أنَّه لا بُدَّ مِنَ المُصيبةِ؛ لِيَكونَ الإنسانُ على بصيرةٍ[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ فيه التَّأكيدُ بـ(إنَّ)؛ للاهتمامِ[٣]. والإشارةُ بـ﴿ذَلِكَ﴾ إلى كلِّ ما ذُكِرَ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وما في اسمِ الإشارةِ مِن مَعنى البُعدِ مع قُرْبِ العهْدِ بالمُشارِ إليه؛ للإشعارِ ببُعدِ مَنزلتِه في الفضْلِ[٤].

- وأيضًا جملةُ ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ تَعليلٌ لِوُجوبِ الامتِثالِ بما سبَقَ مِنَ الأمرِ والنَّهيِ، وإيذانٌ بأنَّ ما بعْدَها ليس بمَثابتِه[٥].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]، وقال في سُورةِ (الشُّورى): ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]؛ فأكَّدَ الخبَرَ في هذه الآيةِ، وسقَطَ التَّوكيدُ مِن الأُولى في سُورةِ (لُقمانَ)؛ وذلك لأنَّ آيةَ (الشُّورى) لَمَّا دخَلَها معنى القسَمِ، وكانتْ على تَقديرِه؛ إذِ اللَّامُ في قولِه: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ تَوطئةٌ له، ودالَّةٌ على تَضمينِ الآيةِ معناهُ؛ ناسَبَ ذلك زِيادةُ لامِ التَّأكيدِ في خبَرِ (إنَّ)، وذلك ظاهرٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

في معنَى الآيةِ. وأمَّا آيةُ (لُقمانَ) فقولُه فيها: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ مُجرَّدُ إخبارٍ عن حالِ ما وقَعَت الوصيَّةُ به، ولا مَدخَلَ للقسَمِ هنا، ولا معنَى له، فلم تَدخُلْ لامُ التَّأكيدِ في الخبَرِ؛ إذ ليس في الآيةِ معنَى قسَمٍ يَستدعِيها، ولا وقَعَ في اللَّفظِ ما يُطابِقُها، فورَدَ كلٌّ على ما يجِبُ ويُناسِبُ، ولو قُدِّرَ العكْسُ لَمَا ناسَبَ(١).

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ الصَّعَرُ: داءٌ يُصِيبُ البَعيرَ، فيَلْوي منه عُنقَه، فكأنَّه صِيغَ له صِيغةُ تَكلُّفٍ، بمعنى تكلُّفِ إظهارِ الصَّعرِ، وهو تَمثيلٌ للاحتِقارِ؛ لأنَّ مُصاعَرةَ الخدِّ هَيئةُ المُحتقِرِ المُستخِفِّ في غالبِ الأحوالِ، والمعنى: لا تَحتقِرِ النَّاسَ؛ فالنَّهيُ عن الإعراضِ عنهم احتقارًا لهم، لا عن خُصوصِ مُصاعرةِ الخدِّ، فيَشملُ الاحتقارَ بالقولِ والشَّتْمِ وغيرِ ذلك، فهو قريبٌ مِن قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣]، إلَّا أنَّ هذا تَمثيلٌ كِنائيٌّ، والآخَرُ كِنايةٌ لا تَمْثيلَ فيها(٢).

- قولُه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ تَمثيلٌ كِنائيٌّ عن النَّهيِ عن التَّكبُّرِ والتَّفاخُرِ، لا عن خُصوصِ المشْيِ في حالِ المرَحِ؛ فيَشملُ الفخْرَ عليهم بالكلامِ وغيرِه(٣).

- ومَوقعُ قولِه: ﴿ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ بَعدَ (لَا تَمْشِ)، مع أنَّ المشْيَ لا يكونُ إلَّا في الأرضِ؛ هو الإيماءُ إلى أنَّ المشْيَ في مكانٍ يَمْشي فيه النَّاسُ كلُّهم

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٠٢، ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٦٦، ١٦٧).

قَوِيِّهم وضعيفِهم؛ ففي ذلك مَوعظةٌ لِلماشي مرَحًا أنَّه مُساوٍ لسائرِ النَّاسِ[(١)]، وتذكيرٌ بأنَّ أصلَه ترابٌ، وهو لا يقدرُ أن يَعدُوَه[(٢)].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ أو مُوجِبِه، وتأْخيرُ الفَخورِ -مع كَونِه بمُقابَلةِ المُصعِّرِ خَدَّه- عن المُخْتالِ -وهو بمُقابَلةِ الماشِي مَرَحًا-؛ لرِعايةِ الفَواصلِ[(٣)].

- وصِيغةُ الافتعالِ في كَلمةِ ﴿مُخۡتَالٖ﴾؛ للمُبالَغةِ في الوصْفِ[(٤)].

- جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ مِن كلامِ لُقْمانَ؛ فهي كالمَقصدِ من المُقدِّمةِ، أو كالنَّتيجةِ مِن الدَّليلِ، ولذلك فُصِلَت ولم تُعطَفْ؛ لأنَّ النَّتيجةَ كبدَلِ الاشتمالِ يَشتمِلُ عليها القياسُ، ولذلك جِيءَ بالنَّتيجةِ كُلِّيَّةً بعدَ الاستدلالِ بجُزئيَّةٍ. ويجوزُ أنْ تكونَ مُعترِضةً بيْن كلامِ لُقْمانَ؛ تَعليمًا مِن اللهِ للمُسلمين[(٥)].

- وفي هذه الآيةِ لَطيفةٌ، وهي: أنَّ اللهَ تعالى قَدَّمَ الكمالَ على التَّكميلِ؛ حيثُ قال: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾، وفي النَّهيِ قدَّمَ ما يُورِثُه التَّكميلُ على ما يُورِثُه الكَمالُ؛ حيثُ قال: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا﴾؛ لأنَّ في طَرَفِ الإثباتِ مَن لا يكونُ كاملًا لا يُمكِنُ أنْ يَصيرَ مُكمِّلًا؛ فقدَّمَ الكَمالَ، وفي طَرفِ النَّفيِ مَن يكونُ مُتكبِّرًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٦٤، ١٦٧).

على غيرِه يكونُ مُتبختِرًا؛ لأنَّه لا يَتكبَّرُ على الغَيرِ إلَّا عندَ اعتقادِه أنَّه أكبَرُ منه مِن وَجْهٍ، وأمَّا مَن يكونُ مُتبختِرًا في نَفْسِه لا يَتكبَّرُ ويَتوهَّمُ أنَّه يَتواضعُ للنَّاسِ؛ فقدَّمَ نَفْيَ التَّكبُّرِ، ثمَّ نَفْيَ التَّبختُرِ؛ لأنَّه لو قد نَفى التَّبختُرَ لَلَزِمَ منه نَفْيُ التَّكبُّرِ، فلا يَحتاجُ إلى النَّهيِ عنه[1].

٤- قوله تعالى: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾

- جِيءَ بـ (مِن) الدَّالَّةِ على التَّبعيضِ؛ لإفادةِ أنَّه يغُضُّ بَعضَه، أي: بعضَ جَهْرِه، أي: يَنقُصُ مِن جُهورتِه، ولكنَّه لا يَبلُغُ به إلى التَّخافُتِ والسِّرارِ[2].

- ومِن بديعِ البَلاغةِ في قولِه: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ أنَّه أتَى بالتَّمثيلِ مُؤكَّدًا بـ (إنَّ) أوَّلًا، وعزَّزَ هذا التَّأكيدَ باللَّامِ، فصار الكلامُ خبرًا إنْكاريًّا؛ كأنَّ التَّمثيلَ أمْرٌ مَبْتوتٌ فيه لا يَتطرَّقُ إليه الشَّكُّ، وهو مُوضِّحٌ لِتَعليلِ الأمرِ بخفْضِ الصَّوتِ، مَبْنِيٌّ على تَشبيهِ الرَّافعينَ أصواتَهم بالحميرِ، وتَمثيلِ أصواتِهم بالنُّهاقِ، وفيه إفراطٌ في التَّحذيرِ عن رفْعِ الصَّوتِ، والتَّنفيرِ عنه[3].

- قولُه: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ وُحِّدَ صَوتُ الحَميرِ ولم يُجمَعْ؛ لأنَّه ليس المُرادُ أنْ يُذكَرَ صوتُ كلِّ واحدٍ مِن آحادِ هذا الجِنسِ حتَّى يُجمَعَ، وإنَّما المرادُ أنَّ كلَّ جِنسٍ مِن الحيوانِ النَّاطقِ له صَوتٌ، وأنكَرُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٤٥ ٥٤٨).

أصواتِ هذه الأجناسِ صوتُ هذا الجِنسِ؛ فوجَبَ توحيدُه[1]. وإنَّما جمَعَ الحميرَ في نَظْمِ القرآنِ، مع أنَّ (صوت) مُفردٌ، ولم يقُلِ: (الحِمارِ)؛ لأنَّ المُعرَّفَ بلامِ الجِنسِ يَسْتوي مُفردُه وجمْعُه، وإنَّما أُوثِرَ لَفْظُ الجمْعِ؛ لأنَّ كَلِمةَ (الحَمير) أنسبُ لفواصلِ الآياتِ؛ فإنَّ الفواصلَ المُتقدِّمةَ هي: ﴿حَمِيدٌ﴾، ﴿عَظِيمٌ﴾، ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾، ﴿خَبِيرٌ﴾، ﴿ٱلْأُمُورِ﴾، ﴿فَخُورٍ﴾، ﴿ٱلْحَمِيرِ﴾[2]، ولأنَّ المَقصودَ مِن الجَمعِ التَّتميمُ والمبالغةُ في التَّنفيرِ؛ فإنَّ الصَّوتَ إذا تَوافقتْ عليه الحَميرُ كان أنكَرَ[3].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٨، ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٠٠).

الآيات (٢٠-٢٤)

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١) ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢) وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَأَسْبَغَ﴾: أي: أتمَّ ووسَّعَ وأكمَلَ، وأصلُ (سبغ): يدُلُّ على تمامِ الشَّيءِ وكَمالِه[١].

﴿بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾: أي: بأوثَقِ الأسبابِ. والعُروةُ: ما يُتعلَّقُ به؛ نحوُ عُروةِ الدَّلْوِ والكُوزِ، والوُثقَى: المُحكَمةُ الشَّدِّ[٢].

﴿نَضْطَرُّهُمْ﴾: أي: نُلجِئُهم ونَسوقُهم، أو نُورِدُهم على كُرهٍ منهم، والاضْطِرارُ: حمْلُ الإنسانِ على ما يَضُرُّه، والاضطرارُ في الأصلِ: الإلجاءُ، يُقالُ: اضْطَرَّه إلى كذا، أي: ألجَأه إليه، وأصلُ (ضرَّ) هنا: خلافُ النَّفْعِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٩٦)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٠)، =

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُنبِّهًا خلْقَه على نِعَمِه عليهم في الدُّنيا والآخرةِ: ألم تَرَوا -أيُّها النَّاسُ- أنَّ اللهَ وَحْدَه سخَّر لكم ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ مِن منافعَ كثيرةٍ لا تُحصى، وأتمَّ عليكم نِعَمَه ظاهِرةً وباطِنةً، وغمَرَكم بها، ومع كُلِّ هذا فمِنَ النَّاسِ مَن يُخاصِمُ في دينِ اللهِ وشَرعِه وتَوحيدِه بلا عِلمٍ عِندَه، وبغيرِ هُدًى ولا كِتابٍ مُبينٍ للحَقِّ!

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى عِنادَ هؤلاء المجادِلينَ في اللهِ، وتقليدَهم الأعمى، وأنَّهم إذا قيل لهم: اتَّبِعوا ما أنزَلَ اللهُ على رَسولِه، قالوا: بل نتَّبِعُ ما وَجَدْنا عليه آباءَنا! ويَرُدُّ الله تعالى عليهم، فيقولُ: أيَتَّبِعونَ آباءَهم الضَّالِّينَ ولو كان الشَّيطانُ يدعوهم إلى عذابِ النَّارِ الَّتي تَستَعِرُ بهم؟!

ثمَّ يذكُرُ الله تعالى حالَ المؤمنِ المُستسلِمِ لأمرِ الله، وحُسْنَ عاقبتِه، فيقولُ: ومَن يُخلِصْ عَمَلَه وقَصْدَه لله وحْدَه، وهو مُطيعٌ لله مُتَّبِعٌ لِشَرعِه؛ فقد تَمسَّك بأوثَقِ رِباطٍ يؤدِّي إلى الفَوزِ والنَّجاةِ، وإلى اللهِ وَحْدَه نهايةُ كُلِّ أمرٍ.

ثمَّ يقولُ الله تعالى مسَلِّيًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم: ومَن كَفَر باللهِ فلا يَحزُنْك -يا مُحمَّدُ- كُفرُه؛ إلينا وَحْدَنا مَصيرُهم، فنُخبِرُهم يومَ القيامةِ بما عَمِلوه، إنَّ اللهَ عليمٌ بما تُخفي صدورُهم، نمتِّعُهم في الدُّنيا قليلًا، ثمَّ نُلجِئُهم إلى عذابٍ شديدٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾.

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧١٧) و(٢١/ ١٧٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا فَرَغ سبحانَه مِن قصَّةِ لُقمانَ؛ رَجَع إلى توبيخِ المشركينَ، وتبكيتِهم، وإقامةِ الحُجَجِ عليهم[1].

وأيضًا لَمَّا استدَلَّ سُبحانَه بقولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ﴾ [لقمان: ١٠] على الوَحدانيَّةِ، وبيَّنَ بحِكمةِ لُقمانَ أنَّ مَعرِفةَ ذلك غيرُ مُختصَّةٍ بالنُّبوَّةِ؛ استدَلَّ ثانيًا على الوحدانيَّةِ بالنِّعَمِ، بقولِه تعالى[2]:

﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: ألم ترَوا -أيُّها النَّاسُ- أنَّ اللهَ وَحْدَه هو مَنْ ذلَّل لأجْلِكم وقيامِ مَصالِحِكم ما في السَّمواتِ مِن شَمسٍ وقَمَرٍ ونُجومٍ وسَحابٍ ورياحٍ وغَيرِها، وما في الأرضِ مِن حَيواناتٍ وزُروعٍ وأشجارٍ وأنهارٍ وبحارٍ ومعادِنَ، وغيرِ ذلك مِن منافِعَ كثيرةٍ لا تُحصى[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٤).

قال ابنُ عاشور: (والخِطابُ في ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ﴾ يجوزُ أن يكونَ لجميعِ النَّاسِ؛ مُؤمِنِهم ومُشرِكِهم؛ لأنَّه امتِنانٌ، ويجوزُ أن يكونَ لخُصوصِ المُشرِكينَ باعتبارِ أنَّه استدلالٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٤).

وممَّن ذهب إلى أنَّ الخِطابَ هنا لعُمومِ النَّاسِ: ابنُ جرير، والقرطبي، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩).

وممَّن قال بأنَّ الخِطابَ للمُشرِكين: السمرقنديُّ، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) =

كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ [النحل: ١٢، ١٣].

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾.

أي: وأتَمَّ عليكم نِعَمَه الكثيرةَ الوافيةَ، وأوسعَكم وغمَرَكم بها، ظاهِرةً كانت أو باطِنةً[1].

= (٤/ ٢٧٧)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٤، ١٧٥).

قيل: ظاهِرة على الألسُنِ قَولًا، وعلى الجوارِحِ عَمَلًا، وباطِنة في القُلوبِ اعتِقادًا ومَعرِفةً. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٨).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ من السَّلَفِ: مجاهدٌ، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٣١٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٥٢٦).

وقيل: الظَّاهِرةُ: الَّتي نعلَمُ بها، والباطِنةُ: الَّتي تخفَى علينا. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: البِقاعي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٥).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٣١٨).

قال ابنُ عاشور: (الظَّاهِرةُ: الواضِحةُ. والباطِنةُ: الخفيَّةُ، وما لا يُعلَمُ إلَّا بدليلٍ، أو لا يُعلَمُ أصلًا. وأصلُ الباطنةِ: المُستقِرَّةُ في باطِنِ الشَّيءِ، أي: داخله... فكم في بدنِ الإنسانِ وأحوالِه مِن نِعَمٍ يَعلَمُها النَّاسُ أو لا يعلمُها بعضُهم، أو لا يعلمُها إلَّا العلماءُ، أو لا يعلمُها أهلُ عصرٍ ثمَّ تنكشفُ لِمَن بعدَهم، وكِلا النَّوعَينِ أصنافٌ دينيَّةٌ ودنيويَّةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٥). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩٩).

وقيل: ﴿ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾: أي: محسوسةً ومعقولةً، ما تَعرِفونَه وما لا تَعرِفونه. وممَّن اختار ذلك في الجملةِ: البيضاويُّ، وأبو السعود، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٤)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٣). =

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾.

أي: ولكِنْ مع إسباغِ هذه النِّعَمِ على النَّاسِ، فثَمَّةَ مَن يُخاصِمُ منهم في اللهِ؛ كأن يخاصِمَ في وُجودِه، أو في توحيدِه، أو في أسمائِه وصِفاتِه، أو في دِينِه وأحكامِه وشَرْعِه، بلا عِلمٍ عِندَه، وبِغَيرِ هُدًى[1]، وبلا كِتابٍ مُبينٍ للحَقِّ[2] يُبَيِّنُ

= وقيل: الظَّاهِرةُ: هي البَيِّنةُ للعِيانِ، والظَّاهرةُ لكلِّ أحدٍ، والباطنةُ هي الَّتي لا يَعلمُها إلَّا الإنسانُ المنعَمُ عليه وحْدَه. وأيضًا الظَّاهرةُ تعني أنَّه مِن الواضحِ أنَّها نعمةٌ، وأمَّا الباطنةُ فلا يَتبيَّنُ أنَّها نعمةٌ إلَّا فيما بعدُ، مِن خلالِ معرفةِ آثارِها. قاله: ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٢١).

(١) قيل: المرادُ بقولِه: ﴿وَلَا هُدٗى﴾: أي: بغيرِ بيانٍ وحُجَّةٍ وبرهانٍ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والثعلبي، والبغوي، وابن الجوزي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٧).

وقيل: المرادُ بقولِه: ﴿وَلَا هُدٗى﴾ أي: مِن رسولٍ. وممَّن اختاره: البيضاوي، وجلال الدين المحلي، والبِقاعي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٨٧)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٣).

وقال السعدي: (إنَّه الهديُ الَّذي يَقتدي به بالمُهتدينَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩).

وقال ابن عاشور: (إنَّه التَّلَقِّي مِن عالِمٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٥).

(٢) قال الزمخشري في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ الحجِّ: (والمرادُ بالعِلمِ: العِلمُ الضَّروريُّ، وبالهدَى: الاستِدلالُ والنَّظرُ؛ لأنَّه يَهدي إلى المعرفةِ، وبالكتابِ المُنيرِ: الوحْيُ). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٦). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٢٩).

وقال الشوكاني معقبًا على هذا القولِ: (والأَولى حمْلُ العلمِ على العمومِ، وحملُ الهدَى على معناه اللُّغَويِّ، وهو الإرشادُ. والمرادُ بالكتابِ المُنيرِ هو القرآنُ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥١٩).

وقال الرازي: (هذه أمورٌ ثلاثةٌ مرتَّبةٌ: العِلمُ والهدَى والكتابُ، والعِلمُ أعلَى مِن الهدَى، والهدَى مِن الكتابِ، وبيانُه هو أنَّ العلمَ تدخُلُ فيه الأشياءُ الواضحةُ اللَّائحةُ الَّتي تُعلَمُ مِن غيرِ هدايةِ هادٍ، ثُمَّ الهدَى يدخُلُ فيه الَّذي يكونُ في كتابٍ والَّذي يكونُ مِن إلهامٍ ووحْيٍ، فقال تعالَى: =

صِحَّةَ دَعواه[١].

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٢١ ﴾.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ ﴾.

أي: وإذا قيل لأولئك المجادِلينَ في اللهِ: اتَّبِعوا ما أنزَلَ اللهُ على رَسولِه، قالوا مُعارِضينَ: لن نتَّبِعَ ذلك، وإنَّما نتَّبِعُ ما وجَدْنا عليه آباءَنا مِنَ الدِّينِ، ونقَلِّدُهم فيه؛ فإنَّهم كانوا على الحَقِّ[٢]!

﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾.

أي: أيتَّبِعونَ آباءَهم الضَّالِّينَ حتى لو كان الشَّيطانُ البَعيدُ مِنَ الرَّحمةِ، الشَّديدُ العداوةِ لهم: يَدعوهم بتَزيينِه الباطِلَ لهم إلى أن يُعذَّبوا في النَّارِ الَّتي تَستَعِرُ وتلتَهِبُ؟! فهل هذا مُوجِبٌ لاتِّباعِهم على طريقتِهم، أم أنَّ ذلك مُحَذِّرٌ من سُلوكِ سَبيلِهم[٣]؟!

﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٢٢ ﴾.

= يُجادِلُ ذلك المجادِلُ لا مِن عِلمٍ واضحٍ، ولا مِن هدًى أتاهُ مِن هادٍ، ولا مِن كتابٍ. ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّن حالَ المُشرِكِ والمجادِلِ في اللهِ، بيَّن حالَ المسلِمِ المستسلِمِ لأمرِ اللهِ[١]؛ ليَبِينَ الفَرْقُ، وتتحرَّكَ النُّفوسُ إلى طلبِ الأفضلِ[٢].

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾.

أي: ومَن يُخلِصْ عَمَلَه وقَصْدَه لله وحْدَه، وهو مع إخلاصِه مُطيعٌ لله في أمْرِه ونَهْيِه كأنَّه يَراه، ومُتَّبِعٌ لشَريعةِ نبيِّه، ومُحسِنٌ إلى خَلْقِه: فقد تَمسَّك بأَوثَقِ رِباطٍ يَتمسَّكُ به مَن يريدُ الفوزَ والنَّجاةَ مِنَ الضَّلالِ والعَذابِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢].

وقال سُبحانَه: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بارزًا يومًا للنَّاسِ، فأتاه جِبريلُ... قال: ما الإحسانُ؟ قال: أن تَعبُدَ اللهَ كأنَّك تَراه، فإنْ لم تكُنْ تَراهُ فإنَّه يَراك))[٤].

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٦، ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٣٣، ١٣٤).

(٤) رواه البخاري (٥٠) واللفظ له، ومسلم (٩).

أي وإلى اللهِ وَحْدَه تَرجِعُ نهايةُ كُلِّ أمرٍ؛ فأمورُ مَن أسلَمَ وَجهَه إلى اللهِ صائرةٌ إلى اللهِ، ومَوكولةٌ إليه؛ فهو يَنصُرُهم ويُجازيهم إذا قَدِموا عليه جزاءً حَسَنًا وافيًا[1].

﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا خلا ذَمُّ الَّذين كَفَروا عن الوعيدِ، وانتُقِل منه إلى مَدحِ المُسلِمينَ ووَعْدِهم؛ عُطِف عِنانُ الكلامِ إلى تَسليةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بتَهوينِ كُفرِهم عليه؛ لأنَّ مَرجِعَهم إلى اللهِ، فيُريهم الجزاءَ المناسِبَ لكُفرِهم[2].

﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ﴾.

أي ومَن كَفَر باللهِ وبما جاءَه مِنَ الحَقِّ، فلا يَحزُنْك -يا محمَّدُ- كُفرُه[3].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٦].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النمل: ٧٠].

﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠).

أي: إلينا وَحْدَنا مَصيرُهم، فنُخبِرُهم يومَ القيامةِ بما عَمِلوه في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والمعاصي، ونُجازيهم عليه(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

أي إنَّ اللهَ عَليمٌ بما تُخفي صُدورُهم مِنَ العَقائدِ الباطِلةِ، والإراداتِ السَّيِّئةِ، ولا تخفَى على الله منهم خافيةٌ(٢).

﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٢٤﴾.

﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا﴾.

أي: نمتِّعُ هؤلاء الكافِرينَ في الدُّنيا تمتيعًا قَليلًا(٣).

﴿ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٨).

قال ابنُ عاشور: (التَّمتيعُ: العَطاءُ الموقَّتُ، فهو إعطاءُ المتاعِ، أي: الشَّيءِ القليلِ. وقليلًا: صِفةٌ لمصدرٍ مفعولٍ مطلقٍ، أي: تمتيعًا قليلًا، وقِلَّتُه بالنِّسبةِ إلى ما أعدَّ الله للمُسلِمينَ، أو لقِلَّةِ مُدَّتِه في الدُّنيا بالنِّسبةِ إلى مُدَّةِ الآخرةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٩).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: قِلَّةُ التَّمتُّعِ في وصْفِه ونَوعِه وفي زمَنِه: البقاعي، وابن عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٤٣، ١٤٤).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: قِلَّةُ زمنِ التَّمتُّعِ: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، ويحيى بنُ سلام، وابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٣٧)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٥).



أي: ثمَّ نُورِدُهم على كُرهٍ منهم إلى عذابٍ شَديدٍ ثَقيلٍ، ونُلجِئُهم إليه[1].

كما قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ * مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

وقال سُبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ أنَّه ينبغي للمُجادِلِ أنْ يكونَ له دليلٌ مِن العقلِ أو مِن النَّقلِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فهذا العِلمُ الذَّاتيُّ الَّذي يكونُ بطريقِ العَقلِ، وقَولُه تعالى: ﴿وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ هذا العِلمُ المكتَسَبُ؛ فالهُدى مِن الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، والكتابُ المُنيرُ: القُرآنُ[2]. وذلك على أحدِ الأقوالِ في الآيةِ.

٢- قال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ وإسلامُ الوَجهِ لله يَتضَمَّنُ إخلاصَ العَمَلِ لله، والإحسانُ هو إحسانُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠).

قال البقاعي: (لا يَنقَطِعُ عنهم أصلًا، ولا يجِدونَ لهم منه مَخلَصًا مِن جهةٍ مِن جِهاتِه، فكأنَّه في شِدَّتِه وثِقَلِه جِرمٌ غَليظٌ جدًّا إذا بَرَك على شَيءٍ لا يُقدَرُ على الخَلاصِ منه). ((نظم الدرر)) (١٥/ ١٩٢).

وقال ابنُ عثيمين: (اعلَمْ أنَّ هذا الاضطرارَ يكونُ عندَ خروجِ الرُّوحِ، ويكونُ كذلك في الآخرةِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٢٧).

العَمَلِ لله، وهو فِعلُ ما أمَرَ به فيه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٣٠]؛ فإنَّ الإساءةَ في العَمَلِ الصَّالحِ تتضَمَّنُ الاستهانةَ بالأمرِ به، والاستهانةَ بنَفسِ العَمَلِ، والاستهانةَ بما وَعَدَه اللهُ مِنَ الثَّوابِ، فإذا أخلصَ العبدُ دِينَه لله، وأحسَنَ العملَ له؛ كان ممَّن أسلَمَ وَجْهَه لله وهو مُحسِنٌ؛ فكان مِنَ الَّذين لهم أجرُهم عندَ رَبِّهم ولا خَوفٌ عليهم ولا هم يَحزَنونَ[(١)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ أنَّ أوثَقَ ما يَستمسِكُ به الإنسانُ مِن نجاةٍ هو الإخلاصُ والمتابَعةُ؛ لأنَّ كلِمةَ ﴿ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ اسمُ تفضيلٍ؛ فهي مِثلُ (أوثق) في المذَكَّرِ، والإخلاصُ يؤخَذُ مِن قولِه تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾، والمتابعةُ مِن قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾[(٢)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ الإشارةُ إلى أنَّه ينبغي لِمَن أسلَمَ وجْهَه لله تعالى وهو مُحسِنٌ: أنْ يَصبِرَ؛ لأنَّ العاقبةَ له، فلا يتعجَّلْ أو يَستبعِدِ الفَرَجَ، أو يَستبعِدِ النَّصرَ؛ لأنَّ الأمورَ كلَّها تَرجِعُ إلى ربِّ العِزَّةِ سُبحانه وتعالى[(٣)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ تخويفٌ مِن مخالَفةِ الإنسانِ باطِنًا[(٤)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أنَّه ينبغي للإنسانِ مُراقبةُ اللهِ سُبحانَه وتعالى دائِمًا؛ لأنَّك إذا عَلِمْتَ بذلك وأيقَنْتَ به، أوجَبَ لك ذلك

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤١).

مُراقبةَ اللهِ عزَّ وجلَّ، والرَّغبةَ إليه، وأنْ تكونَ هِمَّتُك دائمًا في طَلَبِ ما يُرضي اللهَ سُبحانَه وتعالى[(١)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ أنَّ اللهَ جلَّ وعلا يُحِبُّ أنْ يُتمَدَّحَ بما أسْدَى إلى عِبادِه مِن النِّعَمِ[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ جوازُ استِخدامِ ما في هذا الكَونِ في السَّمواتِ والأرضِ لِمَصالحِنا؛ لأنَّه مُسَخَّرٌ لنا، فإذا كان مُسَخَّرًا لنا فلَنا أنْ ننتَفِعَ به فيما أحلَّ اللهُ تعالى لنا[(٣)].

٣- قولُه تعالى: ﴿سَخَّرَ لَكُم﴾ تنبيهٌ على الصَّنعةِ الدَّالَّةِ على الصَّانعِ مِن تَسخيرِ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ[(٤)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ تحريمُ التَّقليدِ مع ظُهورِ الحُجَّةِ أيًّا كان المُقلَّدُ؛ إذا بانت الحُجَّةُ فإنَّه لا تقليدَ، ولكنْ تُتَّبَعُ الحُجَّةُ[(٥)]. فالآيةُ حُجَّةٌ على المقلِّدينَ في تَركِهم اتِّباعَ كِتابِ رَبِّهم واتباعِ سَلَفِهم؛ لأنَّ اللهَ جلَّ جَلالُه لم يُنكِرْ منهم اتِّباعَ الآباءِ خاصَّةً مِن جهةِ النَّسَبِ، إنَّما أنكرَ تَرْكَ كِتابِه[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٣١).

(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٦٢٩).

٥- قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ هذه مُناظَرةٌ حكاها اللهُ بينَ المُسلمينَ والكُفَّارِ؛ فإنَّ الكُفَّارَ لَجَؤوا إلى تقليدِ الآباءِ، وظَنُّوا أنَّه مُنَجِّيهم لإحسانِهم ظَنَّهم بهم، فحَكَم اللهُ بيْنَهم بقَوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾، وفي مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، وفي مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ [الزخرف: ٢٤]، فأخبَرَ عن بُطلانِ هذه الحُجَّةِ، وأنَّها لا تُنجِّي من عذابِ اللهِ تعالى؛ لأنَّها تقليدُ مَن ليس عندَه عِلمٌ ولا هُدًى مِنَ الله، والمعنى: ولو كان الشَّيطانُ يَدعوهم إلى عذابِ السَّعيرِ يُقَلِّدونَهم؟! ولو كانوا لا عِلمَ عِندَهم ولا هُدًى يُقَلِّدونَهم أيضًا؟! وهذا شأنُ مَن لا غَرَضَ له في الهُدى ولا في اتِّباعِ الحَقِّ، إنْ غَرَضُه بالتَّقليدِ إلَّا دَفْعُ الحَقِّ والحُجَّةِ إذا لَزِمَته؛ لأنَّه لو كان مَقصودُه الحَقَّ لاتَّبَعَه إذا ظَهَر له، وقد جِئتُكم بأهدى ممَّا وَجَدْتُم عليه آباءَكم، فلو كُنتُم ممَّن يَتَّبِعُ الحَقَّ لاتَّبعتُم ما جِئتُكم به؛ فأنتم لم تُقَلِّدوا الآباءَ لِكَونِهم على حَقٍّ؛ فقد جِئتُكم بأهدى مِمَّا وجَدْتُموهم عليه، وإنَّما جَعلْتُم تقليدَهم جُنَّةً لكم تدفَعونَ بها الحَقَّ الَّذي جِئتُكم به(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ ذمُّ الجَدَلِ بغيرِ بُرهانٍ(٢).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ أنَّ الجَدَلَ بالعِلمِ والهُدى والدَّليلِ مِن القرآنِ لا يُذَمُّ صاحِبُه؛ لأنَّه حَقٌّ(٣).

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٧٣، ١٧٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٢٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٨- قولُ الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ لَمَّا كان ضَلالُ الجَمعِ أعجَبَ مِن ضَلالِ الواحِدِ، وكان التَّعجيبُ مِن جِدالِ الواحِدِ تَعجيبًا مِن جِدالِ الاثنَينِ فأكثَرَ مِن بابِ الأَولى- أفرَدَ أوَّلًا فقال: ﴿مَن يُجَٰدِلُ﴾، وجمَعَ بعدَ ذلك فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾ ذمُّ مَن خالفَ الحقَّ لاتِّباعِ الآباءِ[٢].

١٠- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾ أكثَرُ دياناتِ الخَلقِ إنَّما هي عاداتٌ أخَذوها عن آبائِهم وأسلافِهم، وتَقليدِهم في التَّصديقِ والتَّكذيبِ، والحُبِّ والبُغضِ، والمُوالاةِ والمُعاداةِ[٣].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أنَّ مُخالفةَ الدَّليلِ؛ للتَّقليدِ: هو مِن إجابةِ الشَّيطانِ، وفِعلُ كلِّ شَيءٍ يُوجِبُ العقوبةَ هو مِن تلبيةِ طَلَبِ الشَّيطانِ؛ لأنَّ الشَّيطانَ هو الَّذي يدعو إلى عذابِ السَّعيرِ[٤].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ التَّحذيرُ مِن وَساوِسِ الشَّيطانِ؛ لأنَّ هذا للتَّوبيخِ والإنكارِ، ووَسوسةُ الشَّيطانِ الَّتي يُلقيها في قلبِ بني آدمَ هي مِن الدَّعوةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((قاعدة في المحبة)) لابن تيمية (ص: ١٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٣١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٢).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أنَّ مَن دعا إلى ما يُوجِبُ العِقابَ فهو شبيهٌ بالشَّياطينِ، بل لنا أنْ نقولَ: إنَّه شيطانٌ! ولهذا قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في الَّذي يُمانعُ إذا مُنعَ مِن المرورِ بيْنَ يدَيِ المُصلِّي، قال: ((فإنْ أبى فلْيُقاتلْه؛ فإنَّما هو شَيطانٌ))(١)، وقال الله سبحانَه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾(٢) [الأنعام: ١١٢].

١٤- قال الله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾، التَّعبيرُ هنا بالماضي ﴿كَفَرَ﴾، وفي الأوَّلِ بالمُضارعِ ﴿يُسْلِمْ﴾؛ بِشارةٌ بدُخولِ كَثيرٍ في هذا الدِّينِ، وأنَّهم لا يَرتَدُّون بعدَ إسلامِهم، وتَرغيبٌ في الإسلامِ لكلِّ مَن كان خارجًا عنه(٣).

١٥- قال الله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ في قَولِه: ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾ أنّ كلامَه عزَّ وجلَّ بصَوتٍ مسموعٍ؛ لأنَّ ما لا يُسمعُ لا يكونُ فيه إنباءٌ، فلا إنباءَ إلَّا بصَوتٍ مسموعٍ(٤).

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ دليلٌ على أنَّ الكافرَ يُحاسَبُ على عَمَلِ القلبِ -وهو كذلك-؛ لأنَّه لولا أنه يُحاسَبُ لم يكُنْ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ كبيرُ فائدةٍ(٥).

١٧- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، (ذاتُ الصُّدورِ): هي النِّيَّاتُ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩)، ومسلم (٥٠٥) من حديث أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٤١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وأعراضُ النَّفْسِ؛ مِن نَحوِ الحِقدِ، وتَدبيرِ المَكْرِ، والكُفْرِ، ومُناسَبتُه هنا أنَّ كُفْرَ المشركينَ بَعضُه إعلانٌ، وبعضُه إسرارٌ[(١)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ هذا رُجوعٌ إلى تَعدادِ دَلائلِ الوَحدانيَّةِ وما صحِبَ ذلك مِن مِنَّةٍ على الخلْقِ؛ فالكلامُ استِئنافٌ ابتدائيٌّ عن الكلامِ السَّابقِ، ورُجوعٌ إلى ما سلَفَ في أوَّلِ السُّورةِ في قولِه تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ [لقمان: ١٠]؛ فإنَّه بعدَ الاستِدلالِ بخلْقِ السَّمواتِ والأرضِ والحيوانِ والأمطارِ، عادَ هنا الاستِدلالُ والامتِنانُ بأنْ سخَّرَ لنا ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ[(٢)]. وقيل: هو رُجوعٌ الى سَنَنِ ما سلَفَ قبْلَ قِصَّةِ لُقمانَ مِن خِطابِ المشركينَ، وتَوبيخٌ لهم على إصرارِهم على ما هُمْ عليه مع مُشاهَدتِهم لدَلائلِ التَّوحيدِ[(٣)].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تَقريرٌ أو إنكارٌ لعدَمِ الرُّؤيةِ، بتَنزيلِهم مَنزلةَ مَن لم يَرَوا آثارَ ذلك التَّسخيرِ؛ لعدَمِ انتفاعِهم بها في إثباتِ الوَحدانيَّةِ[(٤)].

- قولُه: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ﴾ في الإضافةِ إلى ضَميرِ اللهِ تَنْويهٌ بهذه النِّعَمِ[(٥)].

- والواوُ في قولِه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ﴾ واوُ الحالِ، والمعنى: قد رأيتُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٧٣، ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٤).

أنَّ اللهَ سخَّرَ لكمْ ما في السَّمواتِ، وأنعَمَ عليكم نِعَمًا ضافيةً، في حالِ أنَّ بعضَكم يُجادِلُ في وَحدانيَّةِ اللهِ، ويَتعامَى عن دَلائلِ وَحدانيَّته! وجُملةُ الحالِ هنا خبَرٌ مُستعمَلٌ في التَّعجُّبِ مِن حالِ هذا الفريقِ. ويجوزُ جَعْلُ الواوِ اعتراضيَّةً، والجُملةِ مُعترِضةً بيْنَ جُملةِ ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم﴾ وبيْنَ جُملةِ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[1] [لقمان: ٢٥].

- وقولُه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ مِن الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ؛ كأنَّه قِيل: ومِنكم، و(مِن) تَبعيضيَّةٌ[2].

- ونكَّرَ ﴿عِلْمٍ﴾؛ لِيُفيدَ السَّلبَ العامَّ لكُلِّ نَوعٍ مِن أنواعِ العِلمِ، أي: لأنَّهم لا عِلمَ لهم بشَيءٍ مِن حالِ السَّبيلِ ولا حالِ غَيرِها، عِلمًا يَستَحِقُّ إطلاقَ العِلمِ عليه، بكَونِه يفيدُ رِبحًا، أو يُبقي على رأسِ مالٍ مِن دينٍ أو دُنيا؛ فإنَّ هذا حالُ مَنِ استبدَلَ الباطِلَ بالحَقِّ، والضَّلالَ بالهُدى[3].

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾

- قولُه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ جاء بِناءُ الفِعلِ ﴿قِيلَ﴾ لِمَا لم يُسَمَّ فاعلُه؛ لأنَّه أخصَرُ؛ فلو ذُكِر الآمِرونَ لطالَ الكلامُ؛ لأنَّ الآمِرَ بذلك هو الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ومَن يَتبعُه مِنَ المؤمنينَ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ١٠٣).

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ للإنكارِ والتَّعجُّبِ مِن فَظاعةِ ضَلالِهم وعَماهم؛ بحيث يتَّبعون مَن يَدْعوهم إلى النَّارِ، وهذا ذمٌّ لهم[1]، وهذا التَّركيبُ من بَديعِ التَّراكيبِ العربيَّةِ وأعلاها إيجازًا؛ فـ(لو) للشَّرطِ، وجوابُها محذوفٌ دلَّ عليه الكلامُ السَّابقُ، تقديرُه: لاتَّبَعوهم، والمستفهَمُ عنه هو الارتباطُ الَّذي بيْنَ الشَّرْطِ وجوابِه[2].

- وعبَّر بالمضارعِ ﴿يَدْعُوهُمْ﴾؛ تصويرًا لحالِهم في ضلالِهم، وأنَّه مستمِرٌّ[3].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ هذا مُقابِلُ قولِه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [لقمان: ٢٠]، إلى قولِه: ﴿يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١]؛ فأولئك الَّذين اتَّبَعوا ما وَجَدوا آباءَهم عليه مِن الشِّركِ على غيرِ بَصيرةٍ، فوقَعُوا في العَذابِ، وهؤلاء الَّذين لم يَتمسَّكوا بدِينِ آبائِهم وأسلَمُوا للهِ لَمَّا دَعاهُم إلى الإسلامِ، فلمْ يَصُدَّهم عن اتِّباعِ الحقِّ إلْفٌ ولا تَقْديسُ آباءٍ؛ فأولئك تعلَّقوا بالأوهامِ واستَمْسَكوا بها لإرضاءِ أهوائِهم، وهؤلاء استَمْسَكوا بالحقِّ إرضاءً للدَّليلِ، وأولئك أرْضَوُا الشَّيطانَ، وهؤلاء اتَّبعوا رِضا اللهِ[4].

- قولُه: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ عُدِّيَ الفِعلُ ﴿يُسْلِمْ﴾ هنا بـ(إلى)، وقد عُدِّيَ باللَّامِ في سورةِ البقرةِ، في قولِه: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ مَن أسلَمَ للهِ أعلى دَرجةً ممَّن يُسلِمُ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٦).

اللهِ؛ لأنَّ (إلى) للغايةِ، واللَّامَ للاختِصاصِ، يقولُ القائلُ: (أسلمْتُ وَجْهي إليك)، أي: توجَّهْتُ نحوَك، ويُنبِئُ هذا عن عدَمِ الوُصولِ؛ لأنَّ التَّوجُّهَ إلى الشَّيءِ قبْلَ الوُصولِ، وقولُه: (أسلمْتُ وَجْهي لك) يُفيدُ الاختِصاصَ، ولا يُنبِئُ عن الغايةِ الَّتي تدُلُّ على المسافةِ وقَطْعِها للوُصولِ، إذا عُلِمَ هذا؛ فإنَّ في (البقرةِ) قالتْ اليهودُ والنَّصارى: ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾، فقال اللهُ ردًّا عليهم: ﴿تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾ [البقرة: ١١١]، ثمَّ بيَّن فسادَ قولِهم بقولِه تعالى: ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]، أي: أنتُمْ مع أنَّكم تترُكون اللهَ للدُّنيا، وتَولَّونَ عنه للباطِلِ، وتَشترُون بآياته ثمَنًا قليلًا؛ تَدخُلون الجنةَ، ومَن كان بكُلِّيَّته للهِ لا يَدخُلُها! هذا كلامٌ باطلٌ؛ فأورَدَ عليهم مَن أسلَمَ للهِ، ولا شكَّ أنَّ النَّقضَ بالصُّورةِ الَّتي هي ألْزَمُ أَولى، فأورَدَ عليهم المُخلِصَ الَّذي ليس له أمْرٌ إلَّا اللهُ[(١)].

- وإسلامُ الوجْهِ إلى اللهِ تَمْثيلٌ لإفرادِه تعالى بالعِبادةِ، كأنَّه لا يُقبِلُ بوَجْهِه على غيرِ اللهِ[(٢)].

- وفي تَذْييلِ الآيةِ بقَولِه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ إيماءٌ إلى وَعْدِهم بلِقاءِ الكرامةِ عندَ اللهِ في آخِرِ أمْرِهم، وهو الحياةُ الآخرةُ[(٣)].

- والتَّعريفُ في كَلِمةِ ﴿ٱلۡأُمُورِ﴾ للاستِغراقِ، وهو تَعميمٌ يُرادُ به أنَّ أُمورَ المسلمينَ -الَّتي هي مِن مَشْمولاتِ عُمومِ الأُمورِ- صائرةٌ إلى اللهِ، ومَوكولةٌ إليه؛ فجَزاؤهم بالخَيرِ مُناسِبٌ لِعَظَمةِ اللهِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وتَقديمُ قولِه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾؛ للاهتِمامِ، والتَّنبيهِ إلى أنَّ الرَّاجعَ إليه يُلاقِي جَزاءَه وافيًا(١).

وقيل: تقديمُ الخبرِ الدَّالِّ على الحصرِ أفاد أنَّه لا أحدَ يستطيعُ أنْ يُدَبِّرَ الكَونَ إلَّا اللهُ، و(إلى) تفيدُ الغايةَ، فغايةُ عاقبةِ الأمورِ إليه، لا إلى غيره(٢).

٤- قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾

- قولُه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ هوَّن عليه كُفْرَهم؛ تَسليةً له، وتَعريضًا بقِلَّةِ العِبْءِ بهم؛ لأنَّ مَرجِعَهم إلى اللهِ، فيُريهمُ الجزاءَ المناسِبَ لكُفْرِهم؛ فهو تَعريضٌ لهم بالوعيدِ(٣).

- وأفرَد الضَّميرَ باعتبارِ لفظِ (مَن)؛ لإرادةِ التَّنصيصِ على كلِّ فردٍ، فقال: ﴿كُفْرُهُۥٓ﴾(٤).

- وفي التعبيرِ هنا بالماضي ﴿كَفَرَ﴾ وفي الأوَّلِ بالمضارعِ ﴿يُسْلِمْ﴾ بشارةٌ بدخولِ كثيرٍ في هذا الدِّينِ، وأنَّهم لا يرتدُّونَ بعدَ إسلامِهم، وترغيبٌ في الإسلامِ لكلِّ مَن كان خارجًا عنه؛ فالآيةُ مِن الاحتِباكِ(٥): ذكَر الحزنَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٧)

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٩٠).

(٥) الاحتباك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطَفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

ثانيًا دليلًا على حذفِ ضِدِّه أوَّلًا، وذكَر الاستِمْساكَ أوَّلًا دليلًا على حذفِ ضدِّه ثانيًا[1].

- وجُملةُ ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ واقعةٌ مَوقِعَ التَّعليلِ للنَّهي، وهي أيضًا تَمهيدٌ لِوَعْدِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ اللهَ يَتولَّى الانتِقامَ منهم، المَدلولَ عليه بقولِه: ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾، مُفرَّعًا على جُملةِ ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾؛ كِنايةً عن المُجازاةِ؛ استُعمِلَ الإنباءُ، وأُرِيدَ لازمُه، وهو الإظهارُ[2].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تَعليلٌ لِجُملةِ ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾؛ فمَوقِعُ حَرفِ (إنَّ) هنا مُغْنٍ عن فاءِ التَّسبُّبِ[3].

٥- قوله تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ استِئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ قولَه: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ [لقمان: ٢٣] يُثيرُ في نُفوسِ السَّامعينَ سُؤالًا عن عدَمِ تَعجيلِ الجزاءِ إليهم؛ فبيَّنَ بأنَّ اللهَ يُمهِلُهم زمَنًا، ثمَّ يُوقِعُهم في عذابٍ لا يَجِدون منه مَنْجًى. وهذا الاستِئنافُ وقَعَ مُعترِضًا بيْنَ الجُمَلِ المُتعاطِفةِ[4].

- وأيضًا قولُه: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: نُمتِّعُهم زَمانًا قليلًا في دُنياهم، ثمَّ نُلجِئُهم إلى عذابٍ شديدٍ في جهنَّمَ؛ فشبَّه إلزامَهم التَّعذيبَ، وإرهاقَهم إيَّاه باضْطِرارِ المُضْطَرِّ إلى الشَّيءِ الَّذي لا يَقدِرُ على الانفكاكِ منه، والمرادُ: الشِّدَّةُ والثقلُ على المُعذَّبِ، فيَثْقُلُ عليهم العذابُ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٩٠)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٨، ١٧٩).

ثقلَ الأجرامِ الغِلاظِ، أو يُضَمُّ إلى الإحراقِ الضَّغطُ[(١)].

- وفي قولِه: ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ احتِراسٌ مِن أنْ يَغترَّ الكافرُ بأنَّ تخويلَه النِّعَمَ في الدُّنيا يُؤذِنُ برِضا اللهِ؛ فلذلك ذُكِرَ العذابُ هنا. وحرْفُ (ثمَّ) للتَّراخي الرُّتبيِّ كشأنِها في عَطفِ الجُمَلِ مِن غيرِ التِفاتٍ إلى كَونِ مَصيرِهم إلى العذابِ مُتأخِّرًا عن تَمتيعِهم بالمتاعِ القَليلِ[(٢)].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧١٧).

الآيات (٢٥-٢٧)

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

المعنى الإجماليّ:

يُبيِّنُ الله تعالى ما عليه هؤلاء الكافرونَ مِن تناقض، ويُقيمُ عليهم الحُجَّةَ، فالمنفردُ بالخَلْقِ والتَّدبيرِ هو الَّذي يَنبغي أن يُفردَ بالعبادةِ، فيقولُ: ولَئِنْ سألْتَ -يا محمَّدُ- هؤلاء الكافِرينَ: مَنِ الَّذي خلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ؟ لَيَقولُنَّ: اللهُ. قُلْ لهم: الحَمدُ لله الَّذي أظهرَ الحُجَّةَ وأقامها عليكم باعترافِكم، بل أكثَرُهم لا يَعلَمونَ!

ثُمَّ يُبيِّنُ عزَّ وجلَّ ما يدُلُّ على عظيمِ قدرتِه، فيقولُ: لله وَحْدَه ما في السَّمواتِ والأرضِ، إنَّ اللهَ هو الغنيُّ المحمودُ في ذاتِه وصفاتِه.

ثُمَّ يذكُرُ الله سبحانَه أنَّ كَلِماتِه لا نَفادَ لها، فيقولُ مقَرِّبًا هذا المعنى إلى الأذهانِ: ولو أنَّ أشجارَ الأرضِ صارت أقلامًا، وصار البَحرُ مِدادًا لها، ويَمُدُّ هذا البَحرَ سَبعةُ أبحُرٍ؛ لتُكتَبَ كلماتُ اللهِ بتلك الأقلامِ وهذا المِدادِ؛ لانتهَتْ تلك الأقلامُ، وفَنِيَ ذلك المِدادُ، ولم تَنفَدْ كلماتُ الله سُبحانَه وتعالى، إنَّ اللهَ عزيزٌ حَكيمٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ

لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

الآيةُ مُتعَلِّقةٌ بما قَبْلَها مِن وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: لَمَّا استدَلَّ اللهُ تعالى بخَلقِ السَّمَواتِ بغيرِ عَمدٍ، وبنِعَمِه الظَّاهِرةِ والباطِنةِ؛ بَيَّن أنَّهم مُعترِفونَ بذلك غيرُ مُنكِرينَ له، وهذا يقتَضي أن يكونَ الحَمدُ كُلُّه لله؛ لأنَّ خالِقَ السَّمَواتِ والأرضِ يَحتاجُ إليه كُلُّ ما في السَّمَواتِ والأرضِ، وكَوْنُ الحَمدِ كُلِّه لله يقتَضي ألَّا يُعبَدَ غَيرُه.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا سلَّى قَلبَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم بقَولِه: ﴿فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم﴾ [لقمان: ٢٣]، أي: لا تَحزَنْ على تكذيبِهم؛ فإنَّ صِدْقَك وكَذِبَهم يتبيَّنُ عن قريبٍ عندَ رُجوعِهم إلينا، قال: وليس لا يتَبَيَّنُ إلَّا ذلك اليومَ، بل هو يتبَيَّنُ قبْلَ يومِ القيامةِ؛ لأنَّهم مُعترِفونَ بأنَّ خَلْقَ السَّمَواتِ والأرضِ مِنَ اللهِ، وهذا يُصَدِّقُك في دَعوى الوحدانيَّةِ، ويُبَيِّنُ كَذِبَهم في الإشراكِ؛ فقُلِ الحَمدُ للهِ على ظُهورِ صِدقِك، وكَذِبِ مُكَذِّبيك[١].

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

أي: ولَئِنْ سألْتَ -يا محمَّدُ- هؤلاء الكافِرينَ: مَنِ الَّذي خلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ؟ لَيَقولُنَّ: اللهُ[٢].

﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠).

أي: قُلْ لهم: الحَمدُ لله الَّذي أظهَرَ الحُجَّةَ، وأقامها عليكم باعترافِكم[١].

﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾.

أي: بل أكثَرُهم لا يَعلَمونَ استِحقاقَ اللهِ تعالى للحَمدِ، ولا يَتدَبَّرونَ أنَّ الخالِقَ هو المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه[٢].

﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أثبَتَ اللهُ تعالى أنَّ له الحمدَ، وأنَّه قد أحاط بأوصافِ الكَمالِ؛ شَرَع يَستَدِلُّ على ذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٥٠، ١٥١).

ممَّن قال بالمعنى المذكورِ: ابنُ عطية، وابنُ جُزَي، وابن كثير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٥٠، ١٥١).

وقيل: إنَّ المعنى: الحَمدُ لله على خَلْقِه السَّمواتِ والأرضَ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٠، ٥٧١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٧٣٥).

وجوَّز ابنُ عثيمين ضمَّ هذا القولِ إلى القولِ الأوَّلِ؛ جمعًا بيْنَ المعنيَينِ. ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٥١).

وقيل: المرادُ: قُلِ الحَمدُ لله على ما هدانا له مِن دينِه، وليس الحَمدُ لغيرِه. وممَّن قال بهذا المعنى: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٩٥).

﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: للهِ وَحْدَه جَميعُ ما في السَّمَواتِ والأرضِ، فهو خالِقُ كُلِّ شَيءٍ ومالِكُه ومُدَبِّرُه(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

أي: إنَّ اللهَ هو الغنيُّ عمَّا سِواه، المحمودُ في ذاتِه وصفاتِه وأفعالِه، وعلى نِعَمِه، وتدبيرِ خَلْقِه(٢).

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر سبحانَه أنَّ له ما في السَّمواتِ والأرضِ؛ أتبَعه بما يدُلُّ على أنَّ له وراءَ ذلك ما لا يحيطُ به عَدَدٌ، ولا يُحصَرُ بحَدٍّ(٣).

وأيضًا لَمَّا احتجَّ على المشركينَ بما احتجَّ، بَيَّن أنَّ كلِماتِه سبحانَه لا تَنْفَدُ، وأنَّها لا نهايةَ لها(٤).

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٦).

أي: ولو فُرِضَ أنَّ كُلَّ أشجارِ الأرضِ بُرِيتْ أقلامًا، وصار البَحرُ لها مِدادًا، ويَمُدُّ البَحرَ إذا نَشِفَ سَبعةُ أبحُرٍ[١]؛ لِيُكتَبَ كلامُ اللهِ بتلك الأقلامِ والمِدادِ؛ لانتَهَت تلك الأقلامُ، وفَنِيَ ذلك المِدادُ، ولم تَنفَدْ كَلِماتُ اللهِ سُبحانَه وتعالى[٢]!

كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ غالِبٌ وقاهِرٌ لكُلِّ شَيءٍ، فلا مانعَ لِما أراد، ولا رادَّ لحُكمِه، حَكيمٌ

---

(١) قال ابنُ كثير: (إنَّما ذُكِرَت «السَّبعةُ» على وجهِ المبالَغةِ، ولم يُرِدِ الحَصرُ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧١)، ((المنار المُنيف)) لابن القيم (ص: ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٢).
قال محمد رشيد رضا: (﴿كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ ...: كَلِماتُ التَّكوينِ أنفُسُها، لا مُتعَلَّقاتُها الَّتي هي الموجوداتُ). ((تفسير المنار)) (٢/ ٩).
وقال القاسمي: (﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ أي: الَّتي أوجَد بها الكائناتِ، وسيُوجِدُ بها ما لا غايةَ لحصرِه ومُنتهاه). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٤).
وقال السمعاني: (﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ أي: كلامُ الله وعِلمُه). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٣٥).
وفي الآيةِ اختصارٌ تقديرُه: ولو أنَّ ما في الأرضِ من شجرةٍ أقلامٌ والبحرُ يَمُدُّه مِن بَعدِه سبعةُ أبحرٍ يُكتبُ بها كلامُ الله ما نَفِدَتْ كلماتُ الله. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٩١).
قال السعدي: (هذا التَّمثيلُ مِن بابِ تقريبِ المعنى، الَّذي لا يُطاقُ الوُصولُ إليه إلى الأفهامِ والأذهانِ، وإلَّا فالأشجارُ وإن تضاعفَتْ على ما ذُكِر، أضعافًا كثيرةً، والبحورُ لو امتدَّتْ بأضعافٍ مُضاعَفةٍ، فإنَّه يُتصَوَّرُ نفادُها وانقضاؤُها؛ لِكَونِها مخلوقةً. وأمَّا كلامُ الله تعالى، فلا يُتصوَّرُ نَفادُه، بل دلَّنا الدَّليلُ الشَّرعيُّ والعقليُّ على أنَّه لا نَفادَ له، ولا منتهَى). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥١).
وقال ابن تيميَّةَ: (الأبحرُ إذا قدِّرتْ مِدادًا تَنفَدُ، وكلماتُ الله لا تَنفَدُ؛ ولهذا قال أئمَّةُ السُّنَّة: لم يَزَلِ الله متكلِّمًا كيفَ شاء، وبما شاء). ((مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية)) (٣/ ٢٢).

في أفعالِه وأقوالِه وشَرْعِه، وفي تدبيرِ عِبادِه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ دَليلٌ على أنَّ المُشرِكينَ في عَهدِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يُقِرُّون برُبوبيَّةِ اللهِ تعالى[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أنَّ هذا التَّوحيدَ -توحيدَ الرُّبوبيَّةِ- لا ينفَعُ مَن أقَرَّ به فقط؛ لأنَّ هؤلاء المُشرِكينَ لم ينتَفِعوا بهذا الإقرارِ، بل لا بُدَّ مِن أنْ يُضافَ إليه توحيدُ الأُلوهيَّةِ والأسماءِ والصِّفاتِ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ نفَى سُبحانَه العِلمَ عنهم؛ لانتِفاءِ فائِدتِه، والشَّيءُ قد يُنفَى لانتِفاءِ فائِدتِه، فأكثرُ هؤلاء المعانِدينَ والمُشرِكينَ كانوا لا يَعلَمونَ؛ إمَّا للجَهلِ، وإمَّا لِعَدَمِ الانتِفاعِ بعِلمِهم[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ عطفٌ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٥١، ١٥٤).

جُملةِ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ [لقمان: ٢١]، باعتِبارِ أنَّ ما وَجَدوا عليه آباءَهم هو الإشراكُ مع اللهِ في الإلهيَّةِ، وإنْ سألَهم سائلٌ: مَن خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ؟ يَقولوا: خلَقَهنَّ اللهُ، وذلك تَسخيفٌ لِعُقولِهم الَّتي تَجمَعُ بيْنَ الإقرارِ للهِ بالخلْقِ، وبيْنَ اعتِقادِ إلهيَّةِ غيرِه[١]!

- قولُه: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ إلْزامٌ لهم على إقرارِهم بأنَّ الَّذي خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ هو اللهُ وَحْدَه، وأنَّه يجِبُ أنْ يكونَ له الحمْدُ والشُّكرُ، وألَّا يُعبَدَ معه غيرُه، يعني: لَمَّا اعترَفْتُم بأنَّ خالِقَ السَّمواتِ والأرضِ هو اللهُ، يجِبُ عليكم أنْ تَعرِفوا أنَّ العِبادةَ مُختصَّةٌ به؛ لأنَّ كلَّ فَضيلةٍ ونِعمةٍ منه لا مِن غيرِه؛ فلا تَشكُروا إلَّا إيَّاهُ؛ فيَكونُ قولُه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ تَتْميمًا للتَّبكيتِ المُستفادِ من قولِه: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[٢].

- قولُه: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، لَمَّا كان الأنسَبُ للحِكمةِ -الَّتي هي مَطلَعُ السُّورةِ- الاقتِصارَ على مَحلِّ الحاجةِ، لم يَزِدْ هنا على المُسنَدِ إليه، بخلافِ سُورةِ (الزُّخرفِ): ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٩]؛ فمَبْناها الإبانةُ[٣].

- وقولُه: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ إيغالٌ[٤]؛ لأنَّ النُّكتةَ فيه تَجهيلُهم، وأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٩٣).

(٤) الإيغال: هو استكمالُ الكلامِ قبْلَ الإتيانِ بمَقطعِه، فإذا أُريدَ الإتيانُ بذلك أُتيَ بما يُفيد معنًى زائدًا على معنى ذلك الكلام، وهو ضربان: الأول: إيغالُ تخييرٍ؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]؛ إذ إنَّ المعنى قد تمَّ بقَولِه: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا﴾، =

جَهلَهم انْتَهى إلى أنَّهم لا يَعلَمون أنَّ الحمْدَ للهِ إلْزامٌ لهم[١].

- وعبَّرَ هنا بـ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾، وفي سُورةِ (العنكبوتِ) بـ ﴿لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣]؛ تَفنُّنًا في المُخالَفةِ بيْنَ القِصَّتينِ مع اتِّحادِ المعنى[٢]، ولأنَّ العِلمَ أبلغُ درجةً مِن العَقلِ، ودَعْواهم هنا أبلَغُ لقولِهم: ﴿بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾؛ فكان الأنسَبُ نفْيَ كلٍّ بما يُناسِبُه[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ مَوقِعُ هذه الجُملةِ مِن الَّتي قبْلَها مَوقِعُ النَّتيجةِ مِن الدَّليلِ في قولِه: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ فلذلك فُصِلَت ولم تُعطَفْ؛ لأنَّها بمَنزِلةِ بدَلِ الاشتمالِ مِن الَّتي قبْلَها؛ فإنَّه لَمَّا تقرَّرَ إقرارُهم للهِ بخلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، لَزِمَهم إنتاجُ أنَّ ما في السَّمواتِ والأرضِ مِلكٌ للهِ، ومِن جُملةِ ذلك أصنامُهم. والتَّصريحُ بهذه النَّتيجةِ؛ لِقَصْدِ التَّهاوُنِ بهم في كُفْرِهم بأنَّ اللهَ يَملِكُهم، ويَملِكُ ما في السَّمواتِ والأرضِ؛ فهو غَنِيٌّ عن

= ولَمَّا احتاجَ الكلامُ إلى فاصلةٍ تُناسِبُ ما قبْلَها وما بعدَها، أتتْ هذه الفاصلةُ ﴿لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ لتُفيدَ معنًى زائدًا، لولاها لم يَحصُلْ؛ وذلك أنَّه لا يَعلَمُ أنَّ حُكمَ الله أحسَنُ مِن كلِّ حُكمٍ إلَّا مَن أيقنَ أنَّه واحدٌ حكيمٌ عادلٌ. الضَّربُ الثَّاني: إيغالُ احتياطٍ، وهو استكمالُ معنَى الكلامِ قبْلَ قَطْعِه، فإذا أُريدَ الإتيانُ بذلك أُتيَ بما يُفيد معنًى زائدًا تتمَّةً للمُبالَغةِ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [النمل: ٨٠]، ثم علم عزَّ وجلَّ أنَّ الكلامَ يحتاجُ إلى فاصلةٍ تماثِلُ مقاطعَ ما قبلَها وما بعدَها، فأتى بها مفيدةً معنًى زائدًا على معنَى الكلامِ، حيث قال: ﴿إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠]. فإنْ قيل: ما معنى مُدبرينَ وقد أغنى عنها ذِكرُ التَّولِّي؟ قيل: ذلك لا يُغني عنها؛ إذ التَّولِّي قد يكونُ بجانبٍ دونَ جانبٍ، كما يكونُ الإعراضُ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٢٢٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٤٩٩ - ٥٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٩).

عِبادتِهم، مَحمودٌ مِن غيرِهم[١].

- وضَميرُ الفَصلِ (هو) مُفادُه اختصاصُ الغِنى والحمْدِ باللهِ تعالى، وهو قصْرُ قلْبٍ[٢]، أي: ليس لآلهتِهم المَزعومةِ غِنًى، ولا تَستحِقُّ حَمْدًا[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ قدْ نُظِمَت هذه الآيةُ بإيجازٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٠).

(٢) القَصرُ أو الحَصرُ في اصطِلاحِ البلاغيِّينَ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مثل: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. وينقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقِعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثل: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على موصوفٍ هو الله وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وترَدُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ منزلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ(إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك.

يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٩ - ٢٢)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٠).

بَديع؛ إذ ابتُدِئَت بحَرفِ (لو)؛ فعُلِمَ أنَّ مَضمونَها أمْرٌ مَفروضٌ، فالمعنى: لو فُرِضَ إرادةُ اللهِ أنْ يَكتُبَ كلامَه كلَّه صُحفًا، ففُرِضَت الأشجارُ كلُّها مُقسَّمةً أقلامًا، وفُرِضَ أنْ يكونَ البحرُ مِدادًا، فكُتِبَ بتلك الأقلامِ وذلك المِدادِ؛ لَنَفِدَ البحرُ ونَفِدَتِ الأقلامُ، وما نَفِدَت كلِماتُ اللهِ في نفْسِ الأمْرِ[١].

- وفي قولِه: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٌ﴾ وحَّدَ (الشَّجرةَ)؛ لِمَا تَقرَّرَ في عِلمِ المعاني أنَّ استِغراقَ المُفرَدِ أشمَلُ، فكأنَّه قال: كلُّ شَجرةٍ شَجرةٍ، حتَّى لا يَبْقَى مِن جِنسِ الشَّجرةِ واحدةٌ إلَّا وقد بُرِيَت أقلامًا. وجمَعَ (الأقلامَ)؛ لِقَصدِ التَّكثيرِ، أي: لو أنْ يُعَدَّ كلُّ شَجرةٍ مِن الشَّجرِ أقلامًا[٢]. وقيل: ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾ بيانٌ لـ (مَا) الموصولةِ، وهو في معنى التَّمييزِ؛ فحقُّه الإفرادُ، ولذلك لم يَقُلْ: مِن أشجارٍ[٣].

- قولُه: ﴿وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ﴾ كان المُطابِقُ لِأوَّلِه أنْ يُقالَ: (وما في الأبْحُرِ مِن ماءٍ مِدادٌ)، ولكنَّه عُدِلَ عنه إلى قولِه: ﴿وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ﴾، واستَغْنى عن المِدادِ بقولِه: ﴿يَمُدُّهُۥ﴾ مِن: مَدَّ الدَّواةَ، أي: زادها مِدادًا؛ فجعَلَ البحرَ المُحيطَ بمَنزلةِ الدَّواةِ، والأبحُرَ السَّبعةَ مَملوءةً مِدادًا أبدًا لا تَنقطِعُ، وأشار بـ(لَو) إلى أنَّ البِحارَ غيرُ مَوجودةٍ، أي: لو مَدَّتَ البِحارَ المَوجودةَ سَبعةُ أبحُرٍ أُخرى، وذِكْرُ السَّبعةِ ليس للحصْرِ، بلْ للمُبالَغةِ، وإنَّما خُصَّت بالذِّكْرِ؛ لكَثرةِ ما يُعَدُّ بها؛ كالكواكبِ السَّيَّارةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨١، ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٢).

والسَّمواتِ والأَرَضينَ، وغيرِها[١]، والسَّبعةُ تُستعمَلُ في الكِنايةِ عن الكَثرةِ كَثيرًا، فليس لهذا العدَدِ مَفهومٌ، أي: والبَحرُ يمُدُّه أبحُرٌ كثيرةٌ[٢].

- قولُه: ﴿سَبۡعَةُ أَبۡحُرٍ﴾ لَمَّا كان لفظُ (سَبعة) ليس موضوعًا في الأصلِ للتَّكثيرِ، وإنْ كان مُرادًا به التَّكثيرُ؛ جاء مُميِّزُه بلَفظِ القِلَّة، وهو ﴿أَبۡحُرٍ﴾، ولم يَقُلْ: بُحورٍ -وإنْ كان لا يُرادُ به أيضًا إلَّا التَّكثيرُ-؛ لِيُناسِبَ بيْنَ اللَّفظَينِ[٣].

- وفي هذا الكلامِ مِن المُبالَغةِ في تَكثيرِ الأقلامِ والمِدادِ ما يَنْبغي أنْ يُتأمَّلَ؛ وذلك أنَّ الأشجارَ مُشتمِلٌ كلُّ واحدةٍ منها على الأغصانِ الكثيرةِ، وتلك الأغصانُ كلُّ غُصنٍ منها يُقطَعُ على قَدْرِ القلَمِ، فيَبلُغُ عَددُ الأقلامِ في التَّناهي إلى ما لا يَعلَمُ به ولا يُحيطُ إلَّا اللهُ تعالى[٤].

- إذا قيل: الكَلِماتُ في قوله تعالى: ﴿مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ جَمعُ قِلَّةٍ، والموضِعُ مَوضِعُ التَّكثيرِ لا التَّقليلِ، فهلَّا قيل: كَلِمُ اللهِ؟

والجوابُ: معناه أنَّ كَلِماتِه لا تَفي بِكتابتِها البِحارُ، فكيف بكَلِمه[٥]؟! فجمْعُ القِلَّةِ هنا أبلغُ في المقصودِ؛ لأنَّ جمْعَ القِلَّةِ إذا لم ينفَدْ بما ذُكِر من الأقلامِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٧، ٤٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٤٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠١).

لكن قال أبو حيان: (وعلى تسليم أنَّ «كَلِمات» جمعُ قِلَّةٍ، فجُموعُ القِلَّة إذا تَعرَّفَتْ بالألفِ واللَّامِ غيرِ العهديَّة، أو أُضيفَتْ؛ عَمَّتْ وصارَتْ لا تَخُصُّ القليلَ، والعامُّ مستغرِقٌ لجميعِ الأفرادِ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٢).

والمِدادِ، فكيفَ يَنفَدُ به جمعُ الكثرةِ[١]؟!

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ تَذييلٌ؛ فهو لِعِزَّتِه لا يَغلِبُه الَّذين يَزعُمون عدَمَ الحاجةِ إلى القرآنِ يَنتظِرون انْفحامَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو لحِكْمتِه لا تَنحصِرُ كَلماتُه؛ لأنَّ الحِكمةَ الحقَّ لا نِهايةَ لها[٢]. وقيل: إنَّ قولَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ كالتَّعليلِ لإثباتِ العِلمِ الواسعِ، كأنَّه قال: لا نَفادَ لعِلْمِه الواسعِ؛ لأنَّ المَعلوماتِ إمَّا كثيفةٌ تَحتاجُ في إدراكِها إلى عِلمٍ مَتينٍ، فهو عَزيزٌ لا يُعجِزُه شَيءٌ عمَّا يُريدُه، وإمَّا لطيفةٌ يَفتقِرُ لإدراكِها إلى عِلمٍ دَقيقٍ؛ فهو حكيمٌ يُدرِكُ بدَقيقِ حِكمتِه تلك المعانيَ والجواهرَ اللَّطيفةَ، فتكونُ الفاصلةُ كالتَّتميمِ لِمَا سبَقَ[٣].



(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣١٢).

الآيات (٢٨-٣٠)

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُولِجُ﴾: أي: يُدخِلُ، أو يأخُذُ منه، فيَطولُ ذلك ويَقصُرُ هذا، وأصلُ (ولج): يدُلُّ على دُخولِ شَيءٍ[(١)].

﴿وَسَخَّرَ﴾: أي: ذلَّل، والتَّسْخيرُ: سياقةٌ إلى الغَرَضِ المختصِّ قَهرًا، وأصل (سخر): يدُلُّ على استِذلالٍ[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يذكُرُ اللهُ تعالى مِن عظَمتِه وكمالِ قدرته الَّتي لا يمكِنُ أن يَتصوَّرَها العقلُ، فيقولُ: ما خَلْقُكم ولا بَعْثُكم يومَ القيامةِ إلَّا كخَلقِ نَفْسٍ واحدةٍ وبَعْثِها، إنَّ اللهَ سَميعٌ بَصيرٌ.

ثمَّ يُخبرُ سبحانَه عن بعضِ مظاهرِ قُدرتِه، وانفرادِه بالتَّصرُّفِ والتَّدبيرِ، فيقولُ: ألم ترَ -يا محمَّدُ- أنَّ اللهَ يُدخِلُ اللَّيلَ في النَّهارِ، ويُدخِلُ النَّهارَ في اللَّيلِ، وذلَّل اللهُ الشَّمسَ والقَمَرَ لِنَفعِ العبادِ، وكلٌّ منهما يجري إلى وقتٍ معلومٍ؟ وأنَّ اللهَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٢).

بما تَعمَلونَ خَبيرٌ لا يخفى عليه شَيءٌ. ذلك الَّذي تقَدَّم وَصْفُه مِن صُنعِ اللهِ: بسبَبِ أنَّه الإلهُ الحَقُّ القادِرُ على ذلك، وبأنَّ ما يدعوه المُشرِكونَ مِن دونِ اللهِ مِن الأصنامِ هو الباطِلُ، وبأنَّ اللهَ هو العَليُّ الكبيرُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى كَمالَ قُدرتِه وعِلمِه؛ ذكَرَ ما يُبطِلُ استِبعادَ المُشرِكينَ للحَشرِ[١].

وأيضًا لَمَّا خَتَم بهاتَينِ الصِّفَتينِ ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧] بعدَ إثباتِ القُدرةِ على الإبداعِ مِن غَيرِ انتِهاءٍ؛ ذكَرَ بَعضَ آثارِهما في البَعثِ الَّذي تقَدَّمَ أوَّلَ السُّورةِ وأثناءَها[٢].

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾.

أي: ما خَلْقُكم أوَّلَ مَرَّةٍ ولا بَعثُكم يومَ القيامةِ إلَّا كخَلْقِ نَفْسٍ واحِدةٍ، وبَعثِ نفْسٍ واحدةٍ؛ لكَمالِ قُدرةِ اللهِ تعالى، فالقَليلُ والكثيرُ سَواءٌ بالنِّسبةِ إلى قُدرتِه سُبحانَه[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٣).

وقال سُبحانَه: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨١، ٨٢].

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يَسمَعُ جَميعَ المَسموعاتِ، ومِن ذلك سَمعُه لِما يقولُ المُشرِكونَ ويَفتَرونَه على ربِّهم، مِن ادِّعائِهم له الشُّرَكاءَ وغَيرَ ذلك، وهو مُبصِرٌ لجَميعِ المبصَراتِ، ومِن ذلك إبصارُه ما يَعمَلُه المُشرِكونَ وغَيرُهم مِنَ الأعمالِ، وهو مُجازيهم على ذلك[1].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [لُقمان: ٢٠] على وجهِ العمومِ؛ ذكَر منها بعضَ ما هو فيهما على وجهِ الخصوصِ، بقولِه: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾، وقولِه: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ إشارةً إلى ما في السمواتِ، وقولِه بعدَ هذا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ [لُقمان: ٣١] إشارةً إلى ما في الأرضِ.

وأيضًا فإنَّ الله تعالى لَمَّا ذكَر البعثَ، وكان مِن الناسِ مَن يقولُ: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، والدَّهرُ هو اللَّيالي والأيَّامُ؛ قال الله تعالى: هذه اللَّيالي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٩).

والأيَّامُ الَّتي تَنسبونَ إليها الموتَ والحياةَ هي بقدرةِ اللهِ تعالى[١].

وأيضًا لَمَّا قرَّر الله تعالى هذه الآيَةَ: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾؛ دلَّ عليها بأمرٍ محسوسٍ، يُشاهَدُ كلَّ يومٍ مرَّتينِ، مع دَلالتِه على تسخيرِ ما في السَّمواتِ والأرضِ[٢].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾.

أي: ألَمْ تَرَ -يا مُحمَّدُ[٣]- أنَّ اللهَ يُدخِلُ اللَّيلَ في النَّهارِ، ويُدخِلُ النَّهارَ في اللَّيلِ[٤]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٩٩).

(٣) قال ابنُ عطية: (هذا تنبيهٌ خُوطِبَ به محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمرادُ به جميعُ العالَم). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٥٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٧١).

وقال ابنُ جرير: (خرَج هذا الكلامُ خِطابًا لرسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، والمَعْنيُّ به المشركون؛ وذلك أنَّه تعالى ذِكْرُه نَبَّهَ بقولِه: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ على موضعِ حُجَّتِه- مَنْ جَهِلَ عَظَمتَه، وأشرَكَ في عِبادَتِه معه غَيْرَه، يدُلُّ على ذلك قَوْلُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥١).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكور: ابنُ جرير، والبقاعي، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ أنَّه يأخُذ مِنَ اللَّيلِ فيَطولُ النَّهارُ زَمَنَ الصَّيفِ، وأنَّه يأخُذُ مِنَ النَّهارِ فيَطولُ اللَّيلُ زمَنَ الشِّتاءِ. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، ويحيى بنُ سلام، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٣٨)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٩، ٣٥٠).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلَفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٦).

قال ابنُ عثيمين بعد ذكرِ القولَين: (وكِلاهما معنًى صَحيحٌ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٧١، ١٧٢).

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾.

أي: وذلَّل اللهُ الشَّمسَ والقَمَرَ يَجريانِ؛ تَحقيقًا لمصالحِ العِبادِ ومَنافِعِهم في دينِهم ودُنياهم[1].

﴿كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾.

أي: كُلٌّ مِنَ الشَّمسِ والقَمَرِ يَجريانِ في السَّماءِ إلى وقتٍ محدَّدٍ مَعلومٍ[2].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان اللَّيلُ والنَّهارُ مَحَلَّ الأفعالِ، بيَّنَ أنَّ ما يقَعُ في هذينِ الزَّمانَينِ اللَّذَينِ هما بتصَرُّفِ اللهِ: لا يخفَى على اللهِ[3].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾.

أي: وأنَّ اللهَ بما تَعمَلونَ مِن خَيرٍ أو شَرٍّ: ذو خِبرةٍ، فلا يخفَى عليه شَيءٌ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٥).

قيل: المرادُ بالأجَلِ المسمَّى: يومُ القيامة. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: الأجَلُ المسمَّى للشَّمسِ هو آخِرُ السَّنةِ، وللقَمَرِ آخِرُ الشَّهرِ. وممَّن قال بهذا المعنى: البيضاوي، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٠٠).

قال ابنُ كثير: (﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ قيل: إلى غايةٍ محدودةٍ. وقيل: إلى يوم القيامةِ. وكِلا المعنيَين صَحيحٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٣٠).

أعمالِكم، وهو مُجازيكم عليها[١].

كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ۝٣٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ثَبَت بهذه الأوصافِ الحُسنى والأفعالِ العُلا أنْ لا مُوجِدَ بالحَقيقةِ إلَّا اللهُ؛ قال[٢]:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾.

أي: ذلك الَّذي وَصَف اللهُ تعالى مِن الأفعالِ الهائِلةِ والأوصافِ الباهِرةِ؛ كإيلاجِ اللَّيلِ في النَّهارِ، وإيلاجِ النَّهارِ في اللَّيلِ، وغَيرِ ذلك: إنَّما فَعَله بسَبَبِ أنَّه الإلهُ الحَقُّ القادِرُ على ذلك، الَّذي يَستَحِقُّ العبادةَ وحْدَه دونَ ما سِواه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٧٥).

قال القرطبي: (﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ أي: مَن قدَر على هذه الأشياءِ، فلا بدَّ مِن أن يكونَ عالِمًا بها، والعالِمُ بها عالِمٌ بأعمالِكم). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٦، ١٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٧٨).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ في الجملة: ابنُ جرير، والزمخشري، والبقاعي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المعنى: فَعَل الله تعالى ذلك لِتَعلَموا وتَستدِلُّوا به على أنَّ الله هو الحقُّ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥٠).

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾.

أي: وأنَّ ما يَدعوه المُشرِكونَ مِن دونِ اللهِ مِنَ الأصنامِ وغَيرِها: هو الباطِلُ الذي يَضمَحِلُّ فلا يبقى، ولا تنفَعُ عِبادتُه(١).

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

أي: وأنَّ اللهَ هو العَلِيُّ على كُلِّ شَيءٍ بذاتِه وصِفاتِه، الكبيرُ في ذاتِه وصفاتِه، وكُلُّ شَيءٍ دونَه مُتذَلِّلٌ مُنقادٌ، وله مُتصاغِرٌ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ المناسَبةُ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ بعدَ قَولِه سُبحانَه: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أنَّ هذا مِن بابِ التَّهديدِ، فهو سَميعٌ لأقوالِكم، بَصيرٌ بأفعالِكم؛ فإيَّاكم أنْ تُنكِروا شيئًا وأنتم تَعرِفونَ عَظَمةَ اللهِ عزَّ وجلَّ(٣)!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ تحذيرُ المرءِ مِن المُخالَفةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٧)، ((الإخنائية)) لابن تيمية (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (١٧/ ٣٥).

أي: فاحذَروا أن تُخالِفوا في أعمالِكم؛ فالله سُبحانَه وتعالى عَليمٌ بها[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ الاستِدلالُ بالمشهودِ على الموعودِ؛ فالمشهودُ الخَلْقُ، والموعودُ البعثُ، وقد قَرَنهما اللهُ سُبحانه وتعالى جميعًا؛ لإثباتِ كُلِّ واحدٍ منهما، وأنَّه كما قَدَرَ على الخَلقِ أوَّلًا، فهو قادِرٌ على البَعثِ ثانيًا[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ استِدلالٌ على ما تَضمَّنَتْه الآيةُ قبْلَها مِن كَونِ الخلْقِ الثَّاني -وهو البعثُ- في مُتناوَلِ قُدرةِ اللهِ تعالى؛ بأنَّه قادرٌ على تَغييرِ أحوالِ ما هو أعظَمُ حالًا مِن الإنسانِ، وذلك بتَغييرِ أحوالِ الأرضِ وأُفُقِها بيْنَ لَيلٍ ونَهارٍ في كلِّ يوم وليلةٍ، تَغييرًا يُشبِهُ طُرُوَّ الموتِ على الحياةِ في دُخولِ اللَّيلِ في النَّهارِ، وطُرُوَّ الحياةِ على الموتِ في دُخولِ النَّهارِ على اللَّيلِ، وبأنَّه قادرٌ على أعظَمَ مِن ذلك بما سَخَّرَه مِن سَيرِ الشَّمسِ والقمَرِ؛ فهذا الاستدلالُ على إمكانِ البعثِ بقِياسِ التَّمثيلِ[٣] بإمكانِ ما هو أعظَمُ منه من

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٧٠).

(٣) قياسُ التَّمثيلِ: هو: حَملُ جُزئيٍّ على جُزئيٍّ آخَرَ في حُكمِه؛ لاشتِراكِهما في عِلَّةِ الحُكمِ؛ لأنَّ ذلك الحُكمَ يلزمُ المُشترَكَ الكُلِّيَّ، مثلُ: النَّبيذُ حرامٌ؛ قياسًا على الخَمرِ، بجامِعِ الإسكارِ في كلٍّ منهما. وقياسُ التَّمثيلِ: هو القياسُ الأُصوليُّ (إلحاقُ فَرعٍ بأصلٍ في حُكمٍ؛ لِعلَّةٍ جامعةٍ بيْنَهما). يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ١٢٠)، ((آداب البحث والمناظرة)) للشنقيطي (٢/ ٢٩١، ٢٩٢).

شُؤونِ المخلوقاتِ، بعدَ أنِ استدَلَّ عليه بالقِياسِ الكُلِّيِّ الَّذي اقتضاهُ قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٨]؛ مِن إحاطةِ العِلْمِ الإلهيِّ بالمعلوماتِ، المُقْتضي إحاطةَ قُدرتِه بالمُمكِناتِ؛ لأنَّها جُزئيَّاتُ المعلوماتِ وفَرْعٌ عنها[(١)].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، زيادةُ قولِه: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ لهذا النِّظامِ الشَّمسيِّ أمَدًا يَعلَمُه اللهُ تعالى، فإذا انْتَهى ذلك الأمَدُ بطَلَ ذلك التَّحرُّكُ والتَّنقُّلُ، وهو الوقتُ الَّذي يُؤْذِنُ بانقراضِ العالَمِ؛ فهذا تَذكيرٌ بوَقتِ البعثِ[(٢)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أنّ كلَّ ما يَصدُرُ عن الله سبحانه وتعالى فهو حقٌّ؛ لأنه لا يصدُرُ عن الحقِّ إلَّا الحقُّ[(٣)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الحقَّ مِن أسماءِ الله الحسنَى[(٤)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾

- قولُه: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ [لقمان: ٢٣]؛ لأنَّه كُلَّما ذُكِرَ أمْرُ البَعثِ هجَسَ في نُفوسِ المشرِكينَ استِحالةُ إعادةِ الأجسامِ بعْدَ اضْمِحْلالِها؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٤، ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٨١).

(٤) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (رقْم اللقاء: ١٤٣). ويُنظر أيضًا: ((الصفات الواردة في الكتاب والسنة)) للسقاف (ص: ١٣٥).

فيَكثُرُ في القُرآنِ تَعقيبُ ذِكرِ البَعثِ بالإشارةِ إلى إمكانِه وتَقريبِه، وكانوا أيضًا يَقولونَ: إنَّ اللهَ خلَقَنا أطْوارًا؛ نُطْفةً، ثمَّ علَقةً، ثمَّ مُضغةً، ثمَّ لَحمًا وعَظْمًا؛ فكيف يَبعَثُنا خلْقًا جديدًا في ساعةٍ واحدةٍ؟! وكيف يُحيي جميعَ الأُمَمِ والأجيالِ الَّتي تَضمَّنَتْها الأرضُ في القُرونِ الكثيرةِ[(١)]؟!

- وفي قولِه: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ؛ لِقَصْدِ مُجابهَتِهم بالاستِدلالِ المُفحِمِ[(٢)].

- وفي قولِه: ﴿كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ حذْفُ مُضافٍ دَلَّ عليه ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ﴾، والتَّقديرُ: إلَّا كخَلْقِ وبَعْثِ نفْسٍ واحدةٍ؛ وذلك إيجازٌ[(٣)].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ إمَّا واقعةٌ مَوقعَ التَّعليلِ لِكَمالِ القُدرةِ على ذلك الخلْقِ العجيبِ، استِدلالًا بإحاطةِ عِلْمِه تعالى بالأشياءِ والأسبابِ، وتَفاصيلِها وجُزئيَّاتِها، ومِن شأْنِ العالِمِ أنْ يَتصرَّفَ في المَعلوماتِ كما يَشاءُ؛ لأنَّ العجْزَ عن إيجادِ بعضِ ما تَتوجَّهُ إليه الإرادةُ إنَّما يَتأتَّى مِن خَفاءِ السَّببِ المُوصِلِ إلى إيجادِه، وإذ قد كان المُشرِكون -أو عُقلاؤهم- يُسَلِّمون أنَّ اللهَ يَعلَمُ كلَّ شيءٍ، جعَلَ تَسليمَهم ذلك وَسيلةً إلى إقناعِهم بقُدرتِه تعالى على كلِّ شَيءٍ. وإمَّا واقعةٌ مَوقعَ الاستِئنافِ البَيانيِّ؛ لِمَا يَنشَأُ عن الإخبارِ بأنَّ بَعْثَهم كنَفْسٍ مِن تَعجُّبِ فَريقٍ ممَّن أَسَرُّوا إنكارَ البَعثِ في نُفوسِهم، الَّذين أومَأَ إليهم قولُه آنفًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [لقمان: ٢٣]؛ ولأجْلِ هذا لم يقُلْ: إنَّ اللهَ عليمٌ قديرٌ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٢- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

- قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ ...﴾ الرُّؤيةُ علميَّةٌ، والاستفهامُ لإنكارِ عَدمِ الرُّؤيةِ بتَنزيلِ العالِمينَ مَنزلةَ غيرِ العالمينَ؛ لِعَدمِ انتفاعِهم بعِلْمِهم[1].

- في قولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالمُخالَفةِ في الصِّيغةِ؛ ففي قولِه: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ مُخالَفةٌ في الصِّيغةِ بيْن (سخَّر) المعطوفِ (ويُولِجُ) المعطوفِ عليه؛ لأنَّ إيلاجَ أحَدِ المَلَويْنِ (اللَّيل، النَّهار) في الآخَرِ مُتجدِّدٌ كلَّ حِينٍ، فعبَّرَ عنه بالصِّيغةِ المُتجدِّدةِ حِينًا بعدَ حِينٍ، وأمَّا تَسخيرُ النَّيِّرَيْنِ (الشَّمْس، والقَمَر) فهو أمْرٌ لا يَتجدَّدُ ولا يَتعدَّدُ، بل هو دَيمومةٌ مُتَّصلةٌ مُتتابِعةٌ، فعبَّرَ عنه بالصِّيغةِ الماضيةِ الكائنة، وإنَّما التَّعدُّدُ والتَّجدُّدُ في آثارِه، وقد أُشِيرَ إلى ذلك؛ حيثُ قِيل: ﴿كُلٌّ يَجْرِىٓ﴾، أي: بحسَبِ حَركتِه الخاصَّةِ وحَركَتِه القَسريَّةِ على المَداراتِ اليوميَّةِ المُتخالِفةِ المُتعدِّدةِ حسَبَ تَعدُّدِ الأيَّام جَرْيًا مُستمِرًّا[2].

- والابتداءُ باللَّيلِ؛ لأنَّ أمْرَه أعجَبُ؛ كيف تَغْشى ظُلمتُه تلك الأنوارَ النَّهاريَّةَ؟! والجمْعُ بيْن إيلاجِ اللَّيلِ وإيلاجِ النهارِ لتَشخيصِ تَمامِ القُدرةِ؛ بحيث لا تُلازِمُ عمَلًا مُتماثِلًا[3].

- وقدَّمَ الشَّمسَ على القَمَرِ، مع تقدُّمِ اللَّيلِ -الَّذي فيه سُلطانُ القَمَرِ- على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٥).

النَّهارِ الَّذي فيه سُلطانُ الشَّمسِ؛ وذلك أنَّ تَقديمَ اللَّيلِ كان لأنَّ الأنفُسَ تَطلُبُ سبَبَه أكثَرَ مِمَّا تَطلُبُ سَبَبَ النَّهارِ، وهاهنا كذلك؛ لأنَّ الشَّمسَ لَمَّا كانت أكبَرَ وأعظَمَ، كانت أعجَبَ، والنَّفْسُ تَطلُبُ سَبَبَ الأمرِ العَجيبِ أكثَرَ مِمَّا تَطلُبُ سَبَبَ الأمرِ الَّذي لا يَكونُ عَجيبًا[1].

- وجُملةُ ﴿كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ -على تَقديرِ عُمومِ الخِطابِ لكلِّ أحَدٍ- اعتِراضٌ بيْنَ المَعطوفينِ؛ لبَيانِ الواقعِ بطَريقِ الاستِطرادِ. وعلى تَقديرِ اختصاصِ الرُّؤيةِ به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يَجوزُ أنْ يكونَ حالًا مِن الشَّمسِ والقَمرِ؛ فإنَّ جَرَيانَهما إلى يوم القيامةِ مِن جُملةِ ما في حَيِّزِ رُؤيتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وقد جُعِل جَرَيانُهما عِبارةً عن حَرَكتِهما الخاصَّةِ بهما في فَلَكِهما، والأَجَلُ المُسمَّى عن مُنْتهى دَورتِهما، وجُعِلَ مُدَّةُ الجَرَيانِ للشَّمسِ سَنةً، وللقَمَرِ شَهرًا -على قولٍ-؛ فالجُملةُ حينَئذٍ بَيانٌ لِحُكمِ تَسخيرِهما، وتَنبيهٌ على كَيفيَّةِ إيلاجِ أحَدِ المَلَوينِ في الآخَرِ، وكونُ ذلك بحسَبِ اختلافِ جَرَيانِ الشَّمسِ على مَداراتِها اليوميَّةِ[2].

- والجَرْيُ: المَشْيُ السَّريعُ، عُبِّرَ به عن انتِقالِ الشَّمسِ في فَلَكِها، وانتقالِ الأرضِ حوْلَ الشَّمسِ، وانتقالِ القَمرِ حوْلَ الأرضِ؛ تَشبيهًا بالمَشْيِ السَّريعِ؛ لأجْلِ شُسوعِ المسافاتِ الَّتي تُقطَعُ في خلالِ ذلك[3].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾، وقال في سُورةِ (فاطرٍ) و(الزُّمَرِ): ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٥).

[فاطر: ١٣] [الزمر: ٥]؛ فاختصَّ ما في سُورةِ (لُقمانَ) بقولِه: ﴿يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾، وما سِواهُ إنَّما هو: ﴿يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾؛ وذلك لأنَّ معنى قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾: لِبُلوغِ أجَلٍ، ومعنى قولِه: ﴿يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ﴾ معناه: لا يَزالُ كلٌّ مِن الشَّمسِ والقمَرِ جاريًا حتَّى يَنتهيَ إلى آخِرِ وقْتِ جَرْيِه المُسمَّى له، وإنَّما خصَّ ما في سُورةِ لُقمانَ بـ(إلى) الَّتي للانتهاءِ -واللَّامُ تُؤدِّي معناها-؛ لأنَّها تدُلُّ على أنَّ جَرْيَها لِبُلوغِ الأجَلِ المُسمَّى؛ لأنَّ الآياتِ الَّتي تكتنِفُها آياتٌ مُنبِّهةٌ على النِّهايةِ والحشرِ والإعادةِ؛ فقَبْلَها: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وبعدَها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣]، فكان المعنى: كلٌّ يَجْري إلى ذلك الوقتِ.

والمواضعُ الَّتي ذُكِرَت فيها اللَّامُ إنَّما هي في الإخبارِ عن ابتداءِ الخلْقِ، وهو قولُه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ * خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ [الزمر: ٥، ٦]؛ فالآياتُ التي تكتنِفُها في ذِكرِ ابتداءِ الخلْقِ، وابتداءِ جَرْيِ الكواكبِ، وهي إذْ ذاك تَجْري لِبُلوغِ الغايةِ. وكذلك قولُه في سُورةِ (فاطرٍ) إنَّما هو في ذِكرِ النِّعَمِ الَّتي ابتدأَ بها في البَرِّ والبَحرِ؛ إذ يقولُ: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ﴾ إلى قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٢، ١٣]؛ فاختصَّ ما عندَ ذِكرِ النِّهايةِ بحَرْفِها (إلى)، واختصَّ ما عِندَ الابتداءِ بالحرْفِ الدَّالِّ على العِلَّةِ الَّتي يقَعُ الفِعلُ مِن أجْلِها (اللَّام)(١). ....

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٠٥٦-١٠٥٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٢)، ((فتح =

وقيل غيرُ ذلك[(١)].

- قولُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عَطْفٌ على ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾؛ فهو داخلٌ في الاستِفهامِ الإنكاريِّ بتَنزيلِ العالِمِ مَنزلةَ غيرِه؛ لِعَدمِ جَرْيِه على مُوجَبِ العِلمِ؛ فهم يَعلَمون أنَّ اللهَ خَبيرٌ بما يَعمَلون، ولا يَجْرون على ما يَقْتضيهِ هذا العِلمُ في شَيءٍ مِن أحوالِهم[(٢)].

- وقدَّمَ الجارَّ؛ إشارةً إلى تمامِ عِلمِه بالأعمالِ[(٣)].

٣- قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ مَوقِعُ هذه الجُملةِ مَوقِعُ النَّتيجةِ مِن الدَّليلِ؛ فإنَّهم مُعترِفون بأنَّ اللهَ هو فاعلُ ذلك، فلَزِمَهم الدَّليلُ ونَتيجتُه، والمعنى: أنَّ إيلاجَ اللَّيلِ في النَّهارِ، وعكْسَه، وتَسخيرَ الشَّمسِ والقمَرِ؛ مُسبَّبٌ عن انفرادِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ؛ فالباءُ للسَّببيةِ في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ ...﴾[(٤)].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما تُلِيَ مِن الآياتِ الكَريمةِ، وما فيه مِن مَعنى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ مَنزلتِها في الفضْلِ[(٥)].

- وأيضًا أتى باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ بعدَ إجْراءِ تلك الصِّفاتِ على الذَّاتِ المُتميِّزةِ؛ لِيُؤذِنَ بأنَّ تلك الصِّفاتِ إنَّما تَثبُتُ له لأنَّه هو الإلهُ الثَّابتُ الإلهيَّةُ؛ لِمَا تَقرَّرَ أنَّ مَن كان إلهًا كان قادرًا خالِقًا عالِمًا، مَعبودًا رازقًا؛ فهذه الآيةُ

= الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٨، ٤٤٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٦٦).

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٤٠٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٦).

كالفَذْلَكةِ[١] لتلك الآياتِ مِن لَدُنْ قولِه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [لقمان: ٢٠]، وقولِه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [لقمان: ٢٥]، وكلٌّ مِن فواصلِها -نحوُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾- مُتضمِّنةٌ لأسرارٍ لا يَعلَمُ كُنْهَها إلَّا اللَّطيفُ الخبيرُ، وكما أنَّ قولَه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ كالمُجمَلِ لتلك المُفصَّلِ، كذلك قَرينتُها -أي: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾- فَذْلَكةٌ لتلك الفواصلِ[٢].

- قولُه: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ التَّصريحُ بذلك -مع أنَّ الدَّلالةَ على اختصاصِ حَقِّيَّةِ الإلهيَّةِ به تعالى مُستتبِعةٌ للدَّلالةِ على بُطلانِ إلهيَّةِ ما عَداهُ-؛ لإبرازِ كَمالِ الاعتناءِ بأمْرِ التَّوحيدِ، وللإيذانِ بأنَّ الدَّلالةَ على بُطلانِ ما ذُكِرَ ليستْ بطَريقِ الاستتباعِ فقطْ، بلْ بطَريقِ الاستقلالِ أيضًا[٣].

- وضَميرُ الفصْلِ ﴿هُوَ﴾ في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ مُفيدٌ للاختصاصِ، أي: هو الحقُّ، لا أصنامُكم ولا غيرُها ممَّا يُدَّعى إلهيَّتُه غَيرَه تعالى. ولم يُؤْتَ بضَميرِ الفصْلِ في الشِّقِّ الثَّاني ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾؛ لأنَّ ما يَدْعُونه مِن دُونِ اللهِ مِن أصنامِهم يَشترِكُ معها في أنَّه باطلٌ، وذكَرَ ضَميرَ الفَصلِ في نَظيرِه مِن سُورةِ (الحجِّ) ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]؛ لاقتضاءِ المَقامِ هناك ذلك[٤].

---

(١) تقدم تعريفه (ص: ١١٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٦، ١٨٧).

- قولُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ واقعٌ مَوقِعَ الفَذْلكةِ لِمَا تَقدَّمَ مِن دَلالةِ إيلاجِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وتَسخيرِ الشَّمسِ والقمَرِ؛ لأنَّه إذا استقَرَّ أنَّ ما ذُكِرَ دالٌّ على أنَّ اللهَ هو الحقُّ بالإلهيَّةِ، ودالٌّ على أنَّ ما يَدْعُونه باطلٌ؛ ثبَتَ أنَّه العليُّ الكبيرُ دونَ أصنامِهم، وقد اجتُلِبَ ضَميرُ الفصْلِ هنا ﴿هُوَ﴾؛ للدَّلالةِ على الاختصاصِ، وسَلْبِ العُلوِّ والعَظَمةِ عن أصنامِهم[1].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٧).

الآيتان (٣١-٣٢)

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿كَالظُّلَلِ﴾: أي: كقِطَعِ السَّحابِ أو كالجِبالِ، وأصلُ (ظلل): يدُلُّ على سَترِ شَيءٍ لِشَيءٍ[١].

﴿مُقْتَصِدٌ﴾: المقتصِدُ: الفاعِلُ للقَصدِ، وهو التَّوسُّطُ بينَ طرَفَينِ، وقصَدَ في الأمرِ: إذا لم يجاوِزْ فيه الحدَّ، ورضيَ بالتَّوسُّطِ، وأصلُ معنى الاقتصادِ: التَّوسُّطُ في الأمرِ، وأصلُ (قصد) هنا: يدُلُّ على وصل يدل إتيانِ شَيءٍ، وأَمِّه[٢].

﴿خَتَّارٍ﴾: أي: غَدَّار، والخَترُ أقبَحُ الغَدرِ، وأصلُ (ختر): يدُلُّ على توانٍ وفُتورٍ؛ وذلك أنَّه إذا خَتَرَ فقدْ قَعَدَ عن الوَفاءِ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يذكُرُ الله سبحانَه نعمةً عظيمةً امتنَّ بها على العبادِ مِن جملةِ النِّعَمِ الَّتي لا تُحصَى، فيقولُ: ألم تَرَ -يا محمَّدُ- أنَّ السُّفُنَ تجري في البَحرِ بتَسخيرِ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٦١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٤/ ٢٧٢)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٧).

تعالى؛ نِعمةً منه على عِبادِه؛ لِيُرِيَكم بعضَ آياتِه، إنَّ في ذلك لَدَلالاتٍ لكُلِّ صَبَّارٍ شَكورٍ لله على نِعَمِه.

ثُمَّ يُبيِّنُ تعالى بعضَ أحوالِ الناسِ عندَما تُصيبُهم الشَّدائدُ وهم في البحرِ، فيقولُ: وإذا غطَّى أولئك المُشرِكينَ عندَ رُكوبِهم البَحرَ مَوجٌ كالجِبالِ أو الغَمامِ، وخافوا الغَرَقَ دَعَوُا اللهَ وَحْدَه أن يُنَجِّيَهم، ولم يَستغيثوا بغَيرِه، فلما نجَّاهم اللهُ مِن الغَرَقِ، وأوصَلَهم إلى البَرِّ فمنهم مُقتَصِدٌ، وما يَكفُرُ بأدِلَّتِنا ويُنكِرُها إلَّا كلُّ غدَّارٍ جَحودٍ نِعَمَ اللهِ عليه.

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى آيةً سَماويَّةً بقَولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [لقمان: ٢٩]، وأشار إلى السَّبَبِ والمُسَبَّبِ؛ ذكَرَ آيةً أرضيَّةً، وأشارَ إلى السَّبَبِ والمُسبَّبِ؛ فقَولُه: ﴿أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي﴾ [لقمان: ٣١] إشارةٌ إلى المسبَّبِ، وقَولُه: ﴿بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى السَّبَبِ، أي: إلى الرِّيحِ الَّتي هي بأمرِ اللهِ ﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾ يعني: يُريَكم بإجرائِها بنِعمتِه مِن آياتِه، أي: بَعضَ آياتِه(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى تَسخيرَ النَّيِّرَينِ، وامتِنانَه بذلك علينا؛ ذكَرَ أيضًا مَن سخَّرَ الفُلْكَ مِن العالَمِ الأرضيِّ؛ بجامِعِ ما اشترَكا فيه مِنَ الجَرَيانِ(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٣٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٣).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ألم تَرَ -يا محمَّدُ- أنَّ السُّفُنَ تَجري في البَحرِ بلُطفِ اللهِ وتَسخيرِه؛ نعمةً منه على عِبادِه(١).

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الحج: ٦٥].

﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾.

أي: لِيُريَكم اللهُ بعضَ آياتِه، فتَستَدِلُّوا بها على وُجودِه ووَحدانيَّتِه، وعِلمِه وقُدرتِه، وغيرِ ذلك(٢).

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا تَقَدَّم ذِكرُ جَرْيِ الفُلكِ فِي البحرِ، وكان في ذلك ما لا يخفَى على راكِبِه مِنَ الخَوفِ، وتَقَدَّم ذِكرُ النِّعمةِ؛ ناسَبَ الختمُ بِالصَّبرِ على ما يُحْذَرُ، وبالشُّكرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢).
قال ابن عطية: (المخاطَبُ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمرادُ النَّاسُ أجمَعُ... وقَولُه: ﴿بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ يحتَمِلُ أن يريدَ ما تحمِلُه السُّفُنُ مِنَ الطَّعامِ والأرزاقِ والتِّجاراتِ؛ فالباءُ للإلصاقِ، ويحتَمِلُ أن يريدَ الرِّيحَ وتَسخيرَ اللهِ البَحرَ، ونحوَ هذا؛ فالباءُ باءُ السَّبَبِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٥٥، ٣٥٦).
قال ابن عثيمين: (والآيةُ تحتَمِلُ المعنيَين بدُونِ مُناقَضةٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٨٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ١٨٤).

على ما أنْعَمَ به تعالَى[١].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

أي: إنَّ في جَريِ الفُلكِ في البَحرِ لَعَلاماتٍ ودَلالاتٍ واضِحاتٍ على ما له سُبحانَه مِن صِفاتِ الكَمالِ، يَستَدِلُّ بها كُلُّ كثيرِ الصَّبرِ على طاعةِ اللهِ، وعلى أقدارِه المؤلِمةِ، وعن معاصيه؛ وكُلُّ كثيرِ الشُّكرِ للهِ على نِعَمِه[٢].

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢)﴾.

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

أي: وإذا علا المُشرِكينَ عندَ رُكوبِهم البَحرَ مَوجٌ يُغَطِّيهم، كالجبالِ أو الغَمامِ الَّذي يُظِلُّ مَن تحتَه، فخافوا الغَرَقَ والهلاكَ: دَعَوُا اللهَ وَحْدَه أن يُنَجِّيَهم، ولم يَستَغيثوا بغَيرِه[٣].

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾.

أي: فلمَّا نجَّاهم اللهُ مِنَ الغرَقِ، وأوصَلَهم إلى البَرِّ، فمنهم مُقتَصِدٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ١٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن =

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾.

أي: وما يَكفُرُ بأدِلَّتِنا وحُجَجِنا، ويُكَذِّبُ بها ويُنكِرُها[١] إلَّا كلُّ غدَّارٍ شَديدِ الغَدرِ بعَهدِه، جَحودٍ عَظيمِ الجَحدِ لنِعَمِ رَبِّه؛ فهو يَنقُضُ ما عاهَدَ اللهَ عليه، ولا يَشكُرُه على ما آتاه مِن نِعَمِه[٢].

= عاشور)) (٢١/ ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ١٨٨).

قيل: المرادُ: فمنهم متوَسِّطٌ في الكُفرِ والظُّلم، خَفَضَ مِن غُلَوائِه، وانزجَرَ بعضَ الانزجار، فلم يُسرِفْ في كُفرِه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزمخشريُّ، والرسعني، وابن عاشور، وذكره ابنُ جُزي احتِمالًا. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٣)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤٠).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: مُجاهِدٌ، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٣٢٢).

وقيل: المرادُ بالمُقتَصِدِ: المتوسِّطُ في إيمانِه، فلمْ يَقُمْ بشُكرِ الله على وَجهِ الكَمالِ؛ فيَكونُ ذلك مِن بابِ الإنكارِ على مَن شاهَدَ تلك الأهوالَ والأمورَ العِظامَ والآياتِ الباهراتِ في البَحرِ، ثمَّ بعدَما أنعَمَ عليه مِن الخلاصِ كان ينبغي أن يقابِلَ ذلك بالعَمَلِ التَّامِّ، والدُّؤوبِ في العبادةِ، والمُبادَرةِ إلى الخَيراتِ، فمَنِ اقتصَدَ بعدَ ذلك كان مُقَصِّرًا والحالةُ هذه. ذكر هذا المعنى احتِمالًا: ابنُ جُزَي، وابن كثير، وهو ظاهرُ اختيارِ السعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢).

وقيل: المرادُ: عَدْلٌ مُوفٍ في البَرِّ بما عاهَدَ الله عليه في البحرِ مِنَ التَّوحيدِ وإخلاصِ الدِّينِ لله، يعني: ثبَتَ على إيمانِه. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمعانيُّ، والبغوي، والخازن، والعليمي، والشربيني، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٣٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٩٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٠٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣١٦)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨١).

(١) قال القرطبي: (وجَحْدُ الآياتِ: إنكارُ أعيانِها، والجَحدُ بالآياتِ: إنكارُ دَلائِلِها). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨١). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ١٨٩). =

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، فالمؤمنُ متذكِّرٌ عندَ الشِّدَّةِ والبلاءِ، وعندَ النِّعَمِ والآلاءِ، فيَصبرُ إذا أصابَتْه نِقمةٌ، ويَشكُرُ إذا أتَتْه نعمةٌ[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ التَّحذيرُ مِنَ الغَدرِ؛ لأنَّه قد يكونُ سَببًا في الكُفرِ والجَحْدِ؛ ولهذا قال الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((أربَعٌ مَن كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا))، وذكَر منها: ((إذا عَاهَدَ غَدَرَ))[2]، فإذا كان لا يَجحَدُ بالآياتِ إلَّا الغَدَّارُ، فمعنى ذلك أنَّ الغَدْرَ يكونُ سَببًا للجَحْدِ والكُفرِ[3].

= قيل: المرادُ أنَّ نِعَمَ الله تعالى على العِبادِ كأنَّها عُهودٌ ومِنَنٌ يَلزَمُ عنها أداءُ شُكرِها، فمَن كفَر ذلك وجحَدَ به فكأنَّه ختَرَ (غدَر) وخانَ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٥٥، ٣٥٦).

وقيل: المرادُ أنَّ كلَّ إنسانٍ قد عاهَد ربَّه بمُقتضَى فِطرَتِه أن يُؤمِنَ به، فإذا كفَر صار غادرًا لم يَفِ بالعهد. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ١٩٠).

وقيل: المرادُ: نقْضُ العهدِ الفِطريِّ، ونقْضُ عقدِ العزيمةِ وقتَ الهَولِ البَحْريِّ، ورفْضُ ما كان عليه في البحرِ. وممَّن اختاره: القنوجي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير القنوجي)) (١٠/ ٣٠١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨) من حديث عبدِ الله بنِ عَمرٍو رضي الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٩٥).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- الإيمانُ نِصْفانِ: نِصفٌ صَبْرٌ، ونِصفٌ شُكْرٌ؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾[١].

٢- في ذِكْرِ «الصَّبَّارِ الشَّكورِ» بعدَ ذِكرِ أنَّ ﴿ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ﴾ مُناسَبةٌ ظاهِرةٌ جدًّا؛ لأنَّ هذه الفُلكَ الَّتي تجري في البَحرِ: تارةً تَعصِفُ بها الأمواجُ، ويَتأذَّى الإنسانُ بذلك، ورُبَّما يتضرَّرُ؛ فيُقابِلُ ذلك بالصَّبرِ، وقد يكونُ الأمرُ بالعَكسِ فيَشمَلُ العُبورَ على البَحرِ، ويَحصُلُ بذلك خيرٌ كثيرٌ؛ فيُقابِلُ ذلك بالشُّكرِ، فلمَّا كانت هذه السُّفُنُ بها سَرَّاءُ وضَرَّاءُ، خَتَمَ اللهُ تعالى الآيةَ بقَولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ﴾ إثباتُ رِسالةِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، لأنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ما رَكِبَ البَحرَ حتَّى يَعرِفَ هذه الأمواجَ، وأنَّها كالظُّلَلِ! ولكِنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عَلِمَ بها مِن خَبَرِ اللهِ سُبحانَه وتعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ﴾[٣].

٤- في قَولِه تعالى عن المُشرِكينَ: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ أنَّهم يُقِرُّونَ بالرُّبوبيَّةِ؛ فهم لا يَدْعونَه إلَّا لأنَّهم يَعلَمونَ أنَّه قادِرٌ على إنقاذِهم؛ وإلَّا فلا يُمكِنُ أن يَدْعُوا مَن لا يَعتَقِدونَ أنَّه قادِرٌ[٤]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ﴾ إجابةُ

---

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩١).

دَعوةِ المُضْطَرِّ ولو كان كافِرًا؛ فهؤلاء أجاب اللهُ تعالى دَعوتَهم مع عِلمِه بأنَّهم كُفَّارٌ وسيَكفُرونَ[(١)]. فالله تعالى ضَمِن إجابةَ المضطرِّ إذا دعاه، وأخبَر بذلك عن نفْسِه، والسَّببُ في ذلك أنَّ الضرورةَ إليه باللجأ ينشأُ عن الإخلاصِ، وقطعِ القلبِ عمَّا سواه، وللإخلاصِ عنده سبحانه موقعٌ وذمةٌ، وُجِد من مؤمنٍ أو كافرٍ، طائعٍ أو فاجرٍ، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢]، وقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] فأجابهم عندَ ضرورتِهم ووقوعِ إخلاصِهم، مع علمِه أنَّهم يعودون إلى شركِهم وكفرِهم[(٢)].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ استِئنافٌ، جاء على سَنَنِ الاستِئنافينِ اللَّذَينِ قبْلَه في قولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [لقمان: ٢٠]، وقولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ [لقمان: ٢٩]، وجِيءَ بها غيرَ مُتعاطِفةٍ؛ لئلَّا يَتوهَّمَ السَّامعُ أنَّ العَطْفَ على ما تَخلَّلَ بيْنَها، وجاء هذا الاستئنافُ الثَّالثُ دليلًا ثالثًا على عَظيمِ حِكمةِ اللهِ في نِظامِ هذا العالَمِ، وتَوفيقِ البَشرِ للانتفاعِ بما هيَّأَه اللهُ لانتفاعِهم به، فلمَّا أتَى الاستئنافانِ الأوَّلانِ على دَلائلِ صُنْعِ اللهِ في السَّمواتِ والأرضِ، جاء في هذا الثَّالثِ دليلٌ على بَديعِ صُنْعِ اللهِ بخَلْقِ البَحرِ، وتَيسيرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٣).

الانتفاعِ به في إقامةِ نِظامِ المُجتمَعِ البَشَريِّ[١].

- قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾ الهمزةُ في قولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ للاستفهامِ الإنكاريِّ التَّقريريِّ[٢].

- ووَصَفَ هذا الجَرْيَ بمُلابَسةِ نِعمةِ اللهِ؛ لأنَّه خلَقَ البحرَ على هذه الصِّفةِ العظيمةِ مُيسَّرًا للانتفاعِ بالأسفارِ فيه حينَ لا تُغْني طُرقُ البَرِّ في التَّنقُّلِ غَناءً؛ فجعَلَهُ قابلًا لِحَمْلِ المَراكبِ العظيمةِ، وألْهَمَ الإنسانَ لِصُنْعِ تلك المَراكبِ على كَيفيَّةٍ تَحْفَظُها مِن الغرَقِ في عُبابِ البَحرِ، وعصَمَهم مِن تَوالي الرِّياحِ والمَوجِ في أسفارِهم، وهَداهُم إلى الحِيلةِ في مُصانَعتِها إذا طرَأَت حتَّى تَنجلِيَ[٣].

- ويَتعلَّقُ ﴿لِيُرِيَكُمْ﴾ بـ﴿تَجْرِي﴾، أي: تَجْري في البَحرِ جَرْيًا، عِلَّةُ خَلْقِه أنْ يُرِيَكم اللهُ بعضَ آياتِه، أي: آياتِه لكم، فلمْ يَذكُرْ مُتعلَّقَ الآياتِ؛ لِظُهورِه مِن قولِه: ﴿لِيُرِيَكُمْ﴾[٤].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ لها مَوقعُ التَّعليلِ لِجُملةِ ﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾. ولها مَوقعُ الاستئنافِ البَيانيِّ؛ إذ يَخطُرُ ببالِ السَّامعِ أنْ يَسأَلَ: كيف لم يَهتَدِ المشرِكون بهذه الآياتِ؟ فأُفِيدَ أنَّ الَّذي يَنتفِعُ بدَلالتِها على مَدلولِها هو كلُّ صبَّارٍ شَكورٍ؛ ثَناءً على هذا الفريقِ صَريحًا،

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٨، ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وتَعريضًا بالَّذين لمْ يَنتفِعوا بدَلالتِها. واقتِرانُ الجُملةِ بحَرْفِ (إنَّ)؛ لأنَّه يُفيدُ في مِثلِ هذا المَقامِ معنَى التَّعليلِ والتَّسبُّبِ. وجُعِلَ ذلك عِدَّةَ آياتٍ؛ لأنَّ في ذلك دَلائلَ كثيرةً[١].

- وصِيغتَا ﴿صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ بِنْيَتَا مُبالَغةٍ، و(فعَّالٌ) أبلَغُ؛ لِزيادةِ حُروفِه، والصَّبَّارُ: مُبالَغةٌ في المَوصوفِ بالصَّبرِ، والشَّكورُ كذلك، أي: الَّذين لا يُفارِقُهم الوَصْفانِ[٢].

- وأيضًا قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ كِنايةٌ رَمْزيَّةٌ عن المؤمنينَ، وتَعريضٌ رَمْزيٌّ بالمشرِكينَ، ووَجْهُ إيثارِ خُلُقَيِ الصَّبرِ والشُّكرِ هنا للكِنايةِ بهما مِن بيْنِ شُعَبِ الإيمانِ: أنَّهما أنسَبُ بمَقامِ السَّيرِ في البحرِ؛ إذ راكبُ البحرِ بيْنَ خطَرٍ وسلامةٍ، وهما مَظهَرُ الصَّبرِ والشُّكرِ[٣].

- وخصَّ هذه الدَّلالةَ بأنَّها دَلالةٌ لِلصَّبَّارِ الشَّكورِ، دونَ سائرِ الخلْقِ؛ لأنَّ الصَّبرَ والشُّكرَ مِن أفعالِ ذوي الحِجَى والعقولِ، فأخبَرَ أنَّ في ذلك لَآياتٍ لكلِّ ذي عقلٍ؛ لأنَّ الآياتِ جعَلها الله عِبَرًا لِذَوي العقولِ والتَّمييزِ[٤]. ولأنَّ الآيةَ -وهي العَلامةُ- لا تَستَبينُ في صَدرِ كُلِّ مُؤمِنٍ، إنَّما تَستَبينُ لِمَن صَبَرَ على البلاءِ، وشَكَر على الرَّخاءِ[٥]، فلا يَنتَفِعُ بالآياتِ إلَّا مَن جَمَعَ بينَ الصَّبرِ والشُّكرِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٩، ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٨٥).

- وفي قولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ حُسْنُ تخلُّصٍ إلى التَّفصيلِ الَّذي عقِبَه في قولِه: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ...﴾ الآيةَ؛ فعُطِفَ على آياتِ سَيرِ الفُلْكِ إشارةً إلى أنَّ الناسَ يَذْكُرون اللهَ عندَ تلك الآياتِ عندَ الاضطرارِ، وغَفلَتِهم عنها في حالِ السَّلامةِ[1].

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾

- قولُه: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ﴾ فيه الِتفاتٌ؛ حيثُ خرَجَ مِن ضَميرِ الخِطابِ في ﴿لِيُرِيَكُم﴾ إلى ضَميرِ الغَيبةِ في ﴿غَشِيَهُم﴾[2]، وهذا إنْ كانَ ضميرُ ﴿غَشِيَهُم﴾ مُتَّحِدًا بضميرِ المخاطَبينَ قبْلَه؛ ففي الكلامِ التِفاتٌ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ، وإلَّا فلا التِفاتَ[3]، وكذلك في الانتِقالِ مِن الغَيبةِ في ﴿دَعَوُا اللَّهَ﴾ إلى التَّكلُّمِ في قولِه: ﴿بِآيَاتِنَا﴾، وهذا الالتفاتُ فيه إشارةٌ إلى أنَّ الناسَ يَذْكُرونَ اللهَ عِندَ تلك الآياتِ وعِندَ الاضطرارِ، مع غَفْلتِهم في حالِ السَّلامةِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ ذلك الإخلاصَ الحادِثَ عِندَ الخَوفِ قلَّما يبقَى لأحدٍ عندَ زَوالِ الخوفِ، والمعنى: أنَّ حالَ الناسِ في النِّعمةِ غيرُ حالِهم في الشِّدَّةِ؛ فتتغيَّرُ أحوالُهم بتغيُّرِ المواقفِ[4]!

- و﴿مَّوْجٌ﴾ اسمُ جنسٍ، واحِدُه مَوجةٌ، وتَنكيرُه للتَّعظيمِ والتَّكثيرِ؛ ولذا أُفرِدَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٦، ٤٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٧)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٢).

مع جَمْعِ المُشبَّهِ به في قولِه تعالى: ﴿كَالظُّلَلِ﴾[(١)]. وقيل: أفرَدَ ﴿مَوْجٌ﴾؛ لأنَّه لشِدَّةِ اضطرابِه، وإتيانِه شَيئًا في إثْرِ شَيءٍ مُتتابِعًا؛ يركَبُ بَعضَه كأنَّه شَيءٌ واحِدٌ[(٢)].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ﴾ شبَّهَ المَوجَ في ارتفاعِه واسْوِدادِه واضْطِرابِه بالظُّلَلِ، وهو السَّحابُ. وقِيل: ﴿كَالظُّلَلِ﴾ كالجبالِ[(٣)].

- قَولُه: ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ اقتضَى الحالُ حَذْفَ ما دَعَوا به؛ لتَعظيمِ الأمرِ فيه لِما اقتَضاه مِنَ الشَّدائِدِ؛ لِتَذهَبَ النَّفْسُ فيه كُلَّ مَذهَبٍ[(٤)].

- قولُه: ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ في وصْفِهم بالمُخلِصينَ ضَربٌ مِن التَّهكُّمِ؛ لأنَّه لَمَّا نَجَّاهم فاجأتْهم السَّجيَّةُ فأشْرَكوا باللهِ، وكان منهم مُقتصِدٌ في شُكرِه[(٥)]، وذلك على أحدِ الأقوالِ في التَّفسيرِ.

- قولُه: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ هذه ضُمِّنَتْ معنى الإيصالِ، يعني: نجَّاهم وأوصلَهم إلى البَرِّ، لم يقُلْ: فلمَّا نجَّاهم مِن هذه الظُّلَلِ فقط! بل نجَّاهم إنجاءً وصَلوا فيه إلى شاطئِ السَّلامةِ؛ إلى البَرِّ[(٦)].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ تدُلُّ على مُقدَّرٍ، كأنَّه قِيل: فلمَّا نَجَّاهم انقَسَموا؛ فمنهم مُقتصِدٌ، ومنهم غيرُه[(٧)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٦، ٤٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٨٨).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩١).

- وجُملةُ ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ﴾ تَذييلٌ؛ لأنَّها تعُمُّ كلَّ جاحدٍ؛ سواءٌ مَن جحَدَ آيةَ سَيرِ الفُلْكِ وهَولِ البحرِ، ويَجحَدُ نِعمةَ اللهِ عليه بالنَّجاةِ، ومَن يَجحَدُ غيرَ ذلك مِن آياتِ اللهِ ونِعَمِه[1].

- وضُمِّنَ «الجَحْدُ» معنى التَّكذيبِ؛ لأنَّ الجَحْدَ الَّذي بمعنى الكِتمانِ يتعَدَّى بنَفْسِه، فيُقالُ: «جَحَدَه» أي: كَتَمَه، لكِنْ هنا ضُمِّنَ معنى التَّكذيبِ؛ ولذلك تَعَدَّى بالباءِ، فقيلَ: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: ما يُكَذِّبُ بها[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ ختَمَ هنا في قولِه: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ﴾ بصِيغتَيْ مُبالَغةٍ، وهما: (ختَّارٌ) و(كَفورٌ)، وفي الآيةِ قبْلَها قال: ﴿صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾؛ فالصَّبَّارُ الشَّكُورُ مُعترِفٌ بآياتِ اللهِ، والختَّارُ الكَفورُ يَجحَدُ بها؛ فتَوازَنَت هذه الكلماتُ لَفظًا ومعنًى؛ أمَّا لَفظًا فظاهرٌ، وأمَّا معنًى: فالختَّارُ هو الغدَّارُ، والغَدْرُ لا يكونُ إلَّا مِن قِلَّةِ الصَّبرِ؛ لأنَّ الصَّبَّارَ يُفوِّضُ أمْرَه إلى اللهِ، وأمَّا الغدَّارُ فيُعاهِدُ ويَغدِرُ، فلا يَصبِرُ على العَهدِ، وأمَّا الكَفورُ فمُقابَلتُه معنًى للشَّكورِ واضحةٌ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩١، ١٩٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٨٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٣، ٤٢٤).

الآيتان (٣٣-٣٤)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿تَغُرَّنَّكُمُ﴾: أي: تخدَعَنَّكم، والغِرَّةُ: الغفلةُ، ويُقالُ: غَررْتُ فلانًا: أصبتُ غِرَّتَه، والغَرُّ والغُرورُ: إظهارُ الأمرِ المضِرِّ في صورةِ النَّافِعِ، أو: إظهارُ النُّصحِ مع إبطانِ الشَّرِّ، والغُرورُ بالضمِّ: الباطلُ، و﴿ٱلْغَرُورُ﴾: بالفتحِ: الشَّيطانُ، أو: كلُّ ما يغرُّ الإنسانَ مِن شيطانٍ أو دنيا أو مالٍ وغيرِ ذلك، وأصلُ ذلك مِن (الغُرِّ)، وهو الأثرُ الظَّاهرُ من الشَّيءِ[(١)].

﴿ٱلْغَيْثَ﴾: أي: المطرَ، أو: هو مطرٌ في إبَّانِه وإلَّا فمطرٌ. وسُمِّيَ المطرُ غَيْثًا؛ لأنَّه يُغيثُ الخلْقَ[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يختمُ الله سبحانه آياتِ هذه السُّورةِ بدعوةِ النَّاسِ إلى تَقْواه، والاستعدادِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣، ٦٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٢).

قال القرطبي: (والغَيثُ ما كان نافعًا في وقتِه، والمطرُ قد يكونُ نافعًا وضارًّا، في وقتِه وغيرِ وقتِه). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩).

ليومِ الحسابِ، فيقولُ: يا أيُّها النَّاسُ اتَّقوا ربَّكم بفِعلِ أوامِرِه واجتنابِ نواهيه، واخشَوا يومَ القيامةِ الَّذي لا يُغْني فيه والِدٌ عن ولدِه شَيئًا، ولا مولودٌ يُغْني فيه عن والِدِه شَيئًا، إنَّ وَعْدَ اللهِ بالبَعثِ حَقٌّ واقِعٌ لا مَحالةَ؛ فلا تَغُرَّنَّكم الحياةُ الدُّنيا بزينتِها، ولا يَغُرَّنَّكم الشَّيطانُ فيَصرِفَكم عن طاعةِ اللهِ.

ثُمَّ يُبيِّنُ اللهُ عزَّ وجلَّ الأمورَ الَّتي استأثرَ بعلمِها، فلا يَعلَمُها نبيٌّ مرسَلٌ، ولا ملَكٌ مقرَّبٌ، فضلًا عن غيرِهما، فيقولُ: إنَّ اللهَ وَحْدَه عِندَه عِلمُ السَّاعةِ، ويُنَزِّلُ المطَرَ، ويَعلَمُ ما في أرحامِ الأمَّهاتِ، ولا تدري نَفْسٌ ماذا تَكسِبُ غَدًا، ولا تدري نفْسٌ في أيِّ أرضٍ تموتُ، إنَّ اللهَ عَليمٌ خَبيرٌ لا يخفى عليه شَيءٌ سُبحانَه.

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الدَّلائِلَ على الوحدانيَّةِ والحَشرِ من أوَّلِ السُّورةِ، أمَرَ بالتَّقْوى على سَبيلِ الموعِظةِ والتَّذكيرِ بهذا اليَومِ العظيمِ[(١)].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ﴾.

أي: يا أيُّها النَّاسُ اجعَلوا بيْنَكم وبينَ سَخَطِ اللهِ وعَذابِه وِقايةً؛ بفِعلِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢).

﴿وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾.

أي: واخشَوا يومَ القيامةِ الَّذي لا يُغْني فيه والِدٌ عن وَلَدِه[١].

﴿وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔا﴾.

أي: ولا مولودٌ يُغْني فيه عن والِده شَيئًا[٢].

كما قال سُبحانَه: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧].

﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾.

أي: إنَّ ما وعَدَ اللهُ عِبادَه مِن البَعثِ يومَ القيامةِ واقِعٌ لا محالةَ[٣].

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾.

أي: فلا تَخدَعنَّكم الحياةُ الدُّنيا بزينتِها ولَذَّاتِها عن التَّزَوُّدِ والاستِعدادِ للآخِرةِ[٤].

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾.

أي: ولا يَخدَعَنَّكم الشَّيطانُ[٥] فيَصرِفَكم عن طاعةِ اللهِ، ويَغُرَّكم بحِلمِ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢).

(٥) ممَّن اختار أنَّ الغَرورُ هو الشَّيطانُ: الواحدي، والسمعاني، وابن القيِّم، والبِقاعي، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي، وابن عاشور، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي =

وإمهالِه، ويُمَنِّيكم بالأمانيِّ الباطِلةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ * إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٥، ٦]

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤)﴾.

= (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٤٠)، ((الرُّوح)) لابن القيم (ص: ٢٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ١٩٧-١٩٩).

وممَّن قال بهذا القولِ من السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومُجاهِدٌ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، وعِكْرِمةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٥٣٠).

قال الشنقيطي: (سُمِّي الشيطانُ غَرورًا؛ لكثرةِ غرورِه للآدَميِّينَ بتزيينِه ووساوسِه). ((العذب النمير)) (٥/ ١٠٧).

وقيل: الغَرورُ هو ما غَرَّ الإنسانَ من شَيءٍ، كائنًا ما كان؛ شيطانًا كان، أو إنسانًا، أو دُنيا. وممَّن قال بهذا المعنى: أبو عُبيدةَ، وابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٧٤٠).

قال الرازي: (قال تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ يعني: الدُّنيا؛ لا يَنْبَغي أنْ تَغُرَّكم بنفْسِها، ولا يَنْبَغي أنْ تغترُّوا بها، وإنْ حَمَلكم على مَحَبَّتِها غارٌّ مِن نفْسٍ أمَّارةٍ أو شيطانٍ). ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبْلَها:

لَمَّا كان مِنَ الأمرِ الواضِحِ أنَّ لِسانَ حالِهم بعدَ السُّؤالِ عن تحقُّقِ ذلك اليَومِ يَسألُ عن وَقتِه؛ إمَّا تعنُّتًا واستِهزاءً، وإمَّا حقيقةً- أجاب عن ذلك ضامًّا إليه أخواتِه مِن مفاتيحِ الغَيبِ[1].

وأيضًا لَمَّا قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ [لقمان: ٣٣]، وذكَرَ أنَّه كائِنٌ بقَولِه: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾، كأنَّ قائِلًا قال: فمتى يكونُ هذا اليومُ؟ فأُجيبَ بأنَّ هذا العِلمَ ممَّا لم يَحصُلْ لِغَيرِ الله، وذلك قولُه سبحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، ثمَّ ذكَرَ الدَّليلَينِ على البَعثِ؛ أحَدُهما: إحياءُ الأرضِ بعدَ مَوتِها، المشارُ إليه بقولِه تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾، وثانيهما: الخَلقُ ابتِداءً، المشارُ إليه بقولِه سبحانَه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾، فكأنَّه قال عزَّ وجلَّ: يا أيُّها السَّائِلُ، إنَّك لا تَعلَمُ وَقتَها، ولكِنَّها كائنةٌ، واللهُ قادِرٌ عليها كما هو قادِرٌ على إحياءِ الأرضِ، وعلى الخلْقِ في الأرحامِ[2].

وأيضًا لَمَّا جرَى في الآياتِ قَبْلَها ذِكرُ يَومِ القيامةِ، أُعقِبَت بأنَّ وَقتَ السَّاعةِ لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ، وجَمَع معها الجُمَلَ الأربَعَ الَّتي بَعدَها[3].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ وَحْدَه عِندَه عِلمُ وَقتِ القيامةِ، الَّذي تقومُ فيه[4].

كما قال سُبحانَه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٣٣)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨٢).

لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ...﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [فصلت: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ...﴾ [الأنعام: ٥٩].

وعن أبي هُريرةَ رَضيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((خَمسٌ مِنَ الغَيبِ لا يَعلَمُهنَّ إلَّا اللهُ، ثمَّ قرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾))(١).

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَفاتِحُ الغَيبِ خَمسٌ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾))(٢).

﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾.

أي: ويُنَزِّلُ اللهُ وَحْدَه المطَرَ بقُدرتِه، ويَعلَمُ وَحْدَه وَقْتَ نُزولِه، وغيرَ ذلك مِن شُؤونِه(٣).

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾.

أي: ويَعلَمُ اللهُ وَحْدَه ما في أرحامِ الأمَّهاتِ مِمَّا يُريدُ اللهُ أن يَخلُقَه فيها(٤).

(١) رواه البخاري (٤٧٧٧)، ومسلم (١٠) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٤٦٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢١٦، ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥٢)، ((تفسير السعدي)) =

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ [الرعد: ٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٧].

﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾.

أي: ولا تدري نفْسٌ ما الَّذي ستَكسِبُه في يومِ غَدٍ مِن كسْبِ دينِها ودُنياها؛ فاللهُ وَحْدَه يَعلَمُ ذلك[1].

عن مَسروقٍ، عن عائِشةَ رَضِيَ الله عنها قالت: (مَن حدَّثك أنَّه يَعلَمُ ما في غدٍ، فقد كَذَب، ثمَّ قرأَتْ: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾)[2].

﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾.

أي: ولا تَدري نَفْسٌ في أيِّ أرضٍ يكونُ مَوتُها؛ فاللهُ وَحْدَه مَن يختَصُّ بعِلمِ ذلك[3].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾.

مُناسبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا خصَّص الله تعالى هذه الأمورَ الخمسةَ السابقةَ بالذِّكرِ؛ عمَّم عِلمَه بجميعِ الأشياءِ، فقال[4]:

= (ص: ٦٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٨).

(٢) رواه البخاري (٤٨٥٥) واللفظ له، ومسلم (١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٣).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ ذو علم بكلِّ شيءٍ، مُحيطٌ بالظَّواهِرِ والبواطِنِ، والخفايا والسَّرائِرِ، لا يخفَى عليه شَيءٌ سُبحانَه(١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ فيه لَفتُ النَّظَرِ لهذا اليَومِ العظيمِ، ممَّا يقوِّي العبدَ، ويُسَهِّلُ عليه تَقْوى اللهِ، وهذا مِن رحمةِ اللهِ بالعِبادِ: يأمُرُهم بتَقْواه الَّتي فيها سعادتُهم، ويَعِدُهم عليها الثَّوابَ، ويحَذِّرُهم مِنَ العِقابِ، ويُزعِجُهم إليه بالمواعِظِ والمُخَوِّفاتِ(٢).

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فلا تَمْتَروا فيه، ولا تَعمَلوا عَمَلَ غَيرِ المصَدِّقِ؛ فلهذا قال: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بزينتِها وزَخارِفِها وما فيها مِن الفِتَنِ والمِحَنِ ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ الَّذي هو الشَّيطانُ، الَّذي ما زال يخدَعُ الإنسانَ ولا يَغفُلُ عنه في جميعِ الأوقاتِ؛ فإنَّ لله على عبادِه حَقًّا، وقد وعَدَهم مَوعِدًا يُجازيهم فيه بأعمالِهم، وهل وَفَّوا حَقَّه أم قَصَّروا فيه. وهذا أمرٌ يجِبُ الاهتِمامُ به، وأن يجعَلَه العَبدُ نُصْبَ عَينيه، ورأسَ مالِ تجارتِه الَّتي يسعَى إليها، ومِن أعظَمِ العوائِقِ عنه والقواطِعِ دُونَه: الدُّنيا الفتَّانةُ، والشَّيطانُ المُوَسوِسُ المُسَوِّلُ؛ فنهَى تعالى عبادَه أن تَغُرَّهم الدُّنيا، أو يَغُرَّهم باللهِ الغَرورُ: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾(٣) [النساء: ١٢٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- قَال الله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾، النَّاسُ على أقسامٍ؛ منهم مَن تدعوه الدُّنيا إلى نفْسِها، فيَميلُ إليها، ومنهم مَن يُوَسْوِسُ في صدرِه الشَّيطانُ، ويزيِّنُ في عينِه الدُّنيا، ويؤَمِّلُه، ويقولُ: إنَّك تحصلُ بها الآخرةَ، أو تلتذُّ بها ثمَّ تتوبُ فتجتمعُ لك الدُّنيا والآخرةُ! فنهاهم عن الأمْرَينِ، وقال: كونوا قِسْمًا ثالثًا، وهم الَّذين لا يَلتفِتونَ إلى الدُّنيا، ولا إلى مَن يحسِّنُ الدُّنيا في الأعيُنِ(١).

٤- قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ مِن أعظَمِ الغرةِ أن تراه يُتابعُ عليك نِعَمَه، وأنت مقيمٌ على ما يَكرهُ، فالشيطانُ موكلٌ بالغرورِ، وطبْعُ النَّفْسِ الأمَّارةِ الاغترارُ، فإذا اجتَمع الرَّأيُ والبغْيُ والشَّيطانُ الغَرورُ والنَّفْسُ المُغتَرَّةُ لم يقَعْ هناك خلافٌ، فالشَّياطينُ غَرُّوا المغترِّينَ بالله، وأطمَعوهم مع إقامتِهم على ما يُسخِطُ اللهَ، ويُغضبُه في عفوِه وتجاوزِه، وحدَّثوهم بالتَّوبةِ؛ لتسكُنَ قلوبُهم، ثمَّ دافعوهم بالتَّسويفِ حتَّى هجَم الأجَلُ، فأُخِذوا على أسْوَأِ أحوالِهم، وقال تعالى ﴿وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾(٢) [الحديد: ١٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ فيه سؤالٌ: هذه الآيةُ تَدُلُّ بظاهِرِها على أنَّ يومَ القيامةِ لا يَنفَعُ فيه والِدٌ وَلَدَه، وقد جاءت آيةٌ أخرى تدُلُّ على رَفعِ دَرَجاتِ الأولادِ؛ بسَبَبِ صلاحِ آبائِهم، حتَّى يَكونوا في دَرَجةِ الآباءِ، مع أنَّ عَمَلَهم -أي: الأولادِ- لم يُبَلِّغْهم تلك الدَّرَجةَ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ٢٤٤، ٢٤٥).

إقرارًا لعُيونِ الآباءِ بوُجودِ الأبناءِ معهم في منازِلِهم مِنَ الجنَّةِ، وذلك نَفعٌ لهم، وهي قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ [الطور: ٢١] فما وَجْهُ الجَمعِ بيْنَهما؟

الجوابُ: وَجهُ الجَمعِ أُشيرَ إليه بالقَيدِ الَّذي في هذه الآيةِ، وهو قَولُه تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾، وعيَّنَ فيها النَّفعَ بأنَّ إلحاقَهم بهم في دَرَجاتِهم يُقيَّدُ بالإيمانِ؛ فهي أخَصُّ مِن الآيةِ الأخرى، والأخَصُّ لا يُعارِضُ الأعَمَّ، وعلى قَولِ مَن فَسَّرَ الآيةَ بأنَّ معنى قَولِه تعالى: ﴿لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ لا يَقضي عنه حَقًّا لَزِمَه، ولا يَدفَعُ عنه عذابًا حَقَّ عليه؛ فلا إشكالَ في الآيةِ[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾، في قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ أنَّ الدُّنيا مِن أكبرِ الأسبابِ الَّتي تَحولُ بينَ المَرءِ وخَشيتِه لليَومِ الآخِرِ؛ لأنَّه سبحانه فرَّعَها مِن قَولِه تعالى: ﴿وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا﴾[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔا﴾ في التَّعبيرِ بـ (هو) إشعارٌ بأنَّ المنفيَّ نَفْعُه بنَفْسِه؛ ففيه ترجيةٌ بأنَّ اللهَ قد يأذَنُ له في نَفْعِه إذا وُجِدَ الشَّرطُ[٣].

٤- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٨٢، ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢١٢).

خَبِيرُۢ ﴾ مَن ادَّعى أنَّه يَعلَمُ شَيئًا مِن هذه، فقد كَفَر بالقُرآنِ؛ لأنَّه قد خالفَه[١].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ لَمَّا كان سُبحانَه قد نَصَب على السَّاعةِ أماراتٍ تُوجِبُ ظُنونًا في قُربِها، وكَشَف بعضَ أمرِها، عبَّرَ تعالى بالعِلمِ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾ قال سُبحانَه: «مَا» دون «مَن»؛ لأنَّ عِلْمَ ما في الأرحامِ مِن حيثُ الصِّفةُ أبلَغُ مِن عِلمِه مِن حيثُ الذَّاتُ، أي: أبلغُ مِن حيثُ كَونُه ذَكَرًا أو أنثى؛ فالجنينُ الَّذي في الرَّحِمِ ليس العِلمُ المختَصُّ به مجرَّدَ كَونِه ذكرًا أو أنثى، أو طَويلًا أو قَصيرًا، أو صَغيرًا أو كَبيرًا، بل هناك ما هو أبلَغُ مِن ذلك، وهو صِفاتُ هذا الجَنينِ: هل يكونُ شقيًّا أم سَعيدًا؟ طويلَ العُمُرِ أم قصيرَ العُمُرِ؟ وهل عَمَلُه صالحٌ أو عَمَلُه فاسِدٌ؟ ولهذا جاء التَّعبيرُ بـ «مَا» الَّتي تُلاحَظُ فيها الصِّفاتُ؛ لأنَّ عِلْمَ ما في الأرحامِ مِن هذه الوجهةِ أعظَمُ مِن كَونِه ذَكَرًا أو أُنثى[٣].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾ عبَّرَ في جانبِ نفْيِ مَعرفةِ النَّاسِ بفِعلِ الدِّرايةِ؛ لأنَّ الدِّرايةَ عِلمٌ فيه مُعالَجةٌ للاطِّلاعِ على المعلومِ؛ ولذلك لا يُعبَّرُ بالدِّرايةِ عن عِلمِ اللهِ تعالى، فلا يقالُ: (اللهُ يَدري كذا)، فيفيدُ انتفاءَ عِلمِ النَّاسِ بعدَ الحِرصِ على عِلمِه[٤]. وقيل: أُسنِد

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٠٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٨).

العِلمُ إلى اللهِ، والدِّرايةُ للنَّفْسِ؛ لِما في الدِّرايةِ مِن معنى الخَتْلِ والحيلةِ[١].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ مَوقعُ هذه الآيةِ بعْدَ ما تقدَّمَها مِن الآياتِ مَوقعُ مَقصدِ الخُطبةِ بعدَ مُقدِّماتِها؛ إذ كانتِ المُقدِّماتُ الماضيةُ قد هيَّأَتِ النُّفوسَ إلى قَبولِ الهِدايةِ، والتَّأثُّرِ بالمَوعظةِ الحَسنةِ، وإنَّ لاصطيادِ الحُكماءِ فُرَصًا يَحرِصون على عدَمِ إضاعتِها، ولاعتبارِ هذا الموقعِ جُعِلَت الجُملةُ استِئنافًا؛ لأنَّها بمَنزلةِ الفَذْلكةِ والنَّتيجةِ[٢].

- قولُه: ﴿وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا﴾ الأمْرُ بخَشيةِ يومِ القِيامةِ يَتضمَّنُ وُقوعَه؛ فهو كِنايةٌ عن إثباتِ البَعثِ، وذلك حظُّ المشركينَ منه الَّذين لا يُؤمِنون به حتَّى صار سِمَةً عليهم؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾[٣] [الفرقان: ٢١].

- قولُه: ﴿لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ فيه حُسْنُ تَرتيبٍ وتَناسُبٍ؛ فإنَّه لَمَّا كان الوالدُ أكثَرَ شَفقةً على الولدِ مِن الولَدِ على أبيه، بَدَأَ به أوَّلًا، وأتَى في الإسنادِ إلى الوالدِ بالفِعلِ المُقْتضي للتَّجدُّدِ؛ لأنَّ شَفقتَه مُتجدِّدةٌ على الولَدِ في كلِّ حالٍ، وأتَى في الإسنادِ إلى الولَدِ باسمِ الفاعلِ؛ لأنَّه يدُلُّ على الثُّبوتِ، والثُّبوتُ يَصدُقُ بالمرَّةِ الواحدةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٢، ١٩٣).

وتقدَّم تعريفُ الفذلكةِ (ص: ١١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٤).

وقيل: إنَّ الفِعلَ يَتأتَّى وإن كان ممَّن لا ينبغي ولا يكونُ مِن شَأنِه؛ لأنَّ المَلِكَ إذا كان يَخِيطُ شَيئًا، يقال: إنَّه يَخيطُ، ولا يُقالُ: هو خَيَّاطٌ، وكذلك مَن يَحيكُ شَيئًا ولا يكونُ ذلك صَنعَتَه، يقال: هو يَحِيكُ، ولا يقالُ: هو حائِكٌ؛ فالابنُ مِن شأنِه أن يكونَ جازيًا عن والِدِه؛ لِما له عليه من الحُقوقِ، والوالِدُ يَجزي؛ لِما فيه مِنَ الشَّفَقةِ، وليس بواجِبٍ عليه ذلك، فقال في الوالِدِ: ﴿لَّا يَجْزِى﴾، وقال في الوَلَدِ: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ﴾[1].

- وأُوثِرَت جُملةُ ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ بطُرقٍ مِن التَّوكيدِ لمْ تَشتمِلْ على مِثلِها جملةُ ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾؛ فإنَّها نُظِمَت جُملةً اسميَّةً، ووُسِّطَ فيها ضَميرُ الفَصلِ، وجُعِلَ النَّفْيُ فيها مُنصَبًّا إلى الجنسِ. ونُكتةُ هذا الإيثارِ: مُبالَغةُ تَحقيقِ عَدمِ جَزْءِ هذا الفَريقِ عن الآخَرِ؛ إذ كان مُعظَمُ المؤمنينَ مِن الأبناءِ والشَّبابِ، وكان آباؤهم وأُمَّهاتُهم في الغالِبِ على الشِّركِ؛ فأُرِيدَ حَسمُ أطماعِ آبائِهم، وما عَسَى أنْ يكونَ مِن أطماعِهم أنْ يَنفَعوا آباءَهم في الآخِرةِ بشَيءٍ[2].

- أو: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أكَّدَ الوصيَّةَ على الآباءِ، وقرَنَ شُكرَهم بوُجوبِ شُكرِه عزَّ وجلَّ، وأوجَبَ على الولَدِ أنْ يَكفِيَ والدَه ما يَسُوؤُه بحسَبِ نِهايةِ إمكانِه وغايةِ طَوقِه؛ قطَعَ هنا وَهمَ الوالِدِ في أنْ يكونَ الولَدُ في القِيامةِ مَظِنَّةً لأنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٦٨).

لكن قال ابن المُنَيِّر: (هذا الجواب تتوقَّفُ صِحَّتُه على أنَّ هذا الخِطابَ كان خاصًّا بالموجودينَ حينَئذٍ، والصَّحيحُ أنَّه عامٌّ لهم، ولكلِّ مَن ينطلقُ عليه اسمُ النَّاسِ). ((حاشية ابن المنير على الكشاف)) (٣/ ٥٠٤). وذكر الألوسي قولَ مَن ردَّ عليه. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١٠٤).

يَجْزِيَه حقَّه عليه، ويَكْفيَه ما يَلْقاهُ مِن أهوالِ القيامةِ، كما أوجَبَ اللهُ عليه في الدُّنيا ذلك في حقِّه، ولَمَّا كان إجزاءُ الولَدِ عن الوالدِ مَظِنَّةَ الوُقوعِ ومَوطِنَ الأمَلِ -لأنَّ اللهَ حضَّه عليه في الدُّنيا-؛ كان جَديرًا بتأكيدِ النَّفيِ؛ لإزالةِ هذا الوهْمِ، وهذا غيرُ واردٍ في حقِّ الولَدِ على الوالدِ. وقيل: الابنُ مِن شأنِه أنْ يكونَ جازيًا عن والدِه؛ لِمَا له عليه مِن الحُقوقِ، والوالدُ يَجْزي؛ لِمَا فيه مِن الشَّفقةِ، وليس الثَّاني كالأوَّلِ(١).

- وعُبِّرَ بـ ﴿مَوْلُودٌ﴾ دونَ (ولدٍ)؛ لإشعارِ (مَولودٍ) بالمعنى الاشتقاقيِّ دونَ (ولد) الَّذي هو اسمٌ بمَنزلةِ الجَوامدِ؛ لِقَصدِ التَّنبيهِ على أنَّ تلك الصِّلةَ الرَّقيقةَ لا تُخوِّلُ صاحبَها التَّعرُّضَ لِنَفعِ أبيه المُشرِكِ في الآخِرةِ؛ وفاءً له بما تُومِئُ إليه المَولوديَّةُ مِن تَجشُّمِ المَشقَّةِ مِن تَربيتِه؛ فلعلَّه يَتجشَّمُ الإلحاحَ في الجَزاءِ عنه في الآخِرةِ حَسْمًا لِطَمَعِه في الجزاءِ عنه، فهذا تَعكيسٌ للتَّرقيقِ الدُّنيويِّ في قولِه تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ [الإسراء: ٢٤]، وقولِه: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾(٢) [لقمان: ١٥].

- وأيضًا فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، فإنَّه ذكَرَ الوالدَ والولَدَ هنا؛ لأنَّهما أشدُّ مَحبَّةً وحَميَّةً مِن غيرِهم، فيُعلَمُ أنَّ غيرَهما أَولى بهذا النَّفيِ، ووَجْهُ اختيارِ هذه الطَّريقةِ في إفادةِ عُمومِ النَّفيِ هنا دونَ طريقةِ قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ في سُورةِ البقرةِ [٤٨، ١٢٣]: أنَّ هذه الآيةَ نزَلَتْ بمكَّةَ، وأهْلُها يومئذٍ خليطٌ مِن مُسلمينَ وكافرينَ، وربَّما كان الأبُ مُسلمًا والولَدُ كافرًا، ورُبَّما كان العكسُ، وقد يَتوهَّمُ بعضُ الكافرينَ حينَ تُداخِلُهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٣/ ٥٠٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٤).

الظُّنونُ في مَصيرِهم بعدَ الموتِ: أنَّه إذا ظهَرَ صِدقُ وَعيدِ القُرآنِ إيَّاهم، فإنَّ مَن له أبٌ مُسلِمٌ أو ابنٌ مُسلمٌ يَدفَعُ عنه هنالك بما يَدِلُّ به على ربِّ هذا الدِّينِ، وقد كان قارًّا في نُفوسِ العرَبِ التَّعويلُ على المَولى والنَّصيرِ، تَعويلًا على أنَّ الحَمِيَّةَ والأَنَفةَ تَدفَعُهم إلى الدِّفاعِ عنهم في ذلك الجَمْعِ، وإنْ كانوا مِن قَبْلُ مُختلِفينَ، فهم لِضيقِ عطَنِ أفهامِهم يَقيسُون الأمورَ على مُعتادِهم. وهذا أيضًا وَجْهُ الجَمْعِ بيْن نَفْيِ جَزاءِ الوالدِ عن ولَدِه وبيْن نَفْيِ جزاءِ الولَدِ عن والدِه؛ لِيَشمَلَ الفريقينِ في الحالتينِ، فلا يُتوهَّمُ أنَّ أحَدَ الفريقينِ أرْجى في المَقصودِ[١].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ عِلَّةٌ لِجُملتَيْ ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا﴾، وأكَّدَ الخبَرَ بـ (إنَّ)؛ مُراعاةً لِمُنْكري البَعثِ[٢].

- وإذ قد كانتْ شُبْهتُهم في إنكارِه مُشاهَدةَ النَّاسِ يَموتون ويَخلُفُهم أجيالٌ آخَرونَ، ولم يَرجِعْ أحَدٌ ممَّن مات منهم، وقالوا: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، وقالوا: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩]؛ فرَّعَ على هذا التَّأكيدِ إبطالَ شُبهتِهم بقولِه: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾، أي: لا تَغُرَّنَّكم حالةُ الحياةِ الدَّنيا بأنْ تتوهَّموا الباطلَ حقًّا، والضُّرَّ نَفعًا[٣].

- وعطَفَ ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾؛ لأنَّه أدخَلُ في تَحذيرِهم ممَّن يُلْقُون إليهم الشُّبَهَ، أو مِن أوهامِ أنفُسِهم الَّتي تُخيِّلُ لهم الباطلَ حقًّا لِيَتَّهِموا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٣، ١٩٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٩٤، ١٩٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٩٥).

آراءَهم. وإذا أُريدَ بالغَرورِ الشَّيطانُ أو ما يَشملُه، فذلك أشدُّ في التَّحذيرِ؛ لِمَا تَقرَّرَ من عَداوةِ الشَّيطانِ للإنسانِ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]؛ ففي التَّحذيرِ شَوبٌ مِن التَّنفيرِ(١).

٢- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾

- جُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ ...﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لِوُقوعِها جوابًا عن سُؤالٍ مُقدَّرٍ في نُفوسِ النَّاسِ، والجُمَلُ الأربعُ الَّتي بعْدَها إدماجٌ(٢) لِجمْعِ نَظائرِها؛ تَعليمًا للأُمَّةِ(٣).

- وقد أفادَ تأكيدُ جُملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ بحَرْفِ (إنَّ) تَحقيقَ عِلمِ اللهِ تعالى بوَقتِ السَّاعةِ، وذلك يَتضمَّنُ تأْكيدَ وُقوعِها، وفي كَلمةِ ﴿عِندَهُۥ﴾ إشارةٌ إلى اختِصاصِه تعالى بذلك العِلمِ؛ لأنَّ العِنْديَّةَ شأْنُها الاستئثارُ. وتَقديمُ (عند) -وهو ظَرفٌ مُسنَدٌ- على المُسنَدِ إليه، يُفيدُ التَّخصيصَ بالقَرينةِ الدَّالَّةِ على أنَّه ليس مُرادًا به مُجرَّدُ التَّقوِّي(٤).

- ولَمَّا كانوا قد أَلَحُّوا في السُّؤالِ عن وَقتِها، وكانت أبعَدَ الخَمسِ عن عِلمِ الخَلْقِ، وكان شَيئًا واحِدًا لا يتجزَّأُ ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ * فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]؛ أبرَزَها سُبحانَه في جملةٍ اسميَّةٍ دالَّةٍ على الدَّوامِ والثُّبوتِ على طَريقِ الحَصرِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٥).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٩٦، ١٩٧).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢١٥).

- وجُملةُ ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ الخَبرِ، والتَّقديرُ: وإنَّ اللهَ يُنزِّلُ الغَيثَ؛ فيُفيدُ التَّخصيصَ بتَنزيلِ الغَيثِ. والمقصودُ أيضًا: عندَه عِلمُ وَقتِ نُزولِ الغَيثِ، وليس المقصودُ مُجرَّدَ الإخبارِ بأنَّه يُنزِّلُ الغَيثَ؛ لأنَّ ذلك ليس ممَّا يُنكِرونه، ولكنْ نُظِمَتِ الجُملةُ بأُسلوبِ الفِعلِ المُضارِعِ ﴿وَيُنَزِّلُ﴾؛ لِيَحصُلَ مع الدَّلالةِ على الاستئثارِ بالعِلمِ به الامتِنانُ بذلك المَعلومِ الَّذي هو نِعمةٌ. وفي اختيارِ الفِعلِ المُضارِعِ إفادةُ أنَّه يُجدِّدُ إنزالَ الغَيثِ المرَّةَ بعدَ المرَّةِ عندَ احتياجِ الأرضِ[1].

- وأيضًا لَمَّا كان المُشرِكونَ يَنسُبونَ الغَيثَ إلى الأنواءِ، أسنَدَ الإنزالَ إليه سُبحانَه؛ لِيُفيدَ الامتِنانَ[2].

- قولُه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ أي: يَنفرِدُ بعِلمِ جميعِ أطوارِه؛ مِن نُطفةٍ، وعَلَقةٍ، ومُضْغةٍ، ثمَّ مِن كونِه ذكَرًا أو أُنْثى، وإبَّان وَضْعِه بالتَّدقيقِ. وجِيءَ بالمُضارِعِ ﴿وَيَعْلَمُ﴾؛ لإفادةِ تَكرُّرِ العِلمِ بتبدُّلِ تلك الأطوارِ والأحوالِ، والمعنى: يَنفرِدُ بعِلمِ جميعِ تلك الأطوارِ الَّتي لا يَعلَمُها الناسُ؛ لأنَّه عطْفٌ على ما قُصِدَ منه الحصْرُ؛ فكان المُسنَدُ الفِعليُّ المُتأخِّرُ عن المُسنَدِ إليه مُفيدًا للاختصاصِ بالقَرينةِ[3].

- وأيضًا في هذه الآيةِ أضافَ فيها العِلمَ إلى نفْسِه في الثَّلاثةِ مِن الخَمسةِ المَذكورةِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾، ونفَى العِلمَ عن العِبادِ في الأخيرَينِ منها في قولِه: ﴿وَمَا تَدْرِى

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٢٤، ٣٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٧).

نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ﴾ -مع أنَّ الخمْسةَ سَواءٌ في اختِصاصِ اللهِ تعالى بعِلْمِها، وانتفاءِ عِلمِ العِبادِ بها-؛ وذلك لأنَّ الثَّلاثةَ الأُوَلَ أمْرُها أعظَمُ وأفخَمُ؛ فخُصَّتْ بالإضافةِ إليه تعالى، والأخيرَينِ من صِفاتِ العِبادِ؛ فخُصَّا بالإضافةِ إليهم، مع أنَّه إذا انْتَفى عنهم عِلْمُهما، كان انتفاءُ عِلمِ ما عَداها مِن الخمْسةِ[1].

- والنُّكتةُ الَّتي دعَتْ إلى العُدولِ عن المُثبَتِ إلى المَنفيِّ في قولِه: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ﴾: هي أنَّ في نَفْيِ الدِّرايةِ المَخصوصةِ وتَكريرِها واختِصاصِها بالذِّكرِ دونَ العِلمِ -لِمَا فيها مِن معنى الحِيلةِ والخِداعِ- وفي تَكريرِ النَّفْسِ، وتَنكيرِها، وإيقاعِها في سِياقِ النَّفيِ، وتَخصيصِ ما هو مِن خُوَيْصَّةِ كلِّ نفْسٍ: الدَّلالةَ على أنَّ النَّفْسَ إنْ لم تَعرِفْ ما يُلصَقُ بها ويَختَصُّ بها وإنْ أعمَلَتْ حِيلتَها، ولا شَيءَ أخصُّ بالإنسانِ مِن كَسبِه وعاقبتِه، فإذا لم يكُنْ له طريقٌ إلى مَعرفتِهما، كان مِن مَعرفةِ ما عداهما أبعَدَ، أي: مِن مَعرفةِ وَقتِ الساعةِ، وإبَّانِ إنزالِ الغَيثِ، ومَعرفةِ ما في الأرحامِ[2].

- وقد نُسِجَ قولُه: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾ على مِنوالٍ آخَرَ مِن النَّظمِ؛ بحيثُ جُعِلَ سُداهُ نَفْيَ عِلمِ أيِّ نَفْسٍ بأخَصِّ أحوالِها؛ وهو حالُ اكتِسابِها القَريبُ منها في اليَومِ المُوالي يومَ تأمُّلِها ونَظرِها، وكذلك مكانُ انقضاءِ حياتِها؛ للنِّداءِ عَليهم بقِلَّةِ عِلْمِهم، فإذا كانوا بهذه المنزلةِ في قِلَّةِ العِلمِ؛ فكيف يَتطلَّعون إلى عِلمِ أعظَمِ حوادثِ هذا العالَمِ؟! وهو حادثُ فَنائِه وانقراضِه واعتياضِه بعالَمِ الخُلودِ؟! وهذا

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٢٥).

النَّفيُ للدِّرايةِ بهَذينِ الأمْرينِ عن كلِّ نَفْسٍ فيه كِنايةٌ عن إثباتِ العِلمِ بما تَكسِبُ كلُّ نَفْسٍ، والعِلمِ بأيِّ أرضٍ تَموتُ فيها كلُّ نَفْسٍ إلى اللهِ تعالى؛ فحَصَلَت إفادةُ اختصاصِ اللهِ تعالى بهَذينِ العِلمَينِ، فكانا في ضَميمةِ ما انتُظِمَ معهما ممَّا تَقدَّمَهما. وقد حصَلَ إفادةُ اختِصاصِ اللهِ تعالى بعِلمِ هذه الأُمورِ الخَمْسةِ بأفانينَ بَديعةٍ مِن أفانينِ الإيجازِ البالغِ حدَّ الإعجازِ[(١)].

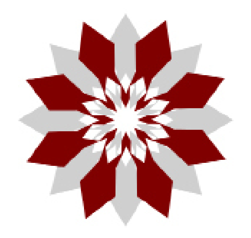
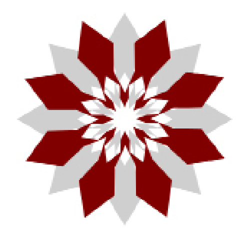
- وفي قولِه: ﴿بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ لم يَقُلْ: (بأيِّ وَقتٍ تموتُ)، مع أنَّ كُلًّا منهما غيرُ مَعلومٍ لِغَيرِه، بل نَفْيُ العِلمِ بالزَّمانِ أَوْلى؛ لأنَّ مِن الناسِ مَن يَدَّعي عِلمَه، بخِلافِ المكانِ؛ وذلك أنَّه إنَّما خَصَّ المكانَ بنَفْيِ عِلمِه؛ لأنَّ الكَونَ في مكانٍ دونَ مَكانٍ في وُسعِ الإنسانِ واختيارِه، فاعتِقادُه عِلمَ مكانِ مَوتِه أقرَبُ، بخلافِ الزَّمانِ، ولأنَّ للمكانِ دونَ الزَّمانِ تأثيرًا في جَلبِ الصِّحَّةِ والسَّقمِ، أو تَأثيرُه فيهما أكثَرُ[(٢)].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ مُستأْنَفةٌ ابتدائيَّةٌ واقعةٌ مَوقعَ النَّتيجةِ لِمَا تَضمَّنَه الكلامُ السابقُ مِن إبطالِ شُبْهةِ المشركينَ بقولِه تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [لقمان: ٣٣]، أي: إنَّ اللهَ عَليمٌ بمَدَى وَعدِه، خبيرٌ بأحوالِكم ممَّا جمَعَه قولُه: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا ...﴾؛ ولذا جمَعَ بيْن الصِّفتَينِ: صِفةِ عليمٍ، وصِفةِ خَبيرٍ؛ لأنَّ الثَّانيةَ أخصُّ[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٧، ١٩٨).

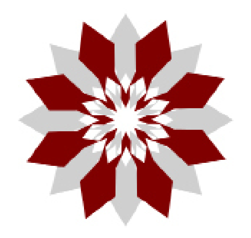
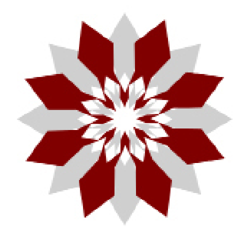
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢١٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٩، ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٩).

تَفْسِيرُ

سُورَةِ السَّجْدَةِ

سُورةُ السَّجْدةِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بعدَّةِ أسماءٍ؛ منها:

١- سورةُ السَّجدةِ[١].

٢- سورةُ (﴿الٓمٓ * تَنزِيلُ﴾ السَّجْدةِ):

فعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرأُ في الجُمُعةِ في صلاةِ الفَجرِ ﴿الٓمٓ * تَنزِيلُ﴾ السَّجْدةَ، و﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾))[٢].

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

استِحبابُ القِراءةِ بها في صلاةِ الصُّبحِ يومَ الجُمُعةِ.

وذلك لحديثِ أبي هُريرةَ المتقدِّمِ[٣].

---

(١) سُمِّيَت سورةَ السَّجدةِ؛ لاشتِمالِها على سَجدةِ التِّلاوةِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٧٣).

قال ابن عاشور: (أشهرُ أسماءِ هذه السُّورةِ هو سورةُ السَّجدةِ، وهو أخصَرُ أسمائِها، وهو المكتوبُ في السَّطرِ المجعولِ لاسمِ السُّورةِ من المصاحفِ المُتداوَلةِ. وبهذا الاسم تَرْجَم لها التِّرمذيُّ في «جامِعِه»، وذلك بإضافةِ كلمةِ سورةٍ إلى كلمةِ السَّجدةِ. ولا بُدَّ من تقديرِ كلمةِ «الم» محذوفةً للاختصارِ؛ إذْ لا يَكفي مجرَّدُ إضافةِ «سورةٍ» إلى «السَّجدةِ» في تعريفِ هذه السُّورةِ، فإنَّه لا تكونُ سجدةٌ من سجودِ القرآنِ إلَّا في سورةٍ من السُّوَرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٠١).

وقال البِقاعي: (اسمُها السَّجدةُ مُنطَبِقٌ على ذلك بما دَعَت إليه آياتُها من الإخباتِ، وتَركِ الاستكبارِ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٢٢٢).

(٢) أخرجه البخاري (٨٩١) واللفظ له، ومسلم (٨٨٠).

(٣) والحكمةُ في استحبابِ قراءةِ سورةِ (السجدةِ) و(الإنسانِ) في فجرِ يومِ الجمعةِ لِما اشتملَتْ عليه هاتان السُّورتانِ ممَّا كان ويكونُ من المبدأِ والمَعادِ، وحشرِ الخلائقِ، وبَعْثِهم من القبورِ =

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ السَّجْدةِ مَكِّيَّةٌ[(١)]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[(٢)].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أبرزِ المقاصِدِ الَّتي تَضمَّنَتْها سورةُ السَّجْدةِ:

١- بَيانُ عَظَمةِ اللهِ تعالى في صِفاتِه، وكَمالِ قُدرتِه في الخَلقِ والأمرِ، والبَعثِ والجَزاءِ.

٢- التَّنويهُ بشأنِ القُرآنِ؛ لأنَّه جامِعُ الهُدى الَّذي تضمَّنَتْه هذه السُّورةُ وغَيرُها[(٣)].

موضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أبرزِ المَوضوعاتِ الَّتي تناوَلَتْها سورةُ السَّجْدةِ:

١- التَّنويهُ بالقُرآنِ وبيانُ أنَّه مُنَزَّلٌ مِن عندِ اللهِ، والرَّدُّ على المُشرِكينَ في ادِّعائِهم أنَّه مُفترًى.

= إلى الجنَّةِ والنَّارِ، ففيهما بَدْءُ خلْقِ الإنسانِ، وآدمُ خُلِق يومَ الجُمُعةِ، وفيهما ذِكرُ القيامةِ، وفي يومِ الجمعةِ تقومُ السَّاعةُ؛ فاستُحِبَّ قراءةُ هاتَينِ السُّورتَينِ في هذا اليومِ تذكيرًا للأمَّةِ بما كان فيه، ويكونُ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٤/ ٢٠٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٦٣)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٤٠٨).

(١) وقيل: مَكِّيَّةٌ إلَّا ثلاثَ آياتٍ منها، مِن قَولِه تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ...﴾ إلى تمامِ الآياتِ الثَّلاثِ [السجدة: ١٨- ٢٠]. وقيل: إلَّا خَمسَ آياتٍ، مِن قَولِه تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ [السجدة: ١٦] إلى قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠]. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٩)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٣٥٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٦).

(٢) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي، والفيروزابادي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٣٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٧٣).

(٣) ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٢٢).

٢- ذِكرُ انفِرادِ اللهِ تعالى بخَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ، وبيانُ بعضِ مَظاهرِ قُدرتِه، وبديعِ خَلقِه، ونشأةِ الإنسانِ.

٣- عَرْضُ جانبٍ مِن شُبهاتِ المشركينَ حوْلَ البَعثِ مع الرَّدِّ عليها.

٤- عَرضُ مَشهَدٍ مِن مَشاهِدِ يومِ القيامةِ: مَشهَدِ المجرِمينَ وهم بيْنَ يدَيِ اللهِ يومَ القيامةِ.

٥- ذِكرُ بعضِ صفاتِ المؤمنينَ، وما أعَدَّه اللهُ لهم مِن نعيمٍ، وما أعدَّه للفاسِقينَ مِن نارِ الجَحيمِ.

٦- الإشارةُ إلى موسى عليه السَّلامُ، وما امتَنَّ الله به عليه مِن إعطائِه التَّوراةَ، وما امتنَّ به على الصَّالِحينَ مِن قَومِه؛ مِن جَعْلِهم أئمَّةً.

٧- دعوةُ المشركينَ إلى التَّدبُّرِ والتَّفكُّرِ في آياتِ الله.

٨- حكايةُ جانبٍ مِن سفاهاتِ المشركين، مع أمْرِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بالرَّدِّ عليهم وتهديدِهم.

٩- أمْرُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالإعراضِ عنهم، ووعْدُه بالنَّصرِ عليهم، وأن يَنتظِرَ.



الآيات (١-٥)

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾: أي: لا شكَّ فيه، والرَّيبُ: الشَّكُّ، أو هو شكٌّ مع قَلَقٍ وريبةٍ، وهو مصدرُ (رابَني الشَّيءُ): إذا حصَل فيه الرِّيبةُ، وحقيقةُ الرِّيبةِ: قلَقُ النَّفْسِ واضْطِرابُها، وأصلُ (ريب): يدُلُّ على شكٍّ، أو شكٍّ وخَوفٍ[١].

﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾: أي: اختلَقه، وكذَبَه، وافتعَله، والافتراءُ: الاختلاقُ، ومنه قيل: افترَى فلانٌ على فلانٍ، إذا قذَفه بما ليس فيه، وأصلُ (فري): قطْعُ الشَّيءِ؛ فالفَرْيُ: قطعُه لإصلاحِه، والإفراءُ: قطعُه للإفسادِ، والافتِراءُ فيهما، وفي الإفسادِ أكثرُ[٢].

﴿نَّذِيرٖ﴾: بمعنى مُنذِرٍ، أي: محَذِّرٍ، والإنذارُ: الإبلاغُ؛ ولا يكادُ يكونُ إلَّا في التَّخويفِ، وأصلُ (نذر): تخويفٌ[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٢).

﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾: أي: عَلا، وارتَفَع، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استقامةٍ، واعتِدالٍ بينَ شيئَينِ(١).

﴿وَلِيّٖ﴾: أي: ناصرٍ، وكلُّ مَن وَلِيَ أمْرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على قُربٍ(٢).

﴿شَفِيعٍ﴾: أي: شافع، يُقالُ: شفَع لِفُلانٍ: إذا جاء مُلتمِسًا مَطلَبَه، ومُعينًا له؛ وأصلُ الشَّفْعِ: ضَمُّ الشَّيءِ إلى مِثلِه(٣).

﴿يُدَبِّرُ﴾: أي: يَقضي ويُمضي، والتَّدبيرُ: تنزيلُ الأمورِ في مراتبِها على أحكامِ عَواقبِها، وأصلُ (دبر): آخِرُ الشَّيءِ وخَلْفُه، خِلافُ قُبُلِه(٤).

﴿يَعۡرُجُ﴾: أي: يَصعَدُ، وأصلُ (صعد): يدُلُّ على ارتفاعٍ ومَشَقَّةٍ(٥).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤١١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٦١٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٢١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٤٢)، ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٩).

قال محمد رشيد رضا: (التَّدبيرُ في أصلِ اللُّغة: التَّوفيقُ بينَ أوائلِ الأمورِ ومَبادِئِها، وأدبارِها وعواقِبِها، بحيثُ تكونُ المبادئُ مُؤَدِّيةً إلى ما يُريدُ مِن غاياتِها، كما أنَّ تَدَبُّرَ الأمرِ أو القَولِ هو التَّفَكُّرُ في دُبُرِه، وهو ما وراءَه وما يُرادُ منه ويَنْتَهي إليه). ((تفسير المنار)) (١١/ ٢٤٢).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٨).

المعنى الإجماليُّ:

افتتَح الله تعالى هذه السُّورةَ ببعضِ الحروفِ المقطَّعةِ، وتقدَّم الكلامُ عن الحروفِ المُقطَّعةِ في تَفسيرِ أوَّلِ سُورةِ الرُّوم.

ثمَّ أخبَرَ تعالى أنَّ هذا القُرآنَ بلا شكٍّ نزَلَ مِن عندِ اللهِ رَبِّ العالَمينَ، ثمَّ يُخاطِبُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائِلًا: بل أيقولُ المُشرِكونَ: اختلَقْ هذا القُرآنَ مِن تِلْقاءِ نَفْسِه؟! ليس الأمرُ كما يقولونَ؛ فالقرآنُ هو الحقُّ المنَزَّلُ إليك مِن رَبِّك؛ لِتُنذِرَ به قَومًا لم يأتِهم رَسولٌ يُنذِرُهم مِن قَبلِك؛ لعلَّهم يَعرِفونَ الحقَّ فيَهتَدونَ!

ثمَّ أثنَى الله سبحانَه على ذاتِه، فقال: الَّذي يَستحِقُّ العِبادةَ وَحْدَه هو الَّذي خلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ وما بيْنَهما مِن الخَلقِ في ستَّةِ أيَّامٍ، ثمَّ علا على عَرشِه كما يليقُ بجَلالِه سُبحانَه، ليس لكم مِن دونِه سُبحانَه وليٌّ يَتَولَّى أمرَكم، ولا شَفيعٌ يَشفَعُ لكم عِندَه، أفلا تتذَكَّرونَ؟!

يُدبِّرُ اللهُ أمْرَ خَلْقِه فيَنزِلُ قَضاؤُه مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ، ثمَّ يَصعَدُ إليه في يومٍ كان مِقدارُه ألْفَ سَنةٍ، كما تَحسُبونَ مِن أيَّامِكم في الدُّنيا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿الٓمٓ ١﴾.

تقدَّم الكلامُ عن هذه الحروفِ المُقطَّعةِ في تفسيرِ أوَّلِ سُورةِ الرُّوم[1].

﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾.

أي: هذا القُرآنُ لا شكَّ أنَّه نَزَل مِن عندِ اللهِ الخالِقِ المالِكِ المدبِّرِ لجَميعِ

(١) يُنظر ما تقدَّم (ص: ١٠-١١).

العالَمينَ[١].

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾.

أي: بل أيَقولُ[٢] المُشرِكونَ: اختلَقَ مُحمَّدٌ القُرآنَ مِن تِلْقاءِ نَفْسِه، ونَسَبَه إلى اللهِ كَذِبًا[٣]؟!

﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَقولونَ؛ فالقُرآنُ هو الصِّدقُ الثَّابِتُ المنَزَّلُ إليك مِن عندِ رَبِّك يا مُحمَّدُ[٤].

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾.

أي: لِتُنذِرَ بالقُرآنِ وتُحَذِّرَ به قَومًا لم يأتِهم رَسولٌ يُنذِرُهم مِن قَبْلِك[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٤، ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١٤، ١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٥).

قال القرطبي: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ قال قَتادةُ: يعني: قُرَيشًا، كانوا أُمَّةً أُمِّيَّةً لم يأتِهم نذيرٌ مِن قبْلِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم... وقيل: المرادُ بالقَومِ: أهلُ الفَترةِ بينَ عيسى ومحمَّدٍ عليهما =

كما قال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [يس: ٦].

﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

أي: لعلَّهم يَعرِفونَ الحَقَّ ويُؤمِنونَ به ويتَّبِعونَه[1].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الرِّسالةَ، بيَّنَ ما على الرَّسولِ مِن الدُّعاءِ إلى التَّوحيدِ، وإقامةِ الدَّليلِ[2].

وأيضًا لَمَّا كان الرُّكنُ الأعظَمُ مِن أركانِ هُدى الكتابِ هو إثباتَ الوحدانيَّةِ للإلهِ، وإبطالَ الشِّركِ: عقَّب الثَّناءَ على الكِتابِ بإثباتِ هذا الرُّكنِ[3].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

أي: المعبودُ الَّذي لا تَصلُحُ العِبادةُ إلَّا له: هو الَّذي أوجَدَ السَّمواتِ السَّبْعَ

= الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ قاله ابنُ عبَّاس، ومُقاتِلٌ. وقيل: كانت الحُجَّةُ ثابتةً لله عزَّ وجَلَّ عليهم بإنذارِ مَن تقَدَّم مِن الرُّسُلِ وإنْ لم يَرَوا رَسولًا). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٥).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بهم: قُرَيشٌ: ابنُ جرير، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٥).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بهم: العَرَبُ كافَّةً: الواحدي، والبِقاعي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١١).

والأرَضِينَ وما بيْنَهما مِنَ الخَلقِ في سِتَّةِ أيَّامٍ؛ أوجَدَها مِنَ العَدَمِ بتَقديرٍ ونِظامٍ[١].

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ﴾.

أي: ثمَّ علا اللهُ تعالى وارتفَع على عَرشِه كما يَليقُ بجَلالِه سُبحانَه[٢].

كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ﴾.

أي: ليس لكم[٣] ممَّن سِوَى اللهِ وَلِيٌّ يتوَلَّى أمْرَكم ويَنفَعُكم، ولا شَفيعٌ يَشفَعُ لكم عندَ رَبِّكم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٢٠، ٢١).

قال القرطبي: (﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ من يومِ الأحَدِ إلى آخِرِ يومِ الجُمُعةِ. قال الحَسَنُ: من أيَّامِ الدُّنيا. وقال ابنُ عبَّاسٍ: إنَّ اليومَ مِن الأيَّامِ السِّتَّةِ الَّتي خلَقَ اللهُ فيها السَّمَواتِ والأرضَ مِقْدارُه ألْفُ سَنةٍ مِن سِنِي الدُّنيا). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٦). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٢٣-٢٩).

(٣) قيل: الخِطابُ لِعُمومِ النَّاسِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٢٩).

وقيل: الخِطابُ للكافِرينَ. وممَّن قال بذلك: الواحديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٢٩، ٣٠).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (فالوَليُّ: الَّذي يَتولَّى أمْرَك كُلَّه، والشَّفيعُ: الَّذي يكونُ شافِعًا فيه، أي: عَونًا؛ فليس للعبدِ دونَ اللهِ مِن وليٍّ يَستَقِلُّ، ولا ظَهيرٍ مُعينٍ). ((مجموع الفتاوى)) (١/ ٧٣).

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

أي: أفلا تَتذَكَّرونَ ما تَعلَمونَه مِن أنَّه الخالِقُ وحْدَه الَّذي خلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ، واستوى على عَرشِه، ومِن أنَّه لا حُجَّةَ لِشَيءٍ ممَّا أشرَكتُموه به؟! فهو الَّذي انفردَ بتَدبيرِكم وتَولِّيكم، وله الشَّفاعةُ كُلُّها، وهو المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه لا شَريكَ له[1].

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى الخَلْقَ؛ بيَّنَ الأمرَ، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، والعَظَمةُ تتبيَّنُ بهما؛ فإنَّ مَن يَملِكُ مماليكَ كثيرينَ عُظَماءَ تكونُ له عَظَمةٌ، ثمَّ إذا كان أمْرُه نافِذًا فيهم يَزدادُ في أعيُنِ الخَلقِ، وإن لم يكُنْ له نَفاذُ أمرٍ يَنقُصُ مِن عَظَمتِه[2].

وأيضًا لَمَّا نفَى اللهُ تعالى أن يكونَ له شَريكٌ أو وَزيرٌ في الخَلقِ؛ ذكَرَ كيف يَفعَلُ في هذا المُلكِ العَظيمِ الَّذي أبدَعَه في سِتَّةِ أيَّامٍ؛ مِن عالَمِ الأرواحِ والأمرِ[3].

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٣٠، ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٣٢).

أي: يُدَبِّرُ اللهُ أمرَ خَلْقِه بما يَشاءُ، فيَنزِلُ تَقديرُه وقَضاؤُه مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ[1]، ثمَّ يَصعَدُ إليه مِنَ الأرضِ إلى السَّماءِ في[2] يومٍ كان مِقدارُه ألْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَحسُبونَ مِن أيَّامِكم في الدُّنيا[3].

---

(١) قال السعدي: (﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ القَدَريَّ والأمرَ الشَّرعيَّ، الجميعُ هو المتفَرِّدُ بتدبيره، نازلةٌ تلك التَّدابيرُ مِن عندِ المليكِ القَديرِ ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾، فيُسعِدُ بها ويُشقي، ويُغْني ويُفقِرُ، ويُعِزُّ ويُذِلُّ، ويُكرِمُ ويُهينُ، ويَرفَعُ أقوامًا ويَضَعُ آخَرينَ، ويُنزِلُ الأرزاقَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤).

(٢) قال الشوكاني: (هذا اليومُ هو عبارةٌ عن زَمانٍ يتقَدَّرُ بألْفِ سَنَةٍ، وليس المرادُ به مُسمَّى اليوم الَّذي هو مُدَّةُ النَّهارِ بينَ ليلتَينِ، والعَرَبُ قد تعبِّرُ عن المدَّةِ باليوم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨٦).

وقال ابن عثيمين: («في» للظَّرفيَّةِ، ولا تَستلزِمُ الاستيعابَ، يعني: ليس بلازمٍ أنَّ الأمرَ يَنزِلُ مَثلًا عندَ صلاةِ الفَجرِ، ولا يَعرُجُ إلَّا في الغروبِ؛ فقد يَنزِلُ ويَعرُجُ في لحظةٍ حَسَبَ ما أراد اللهُ عزَّ وجلَّ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٣٦، ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩٢، ٥٩٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤).

قال السمعاني: (﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ فيه قولان؛ أحدُهما: ثمَّ يَعرُجُ الملَكُ إليه بعدَ نُزولِه بالأمرِ. والقولُ الثَّاني: ثمَّ يَعرُجُ إليه أي: يَعرُجُ الأمرُ إليه، ومعنى عُروجِ الأمرِ إليه: صَيرورةُ الأمرِ كلِّه إليه، وسقوطُ أمرِ الخَلقِ كلِّهم). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٤٣). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٣٧، ٤٣٨).

ممَّن اختار أنَّ المعنَى: عروجُ ذلك الأمرِ إليه ونزولُه إلى الأرضِ في ألْفِ سَنةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ من أيَّامِكم: ابنُ جرير، وجلال الدين المحلي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤).

وقال العُلَيمي: (ينزلُ الملَكُ بالوحيِ مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ، ثمَّ يَرجِعُ إلى مَقَرِّه منها). ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٢١).

وقال الواحدي: (﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: القَضاءَ مِنَ السَّماءِ فيُنزِلُه إلى الأرضِ مدَّةَ أيَّامِ الدُّنيا ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أيْ: يَرجِعُ الأمرُ والتَّدبيرُ إلى السَّماءِ ويعودُ إليه بعدَ =

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ تَوبيخ مَن لا يَتذكَّرُ بعدَ هذا البَيانِ، وهذه الفائدةُ تترتَّبُ عليها فائدةٌ أخرى، وهي: وُجوبُ التَّذَكُّرِ بآياتِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّ الإنسانَ يَتذكَّرُ بآياتِ اللهِ، ولا يَمُرُّ عليها كأنَّها ألفاظٌ عابِرةٌ[1]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إثباتُ عُلُوِّ اللهِ؛ فإنَّ النُّزولَ لا يكونُ إلَّا مِن أعلَى[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ هذا القرآنَ مُلْزَمٌ به جميعُ الناسِ، فإذا كان ربُّهم الَّذي أنزَله؛ فمعناه أنَّه يَلْزَمُهم جميعًا العملُ بهذا القرآنِ، فإنه لَمَّا أراد أنْ يُتَّبَعَ أمرُ القُرآنِ من حيثُ هو قرآنٌ؛ بَيَّنَ أنَّه نازِلٌ مِن ربِّ العالَمينَ الَّذي يَعتمِدُ عليه هؤلاء العالَمونَ، فنَزَّلَ عليهم الكِتابَ؛ لأنَّه لَمَّا كان ربَّ العالَمينَ وَجَبَ على جميعِ العالَمينَ أن يَقبَلوا هذا[3].

٣- إن قيلَ: كيف الجَمعُ بينَ قَولِه: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:

= انقضاءِ الدُّنيا وفَنائِها ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ وهو يومُ القيامةِ. ((الوجيز)) (ص: ٨٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣، ١٤).

٢٤] وبينَ قَولِه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَـٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾؟

فالجوابُ: أنَّهم لم يأتِهم نَذيرٌ مُعاصِرٌ لهم، فلا يُعارِضُ ذلك مَن تقدَّمَ قبْلَ عَصرِهم.

وأيضًا فإنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أنَّ نبُوَّةَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم ليست ببِدْعٍ؛ فلا ينبغي أن تُنكَرَ؛ لأنَّ اللهَ أرسَلَه كما أرسَلَ مَن قَبْلَه، والمرادُ بقَولِه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَـٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أنَّهم مُحتاجونَ إلى الإنذارِ؛ لِكَونِهم لم يتقَدَّمْ مَن يُنذِرُهم؛ فاختلَفَ سياقُ الكلامِ، فلا تَعارُضَ بيْنَهما[1].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَـٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ فيه سُؤالٌ: التَّخصيصُ بالذِّكرِ يدُلُّ على نَفْيِ ما عداه؛ فقَولُه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَـٰهُم﴾ يُوجِبُ أن يكونَ إنذارُه مُختَصًّا بمَنْ لم يأتِه نذيرٌ، لكِنَّ أهلَ الكتابِ قد أتاهم نذيرٌ، فلا يكونُ الكِتابُ مُنزَّلًا إلى الرَّسولِ لِيُنذِرَ أهلَ الكِتابِ، فلا يكونُ رَسولًا إليهم؟!

الجوابُ: أنَّ هذا فاسِدٌ مِن وُجوهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ التَّخصيصَ لا يُوجِبُ نفْيَ ما عَداه.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ مَن يقولُ: التَّخصيصُ يُوجِبُ نَفْيَ ما عَداه، يوافِقُ غيرَه في أنَّ التَّخصيصَ إن كان له سَبَبٌ غيرُ نفْيِ ما عَداه، لا يُوجِبُ نَفْيَ ما عداه، وهاهنا وُجِدَ ذلك؛ لأنَّ إنذارَهم كان أَولى، فوقع التَّخصيصُ لأجْلِ ذلك، ألَا ترى أنَّه تعالى قال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، ولم يُفهَمْ منه أنَّه لا يُنذِرُ غيرَهم، أو لم يُؤمَرْ بإنذارِ غَيرِهم.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧٤).

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّه على ما ذُكِرَ لا يَرِدُ ذلك أصلًا؛ لأنَّ أهلَ الكتابِ كانوا قد ضَلُّوا، ولم يأتِهم نذيرٌ مِن قَبْلِ محمَّدٍ بعدَ ضَلالِهم؛ فلَزِمَ أن يكونَ مُرسَلًا إلى الكُلِّ على درجةٍ سواءٍ[١].

٥- أيَّدَ اللهُ كَوْنَ القُرآنِ غيرَ مُفترًى، وأنَّه الحقُّ ببيانِ غايتِه، حيثُ قال: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾؛ فإنَّ بيانَ غايةِ الشَّيءِ وحِكمتِه -لا سيَّما عندَ كَونِها غايةً حَميدةً، مُستتبعةً لِمَنافعَ جليلةٍ في وَقتِ شِدَّةِ الحاجةِ إليها- ممَّا يُقرِّرُ وُجودَ الشَّيءِ ويُؤكِّدُه لا مَحالةَ[٢].

٦- قولُه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ إنْ قِيل: ما الحِكمةُ في خَلْقِها في ستَّةِ أيَّامٍ، وكان قادرًا على خلقِها في طَرْفةِ عَينٍ؟

قِيل: لأنَّ خَلْقَها على التَّأنِّي أدَلُّ على حكمتِه، ولُطفِ تدبيرِه، وفيه أيضًا تعليمُ النَّاسِ، وتنبيهُ العِبادِ على التَّأنِّي في الأُمورِ، وأنَّ لكلِّ شَيءٍ عندَه أجَلًا[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ إبطالُ قَولِ الملاحِدةِ القائِلينَ بقِدَمِ العالَمِ، وأنَّ اللهَ سُبحانَه لم يَخْلُقْه بقُدرتِه ومَشيئتِه، ومَن أثبَتَ منهم وُجودَ الرَّبِّ جَعَلَه لازِمًا لِذاتِه أوَّلًا وأبدًا غيرَ مخلوقٍ، كما هو قولُ بعضِ الفلاسفةِ وأتْباعِهم مِن الملاحدةِ الجاحدينَ لِمَا اتَّفَقَت عليه الرُّسُلُ -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- والكُتُبُ، وشَهِدَت به العُقولُ والفِطَرُ[٤].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ أنَّ بينَ السَّمواتِ والأرضِ مِن الآياتِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٢/ ١٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢١٩). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٣٠).

(٤) يُنظر: ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٩٥).

شيئًا كبيرًا؛ حيث جعلَه قَسيمًا لِخَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ ومقابلًا له[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ خَلْقَ العَرشِ قبْلَ خَلْقِ السَّمواتِ والأرض؛ فإنَّه يقتَضي أنَّه استوى على العَرشِ بعدَ خَلقِ السَّمواتِ والأرضِ، ولم يَذكُرْ أنَّه خَلَقَه حينَئذٍ، ولو كان خَلَقَه حينَئذٍ لكان قد ذَكَر خَلْقَه ثمَّ استِواءَه عليه، ولأنَّ ذِكْرَه للاستِواءِ عليه دونَ خَلْقِه دَليلٌ على أنَّه كان مَخلوقًا قبْلَ ذلك[٢].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ دَلالةٌ على بُطلانِ تأويلِ الاستِواءِ بمعنى المِلْكِ؛ لأنَّه سُبحانَه أخبَرَ أنَّه خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ في سِتَّةِ أيَّام، ثمَّ استوى على العَرشِ استواءً يليقُ بجلالِه، وقد أخبرَ أنَّ العَرشَ كان مَوجودًا قبْلَ خَلقِ السَّمواتِ والأرضِ، كما دلَّ على ذلك الكِتابُ والسُّنَّةُ، وحينَئذٍ فهو من حِينِ خلَقَ العَرشَ مالِكٌ له مُستَولٍ عليه؛ فكيف يكونُ الاستواءُ عليه -على تأويلِه بالمِلْكِ- مؤخَّرًا عن خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ؟! وأيضًا فاللهُ مالِكٌ لكُلِّ شَيءٍ، مُستَولٍ عليه؛ فكيف يُخَصُّ العرشُ بالاستواءِ على هذا التأويلِ[٣]؟!

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ إثباتُ قيامِ الأفعالِ الاختياريَّةِ باللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ الاستِواءَ مِن الأفعالِ الَّتي يفعَلُها بمَشيئتِه، وهي الَّتي يُعَبَّرُ عنها أحيانًا بالصِّفاتِ الفِعليَّةِ[٤].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ إثباتُ استواءِ اللهِ على عَرشِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٣١).
(٢) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٣/ ٢٨٢).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٣٧٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٣٢).

وهو عُلُوُّه واستِقرارُه عليه بدونِ تكييفٍ(١)، وإبطالُ قولِ المُعطِّلةِ والجهميَّةِ الَّذين يقولون: ليس على العرشِ شَيءٌ سِوى العَدَمِ! وإنَّ اللهَ ليس مُستويًا على عرشِه! إلى غيرِ ذلك مِن أقوالِهم الباطلةِ(٢)!

وقد وَصَفَ الله تعالى نفسَه بالاستواءِ على العرشِ في سبعِ آياتٍ مِن كتابِه؛ في هذه السورةِ وفي (الأعرافِ) و(يونسَ) و(الرعدِ) و(طه) و(الفرقانِ) و(الحديدِ)، ولم يذكُرْ صفةَ الاستواءِ في أحدِ تلك المواضعِ السبعةِ إلا مقرونةً بشيءٍ مِن صفاتِ الكمالِ والجلالِ يُبْهِرُ العقولَ، ويقضي بأنَّه العظيمُ الأعظمُ التي لا يُماثلُه شيءٌ في شيءٍ مِن صفاتِه، ولا في ذاتِه، ولا أفعالِه، وأنَّ جميعَ تلك الصفاتِ بما فيها الاستواءُ لا يجوزُ جَحْدُ شيءٍ منها ولا إنكارُه(٣).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ رَدٌّ على القَدَريَّةِ الَّذين يَدَّعونَ أنَّ أمرَ الإنسانِ مُستقِلٌّ به؛ لأنَّنا نقولُ: إنَّ فِعلَ الإنسانِ مِن الأمرِ، والَّذي يُدبِّرُه هو اللهُ عزَّ وجلَّ(٤).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ إثباتُ عُلُوِّ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فقَولُه تعالى: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ هذا النُّزولُ، وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ هذا الصُّعودُ، ولا نُزولَ إلَّا مِن عالٍ، ولا صعودَ إلَّا إلى عالٍ؛ فيُستفادُ عُلُوُّ اللهِ تعالى مِن الجُملتينِ؛ مِن كلٍّ واحدةٍ على انفرادٍ(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٣٢).
(٢) يُنظر: ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٩٥).
(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٧٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٣٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٣٧). ويُنظر أيضًا: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٣٣).

١٥- قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، وقال في سُورةِ (السَّجدةِ): ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، وقال في سُورةِ (المعارِجِ): ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ [المعارج: ٤]؛ فوقَعَ اختلافٌ في تَقديرِ اليوم.

ووَجْهُ ذلك: أنَّ المُرادَ في سُورةِ (الحجِّ) تَبيينُ أفْعالِه سُبحانَه، وأنَّه لا تكلُّفَ فيها ولا مُعالجةَ؛ فكأنْ قد قِيل لهم: إذا شاء هذا بكمْ وأراد إنفاذَهُ، كان وتَحصَّلَ في الوقتِ الوَجيزِ القريبِ منه ما تُقدِّرونَ حُصولَه ومُعالَجةَ وُقوعِه، أو تُقدِّرون تَهيئتَهُ ونُفوذَه بألْفِ سَنةٍ مِن أيَّامِكم، وإذا أراد سُبحانَه وُقوعَ ذلك كان عن أمْرِه (كُن) أعجَلَ مِن كلِّ عاجِلٍ؛ فلِمَ يَسْتعجِلون ما لا تَكلُّفَ في وُقوعِه وحُلولِه؟! وعلى هذا قولُه: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ﴾؛ فالمُرادُ أنَّ بُعْدَ هذه المسافةِ لا تَحولُ دونَ استعجالِ نُفوذِ تَدبيرِه، وإمضاءِ مَقاديرِه، وأنَّه سُبحانَه لَيُدَبِّرُها، ثمَّ تَرجِعُ إليه في وَقْتٍ لو وُكِّلَ ذلك إليكم، وكان مِن مَقدوراتِكم؛ لَفَعلتُموهُ في ألْفِ سَنةٍ. وأمَّا آيةُ (المعارِجِ) فالمُرادُ باليومِ المذكورِ فيها يومُ القيامةِ؛ ففيه مِن الأعمالِ المُتعلِّقةِ بالخَلْقِ ما يَتقدَّرُ وُقوعُه وتخلُّصُه مِن أيَّامِ الدُّنيا على مُتعارفِها -مع عَظيمِ أهْوالِه، وشِدَّةِ كُروبِه- مِن أيَّامِنا بخَمسينَ ألْفَ سَنةٍ[1]. وقيل: يومُ الألْفِ في سُورةِ (السَّجدةِ) هو مِقدارُ سَيرِ الأمْرِ وعُروجِه إليه تعالى. ويومُ الألْفِ في سُورةِ (الحجِّ) هو أحَدُ الأيَّامِ السِّتَّةِ الَّتي خلَقَ اللهُ فيها السَّمواتِ. ويومُ الخمسينَ ألْفًا هو يومُ القيامةِ. وقيل: المُرادُ بها جَميعِها يومُ القيامةِ، وإنَّ الاختلافَ باعتبارِ حالِ المُؤمنِ والكافرِ؛ بدليلِ قولِه: ﴿فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٦٠، ٣٦١).

يَوۡمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾[1] [المدثر: ٩، ١٠].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ افتُتِحَت السُّورةُ بالتَّنويهِ بشَأْنِ القُرآنِ؛ لأنَّه جامعُ الهُدى الَّذي تَضمَّنَتْه هذه السُّورةُ وغيرُها، ولأنَّ جِماعَ ضَلالِ الضَّالِّينَ هو التَّكذيبُ بهذا الكتابِ؛ فاللهُ جعَلَ القُرآنَ هُدًى للنَّاسِ، وخصَّ العرَبَ أنْ شرَّفَهم بجَعلِهم أوَّلَ مَن يَتلقَّى هذا الكِتابَ، وبأنْ أنزَلَه بلُغَتِهم؛ فكان منهم أشدُّ المُكذِّبينَ بما جاء به، لا جَرَمَ أنَّ تكذيبَ أولئك المُكذِّبينَ أعرَقُ في الضَّلالةِ، وأوغَلُ في أفَنِ الرَّأيِ[2].

- وافتِتاحُ الكلامِ بالجُملةِ الاسميَّةِ ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾؛ لِدَلالتِها على الدَّوامِ والثَّباتِ[3].

- وجِيءَ بالمُسنَدِ إليه ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ مُعرَّفًا بالإضافةِ لإطالتِه؛ لِيَحصُلَ بتَطويلِه ثُمَّ تَعقيبِه بالجُملةِ المُعترِضةِ التَّشويقُ إلى مَعرفةِ الخبَرِ، وهو قولُه: ﴿مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ولولا ذلك لَقِيل: (قُرآنٌ مُنزَّلٌ مِن ربِّ العالَمينَ)، أو نحوُ ذلك[4].

- وإنَّما عُدِلَ هنا عن أُسلوبِ قولِه: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِ﴾ في سُورةِ البقرةِ [١- ٢]؛ لأنَّ سُورةَ (البَقرةِ) نازلةٌ بيْن ظَهرانَيِ المُسلمينَ، ومَن يُرْجَى إسلامُهم مِن أهلِ الكِتابِ، وهمُ (الَّذينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا

---

(١) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٩٣، ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤]، وأمَّا هذه السُّورةُ (السَّجدة) فقد جابَهَ اللهُ بها المُشركينَ الَّذين لا يُؤمِنون بالإلهِ الواحدِ، ولا يُوقِنون بالآخرةِ؛ فهم أصلَبُ عُودًا، وأشدُّ كُفْرًا وصُدودًا[١].

- ووقَعَت جُملةُ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ بأُسلوبِ المَعلومِ المُقرَّرِ؛ فلم تُجعَلْ خبرًا ثانيًا عن المُبتدأِ؛ لِزيادةِ التَّشويقِ إلى الخبَرِ؛ لِيُقرِّرَ كَونُه مِن ربِّ العالَمينَ[٢].

- واستِحضارُ الجَلالةِ بطَريقِ الإضافةِ بوَصفِ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دونَ الاسمِ العَلَمِ وغيرِه مِن طُرقِ التَّعريفِ؛ لِمَا فيه مِن الإيماءِ إلى عُمومِ الشَّريعةِ، وكَوْنِ كِتابِها مُنزَّلًا للنَّاسِ كلِّهم، بخِلافِ ما سبَقَ مِن الكُتبِ الإلهيَّة. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ مِن جُملةِ دَواعي تَكذيبِهم به: أنَّه كيفَ خَصَّ اللهُ برِسالته بَشرًا منهم؟! حَسَدًا مِن عندِ أنفُسِهم؛ لأنَّ رُبوبيَّةَ اللهِ للعالَمينَ تُنبِئُ عن أنَّه لا يُسأَلُ عمَّا يَفعَلُ، وأنَّه أعلَمُ حيث يَجعَلُ رِسالاتِه[٣]، وأيضًا لأنَّ كِتابَ مَن يكونُ رَبَّ العالَمينَ يكونُ فيه عجائِبُ العالَمينَ، فتدعو النَّفْسُ إلى مُطالعتِه[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ (أم) للإضرابِ عن الكلامِ السَّابقِ إضرابَ انتقالٍ، وهي (أَم) المُنقطِعةُ الَّتي بمعنى (بَل)، وهي مُؤْذِنةٌ باستفهامٍ بالهَمزةِ، والاستِفهامُ المُقدَّرُ بعْدَها هنا تَعجُّبيٌّ؛ لأنَّهم قالوا هذا القولَ الشَّنيعَ، وعَلِمَه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٣٥).

النَّاسُ عنهم؛ فلا جَرَمَ كانوا أحِقَّاءَ بالتَّعجُّبِ مِن حالِهم ومَقالِهم؛ لأنَّهم أبْدَوا به أمْرًا غَريبًا يَعجَبُ منه العُقلاءُ ذَوو الأحلامِ الرَّاجحةِ، والنُّفوسِ المُنصِفةِ؛ إذ دَلائلُ انتفاءِ الرَّيبِ عن كَونِه مِن ربِّ العالَمينَ واضحةٌ، بَلْهَ[1] الجَزْمَ بأنَّه مُفترًى على اللهِ تعالى[2]!

- قولُه: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ﴾ صِيغَ الخَبرُ عن قَولِهم العَجيبِ بصِيغةِ المُضارِعِ ﴿يَقُولُونَ﴾؛ لاستِحضارِ حالةِ ذلك القولِ؛ تَحقيقًا للتَّعجُّبِ منه؛ حتَّى لا تَغفُلَ عن حالِ قَولِهم أذهانُ السَّامعينَ، وفي المُضارِعِ مع ذلك إيذانٌ بتَجدُّدِ مَقالتِهم هذه، وأنَّهم لا يُقلِعون عنها على الرَّغمِ ممَّا جاءهم مِن البيِّناتِ رَغْمَ افتِضاحِهم بالعَجْزِ عن مُعارَضتِه[3].

- وأضرَبَ على قَولِهم: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۚ﴾ إضرابَ إبطالٍ بقولِه: ﴿بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾؛ لإثباتِ أنَّ القُرآنَ حقٌّ. والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ تَعريفُ الجِنسِ المُفيدُ تَحقيقَ الجِنسيَّةِ فيه، أي: هو حقٌّ، ذلك الحقُّ المَعروفةُ ماهيَّتُه مِن بيْنِ الأجناسِ، والمُفارِقُ لِجنسِ الباطلِ، وفي تَعريفِ المُسندِ بلامِ الجِنسِ ذَريعةٌ إلى اعتبارِ كَمالِ هذا الجِنسِ في المُسنَدِ إليه، وهو مَعنى القَصرِ الادِّعائيِّ[4]

(١) بَلْهَ: بمعنَى دَعْ، وهي مَبْنيَّةٌ على الفتحِ. وقيلَ: مَعْناها: سِوَى. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٠٦، ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٠٧).

(٤) القَصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمُبالَغةِ، بتنزيلِ غيرِ المذكورِ مَنزلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه، كقولِه تعالى: ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا﴾ [النساء: ١١٧]، مع أنَّهم دَعَوْا هُبَلَ ويَغُوثَ ويَعُوقَ، لكنَّهم لَمَّا أكثَروا دَعوةَ اللَّاتِ والعُزَّى ومَنَاةَ جُعِلوا كالَّذي لا يدعو إلَّا إناثًا. وقولِه تعالى في حقِّ المنافقين: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ﴾ [المنافقون: =

للمُبالَغةِ، والحقُّ الواردُ مِن قِبَلِ اللهِ لا جَرَمَ أنَّه أكمَلُ جِنسِ الحقِّ[(١)].

- وفي قولِه: ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ استُحْضِرَتِ الذَّاتُ العَليَّةُ هنا بعُنوانِ ﴿رَبِّكَ﴾؛ لأنَّ الكلامَ جاء ردًّا على قولِهم: ﴿افْتَرَاهُ﴾، يَعْنون النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فكان مَقامُ الرَّدِّ مُقتضيًا تأْييدَ مَن ألْصَقوا به ما هو بَرِيءٌ منه؛ بإثباتِ أنَّ الكتابَ حَقٌّ مِن ربِّ مَن ألْصَقوا به الافتراءَ؛ تَنْويهًا بشَأْنِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وتَخلُّصًا إلى تَصديقِه؛ لأنَّه إذا كان الكِتابُ الَّذي جاء به حقًّا مِن عِندِ اللهِ، فهو رسولُ اللهِ حقًّا؛ فقولُه: ﴿رَبِّكَ﴾ بعدَ قولِه: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تَخصيصٌ بعدَ تَعميمٍ؛ للتَّخلُّصِ إلى إثباتِ نُبوَّتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والإيذانِ بأنَّ المُنزَّلَ الكائنَ مِن جِهةِ مالكِ العالَمينَ، ومُدبِّرِ أُمورِ المخلوقاتِ كلِّها هو الثَّابتُ مِن جِهةِ مَن هو مالكُك ومُدبِّرُ أمْرِك خاصَّةً؛ فدلَّ التَّخصيصُ بعدَ التَّعميمِ على عِظَمِ شأنِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ثُمَّ التَّصريحُ باسمِ الذَّاتِ والحَضرةِ الجامعةِ، وإثباتُ الخالقيَّةِ والمُدَبِّريَّةِ بعدَ الحُكمِ بإنزالِ هذا القرآنِ، دلَّ على تَعظيمِ شأنِ هذا المُنزَّلِ والمنزَّلِ عليه، كأنَّه قِيل: هو الحقُّ مِن ربِّك ذلك الَّذي خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ، ثمَّ استوَى على العَرشِ؛ فهو مِن بابِ ترتُّبِ الحُكمِ على الوَصفِ[(٢)].

- قولُه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ المَقصودُ به: تَذكيرُهم بأنَّهم

= ٤]، مع أنَّ المتظاهِرينَ بالشِّركِ والكفرِ أعداءٌ، لكنْ لَمَّا كانت مَضَرَّةُ عَداوةِ المنافقينَ أشَدَّ جُعِلَتْ عَداوةُ غَيرِهم كلا عَداوةٍ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و (٣/ ٦)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ٢٢)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٠٧، ٢٠٨).

أحوَجُ الأقوامِ إلى نَذيرٍ؛ إذ لم يَكونوا على بَقيَّةٍ مِن هُدًى، وإثارةُ هِمَمِهم لاغتباطِ أهلِ الكتابِ؛ لِيَتقبَّلوا الكِتابَ الَّذي أُنزِلَ إليهم، ويَسبِقوا أهلَ الكتابِ إلى اتِّباعِه؛ فيَكونَ للمُؤمنينَ منه السَّبْقُ في الشَّرعِ الأخيرِ، كما كان لِمَن لم يُسلِمْ مِن أهْلِ الكتابِ السَّبقُ ببَعضِ الاهتداءِ ومُمارَسةِ الكِتابِ السَّابقِ[٣].

- ولَمَّا حَكَى تعالى عنهم أنَّهم يَقولون: إنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ افتراهُ ورَدَّ عليهم، اقتَصَرَ في ذِكرِ ما جاء به القُرآنُ على الإنذارِ، وإنْ كان قد جاء له وللتَّبشيرِ؛ لِيَكونَ ذلك رَدْعًا لهم، ولأنَّه إذا ذُكِرَ الإنذارُ، صار عند العاقلِ فِكرٌ فيما أُنذِرَ به؛ فلعلَّ ذلك الفِكرَ يكونُ سَببًا لِهدايتِه[٤].

- وقد جاءتْ هذه الآيةُ على أُسلوبِ بَديعِ الإحكامِ؛ إذ ثبَتَ أنَّ الكتابَ تَنزيلٌ مِن ربِّ جميعِ الكائناتِ، وأنَّه يَحِقُّ ألَّا يَرتابَ فيه مُرتابٌ، ثمَّ انتقَلَ إلى الإنكارِ والتَّعجيبِ مِن الَّذين جَزَموا بأنَّ الجائيَ به مُفترٍ على اللهِ، ثمَّ ردَّ عليهم بإثباتِ أنَّه الحقُّ الكاملُ مِن ربِّ الَّذي نَسَبوا إليه افتراءَه، فلو كان افتَراهُ لَقَدَرَ اللهُ على إظْهارِ أمْرِه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤- ٤٧]، ثمَّ جاء بما هو أنْكَى للمُكذِّبينَ، وأبلَغُ في تَسفيهِ أحلامِهم، وأوغَلُ في النِّداءِ على إهمالِهم النَّظرَ في دَقائقِ المعاني؛ فبيَّنَ ما فيه تَذكرةٌ لهم ببَعضِ المَصالحِ الَّتي جاء لِأجْلِها هذا الكتابُ بقولِه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾؛ فقد جَمَعوا من الجَهالةِ ما هو ضِغْثٌ على إبَّالةٍ[٥]؛ فإنَّ هذا الكتابَ على أنَّ حَقِّيَّتَه مُقتضيةٌ المُنافَسةَ في

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٣٠).

(٥) ضِغْثٌ على إبَّالةٍ: أي: بليَّةٌ على أُخرى، والإبَّالةُ: الحُزمةُ مِن الحَطَبِ، والضِّغْثُ: قَبضةٌ مِن =

الانتفاعِ به ولو لم يُلْفَتوا إلى تَقلُّدِه، وعلى أنَّهم دُعوا إلى الأخْذِ به، وذلك ممَّا يُوجِبُ التَّأمُّلَ في حقِّيَّتِه؛ على ذلك كلِّه فهُم كانوا أحْوَجَ إلى اتِّباعِه من اليهودِ والنَّصارى والمجوسِ؛ لأنَّ هؤلاء لم تَسبِقْ لهم رِسالةُ مُرسَلٍ؛ فكانوا أبعَدَ عن طُرقِ الهُدَى بما تَعاقَبَ عليهم مِن القُرونِ دونَ دَعوةِ رسولٍ، فكان ذلك كافيًا في حِرصِهم على التَّمسُّكِ به، وشُعورِهم بمَزيدِ الحاجةِ إليه؛ رَجاءً منهم أنْ يَهتَدوا(١).

٣- قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ جِيءَ باسمِ الجَلالةِ مُبتدأً؛ لإحضارِه في الأذهانِ بالاسمِ المُختصِّ به؛ قَطعًا لِدابرِ عَقيدةِ الشَّريكِ في الإلهيَّةِ، وجِيءَ باسمِ المَوصولِ (الَّذي)؛ للإيماءِ إلى وَجهِ بِناءِ الخبَرِ، وأنَّه الانفرادُ بالرُّبوبيَّةِ لجَميعِ الخلائقِ في السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما، ومِن أولئك: المُشرِكون المَعْنيُّون بالخَبرِ. والخِطابُ مُوجَّهٌ إلى المُشرِكينَ على طَريقةِ الالْتفاتِ(٢).

- قولُه: ﴿ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ (مِن) زائدةٌ؛ لِتَأكيدِ النَّفيِ، أي: لا وَليَّ لكم ولا شَفيعَ لكم غيرُ اللهِ؛ فلا وِلايةَ للأصنامِ، ولا شَفاعةَ لها؛ إبطالًا لِمَا زَعَموه

= حشيش، مُختَلَطةُ الرَّطبِ باليابسِ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٤/ ١٦١٩)، ((مجمع الأمثال)) للميداني (١/ ٤١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١١).

لأصنامِهم مِن الوَصفينِ إبطالًا راجعًا إلى إبطالِ الإلهيَّةِ عنها[1].

- وفُرِّعَ على هذا الدَّليلِ إنكارٌ على عَدمِ تَدبُّرِهم في ذلك، وإهمالِهم النَّظرَ بقولِه: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾؛ فهو استِفهامٌ إنكاريٌّ[2].

٤- قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾

- قولُه: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ المَقصودُ مِن حَرفَيِ الابتِداءِ والانتِهاءِ (مِن وإلى) شُمولُ تَدبيرِ اللهِ تعالى الأُمورَ كلَّها في العالَمَينِ العُلويِّ والسُّفليِّ، تَدبيرًا شاملًا لها مِن السَّماءِ إلى الأرضِ؛ فأفادَ حَرفُ الانتهاءِ شُمولَ التَّدبيرِ لأُمورِ كلِّ ما في السَّمواتِ والأرضِ وفيما بيْنَهما. والتَّعريفُ في كلمةِ ﴿ٱلْأَمْرَ﴾ مُفيدٌ لاستِغراقِ الأُمورِ كلِّها، لا يَخرُجُ عن تَصرُّفِه شَيءٌ منها[3].

- وقيل: (ألْفٌ) يَجوزُ أنْ يُستعمَلَ كِنايةً عن الكَثرةِ الشَّديدةِ، كما يُقال: زُرْتُك ألْفَ مرَّةٍ، وقولُه تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]، وهو هنا بتَقديرِ كافِ التَّشبيهِ، أو كلمةِ (نَحو)، أي: كان مِقدارُه كألْفِ سَنةٍ، أو نَحوَ ألْفِ سَنةٍ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]. ويَجوزُ أنْ يكونَ (ألْفٌ) مُستعمَلًا في صَريحِ مَعناهُ. وقولُه: ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي: ممَّا تَحْسُبون في أعدادِكم، و(ما) مَصدريةٌ أو مَوصوليَّةٌ، وهو وَصفٌ لـ ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾. وهذا الوصفُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لا يَقْتضي كَوْنَ اسمِ (ألْفٍ) مُستعمَلًا في صَريح معناهُ؛ لأنَّه يَجوزُ أنْ يكونَ إيضاحًا للتَّشبيهِ؛ فهو قَريبٌ مِن ذِكرِ وَجهِ الشَّبهِ مع التَّشبيهِ، وقد يَترجَّحُ أنَّ هذا الوَصفَ لَمَّا كان في مَعنى الموصوفِ صار بمَنزلةِ التَّأكيدِ اللَّفظيِّ لِمَدلولِه، فكان رافعًا لاحتِمالِ المجازِ في العدَدِ[1].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٤).

الآيات (٦-١١)

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ۝١٠ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١١﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نَسْلَهُۥ﴾: أي: ولدَه وذرِّيَّتَه، وسُمِّي نسلًا لأنَّه يَنسَلُّ -أي: ينفصلُ- مِن أصلِه، والنَّسْلُ: الانفصالُ عن الشيءِ، وتَناسَلوا: وُلِد بعضُهم مِن بعضٍ، وأصلُ (نسل): يَدُلُّ على سَلِّ شيءٍ وانسلالِه[١].

﴿سُلَٰلَةٍ﴾: السُّلالةُ: فُعالةٌ مِن السَّلِّ، وهو استِخراجُ الشَّيءِ مِن الشَّيءِ، ومِن هذا يُقالُ للنُّطفةِ: سُلالةٌ، وللوَلَدِ: سَلِيلٌ وسُلالةٌ، وأصلُ (سل): يدُلُّ على مَدِّ الشَّيءِ في رِفقٍ وخَفاءٍ[٢].

﴿مَّهِينٍ﴾: أي: ضَعيفٍ مُمتَهَنٍ لا يُعبأُ به، وأصلُ (مهن): يدُلُّ على احتِقارٍ وحَقارةٍ في الشَّيءِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ١٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٥٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٥٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠١)، =

﴿وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾: جمْعُ فؤادٍ، وهو القلبُ؛ سمِّيَ بذلك لحرارَتِه، أو لتَوقُّدِه، وأصلُ (فأد): يدُلُّ على حُمَّى وشِدَّةِ حرارةٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ذلك الإلهُ هو سُبحانَه العالِمُ بكُلِّ ما غاب عن خَلقِه، وبكُلِّ ما هو مُشاهَدٌ، وهو العزيزُ الرَّحيمُ، الَّذي أتقَن خَلْقَ كلِّ شَيءٍ، وخلَق آدَمَ مِن طينٍ، ثمَّ خَلَق ذُرِّيَّتَه مِن مَنيٍّ ضَعيفٍ رقيقٍ، ثمَّ سَوَّاه اللهُ خَلْقًا مُعتَدِلًا، ونفَخَ فيه الرُّوحَ، وجعَل اللهُ لكم السَّمعَ والأبصارَ والأفئدةَ، ثم أنتم مع كلِّ هذه النِّعَمِ قليلًا ما تَشكُرونَه!

ثمَّ يَذكُرُ الله تعالى شُبُهاتِ المشركينَ، ويرُدُّ عليها، فيقولُ: وقال المُشرِكونَ استِبعادًا للبَعثِ بعدَ الموتِ: أئِذا تفرَّقَت أجسادُنا في الأرضِ وبَلِيَت أئِنَّا لَنَعودُ أحياءً ثانيةً؟! بل هؤلاء المُشرِكونَ يَجحَدونَ لقاءَ رَبِّهم.

قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاء المُشرِكينَ: يَتَوفَّاكم ملَكُ الموتِ الَّذي وكَّلَه اللهُ بقَبضِ أرواحِكم، ثمَّ تُرَدُّونَ بعدَ مَوتِكم إلى ربِّكم فيُجازيكم على أعمالِكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تقرَّر نَفاذُ أمرِ اللهِ تعالى، ودَلَّ ذلك على شُمولِ القُدرةِ، وكان شامِلُ القُدرةِ

= ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٦).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٦).

لا بُدَّ أن يكونَ مُحيطَ العِلمِ؛ كانت نتيجتُه لا مَحالةَ[١]:

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

أي: ذلك الإلهُ العَظيمُ الشَّأنِ، العالي القَدْرِ، الَّذي فَعَل ما وُصِفَ في الآياتِ السَّابقةِ: هو العالِمُ بكُلِّ ما غاب عن خَلْقِه[٢]، وهو العالِمُ بكُلِّ ما هو مُشاهَدٌ أو مُدرَكٌ مِن خَلْقِه[٣].

﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

أي: العَظيمُ القَدْرِ، الممتَنِعُ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ، الغالِبُ القاهِرُ، الشَّديدُ المنتَقِمُ مِن أعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه[٤].

﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى الدَّليلَ الدَّالَّ على الوحدانيَّةِ مِنَ الآفاقِ بقَولِه: ﴿خَلَقَ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٤٢، ٢٤٣).

(٢) قال ابن عثيمين: (الغَيبُ: ما غاب عن الخَلقِ، وهو نوعانِ: غَيبٌ مُطلَقٌ لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ، وغَيبٌ نِسْبيٌّ بحيث يكونُ غائبًا عن شَخصٍ، غيرَ غائبٍ عن آخَرَ، والمرادُ كِلاهما). ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٣٩، ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٣٩).

قال ابن عاشور: (عَالِمُ الغَيبِ، أي: ما غاب عن حَواسِّ الخَلقِ، وعالِمُ الشَّهادةِ، وهو ما يَدخُلُ تحتَ إدراكِ الحواسِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٤).

وقال القرطبي: (في الكلامِ معنى التَّهديدِ والوعيدِ، أي: أخلِصوا أفعالَكم وأقوالَكم؛ فإنِّي أُجازي عليها). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٤٠، ٤١).

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ [السجدة: ٤]، وأتَمَّه بتَوابِعِه ومكَمِّلاتِه- ذكَرَ الدَّليلَ الدَّالَّ عليها مِن الأنفُسِ؛ فشرَعَ يَذكُرُ خَلقَ الإنسانِ، فقال[1]:

﴿ ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾.

أي: الَّذي أتقَنَ خَلْقَ كلِّ شَيءٍ، وأحكَمَه وَفْقَ ما يَليقُ به، ويُناسِبُ المقصودَ مِن خَلْقِه[2].

كما قال تعالى: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [النمل: ٨٨].

وقال سُبحانَه: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ [الملك: ٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ [الأعلى: ٢].

﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾.

أي: وخلَق آدَمَ أبا البَشَرِ مِن طينٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٠)، ((تفسير المراغي)) (٢١/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٠)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٤٣).

وممَّن صَرَّح بأنَّ المرادَ بالإنسانِ هنا: آدَمُ عليه السَّلامُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، وابنُ جُزَي، وابن رجب، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤٢)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ١٦٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٢٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: قَتادةُ، ومجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٥٤٠). =

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾.

أي: ثمَّ جعَلَ اللهُ تعالى ذُرِّيَّةَ آدمَ مُستَخلَصةً مِن مَنِيٍّ ضَعيفٍ رَقيقٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۞ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

= وقيل: المرادُ بالإنسانِ هنا: جنسُ البَشَرِ. وابتِداءُ خَلْقِه هو خَلْقُ أصلِه آدَمَ عليه السَّلامُ. وممَّن صرَّح بذلك: ابنُ عاشور. وجعَلَه ابنُ عثيمينَ ممَّا تحتَمِلُه الآيةُ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٠)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٤٣، ٤٤).

ممَّن اختار أنَّ ﴿مَّهِينٍ﴾ أي: ضعيف: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والسمعاني، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٦).

ووُصِف بالضَّعفِ؛ لأنَّه لا يَسيلُ سَيَلانَ الماءِ، فهو يسيلُ ببُطءٍ. قاله ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٤٤).

وقيل: ﴿مَّهِينٍ﴾ أي: مُمْتَهَنٍ لَا خَطَرَ له عندَ النَّاسِ. وممَّن اختاره: البيضاوي، والشوكاني، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨٨)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٦).

قال ابنُ عاشور: (المَهينُ: الشَّيءُ الممتَهَنُ الَّذي لا يُعبَأُ به، والغَرَضُ مِن إجراءِ هذا الوَصفِ عليه: الاعتِبارُ بنِظامِ التَّكوينِ؛ إذ جعَلَ اللهُ تكوينَ هذا الجِنسِ المكتَمِلِ التَّركيبِ، العَجيبِ الآثارِ: مِن نَوعِ ماءٍ مُهراقٍ لا يُعبأُ به ولا يُصانُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٦).

وقال القاسميُّ جامعًا بيْن القولَينِ السابقَينِ: (﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ أي: ضعيفٍ مُمتهَنٍ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٩).

وقال سُبحانَه: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق: ٦، ٧].

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾.

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾.

أي: ثمَّ جعَلَه اللهُ خَلْقًا مُستوِيًا مُستقيمًا مُعتدِلًا، وجعَلَ فيه الرُّوحَ؛ فصار حَيًّا[(١)].

كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧١، ٧٢].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٧ - ٣٩].

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾.

أي: وأنعَمَ اللهُ عليكم -أيُّها النَّاسُ- بالسَّمعِ؛ لِتَسمَعوا الأصواتَ، وبالأبصارِ لِتُبصِروا المرئيَّاتِ، وبالأفئِدةِ لِتُدرِكوا بها المعقولاتِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٤٤، ٤٥).

قيل: الضميرُ هنا: لآدَمَ عليه السَّلامُ. وهو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ جرير، وذهب إليه ابنُ كثير، واستظهره ابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة. وهو قولُ مُقاتِلِ بنِ سُليمانَ أيضًا، يُنظر ((تفسيره)) (٣/ ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤).

أي: ثمَّ أنتم -معَ ما أنعَمَ اللهُ به عليكم- قليلًا ما تَشكُرونَ[١]!

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ۝١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قال الله تعالى: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩]، بيَّنَ عَدَمَ شُكرِهم بإتيانِهم بضِدِّه، وهو: الكُفرُ، وإنكارُ قُدرتِه تعالى على إحياءِ الموتى[٢].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ الرِّسالةَ بقولِه: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ [السجدة: ٣]، والوَحدانيَّةَ بقولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ...﴾ [السجدة: ٤] إلخ؛ أردفَ ذلك ذِكرَ البَعثِ، واستِبعادَ المُشرِكينَ له، ثمَّ الرَّدَّ عليهم[٣].

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ﴾.

أي: وقال المُشرِكونَ استِبعادًا للبَعثِ: أإذا ذَهَبَت في الأرضِ أجسادُنا، وتفرَّقَت

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٨).

قوله تعالى: ﴿قَلِيلٗا﴾ يجوزُ أن يُرادَ به: كَوْنُ الشَّيءِ حاصلًا ولكنَّه غيرُ كثيرٍ، ويجوزُ أن يكونَ استُعمِلَ في معنى المعدوم، وأنَّ المرادَ به العدَمُ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٨).

ممَّن اختار الأوَّلَ: ابنُ جرير، والسمعانيُّ، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٥).

قال الشوكاني في قوله: ﴿قَلِيلٗا﴾: (صفةُ مصدرٍ محذوف، أي: شكرًا قليلًا، أو صِفةُ زمانٍ محذوفٍ، أي: زمانًا قليلًا. وفي هذا بيانٌ لِكُفْرِهم لِنِعَمِ اللَّهِ، وتَرْكِهم لشُكْرِها إلَّا فيما نَدَر من الأحوالِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨٩).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ، وهو أنَّهم لا يَشكرونَ الله فيوحِّدونه، بل يَكفرون به: الواحديُّ، والبغوي، والقرطبي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢١/ ١٠٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٢).

فيها لحومُنا وعِظامُنا، وغابت في التُّرابِ وصارت مِثلَه، دون أن يتميَّزَ بَعضُه مِن بَعضٍ: أنَعودُ أحياءً مِن بعدِ تلك الحالِ[1]؟!

كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩].

﴿بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما ذكَروا؛ فهؤلاء المُشرِكونَ لا يَجحَدون قُدرةَ اللهِ على كلِّ شيءٍ، ولكِنَّهم يَجحَدونَ لِقاءَ ربِّهم للحِسابِ والجَزاءِ، بلا حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ[2]!

﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ۝١١﴾.

﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ المُشرِكينَ: يَستوفي مَلَكُ الموتِ -الَّذي وكَّلَه اللهُ بقَبضِ أرواحِكم- نُفوسَكم، فلا يَترُكُ منها شَيئًا، وعَدَدَكم فلا يُبقي منكم أحدًا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٨، ٢١٩).
قال الرسعني: (قال أكثَرُ المفسِّرينَ: المعنى: صِرْنا ترابًا، وذهَبْنا مُختلِطينَ بتُرابِ الأرضِ لا نَتمَيَّزُ منه). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٥٤، ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤).
قيل: هذا ردٌّ لِشُبهتِهم في إنكارِ البَعثِ بقولِهم: ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٍ جَدِيدٍ﴾، فمُمازَجةُ الرُّوحِ للبَدَنِ أشَدُّ مِن مُمازَجةِ ترابِ البدَنِ لبقيَّةِ التُّرابِ، وإذا كان هذا فِعلَ عَبدٍ =

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

أي: ثمَّ أنتم بعدَ مَوتِكم تُرَدُّونَ أحياءً يومَ القيامةِ إلى ربِّكم، فيُجازيكم على أعمالِكم[(١)].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ينبغي للإنسانِ أنْ يكونَ شُكْرُه على حسَبِ النعمةِ؛ ففي السَّمعِ يَستعمِلُ السَّمعَ فيما يُقَرِّبُ إلى اللهِ، ويمنعُه عمَّا حَرَّمَ اللهُ -وكذلك في البصرِ-، أمَّا القلبُ فيَجِبُ عليه أنْ يُعْرِضَ بقلبِه عن كُلِّ ما حَرَّمَ اللهُ؛ وأنْ يُقْبِلَ بقلبِه على كلِّ ما أمَرَ اللهُ به[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ذَمُّ مَن لا يَشْكُرُ[(٣)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ إثباتُ هذَينِ الاسمَينِ مِن أسمائِه تعالى: «العزيز» و«الرَّحيم» وما تضَمَّناه مِن الصِّفةِ، وهي العِزَّةُ والرَّحمةُ، وكمالُ عِزَّتِه ورحمتِه باجتماعِهما: أنَّه مع كَونِه عزيزًا قاهرًا غالبًا، فهو أيضًا رَحيمٌ؛ لأنَّ بعضَ الأعِزَّاءِ إذا عَزَّ لا يَرحَمُ، وبعضَ الرُّحماءِ تَصِلُ به الرَّحمةُ إلى أنْ يكونَ في مَقامِ الذُّلِّ؛ فهو سُبحانه وتعالى جامِعٌ بيْنَ العِزِّ والرَّحمةِ، وهذا مِن كمالِه، يعني: أنَّ الجَمعَ بينَ العِزَّةِ والرَّحمةِ فيه كَمالٌ أكثرُ مِن إثباتِ العِزَّةِ والرَّحمةِ، وهو أنَّ

= من عبيدِه صَرَّفَه في ذلك فقامَ به، فكيف يُستبعَدُ شَيءٌ من الأشياءِ على رَبِّ العالَمينَ، ومُدبِّرِ الخلائقِ أجمعينَ؟! قاله البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٥/ ٢٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٥٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٠).

رَحمتَه مَقرونةٌ بعِزٍّ، ليست رَحمةَ ذُلٍّ، وأنَّ عِزَّتَه أيضًا مَقرونةٌ برَحمةٍ، ليست عِزَّةَ جَبَروتٍ لا رَحمةَ فيها[1].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فيه إيماءٌ بأنَّه تعالى يُراعي المصالحَ تفَضُّلًا وإحسانًا[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ أنَّ كلَّ مخلوقٍ خُلِقَ على ما يُناسِبُ حالَه؛ لأنَّه لو لم يكُنِ الأمرُ كذلك لَمَا كان إحسانُ خَلْقٍ[3]! فإذا نظَرْتَ إلى الأشياءِ رأيتَها على ما ينبغي: صَلابةُ الأرضِ للنَّباتِ، وسَلاسةُ الهواءِ للاستِنشاقِ، وسَيَلانُ الماءِ لِنَقدِرَ عليه في كُلِّ موضعٍ، وحركةُ النَّارِ إلى فَوقٍ؛ لأنَّها لو كانت مِثلَ الماءِ تتحَرَّكُ يَمنةً ويَسرةً لاحترقَ العالَمُ؛ فخُلِقت طالبةً لجِهةِ فَوقٍ؛ حيثُ لا شَيءَ هناك يَقبَلُ الاحتراقَ[4].

٤- قال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾، فإحسانُ خَلْقِه يتضَمَّنُ تَسويتَه وتَناسُبَ خَلْقِه وأجزائِه، بحيثُ لم يحصُلْ بيْنَها تفاوُتٌ يُخِلُّ بالتَّناسُبِ والاعتدالِ؛ فالخَلقُ: الإيجادُ، والتَّسويةُ: إتقانُه وإحسانُ خَلقِه؛ فالتَّسويةُ شامِلةٌ لجميعِ مخلوقاتِه: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ﴾ [الملك: ٣]. وما يُوجَدُ مِنَ التَّفاوُتِ وعَدَمِ التَّسويةِ فهو راجِعٌ إلى عدَمِ إعطاءِ التَّسويةِ للمَخلوقِ؛ فإنَّ التَّسويةَ أمرٌ وُجوديٌّ تتعَلَّقُ بالتَّأثيرِ والإبداعِ، فما عَدِمَ منها فلِعَدمِ إرادةِ الخالقِ للتَّسويةِ، وذلك أمرٌ عَدَميٌّ يكفي فيه عدَمُ الإبداعِ والتَّأثيرِ. فتأمَّلْ ذلك؛ فإنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٤١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤١).

يُزيلُ عنك الإشكالَ في قَولِه: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]؛ فالتَّفاوُتُ حاصِلٌ بسَبَبِ عَدَمِ مَشيئةِ التَّسويةِ، كما أنَّ الجَهلَ والصَّمَمَ والعَمى والخَرَسَ والبَكَمَ: يكفي فيها عدَمُ مَشيئةِ خَلْقِها وإيجادِها. والمقصودُ: أنَّ كُلَّ مخلوقٍ فقد سَوَّاه خالقُه سُبحانَه في مَرتبةِ خَلْقِه، وإنْ فاتَتْه التَّسويةُ مِن وَجهٍ آخَرَ لم يُخلَقْ له[1].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ فيه سؤالٌ: كيف قال ذلك، مع أنَّ في مخلوقاتِه -تعالى- قَبيحًا كالشُّرورِ والمعاصي؟

الجوابُ: أنَّ ﴿أَحْسَنَ﴾ بمعنى: أتقَنَ وأحكَمَ، أو ﴿أَحْسَنَ﴾ بمعنى: عَلِمَ، كما يقالُ: فُلانٌ لا يُحسِنُ شَيئًا، أي: لا يَعلَمُه[2]. وللهِ سُبحانَه في كلِّ ما يَخلُقُه حِكمةٌ يُحِبُّها ويَرضاها، وهو سُبحانَه أحسَنَ كلَّ شَيءٍ خَلَقَه، وأتقَنَ كلَّ ما صنَع، فما وقَع مِنَ الشَّرِّ الموجودِ في المخلوقاتِ فقد وُجِد لأجْلِ تلك الحكمةِ المطلوبةِ المحبوبةِ المَرْضيَّةِ، فهو مِن الله حسَنٌ جميلٌ، وهو سُبحانَه محمودٌ عليه، وله الحمدُ على كلِّ حالٍ، وإن كان شرًّا بالنِّسبةِ إلى بعضِ الأشخاصِ[3].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ المرادُ بالإنسانِ: آدمُ عليه السَّلامُ، ومَعلومٌ أنَّ تَسويتَه ونَفْخَ الرُّوحِ فيه كان قبْلَ جَعْلِ نَسْلِه من سُلالةٍ مِن ماءٍ مَهينٍ، لكنْ لَمَّا كان المقصودُ ذِكرَ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ في مبدأ خَلْقِ آدَمَ وخَلقِ نَسْلِه، عَطَف ذِكْرَ أحدِهما على الآخَرِ، وأخَّرَ ذِكْرَ تَسويةِ آدَمَ ونَفْخِ الرُّوحِ فيه، وإنْ كان

---

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٥).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٥٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٩٩).

ذلك مُتوسِّطًا بيْن خَلْقِ آدَمَ مِن طينٍ وبيْن خَلْقِ نَسْلِه. واللهُ أعلمُ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ تَكذيبُ النَّظريَّةِ الكاذِبة، وهي نظريةُ «داروين» الَّذي يقولُ: إنَّ الخَلْقَ نَشَأَ بالتَّطَوُّرِ، وإنَّ أصلَ الإنسانِ قِردٌ، ثمَّ صار على طولِ الزَّمَنِ إنسانًا[٢]! وهذا القولُ لا شكَّ أنَّه كفرٌ وتكذيبٌ صريحٌ للقرآنِ؛ فيَجِبُ علينا أنْ نُنكِرَه إنكارًا بالغًا[٣].

٨- قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ المضافُ إلى الله سبحانَه نوعانِ: صفاتٌ لا تقومُ بأنفسِها، كالعِلمِ والقُدرةِ والكلامِ والسَّمعِ والبصرِ، فهذه إضافةُ صفةٍ إلى الموصوفِ بها، فعلمُه وكلامُه وإرادتُه وقدرتُه وحياتُه صفاتٌ له غيرُ مخلوقةٍ، وكذلك وجهُه ويدُه سبحانَه.

والثاني إضافةُ أعيانٍ منفصلةٍ عنه، كالبيتِ والنَّاقةِ والعبدِ والرَّسولِ والرُّوحِ، فهذه إضافةُ مخلوقٍ إلى خالقِه، ومصنوعٍ إلى صانعِه، لكنَّها إضافةٌ تقتضي تخصيصًا وتشريفًا يتميَّزُ به المضافُ عن غيرِه، كبيتِ الله، وإن كانت البيوتُ كلُّها مِلكًا له، وكذلك ناقةُ الله، والنُّوقُ كلُّها مِلكُه وخلقُه، لكنْ هذه إضافةٌ إلى إلهيتِه تقتضي محبتَه لها وتكريمَه وتشريفَه، بخلافِ الإضافةِ العامَّةِ إلى ربوبيتِه حيثُ تقتضي خلقَه وإيجادَه[٤].

٩- وفي قولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ امتنانٌ بقُوى الحَواسِّ وقُوى العَقلِ، وهو أقْوى مِنَ الامتِنانِ بالخلْقِ وتَسويتِه؛ لأنَّ الانتِفاعَ بالحَواسِّ

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٤٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٠/ ٨٢٨).

(٤) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٥٤).

والإدراكِ مُتكرِّرٌ مُتجدِّدٌ؛ فهو مَحسوسٌ، بخلافِ التَّكوينِ والتَّقويمِ؛ فهو مُحتاجٌ إلى النَّظرِ في آثارِه(١).

١٠- قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾، فذَكَر طَريقَ الفَهمِ ومكانَ الفَهمِ؛ فطَريقُ الفَهمِ هو السَّمْعُ والبَصَرُ، ومَحَلُّ الفَهمِ والوَعيِ هو القَلبُ؛ ولهذا يكونُ السَّمعُ والبَصَرُ كقَناتَينِ تَصُبَّانِ في القَلبِ، فيتَلَقَّى ما يَسمَعُ أو يُبصِرُ ثمَّ يَصُبَّانِ في القَلبِ، وهو محلُّ الوَعيِ والإدراكِ، ولم يَذكُرِ «الشَّمَّ والذَّوقَ واللَّمسَ»؛ لأنَّ الاتِّعاظَ بالآياتِ يكونُ بالسَّمعِ والبَصَرِ(٢).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ إبطالُ قَولِ مَن يقولُ: «إنَّ البعثَ إيجادٌ مِن عَدَمٍ»؛ فقولُهم: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا﴾ يقولونَ: كيف بعدَما نَغيبُ في الأرضِ ونكونُ ترابًا، كيف نُبعَثُ؟! فدلَّ هذا على أنَّ البَعثَ هو إعادةُ ما سَبَقَ، وليس باستِدعاءِ خَلْقٍ جديدٍ(٣).

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ فيه سُؤالٌ: لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الرِّسالةَ ذكَرَ مِن قَبْلُ دَليلَها، وهو التَّنزيلُ الَّذي لا رَيبَ فيه، ولَمَّا ذكَرَ الوحدانيَّةَ ذكَرَ دليلَها، وهو خَلقُ السَّمَواتِ والأرضِ، وخَلْقُ الإنسانِ مِن طينٍ، ولَمَّا ذكَرَ إنكارَهم الحَشرَ لم يَذكُرِ الدَّليلَ؟

الجوابُ: ذكَرَ دَليلَه أيضًا؛ وذلك لأنَّ خَلْقَ الإنسانِ ابتداءً دَليلٌ على قُدرتِه على إعادتِه؛ ولهذا استدَلَّ اللهُ تعالى على إمكانِ الحَشرِ بالخَلقِ الأوَّلِ، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقَولِه تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٤٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٥).

﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]، وكذلك خَلقُ السَّمَواتِ، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ﴾[1] [يس:٨١].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ يُنبِئُ عن بقاءِ الأرواحِ؛ فإنَّ التَّوفِّيَ: الاستيفاءُ، والقَبضَ هو الأخذُ؛ والإعدامُ المحضُ ليس بأخذٍ[2].

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ فيه سؤالٌ: أسنَدَ في هذه الآيةِ الكريمةِ التَّوفِّيَ إلى مَلَكِ الموتِ، وأسنَده إلى المَلائكةِ في قَولِه تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [محمد: ٢٧]، وأسنَدَه إلى نَفْسِه جلَّ وعلا، في قَولِه: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

الجوابُ: أنَّ إسنادَ التوفِّي إلى مَلَكِ الموتِ في قَولِه هنا: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]؛ لأنَّه هو المأمورُ بقَبضِ الأرواحِ؛ وأنَّ إسنادَه للمَلائكةِ في قَولِه تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [محمد: ٢٧]، ونحوِها مِنَ الآياتِ؛ لأنَّ لِمَلَكِ الموتِ أعوانًا يَعمَلونَ بأمْرِه، ويَنزِعونَ الرُّوحَ إلى الحُلقومِ، فيَأخُذُها مَلَكُ الموتِ؛ وقد جاء في حديثِ البَراءِ بنِ عازِبٍ الطَّويلِ المشهورِ: أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ العبْدَ المؤمِنَ إذا كانَ في انْقِطاعٍ مِنَ الدُّنْيا، وإقْبالٍ مِن الآخِرَةِ، نزَل إليه ملائكةٌ مِن السَّماءِ ...)) وفيه: ((ثمَّ يَجيءُ مَلَكُ المَوتِ عليه السَّلامُ، حتَّى يجلِسَ عندَ رأسِه، فيقول: أَيَّتُها النَّفْسُ الطَّيِّبةُ، اخْرُجي إلى مغفرةٍ مِن اللهِ ورضوانٍ. فتَخرُجُ تَسيلُ كما تَسيلُ القَطْرةُ مِن فِي السِّقاءِ، فيأخُذُها، فإذا أخَذَها لم يَدَعوها في يَدِه طَرْفةَ عَينٍ حتَّى

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يَأخُذوها...)) الحديثَ[١]. وأنَّ إسنادَه إلى اللهِ تعالى في قَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]؛ لأنَّ كُلَّ شَيءٍ كائنًا ما كان لا يكونُ إلَّا بقَضاءِ الله وقَدَرِه، ومَلَكُ الموتِ لا يَقدِرُ أن يَقبِضَ رُوحَ أحدٍ إلَّا بإذنِ اللهِ ومَشيئتِه تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾[٢] [آل عمران: ١٤٥].

١٥- قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ هذا التَّوكيلُ ليس توكيلًا لحاجةٍ، ولكِنَّه توكيلُ سُلطانٍ وعَظَمةٍ، فالله عَزَّ جَلَّ لا يحتاجُ، وإذا أراد شيئًا قال له: كُنْ، فيَكونُ، لكِنَّه يُوكِّلُ ذلك توكيلَ سُلطانٍ وعَظَمةٍ؛ لِبَيانِ سُلطانِه وعظَمتِه، وأنَّ كُلَّ شَيءٍ في خِدمتِه سُبحانَه وتعالى، وفي عبادتِه[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ جِيءَ بالإشارةِ إلى اسمِ الجَلالةِ بعدَما أُجرِيَ عليه مِن أوصافِ التَّصرُّفِ بخَلْقِ الكائناتِ، وتَدبيرِ أُمورِها؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المُشارَ إليه باسمِ الإشارةِ حَقيقٌ بما يَرِدُ بعدَ اسمِ الإشارةِ من

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في ((المصنف)) (١٢٠٥٩)، وأحمد (١٨٥٣٤)، والحاكم في ((المستدرك)) (١٠٧) بألفاظٍ مُتقاربةٍ.
صحَّحَ إسنادَه الطَّبريُّ في ((مسند ابن عمر)) (٢/٤٩٤)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (١/٣٠٠)، وحسَّنه المنذريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (٤/٢٨٠)، وصحَّحَه الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (٣٥٥٨).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٨٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٨٤، ١٨٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٠، ٢٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٥٨).

أجْلِ تلك الصِّفاتِ المُتقدِّمةِ[١].

- قولُه: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ المَقصودُ هو عِلمُ الغَيبِ؛ لأنَّهم لَمَّا أنْكَروا البَعثَ وإحياءَ المَوتَى، كانت شُبهتُهم في إحالتِه أنَّ أجزاءَ الأجسامِ تَفرَّقَتْ وتَخلَّلت الأرضَ؛ ولذلك عقَّبَ بقولِه بعْدَه: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭ﴾ [السجدة: ١٠]، وأمَّا عَطفُ (الشَّهادةِ) على (الغَيبِ) فتَكميلٌ واحتِراسٌ[٢].

- وقدَّمَ العِلمَ بالغَيبِ؛ لأنَّه أقوى وأشَدُّ إنباءً عن كمالِ العِلمِ[٣].

- قولُه: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ مُناسَبةُ وَصفِه تعالى بالعَزيزِ الرَّحيمِ عقِبَ ما تَقدَّمَ: أنَّه خلَقَ الخلْقَ بمَحضِ قُدرتِه بدُونِ مُعِينٍ؛ فالعِزَّةُ -وهي الاستِغناءُ عن الغَيرِ- ظاهِرةٌ، وأنَّه خلَقَهم على أحوالٍ فيها لُطفٌ بهم؛ فهو رَحيمٌ بهم فيما خَلَقَهم؛ إذ جعَلَ أُمورَ حَياتِهم مُلائمةً لهم، فيها نَعيمٌ لهم، وجنَّبَهم الآلامَ فيها؛ فهذا سَببُ الجمْعِ بيْن صِفَتيِ العزيزِ والرَّحيمِ هنا على خِلافِ الغالِبِ مِن ذِكرِ الحكيمِ مع العزيزِ[٤]. وفيه إيماءٌ إلى أنَّه تعالى مُتفضِّلٌ في جَميعِ ما ذُكِرَ، فاعلٌ بالإحسانِ[٥].

٢- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴾

- قولُه: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ قُرِئَ ﴿خَلَقَهُۥ﴾ بفَتْحِ اللَّامِ، فِعلًا ماضيًا،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨١).

صِفةً لـ ﴿كُلَّ﴾ أو لـ ﴿شَيْءٍ﴾. وقُرِئَ بسُكونِ اللَّامِ[1]: ﴿خَلْقَهُ﴾ قيل: هو بدلُ اشتمالٍ، والمبدَلُ منه ﴿كُلَّ﴾، أي: أحْسَنَ خَلْقَ كلِّ شيءٍ، فالضميرُ في ﴿خَلْقَهُ﴾ عائدٌ على ﴿كُلَّ﴾. وقيل: الضميرُ في ﴿خَلْقَهُ﴾ عائدٌ على الله، فيكونُ انتصابُه نصبَ المصدرِ المؤكِّدِ لمضمونِ الجملة؛ أي: خلَقه خَلْقًا، وهو أبلَغُ في الامتِنانِ؛ لأنَّه إذا قال: (أحسَنَ كلَّ شَيءٍ)، كان أبلَغَ مِن: (أحسَنَ خلْقَ كلِّ شَيءٍ)؛ لأنَّه قد يُحسِنُ الخلْقَ، ولا يكونُ الشَّيءُ في نَفْسِه حَسنًا، فإذا قال: أحسَنَ كلَّ شَيءٍ، اقتَضى أنَّ كلَّ شَيءٍ خلَقَه حَسنٌ، بمعنى: أنَّه وضَعَ كلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه[2].

- وقولُه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴾ ارْتقاءٌ في الاستِدلالِ، مَشوبٌ بامتنانٍ على النَّاسِ أنْ أحسَنَ خَلْقَهم في جُملةِ إحسانِ خَلْقِ كلِّ شَيءٍ، وبتَخصيصِ خَلْقِ الإنسانِ بالذِّكرِ، والمَقصودُ: أنَّه الَّذي خَلَقَ كلَّ شَيءٍ، وخاصَّةً الإنسانَ خلْقًا بعدَ أنْ لم يكُنْ شيئًا مَذكورًا، وأخرَجَ أصْلَه مِن تُرابٍ، ثمَّ كوَّنَ فيه نِظامَ النَّسلِ مِن ماءٍ؛ فكيف تُعجِزُه إعادةُ أجزائِه؟! وتَخلَّصَ مِن هذا الوَصفِ العامِّ إلى خَلْقِ الإنسانِ؛ لأنَّ في خِلقةِ الإنسانِ دَقائقَ في ظاهرِه وباطنِه[3]. وقيل: لَمَّا كان الحيوانُ أشرَفَ الأجناسِ، وكان الإنسانُ أشرَفَه- خصَّه بالذِّكرِ؛ لِيَقومَ دَليلُ الوَحدانيَّةِ بالأنفُسِ كما قام قَبلُ بالآفاقِ[4].

٣- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾

---

(١) قرأه بفتح اللَّامِ: نافعٌ وعاصمٌ وحمزةُ والكِسائيُّ وخلَفٌ، والباقون بسكونها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٧)، ((إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر)) للبناء (ص: ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٥، ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٤٤).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾، وقال في سُورةِ (المؤمنون): ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾؛ لأنَّ المَذكورَ هنا صِفةُ ذُرِّيَّةِ آدمَ، والمَذكورَ ثَمَّ صِفةُ آدمَ عليه السَّلامُ[1].

٤- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ ذِكرُ التَّسويةِ ونَفخِ الرُّوحِ في جانبِ النَّسلِ؛ يُؤذِنُ بأنَّ أصْلَه كذلك؛ فالكلامُ إيجازٌ[2].

- قولُه: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ النَّفخُ: تَمثيلٌ لِسَريانِ اللَّطيفةِ الرُّوحانيَّةِ في الكَثيفةِ الجَسديَّةِ، مع سُرعةِ الإيداعِ[3].

- وفي إضافةِ الرُّوحِ إلى ذاتِه سُبحانه تَشريفٌ للإنسانِ، وإيذانٌ بأنَّه خلْقٌ عَجيبٌ، وصُنعٌ بَديعٌ لا يَعلَمُ كُنْهَه إلَّا هو، وأنَّ له شأنًا، وله مُناسبةٌ إلى حَضرةِ الرُّبوبيةِ، وأنَّ أقْصَى ما تَنْتهي إليه العُقولُ البشَريَّةُ مِن مَعرفتِه هذا القَدرُ الَّذي يُعبَّرُ عنه تارةً بالإضافةِ إليه تعالى، وأُخرى بالنِّسبةِ إلى أمْرِه تعالى، كما في قولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[4] [الإسراء: ٨٥].

- قولُه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾، في قولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ الْتفاتٌ، فانتقَل مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ؛ لأنَّ المُخاطَبينَ مِن أفرادِ النَّاسِ، وجَعْلُ السَّمعِ والأبصارِ والأفئدةِ للنَّاسِ كلِّهم، غير خاصٍّ بالمُخاطَبينَ،

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٥٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢١٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨١).

فلمَّا انتهَضَ الاستِدلالُ على عَظيمِ القُدرةِ، وإتقانِ المُرادِ مِن المَصنوعاتِ المُتحدَّثِ عنهم بطَريقِ الغَيبةِ الشَّامِلِ للمُخاطَبينَ وغيرِهم؛ ناسَبَ أنْ يُلتفَتَ إلى الحاضِرينَ بنَقلِ الكلامِ إلى الخِطابِ؛ لأنَّه آثَرُ بالامتِنانِ، وأسعَدُ بما يَرِدُ بعدَه مِن التَّعريضِ بالتَّوبيخِ في قولِه: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[1]. وأيضًا في حِكايةِ أحوالِ الإنسانِ مِن مَبدأِ فِطرتِه، إلى نَفخِ الرُّوحِ فيه بطَريقِ الغَيبةِ، وحِكايةِ أحوالِه بعدَ ذلك بطَريقِ الخِطابِ المُنبِئِ عن استعدادِه للفَهمِ وصَلاحيَّتِه له: مِن الجَزالةِ ما لا غايةَ وَراءَه[2].

- والجَعلُ هنا إبداعيٌّ، واللَّامُ في ﴿لَكُمُ﴾ مُتعلِّقةٌ به، وتَقديمُ الجارِّ والمَجرورِ ﴿لَكُمُ﴾ على المَفعولِ الصَّريحِ ﴿ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾؛ للاهتِمامِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ، مع ما فيه مِن نَوعِ طُولٍ يُخِلُّ تَقديمُه بجَزالةِ النَّظمِ الكريمِ[3].

- والعُدولُ عن أنْ يُقالَ: (وجعَلَكم سامِعينَ مُبصِرين عالِمينَ) إلى قولِه: (جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ)؛ لأنَّ ذلك أعرَقُ في الفَصاحةِ، ولِمَا تُؤذِنُ به اللَّامُ مِن زيادةِ المِنَّةِ في هذا الجَعلِ؛ إذ كان جَعْلًا لِفائدتِهم ولِأجْلِهم، ولِمَا في تَعليقِ الأجناسِ مِن السَّمعِ والأبصارِ والأفئدةِ بفِعلِ الجَعلِ مِن الرَّوعةِ والجَلالِ في تَمكُّنِ التَّصرُّفِ، ولأنَّ كَلمةَ (الأفئدة) أجمَعُ مِن كَلمةِ (عاقِلين)؛ لأنَّ الفؤادَ يَشمَلُ الحواسَّ الباطنةَ كلَّها، والعقلُ بعضٌ منها[4].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٧).

- وكذلك في قولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ أفرَدَ السَّمعَ؛ لأنَّه مَصدرٌ لا يُجمَعُ، وجمَعَ الأبصارَ والأفئدةَ باعتبارِ تَعدُّدِ النَّاسِ(١). وقيل: الحِكمةُ في ذِكره المصدَرَ في السَّمعِ، وفي البَصَرِ والفُؤادِ الاسمَ، ولذا جمَعَهما دونَ السَّمعِ؛ لأنَّه مَصدَرٌ وهو لا يُجمَعُ: أنَّ السَّمعَ قُوَّةٌ واحدةٌ، ولها محلٌّ واحِدٌ، وهو الأُذُنُ، ولا اختيارَ لها فيه، وأنَّ الصَّوتَ مِن أي جانبٍ -كان- واصِلٌ إليه، ولا قُدرةَ للأُذُنِ على تخصيصِ السَّمعِ بإدراكِ البَعضِ دونَ البعضِ؛ وأمَّا البصَرُ فمحَلُّه العينُ، ولها فيه اختيارٌ؛ فإنَّها تتحَرَّكُ إلى جانبِ المرئيِّ دونَ غيرِه؛ وكذلك الفؤادُ: محلُّه الإدراكُ، وله نوعُ اختيارٍ؛ يَلتَفِتُ إلى ما يُريدُ دُونَ غَيرِه. فالسَّمعُ أصلٌ دونَ محلِّه؛ لعدمِ الاختيارِ له. والعَينُ كالأصلِ، وقُوَّةُ الإبصارِ آلَتُها. والفؤادُ كذلك، وقوَّةُ الفَهمِ آلتُه؛ فذَكَر في السَّمعِ المصدَرَ الَّذي هو القُوَّةُ، وفي الإبصارِ والأفئدةِ الاسمَ الَّذي هو محلُّ القوَّةِ، ولأنَّ السَّمعَ قُوَّةٌ واحِدةٌ لها محلٌّ واحدٌ؛ ولهذا لا يَسمَعُ الإنسانُ في زمانٍ واحدٍ كلامَينِ على وَجهٍ يَضبِطُهما، ويَرى في زمانٍ واحدٍ صُورتينِ فأكثَرَ ويُثبِتُهما(٢). وقيل: وحَّد السَّمعَ؛ لقلَّةِ التَّفاوُتِ فيه إذا كان سالِمًا(٣).

- وفي تَقديمِ السَّمعِ على البَصرِ في مَواقِعِه مِن القُرآنِ دليلٌ على أنَّه أفضَلُ فائدةً لِصاحبِه مِن البَصرِ؛ فإنَّ التَّقديمَ مُؤذِنٌ بأهمِّيَّةِ المُقدَّمِ؛ وذلك لأنَّ السَّمعَ آلةٌ لِتَلقِّي المعارِفِ الَّتي بها كَمالُ العقلِ، وهو وَسيلةُ بُلوغِ دَعوةِ الأنبياءِ إلى أفهامِ الأُمَمِ على وَجهٍ أكمَلَ مِن بُلوغِها بواسطةِ البصَرِ لو فُقِدَ السَّمعُ، ولأنَّ السَّمعَ تَرِدُ إليه الأصواتُ المَسموعةُ مِن الجِهاتِ السِّتِّ بدُونِ تَوجُّهٍ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٠٥، ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٢).

بخِلافِ البَصرِ؛ فإنَّه يَحتاجُ إلى التَّوجُّهِ بالالْتفاتِ إلى الجِهاتِ غيرِ المُقابلةِ. وتَقديمُ السَّمعِ والأبصارِ على الأفئدةِ هنا، عَكْسَ آيةِ (البقرةِ)؛ لأنَّه رُوعِيَ هنا تَرتيبُ حُصولِها في الوُجودِ؛ فإنَّه يَكتسِبُ المَسموعاتِ والمُبصَراتِ قبْلَ اكتسابِ التَّعقُّلِ(١)، فالإنسانُ يَسمَعُ أوَّلًا كَلامًا، فيَنظُرُ إلى قائِلِه لِيَعرِفَه، ثمَّ يتفكَّرُ بقَلبِه في ذلك الكلامِ لِيَفهَمَ مَعناه(٢). وقيل: لعلَّه قَدَّمهما؛ لأنَّه يُنتفَعُ بهما حالَ الولادةِ، وقدَّمَ السَّمعَ؛ لأنَّه يكونُ إذ ذاك أمتَنَ مِنَ البَصَرِ، وأمَّا العَقلُ فإنَّما يَحصُلُ بالتَّدريجِ؛ فلذا أخَّرَ مَحلَّه(٣).

وقيل: قدَّم السَّمعَ هاهنا، والقَلبَ في آيةِ سورةِ (البقرةِ)؛ لأنَّه عندَ الإعطاءِ ذَكَرَ الأدنى وارتقى إلى الأعلى، فقال: أعطاكم السَّمعَ، ثمَّ أعطاكم ما هو أشرَفُ منه وهو القَلبُ؛ وعندَ السَّلبِ قال: ليس لهم قَلبٌ يُدرِكون به، ولا ما هو دونَه، وهو السَّمعُ الَّذي يَسمَعونَ به، ممَّن له قَلبٌ يَفهَمُ الحقائِقَ ويَستَخرِجُها(٤).

- قولُه: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ بَيانٌ لِكُفرِهم بتلك النِّعمِ بطَريقِ الاعتِراضِ التَّذييليِّ، ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿قَلِيلًا﴾ مُستعمَلًا في حَقيقتِه؛ وهي كَوْنُ الشَّيءِ حاصلًا ولكنَّه غيرُ كَثيرٍ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ كِنايةً عن العدَمِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦]، وعلى الوَجهينِ يَحصُلُ التَّوبيخُ؛ لأنَّ النِّعمَ المُستحِقَّةَ للشُّكرِ وافِرةٌ دائمةٌ؛ فالتَّقصيرُ في شُكرِها وعَدمُ الشُّكرِ سَواءٌ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٥٨) و(٢١/ ٢١٧، ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨١، ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٨).

٥- قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِبَيانِ أباطيلِهم بطَريقِ الالْتفاتِ؛ إيذانًا بأنَّ ما ذُكِرَ مِن عَدمِ شُكرِهم بتلك النِّعمِ مُوجِبٌ للإعراضِ عنهم، وتَعديدِ جِناياتِهم لِغَيرِهم بطَريقِ المُباثَّةِ[1].

- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭ﴾ قال تعالى في تكذيبِ الكافِرينَ الرَّسولَ في الرِّسالةِ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ﴾ [السجدة: ٣] بلَفظِ المُستَقبَلِ، وقال هنا في تَكذيبِهم إيَّاه في الحَشرِ: ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ بلَفظِ الماضي؛ وذلك لأنَّ تَكذيبَهم إيَّاه في رِسالتِه لم يكُنْ قبْلَ وُجودِه، وإنَّما كان ذلك حالةَ وُجودِه، فقال: ﴿يَقُولُونَ﴾ يعني: هم فيه، وأمَّا إنكارُهم للحَشرِ فكان سابِقًا صادِرًا منهم ومِن آبائِهم، فقال ﴿وَقَالُوٓاْ﴾[2].

- والاستِفهامُ في قولِهم: ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا﴾ للتَّعجُّبِ والإحالةِ، أي: أظْهَروا في كلامِهم استبعادَ البَعثِ بعدَ فَناءِ الأجسادِ واختِلاطِها بالتُّرابِ؛ مُغالَطةً للمؤمنينَ، وتَرويجًا لِكُفرِهم[3].

- قولُه: ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭ﴾ بهَمزتينِ؛ أُولاهما للاستِفهامِ، والثَّانيةُ تأكيدٌ لِهَمزةِ الاستِفهامِ الدَّاخلةِ على ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، والمعنى على تَأْكيدِ الإنكارِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٢).
والمُباثَّة: مِن قَولِهم: بثَّ الرَّجُلُ الحديثَ: إذا أذاعه ونَشَره. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٢، ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٩).

- فإنْ قِيل: إذا كانتِ الجُملةُ الاستفهاميَّةُ هنا للإنكارِ؛ فكيف تَأْتي اللَّامُ الدَّالَّةُ على التَّوكيدِ ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؟

فالجوابُ: أنَّ المرادَ أنَّهم يُنكِرون أنْ يَتأكَّدَ ذلك، يعني: أيَتَأكَّدُ أنَّنا في خلْقٍ جديدٍ بعدَ أنْ تَأكُلَنا الأرضُ؟! وهو كقولِ إخوةِ يُوسفَ: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ﴾ [يوسف: ٩٠]؛ فهذا التَّأكيدُ كأنَّهم يُنكِرون ما أُكِّدَ مِن كَونِهم يُرجَعون[1].

- وتَأكيدُ جُملةِ ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بحَرفِ (إنَّ)؛ لأنَّهم حَكَوُا القولَ الَّذي تَعجَّبوا منه، وهو ما في القُرآنِ مِن تأكيدِ تَجديدِ الخلْقِ، فحَكَوه بالمَعنى[2].

- قولُه: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ لَمَّا ذكَرَ كُفرَهم بالإنشاءِ؛ أضرَبَ عنه إلى ما هو أبلَغُ في الكُفرِ؛ وهو أنَّهم كافِرون بجَميعِ ما يكونُ في العاقبةِ، لا بالإنشاءِ وَحْدَه؛ فقد خُوطِبوا بتَوفِّي ملَكِ الموتِ، وبالرُّجوعِ إلى ربِّهم بعدَ ذلك مَبعوثينَ للحِسابِ والجَزاءِ[3].

- قولُه: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ الإتيانُ بالجُملةِ الاسميَّةِ؛ لإفادةِ الدَّوامِ على كُفرِهم والثَّباتِ عليه. وتَقديمُ المَجرورِ ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ على ﴿كَٰفِرُونَ﴾؛ للاهتِمامِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ، وللرِّعايةِ على الفاصلةِ[4].

٦- قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ...﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ جارٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٩).

على طَريقةِ حِكايةِ المُقاولاتِ؛ لأنَّ جُملةَ (قُل) في معنى جَوابٍ لِقَولِهم: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة: ١٠]؛ أمَرَ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنْ يُعيدَ إعلامَهم بأنَّهم مَبعوثونَ بعدَ المَوتِ؛ فالمَقصودُ مِن الجُملةِ هو قولُه: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾؛ إذ هو مَناطُ إنْكارِهم، وأمَّا أنَّهم يَتوفَّاهم ملَكُ المَوتِ، فذَكَره لِتَذكيرِهم بالمَوتِ، وهم لا يُنكِرون ذلك، ولكنَّهم ألْهَتْهم الحياةُ الدُّنيا عن النَّظَرِ في إمكانِ البعثِ والاستِعدادِ له، فذُكِّروا به، ثمَّ أُدمِجَ فيه ذِكرُ ملَكِ الموتِ؛ لِزيادةِ التَّخويفِ مِن الموتِ، والتَّعريضِ بالوَعيدِ مِن قولِه: ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾؛ فإنَّه مُوكَّلٌ بكلِّ مَيِّتٍ بما يُناسِبُ مُعامَلتَه عندَ قَبضِ رُوحِه، وفيه إبطالٌ لِجَهلِهم بأنَّ الموتَ بيَدِ اللهِ تعالى، وأنَّه كما خلَقَهم يُميتُهم، وكما يُميتُهم يُحيِيهُم، وأنَّ الإماتةَ والإحياءَ بإذْنِه وتَسخيرِ ملائكتِه في الحالينِ؛ وذلك إبطالٌ لِقَولِهم: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [الجاثية: ٢٤]، فأعْلَمَهم اللهُ أنَّهم لا يَخرُجون عن قَبضةِ تَصرُّفِه طَرْفةَ عَينٍ؛ لا في حالِ الحياةِ، ولا في حالِ المَماتِ[1].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٠).

الآيات (١٢-١٤)

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾: أي: مُطَأْطِئُوها، وأصلُ (نكس): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ على رأسِه[1].

﴿حَقَّ﴾: أي: وجَب ولَزِمَ، والحَقُّ في أصلِه: المُطابقةُ والموافقةُ، وأصلُ (حقق): يدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[2].

﴿عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾: أي: الدَّائمَ الَّذي لا ينقطِعُ أبدًا، والخُلدُ: البقاءُ والدوامُ كالخُلودِ، وأصلُ (خلد): يدُلُّ على الثَّباتِ والمُلازمةِ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا أحوالَ هؤلاء الكافرينَ يومَ القيامةِ عندمَا يَقِفونَ للحسابِ: ولو تَرى -يا مُحمَّدُ- حينَ يُنكِّسُ المُجرِمونَ رُؤوسَهم يومَ القيامةِ عندَ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٦، ٢٤٧)، ((تحفة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٧)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٣٦٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٩٢).

تعالى، يقولونَ: ربَّنا أبصَرْنا وسَمِعْنا ما كُنَّا نُنكِرُه مِن الحَقِّ، فارجِعْنا إلى الدُّنيا نَعمَلْ صالِحًا؛ إنَّا الآنَ مُوقِنونَ بالحَقِّ!

ثُمَّ يَرُدُّ اللهُ تعالى عليهم، فيقولُ: ولو شِئْنا لهَدَيْنا كلَّ إنسانٍ في الدُّنيا إلى الحَقِّ، ولكِنْ حَقَّ القَولُ مِنِّي أنْ أملأَ جهنَّمَ مِن كُفَّارِ الجِنِّ والنَّاسِ أجمَعينَ، فيُقالُ لهم: ذوقوا العذابَ -أيُّها الكافِرونَ- بسَبَبِ تَكذيبِكم بيَومِ القيامةِ، إنَّا سنَتْرُكُكم في هذا العَذابِ، وذوقوا العذابَ غيرَ المُنقَطِعِ؛ بسَبَبِ كُفرِكم وتكذيبِكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى رجوعَهم إليه يومَ القيامةِ؛ ذكَرَ حالَهم في مُقامِهم بينَ يَديه[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ إنكارَهم البَعثَ؛ أردفَ بتصويرِ حالِ المُنكِرينَ أثَرَ البَعثِ، وذلك عندَ حَشرِهم إلى الحِسابِ[٢].

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

أي: ولو ترى -يا مُحمَّدُ- حينَ يُطأطِئُ المُجرِمونَ[٣] رُؤوسَهم يومَ القيامةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢١).

(٣) قيل: المرادُ بهم هنا: القائلونَ: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة: ١٠] من مُنكِري البعثِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والقرطبي، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢١).
=

عندَ اللهِ تعالى[1]؛ بسَبَبِ تكذيبِهم وعِصيانِهم[2]!

﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾.

أي: يَقولونَ: يا رَبَّنا أبصَرْنا وسَمِعْنا ما كُنَّا نُنكِرُه أو نَشُكُّ فيه مِنَ الحَقِّ، فارجِعْنا إلى الدُّنيا؛ لِنَعمَلَ فيها عَمَلًا صالِحًا، إنَّا الآنَ مُوقِنونَ بالحَقِّ[3]!

كما قال سُبحانَه: ﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨].

= وقيل: يجوزُ أن يكون المرادُ كُلَّ مُجرِمٍ، ويدخُلُ فيهم أولئك المنكِرونَ للبَعثِ دُخولًا أوَّليًّا. وممَّن قال بذلك: الشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٩١).

(١) قيل: ناكِسو رؤوسِهم حياءً وخجلًا. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٢).

وممَّن أضاف إلى الحياءِ أو الخجَلِ: النَّدمَ: ابنُ الجوزي، والرسعني، والعليمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٣٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٨١)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٩١).

وقال القرطبي: (﴿نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ﴾ أي: مِن النَّدمِ والخِزْيِ والحزنِ والذُّلِّ والغَمِّ). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩٥). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٦٦).

وقال البقاعي: (﴿نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ﴾ أي: مُطَأْطِئوها خجلًا وخوفًا، وخِزْيًا وذُلًّا). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩٥، ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢١، ٢٢٢).

قيل: جوابُ الشَّرطِ محذوفٌ، تقديرُه: لرأيتَ أمرًا عَجَبًا عَظيمًا. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، والشوكاني، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢١).

وقيل: المعنى: يا محمَّدُ، قُلْ للمُجرِمِ: ولو ترى إذِ المجرِمونَ ناكِسو رؤوسِهم عند رَبِّهم، لَنَدِمْتَ على ما كان منك. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩٥).

وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤].

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأٰتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا جوابٌ عن قَولِهم: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا﴾ [السجدة: ١٢]، وبيانُه هو أنَّه تعالى قال: إنِّي لو أردْتُ منكم الإيمانَ لهَديتُكم في الدُّنيا، ولَمَّا لم أهْدِكم تبيَّنَ أنِّي ما أردتُ وما شِئتُ إيمانكم، فلا أرُدُّكم(١).

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأٰتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾.

أي: ولو شِئْنا لهَدَينا كُلَّ إنسانٍ في الدُّنيا إلى الحَقِّ، فوفَّقْناه للإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ؛ فمَشيئةُ اللهِ تعالى صالحةٌ لذلك(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٰمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾

أي: ولكِنْ وجَبَ القولُ منِّي، وثَبَت ثُبوتًا لا تغيُّرَ فيه: أنْ أملأَ جهنَّمَ مِن كُفَّارِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٤)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢١، ٢٢٢).

الجِنِّ والنَّاسِ، فأُعَذِّبَهم فيها جميعًا[(١)].

كما قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤، ٨٥].

﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ لهم أنَّه لا رُجوعَ إلى الدُّنيا، أنَّبَهم على ما عَمِلوا من تَدْسِيةِ نُفوسِهم بفِعلِ المعاصي، وتَرْكِ الطَّاعةِ له، فقال[(٢)]:

﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾.

أي: فذُوقوا العذابَ -أيُّها الكافِرونَ- بسَبَبِ نِسيانِكم يومَ القيامةِ وتَكذيبِكم به، وتَرْكِكم العمَلَ استِعدادًا لِلِقاءِ اللهِ تعالى فيه، إنَّا نترُكُكم في العذابِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤، ٦٥٥).

والمرادُ بالقولِ هو قولُه تعالَى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢١/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٥).

قال الواحدي: (وتأويلُ النِّسيانِ هاهنا التَّركُ في قولِ المفسِّرينَ وأهلِ المعاني). ((البسيط)) (١٨/ ١٤٧).

=

كما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [الجاثية: ٣٤].

﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أي: وذوقوا عَذابًا تُخلَّدونَ فيه إلى الأبدِ؛ بسَبَبِ ما كُنتُم تَعملونَه في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والتَّكذيبِ والعِصيانِ[(١)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ رَدٌّ على القَدَريَّةِ الَّذين يقولون: إنَّ الإنسانَ مُستقِلٌّ بعَمَلِه، ليس لله سُبحانه وتعالى فيه تقديرٌ ولا خَلْقٌ! يَشاءُ لنَفْسِه، ويفعَلُ بنَفسِه! وليس لله تَعلُّقٌ بفِعلِه[(٢)]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ إثباتُ الكلامِ للهِ، وأنَّ كلامَه تعالى بحرفٍ؛ لأنَّ قولَه تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ حروفٌ، وفيه الرَّدُّ على مَن زَعَم أنَّ كلامَ اللهِ هو المعنى القائِمُ بالنَّفْسِ؛ إذْ لو كان كذلك لَقال سُبحانَه وتعالى: «ولكِنْ أردتُ أنْ أمْلأ»، ولم يقُلْ: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ﴾[(٣)].

= وقال ابنُ كثير: (﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ أي: [إنَّا] سنعامِلُكم معاملةَ النَّاسي؛ لأنَّه تعالى لا ينسَى شيئًا، ولا يضِلُّ عنه شيءٌ، بل من بابِ المقابلة). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٢).
وقال القاسمي: (﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ أي: جازَيْناكم جزاءَ نسيانِكم. أو تركْناكم في العذابِ تركَ المنسيِّ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أنَّ كُفَّارَ الجِنِّ في النارِ[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف جعَلَ جَميعَ الإنسِ والجِنِّ ممَّا يَملأُ بهم النَّارَ؟

الجوابُ: أنَّ هذا لبيانِ الجِنسِ، أي: جهنَّمُ تُملَأُ مِن الجِنِّ والإنسِ لا غيرُ؛ أمْنًا للملائِكةِ، ولا يقتضي ذلك دُخولَ الكُلِّ، كما يقولُ القائِلُ: (ملأْتُ الكِيسَ مِن الدَّراهِمِ)، لا يلزَمُ ألَّا يبقى دِرهَمٌ خارِجَ الكيسِ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أنَّ أهلَ النارِ يُوَبَّخونَ بتركِهم العملَ للنَّجاةِ منها، ويَتَفَرَّعُ على هذه الفائدةِ: زيادةُ التَّعذيبِ بالتَّعذيبِ القلبيِّ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا وُبِّخَ على عمَلٍ عَمِلَه؛ فإنَّه يَزدادُ حسرةً وندمًا[٣].

٦- قال الله تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ لو قال قائِلٌ: النِّسيانُ لا يكونُ إلَّا في المعلومِ أوَّلًا إذا جُهِلَ آخِرًا؟

فالجَوابُ: لَمَّا ظَهَرت براهينُه فكأنَّه ظَهَر وعُلِمَ، ولَمَّا تَرَكوه بعْدَ الظُّهورِ ذُكِرَ بلَفظِ النِّسيانِ؛ إشارةً إلى كَونِهم مُنكِرينَ لأمرٍ ظاهرٍ، كمَنْ يُنكِرُ أمرًا كان قد عَلِمَه[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ

---

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٥)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٦).

وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ، فكما أنَّهم أفنَوا حياتَهم في مَعصيةِ اللهِ؛ فإنَّ حياتَهم الآخِرةَ أيضًا ستكونُ في عذابِ اللهِ[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمۡ﴾ إطلاقُ النِّسيانِ على التَّركِ[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمۡ﴾ -يعني: تَركْناكم- إثباتُ الأفعالِ الاختياريةِ للهِ، وهذا يدُلُّ على أنَّه تعالى يَترُكُ مَن شاء، ويُقْبِلُ على مَن شاء[٣].

١٠- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمۡ﴾، وقولُه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾ [الأعراف: ٥١]، وقولُه: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡ﴾ [التوبة: ٦٧]، وقولُه: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٦]، وقولُه: ﴿وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾ [الجاثية: ٣٤]، لا يُعارِضُ قولَه تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]، وقولَه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]؛ لأنَّ معنى النِّسيانِ المُثبَتِ: هو تَركُهم في العذابِ مَحرومينَ مِن كلِّ خيرٍ، فالنِّسيانُ المثبَتُ بمعنَى التَّركِ، والمَنْفيُّ عنه تعالَى هو الَّذي بمعنَى السَّهْوِ؛ لأنَّه مُحالٌ على اللهِ تعالَى[٤].

١١- قَولُه تعالى: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾ أي: العذابَ غيرَ المُنقَطِعِ؛ فإنَّ العذابَ إذا كان له أجَلٌ وغايةٌ، كان فيه بعضُ التَّنفيسِ والتَّخفيفِ، وأمَّا عذابُ جهنَّمَ -أعاذنا اللهُ منه- فليس فيه رَوحُ راحةٍ، ولا انقِطاعَ لِعَذابِهم فيها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٠٢)، ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ جيءَ في تَصوير حالِ المنكِرينَ للبعثِ عندَ حَشرِهم إلى الحسابِ بطَريقةِ حَذفِ جَوابِ (لو)، حَذفًا يُرادِفُه أنْ تَذهَبَ نفْسُ السَّامعِ كلَّ مَذهبٍ مِن تَصويرِ فَظاعةِ حالِهم، وهَولِ مَوقفِهم بيْن يَدَيْ ربِّهم[1]؛ والخِطابُ لكلِّ أحدٍ ممَّن يَصلُحُ له كائنًا مَن كانَ؛ إذِ المُرادُ بيانُ كَمالِ سُوءِ حالِهم، وبُلوغِها مِن الفَظاعةِ إلى حيثُ لا يَختَصُّ استِغرابُها واستفظاعُها بِراءٍ دونَ راءٍ ممَّن اعتادَ مُشاهَدةَ الأُمورِ البَديعةِ، والدَّواهي الفظيعةِ، بل كلُّ مَن يَتأتَّى منه الرُّؤيةُ يَتعجَّبُ مِن هَولِها وفَظاعتِها[2]، فتوجيهُ الخِطابِ إلى غَيرِ مُعيَّنٍ لإفادةِ تَناهي حالِهم في الظُّهورِ حتَّى لا يَختَصَّ به مُخاطَبٌ[3].

- وقيل: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ ...﴾ يجوزُ أنْ يكونَ خِطابًا لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وفيه وَجهانِ: أنْ يُرادَ به التَّمنِّي، كأنَّه قال: ولَيْتَك تَرى؛ لأنَّه تَجرَّعَ منهم الغُصَصَ ومِن عَداوتِهم وضِرارِهم، فجعَلَ اللهُ له تَمنِّيَ أنْ يَراهم على تلك الصِّفةِ الفظيعةِ؛ مِن الحياءِ، والخِزْيِ، والغَمِّ؛ لِيَشمَتَ بهم، وأنْ تكونَ (لو) الامتناعيَّةُ قد حُذِفَ جَوابُها، وهو: لَرأيتَ أمْرًا فظيعًا، أو: لَرأيتَ أسوَأَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢١).

وردَّ أبو السعودِ هذا القولَ، فقال: (ومَنْ علَّلَ عُمومَ الخِطابِ بالقصدِ إلى بيانِ أنَّ حالَهم قد بلغتْ مِن الظُّهورِ إلى حيث يمتنعُ خَفاؤها البتَّةَ، فلا تختصُّ رؤيةُ راءٍ دونَ راءٍ، بل كلُّ مَن يتأتَّى منه الرُّؤيةُ فله مدخَلٌ في هذا الخِطابِ: فقد نأى عن تحقيقِ الحقِّ؛ لأنَّ المقصودَ بيانُ كمالِ فظاعةِ حالِهم كما يُفصِحُ عنه الجوابُ المحذوفُ، لا بيانُ كمالِ ظهورِها؛ فإنَّه مَسوقٌ مَساقَ المسلَّماتِ). ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٣).

حالٍ تُرى. ويَجوزُ أنْ يُخاطَبَ به كلُّ أحدٍ[١].

- قولُه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ (لو) و(إذ) كِلاهما للمُضيِّ، وإنَّما جازَ ذلك؛ لأنَّ المُترقَّبَ مِن اللهِ بمَنزلةِ المَوجودِ المَقطوعِ به في تَحقُّقِه[٢].

- والمُجرِمون همُ الَّذين قالوا: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ [السجدة: ١٠] -على قولٍ-؛ فهو إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لِقَصدِ التَّسجيلِ عليهم بأنَّهم في قَولِهم ذلك مُجرِمون، أي: آتُونَ بجُرمٍ؛ وهو جُرمُ تَكذيبِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَعطيلِ الدَّليلِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ عُدولٌ عن الجُملةِ الفِعليَّةِ إلى الجُملةِ الاسميَّةِ ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾؛ لِتقريرِ ثَباتِهم على نَكسِ رُؤوسِهم؛ خجَلًا، وحَياءً، وخِزْيًا، عندَما تَبْدو مَثالِبُهم وهَناتُهم بصُورةٍ دَميمةٍ شَوهاءَ، تَبعَثُ على الهُزءِ بهم، والسُّخريةِ منهم، كأنَّما استمرَّ ذلك منهم؛ لا يَرتفِعُ لهم رأسٌ، ولا يَمتدُّ منهم طَرْفٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢١).

وقال أبو حيان متعقِّبًا كلامَ الزمخشري: (والتَّمنِّي بـ «لو» في هذا الموضعِ بعيدٌ، وتَسميةُ «لو» الامتناعيَّةَ ليس بجيِّدٍ، بل العبارةُ الصحيحةُ «لو» لِمَا كان سيَقَعُ لِوُقوعِ غيرِه، وهي عِبارةُ سيبويه. وقولُه: قد حُذِفَ جوابُها، وتقديرُه: ولَيْتَك ترَى، ممَّا يدُلُّ على أنَّها إذا كانتْ للتَّمنِّي لا جوابَ لها، والصَّحيحُ: أنَّها إذا أُشرِبَتْ معنى التَّمنِّي، يكونُ لها جوابٌ كحالِها إذا لم تُشْرَبْه). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٣٥). ويُنظر: ((الكتاب)) لسيبويه (٤/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٨١).

- وجُملةُ ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ...﴾ إلى آخِرِها، مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه السِّياقُ هو في مَوضعِ الحالِ، أي: ناكِسو رُؤوسِهم، يَقولون أو قائلِينَ: أبصَرْنا وسمِعْنا. وحُذِفَ مَفعولُ ﴿أَبْصَرْنَا﴾ ومَفعولُ (سَمِعْنَا)؛ لِدَلالةِ المَقامِ، أي: أبصَرْنا مِن الدَّلائلِ المُبصَرةِ ما يُصدِّقُ ما أُخبِرْنا به -فقد رأَوُا البَعثَ مِن القُبورِ، ورَأَوْا ما يُعامَلُ به المُكذِّبون-، وسَمِعْنا مِن أقوالِ الملائكةِ ما فيه تَصديقُ الوعيدِ الَّذي تُوعِّدْنا[1].

- وقولُه: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ تَعليلٌ لِتَحقيقِ الوَعدِ بالعمَلِ الصَّالحِ؛ بأنَّهم صاروا مُوقِنينَ بحَقِّيَّةِ ما يَدْعوهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إليه؛ فكانتْ (إنَّ) مُغْنيةً غَناءَ فاءِ التَّفريعِ المُفيدةِ للتَّعليلِ[2].

- وعُدِلَ عن الجُملةِ الفِعليَّةِ إلى الاسميَّةِ المُؤكَّدةِ في قولِه: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهم ثابِتون على الإيقانِ، راغِبونَ فيه بعدَ أنْ ظهَرَت لهم المَغابُّ (العواقبُ) مُناديةً عليهم بالوَيلِ والثُّبورِ، وكلُّ ذلك للجِدِّ في الاستِدعاءِ؛ طمَعًا في الإجابةِ إلى ما سَألوه مِن الرَّجعةِ، وأنَّى لهم ذلك[3]؟!

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ اعتراضٌ بيْنَ القولِ المُقدَّرِ قبْلَ قولِه: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ [السجدة: ١٢]، وبيْنَ الجوابِ عنه بقولِه: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ﴾ [السجدة: ١٤]؛ فالواوُ الَّتي في صَدرِ الجُملةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٨١).

اعتراضيَّةٌ، وهي مِن قَبيلِ واوِ الحالِ. ومَفعولُ فِعلِ المَشيئةِ مَحذوفٌ؛ استِغناءً عن المَفعولِ بما يدُلُّ عليه جوابُ الشَّرطِ(١).

- وفي قولِه: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ إيجازٌ يَبلُغُ مَبلَغَ الإعجازِ؛ إذ حُذِفَ مُعظَمُ ما أُرِيدَ بحَرفِ الاستِدراكِ الوارِدِ على قولِه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾؛ فإنَّ مُقْتَضى الاستدراكِ أنْ يُقدَّرَ: ولكنَّا لَمْ نَشَأْ ذلك، بلْ شِئْنا أنْ نَخلُقَ النَّاسَ مُختارينَ بيْنَ طَريقَيِ الهُدى والضَّلالِ، ووَضَعْنا لهم دَواعيَ الرَّجاءِ والخَوفِ، وأرَيْناهم وَسائلَ النَّجاةِ والارتباكِ بالشَّرائعِ؛ قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، أي: الطَّريقينِ، وحَقَّقْنا الأخبارَ عن الجَزاءينِ بالوَعدِ والوعيدِ بالجنَّةِ وجَهنَّمَ، فلَأَمْلَأنَّ جهنَّمَ بأهْلِ الضَّلالِ مِن الجِنَّةِ والنَّاسِ أجمعينَ، فدخَلَ هذا في قولِه تعالى: ﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ بما يُشبِهُ دَلالةَ الاقتضاءِ، وإنَّما اختِيرَ الاقتصارُ في المَنطوقِ به الدَّالِّ على المَحذوفِ على شِقِّ مَصيرِ أهلِ الضَّلالِ؛ لأنَّه الأنسَبُ بسِياقِ الاعتراضِ إثْرَ كلامِ أهْلِ الضَّلالةِ في يومِ الجزاءِ، ولأنَّه أظهَرُ في تَعلُّقِ مَضمونِ جُملةِ الاعتراضِ بمَضمونِ اقتراحِهم(٢).

- وعُدِلَ عن الإضافةِ في ﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾، فلمْ يَقُلْ: (حقَّ قَولي)؛ لأنَّه أُريدَ الإشارةُ إلى قَولٍ مَعهودٍ، وهو ما في سُورةِ (ص): ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥]، أي: حَقَّ القولُ المعهودُ. واجتُلِبَت (من) الابتدائيَّةُ؛ لِتَعظيمِ شَأنِ هذا القولِ بأنَّه مِن اللهِ، وعُدِلَ عن ضَميرِ العَظَمةِ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٢٣، ٢٢٤).

ضَميرِ النَّفْسِ ﴿مِنِّي﴾؛ لإفادةِ الانفرادِ بالتَّصرُّفُ، ولأنَّه الأصلُ، مع ما في هذا الاختلافِ مِن التَّفنُّنِ[1].

- قَولُه ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ﴾، أي: الجِنِّ؛ طائِفةِ إبليسَ، وكأنَّه أنَّثَهم تحقيرًا لهم عندَ مَن يَستَعظِمُ أمْرَهم[2].

- قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ﴾ بدأ بالجِنِّ؛ لاستِعظامِ الكافِرينَ لهم، ولأنَّ المقامَ مقامُ تحقيرٍ لهم[3].

٣- قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ جوابٌ عن قولِهم: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ [السجدة: ١٢]؛ فالفاءُ لِتَفريعِ جوابٍ عن إقرارِهم؛ إلْزامًا لهم بمُوجَبِ إقرارِهم، أي: فيَتفرَّعُ على اعترافِكم بحَقِّيَّةِ ما كان الرَّسولُ يَدْعوكم إليه أنْ يَلحَقَكم عذابُ النَّارِ. ومَجيءُ التَّفريعِ مِن المُتكلِّمِ على ما هو من كلامِ المُخاطَبِ فيه إلْزامٌ بالحُجَّةِ[4].

- وقيل: الفاءُ في قولِه: ﴿فَذُوقُواْ﴾ لِترتيبِ الأمْرِ بالذَّوقِ على ما يُعرِبُ عنه ما قبْلَه مِن نَفْيِ الرَّجعِ إلى الدُّنيا، أو على الوَعيدِ المَحكيِّ، والباءُ في قولِه تعالى: ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ تَعذيبَهم ليس لِمُجرَّدِ سَبقِ الوَعيدِ به فقطْ، بلْ هو وسَبْقُ الوعيدِ أيضًا بسَبَبٍ مُوجبٍ له من قِبَلِهم؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٥٢)، ((تفسير القنوجي)) (١١/ ٢٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٤، ٢٢٥).

كأنَّه قِيل: لا رَجْعَ لكمْ إلى الدُّنيا أو: حقَّ وَعِيدي، فذُوقوا بسَببِ نِسيانِكم لِقاءَ هذا اليومِ الهائلِ، وتَرْكِكُم التَّفكُّرَ فيه، والاستِعدادَ له بالكُلِّيَّةِ[١].

- ومَفعولُ (ذُوقوا) مَحذوفٌ دلَّ عليه السِّياقُ، أي: فَذُوقوا ما أنتم فيه ممَّا دَعاكم إلى أنْ تَسْألوا الرُّجوعَ إلى الدُّنيا[٢].

- قولُه: ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ في إضافةِ (يومٍ) إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ تَهكُّمٌ بهم؛ لأنَّهم كانوا يُنكِرونه، فلمَّا تَحقَّقوه جُعِلَ كأنَّه أشدُّ اختِصاصًا بهم. والإشارةُ بـ﴿هَٰذَآ﴾ إلى اليومِ؛ تَهويلٌ له[٣].

- وجُملةُ ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ المُجرِمينَ إذا سَمِعوا ما عَلِموا منه أنَّهم مُلاقو العَذابِ مِن قولِه: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾، تَطلَّعوا إلى مَعرفةِ مَدَى هذا العذابِ المَذوقِ؟ وهل لَهم منه مَخلَصٌ؟ وهلْ يُجابون إلى ما سَألوا مِن الرَّجعةِ إلى الدُّنيا؛ لِيَتدارَكوا ما فاتَهم مِن التَّصديقِ؟ فأُعلِمُوا بأنَّ اللهَ مُهمِلٌ شَأْنَهم، أي: لا يَستجيبُ لهم، وهو كِنايةٌ عن تَركِهم فيما أُذيقوه[٤].

- وقد حُقِّقَ هذا الخبَرُ بمُؤكِّداتٍ؛ وهي: حَرفُ التَّوكيدِ (إنَّ)، وإخراجُ الكلامِ في صِيغةِ الماضي على خِلافِ مُقْتضى الظاهرِ مِن زَمنِ الحالِ؛ لإفادةِ تَحقُّقِ الفِعلِ حتَّى كأنَّه مَضى ووَقَعَ. وصُدِّرتِ الجملةُ بـ (إنَّ)، وعُطِفَ الطَّلَبيُّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٢٥، ٢٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٦).

على الخَبَرِيِّ؛ تشديدًا للانتقامِ منهم[(١)].

- قولُه: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ عَطفٌ على ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾، وهو وإنْ أفادَ تأكيدَ تَسليطِ العذابِ عليهم، فإنَّ عَطْفَه مُراعًى فيه ما بيْنَ الجُملتينِ مِن المُغايَرةِ بالمُتعلِّقاتِ والقُيودِ، مُغايرةً اقتَضَت أنْ تُعتبَرَ الجُملةُ الثَّانيةُ مُفيدةً فائدةً أُخرى؛ فالجُملةُ الأُولى تَضمَّنتْ أنَّ مِن سَببِ استِحقاقِهم تلك الإذاقةَ: إهمالَهم التَّدبُّرَ في حُلولِ هذا اليومِ، والجُملةُ الثَّانيةُ تَضمَّنَت أنَّ ذلك العذابَ مُستمِرٌّ، وأنَّ سببَ استمرارِ العذابِ، وعَدمِ تَخفيفِه؛ أعمالُهم الخاطئةُ، وهي أعمُّ مِن نِسيانِهم لِقاءَ يَومِهم ذلك[(٢)]. وفي إبهامِ المَذوقِ أوَّلًا، وبَيانِه ثانيًا بتَكريرِ الأمْرِ، وتَوسيطِ الاستئنافِ المُنبِئِ عن كَمالِ السَّخطِ بيْنَهما: مِن الدَّلالةِ على غايةِ التَّشديدِ في الانتقامِ منهم ما لا يَخْفَى[(٣)].



(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٤).

الآيات (١٥-١٧)

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿خَرُّوا۟﴾: الخُرورُ والخَرُّ: السُّقوطُ مِن عُلُوٍّ إلى الأرضِ، وخرَّ: سقَط على وَجهِه، وأصلُ (خَرَّ): هو اضْطِرابٌ، وسُقوطٌ مع صوتٍ[١].

﴿ تَتَجَافَىٰ ﴾: أي: ترتَفِعُ وتتنحَّى عن الفِراشِ، وأصلُ (جفو): يدُلُّ على نبوٍّ (أي: ارتفاعٍ أو تنحِّي) الشَّيءِ عن الشَّيءِ[٢].

﴿ٱلْمَضَاجِعِ ﴾: جمْع مَضْجَعٍ، وهو موضِعُ الضُّجوعِ والنَّومِ، وأصلُ (ضجع): اللُّصوقُ بالأرضِ على جَنْبٍ[٣].

﴿قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾: أي: ما تَلَذُّه وتَشتَهيه، وهي مأخوذةٌ مِن القُرِّ، أي: البَردِ، يُقالُ: قَرَّتْ عينُه، أي: بَرَدَت، فقد قيل: دَمعُ الفَرَحِ بارِدٌ، بخِلافِ دَمعِ الحُزنِ، وقيلَ: مأخوذةٌ مِنَ القَرارِ، والمعنى: أعطاهم اللهُ ما تَسكُنُ به أعينُهم فلا تطمَحُ إلى غَيرِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩٩)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٣٥٨).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٣)، ((تفسير =

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا أحوالَ المؤمنينَ الصادقينَ، وما أعدَّ لهم مِن ثوابٍ: إنَّما يُؤمِنُ بآياتِ اللهِ الَّذين إذا ذُكِّرُوا بها خَرُّوا إلى الأرضِ ساقِطينَ على وُجوهِهم سُجَّدًا؛ خُضوعًا لرَبِّهم، وإقرارًا بعُبوديَّته سُبحانَه، ونزَّهوا اللهَ تعالى في سُجودِهم عن كُلِّ النَّقائِصِ والعُيوبِ، وهم لا يَستكبِرونَ.

تَتباعَدُ جُنوبُهم عن فُرُشِهم، ويَتركُونَ النَّومَ لِمُناجاةِ رَبِّهم؛ خَوفًا مِن عذابِه، وطَمَعًا في ثوابِه، ويُنفِقونَ مِمَّا رَزَقهم اللهُ تعالى، فلا يَعلَمُ أيُّ أحدٍ ما أخفَى اللهُ لأولئك المؤمِنينَ مِمَّا تَقَرُّ به أعينُهم مِنَ النَّعيمِ؛ ثوابًا لهم بما كانوا يَعمَلونَه مِنَ الصَّالحاتِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الكافِرينَ بآياتِه، وما أعَدَّ لهم مِنَ العذابِ؛ ذكَرَ المؤمِنينَ بها ووصْفَهم، وما أعَدَّ لهم مِنَ الثَّوابِ[1].

وأيضًا لَمَّا كان قَولُه تعالى: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ قد أشار إلى أنَّ الحامِلَ لهم على الكُفرِ الكِبْرُ، وذكَرَ سُبحانَه أنَّه قَسَّم النَّاسَ قِسْمَينِ لأجْلِ الدَّارَينِ: تشَوَّفَت النَّفْسُ إلى ذِكرِ علامةِ أهلِ الإيمانِ، كما ذُكِرَتْ علامةُ أهلِ الكُفرانِ؛

= ابن عطية)) (٤/ ٣٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥).

فقال تعالى[١]:

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا ﴾.

أي: إنَّما يُؤمِنُ بآياتِ اللهِ[٢] الَّذين إذا ذُكِّروا بها بادَروا إلى إظهارِ التَّذَلُّلِ والخُضوعِ لله، فهَوَوا إلى الأرضِ ساقِطينَ على وُجوهِهم سُجَّدًا؛ تعظيمًا وخُضوعًا لرَبِّهم، وإقرارًا بعُبوديَّتِه سُبحانَه[٣].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

وقال سُبحانَه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٥٣، ٢٥٤).

(٢) قيل: المرادُ بها هنا: القرآنُ. وممَّن ذهب إلى ذلك: مقاتِلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٧).

وقيل: المرادُ: العُمومُ، فتَشملُ الآياتِ الكونيَّةَ، وتَشملُ الآياتِ الشَّرعيَّةَ على سبيلِ العُمومِ حتَّى فيما سبَق. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٧، ٢٢٨).

قال البقاعي: (﴿خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ أي: بادَروا إلى السُّجودِ مُبادرةَ مَن كأنَّه سَقَط من غيرِ قَصدٍ، خُضَّعًا للهِ من شِدَّةِ تواضُعِهم وخَشيتِهم وإخباتِهم له، خُضوعًا ثابتًا دائمًا). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٢٥٤).

أي: ونزِّهوا اللهَ تعالى في سُجودِهم عن جَميعِ النَّقائِصِ والعُيوبِ، تنزيهًا مُتلبِّسًا بحَمدِه، وإثباتِ صِفاتِ كَمالِه(١).

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقولُ في رُكوعِه وسُجودِه: ((سُبحانَك اللَّهُمَّ رَبَّنا وبحَمدِك، اللَّهُمَّ اغفِرْ لي))(٢).

﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

أي: يَسجُدونَ للهِ، ويُسَبِّحونَ بحَمدِه، والحالُ أنَّهم لا يَستَكبِرونَ(٣).

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

أي: تَرتَفِعُ وتَتباعَدُ جُنوبُ هؤلاءِ المؤمِنينَ مُتنَحِّيةً عن فُرُشِهم، فيَهجُرونَ النَّومَ لِمُناجاةِ اللهِ تعالى في اللَّيلِ؛ خَوفًا مِن غَضَبِه وسَخَطِه وعَذابِه، وطَمَعًا في رِضاهُ ورَحمتِه ومَغفِرتِه وثَوابِه(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٧، ٦٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٩٢).

(٢) رواه البخاري (٧٩٤) واللفظ له، ومسلم (٤٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٨٠).

قيل: لا يَستكبِرونَ عن السُّجودِ والتَّسبيحِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٨). واقتصَر مقاتِلُ بنُ سُليمانَ على السُّجودِ. يُنظر ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٥١).

وقيل: لا يَستكبِرونَ عن آياتِ رَبِّهم، فهم يتَّبِعونَها، ويَنقادونَ إليها. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٨، ٦٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩٩ - ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٥٥، ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: =

كما قال تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ إيثارَهم التَّقرُّبَ إلى اللهِ على حُظوظِ لَذَّاتِهم الجَسديَّةِ؛ ذكَرَ معه إيثارَهم

= ٦٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٨، ٢٢٩).

قيل: المقصودُ هنا: قيامُ اللَّيلِ. وقد مال إليه ابنُ جرير، وذهب إليه ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦١٣، ٦١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسنُ، ومجاهدٌ، وعطاءٌ، وأبو العاليةِ، وقَتادةُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦١٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٤٠).

وقيل: يَشملُ ذلك كلَّ مَن ترَكَ النَّومَ باللَّيلِ لذِكرِ الله ودعائِه، فيَدخُلُ فيه مَن صلَّى بيْن العِشاءين، ومَن انتظَر صلاةَ العِشاءِ فلمْ يَنَمْ حتَّى يُصَلِّيَها، لا سيَّما مع حاجتِه إلى النَّومِ، ومُجاهَدةِ نفْسه على ترَكِه لأداءِ الفريضةِ، ويَدخُلُ فيه مَن نام ثمَّ قام مِن نَومِه باللَّيلِ للتَّهَجُّدِ، ورُبَّما دخل فيه مَن ترَكَ النَّومَ عندَ طُلوعِ الفَجرِ، وقام إلى أداءِ صلاةِ الصُّبحِ، لا سيَّما مع غَلَبةِ النَّومِ عليه. قاله: ابن رجب. يُنظر: ((جامع العلوم والحِكَم)) (٢/ ١٤٢، ١٤٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦١٣).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والضَّحَّاكُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦١٢).

وقيل: تَجافي الجَنبِ: هو أن يُصلِّيَ الرَّجُلُ العِشاءَ والصُّبحَ في جماعةٍ. وممَّن استحسَنَ هذا المعنى: القرطبيُّ، وقال: (العادةُ أنَّ مَن حافَظَ على هذه الصَّلاةِ في أوَّلِ الوَقتِ يقومُ سَحَرًا يَتوضَّأُ ويُصَلِّي، ويَذكُرُ اللهَ عزَّ وجلَّ إلى أن يَطلُعَ الفَجرُ، فقد حصل التَّجافي أوَّلَ اللَّيلِ وآخِرَه، يؤيِّدُ هذا ما رواه مُسلِمٌ [٦٥٦] مِن حديثِ عُثمانَ بنِ عَفَّانَ قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: «مَن صلَّى العِشاءَ في جماعةٍ فكأنَّما قام نِصفَ اللَّيلِ، ومَن صلَّى الصُّبحَ في جماعةٍ فكأنَّما قام اللَّيلَ كُلَّه»). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٠١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: أبو الدَّرْداءِ، والضَّحَّاكُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٤١).

إيَّاهُ على ما به نَوالُ لَذَّاتٍ أُخرى، وهو المالُ؛ إذ يُنفِقون منه ما لو أبْقَوه لَكان مَجلبةَ راحةٍ لهم، فقال[١]:

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

أي: ومِمَّا رزَقَهم ربُّهم يُنفِقونَ في سَبيلِه سُبحانَه[٢].

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ١٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ جَزاءَ المُستَكبِرينَ، فتشَوَّفَتِ النَّفْسُ إلى جزاءِ المتواضِعينَ؛ أشار إلى جزائِهم بفاءِ السَّبَبِ؛ إشارةً إلى أنَّه هو الذي وفَّقَهم لهذه الأعمالِ برَحمتِه، وجعَلَها سَبَبًا إلى دُخولِ جَنَّته، ولو شاء لَكان غيرُ ذلك[٣].

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.

أي: فلا يَعلَمُ أيُّ أحَدٍ[٤] ما أخفَى اللهُ لأولئك المؤمنينَ مِنَ النَّعيمِ العَظيمِ في الجنَّةِ، مِمَّا تَقَرُّ به أعينُهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٥٦، ٢٥٧).

(٤) قيل: يَدخُلُ في هذا العُمومِ: الملائكةُ. وممَّن صرَّح بذلك: الزمخشريُّ، وابنُ تيميَّةَ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٨٠).
وقيل: المرادُ: أصحابُ النُّفوسِ البَشَريَّةِ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٩، ٢٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦١٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥).

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((قال اللهُ: أعدَدْتُ لِعِبادِيَ الصَّالحينَ ما لا عَينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خَطَرَ على قَلبِ بَشَرٍ؛ فاقرَؤوا إن شِئتُم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾))[1].

وعنِ المُغيرةِ بنِ شُعبةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((سأل موسى رَبَّه: ما أدنى أهلِ الجنَّةِ مَنزِلةً؟ قال: هو رجُلٌ يَجيءُ بعدَ ما أُدخِلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، فيُقالُ له: ادخُلِ الجنَّةَ، فيَقولُ: أيْ رَبِّ، كيف وقد نزَلَ النَّاسُ مَنازِلَهم، وأَخَذوا أَخَذاتِهم[2]؟! فيُقالُ له: أتَرْضَى أن يكونَ لك مِثلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِن مُلوكِ الدُّنيا؟ فيَقولُ: رَضِيتُ رَبِّ، فيقولُ: لك ذلك، ومِثلُه ومِثلُه ومِثلُه ومِثلُه، فقال في الخامسةِ: رَضِيتُ رَبِّ، فيقولُ: هذا لك وعَشَرةُ أمثالِه، ولك ما اشتَهَت نَفْسُك، ولَذَّتْ عَينُك! فيقولُ: رَضِيتُ رَبِّ. قال: رَبِّ، فأعلاهم مَنزِلةً؟ قال: أولئك الَّذين أرَدْتُ، غَرَسْتُ كَرامَتَهم بيَدِي، وخَتَمتُ عليها، فلَمْ تَرَ عَينٌ، ولم تَسمَعْ أُذُنٌ، ولم يَخطُرْ على قَلبِ بَشَرٍ، قال: ومِصْداقُه في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾))[3].

﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

أي: أعدَّ اللهُ لهم ذلك النَّعيمَ العظيمَ في الجنَّةِ؛ ثَوابًا لهم على أعمالِهم الصَّالحةِ الَّتي كانوا يَعمَلونَها في الدُّنيا[4].

(١) رواه البخاري (٣٢٤٤) واللفظ له، ومسلم (٢٨٢٤).

(٢) أخذوا أَخَذاتِهم: هو ما أخَذوه مِن كرامةِ مَولاهم وحصَّلوه، أو يكون معناه: قصَدوا منازِلَهم. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٤٦).

(٣) رواه مسلم (١٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٩٣).

كما قال تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ أنَّ التَّعصُّبَ في التَّقليدِ ليس مِن طَريقِ المؤمِنينَ؛ لِقَولِه: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾، ويُوجَدُ في المتعَصِّبينَ في التَّقليدِ مَن يَستكبِرُ عن الحَقِّ؛ إذا عُرِضَ عليه أبَى[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ فيه أنَّ الَّذي يؤمِنُ إيمانًا حَقيقيًّا: يُوجَدُ منه شواهِدُ الإيمانِ، وهم: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ﴾ بآياتِ رَبِّهم فتُلِيَت عليهم آياتُ القُرآنِ، وأتَتْهم النَّصائِحُ على أيدي رُسلِ اللهِ، ودُعُوا إلى التَّذَكُّرِ: سَمِعوها فقَبِلوها، وانقادوا و﴿خَرُّواْ سُجَّدٗا﴾ أي: خاضِعينَ لها خُضوعَ ذِكرٍ لله، وفَرَحٍ بمَعرفته، ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ لا بقُلوبِهم ولا بأبدانِهم فيمتَنِعون مِن الانقيادِ لها، بل مُتواضِعون لها، قد تلَقَّوها بالقَبولِ والتَّسليمِ، وقابَلوها بالانشِراحِ والتَّسليمِ، وتوصَّلوا بها إلى مَرضاةِ الرَّبِّ الرَّحيمِ، واهتَدَوا بها إلى الصِّراطِ المُستقيمِ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا ...﴾ الاستِدلالُ بالقَرائِنِ والأحوالِ على حَقيقةِ الشَّيءِ، وهذه مُفيدةٌ غايةَ الفائِدةِ للقُضاةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٨١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ أنَّ مِن عَلامةِ المؤمِنِ انقيادَه للمَواعِظِ[(١)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أنَّ مِن صِفاتِ المؤمِنِ التَّواضُعَ للحقِّ وللخَلْقِ[(٢)].

٦- قال الله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ في قَولِه: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أنَّه ينبغي للدَّاعي وللعامِلِ العابِدِ أنْ يكونَ دعاؤُه وعبادتُه بيْنَ الخَوفِ والرَّجاءِ[(٣)].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ لَمَّا كانت العِبادةُ تَقطَعُ عن التَّوسُّعِ في الدُّنيا، فرُبَّما دَعَت نَفْسُ العابِدِ إلى التَّمسُّكِ بما في يَدِه؛ خَوفًا مِن نَقصِ العبادةِ عن الحاجةِ؛ لِتَشوُّشِ الفِكرِ والحَركةِ لِطَلَبِ الرِّزقِ: حثَّ على الإنفاقِ منه؛ اعتمادًا على الخلَّاقِ الرَّزَّاقِ الَّذي ضَمِنَ الخَلَفَ؛ لِيَكونوا بما ضَمِنَ لهم أوثَقَ منهم بما عِندَهم، وإيذانًا بأنَّ الصَّلاةَ سَبَبٌ للبَرَكةِ في الرِّزقِ[(٤)]. وأيضًا فقد يَنشَطُ العبدُ في العبادةِ البدنيَّةِ، لكنَّه يَبخَلُ فلا يَجودُ بنفقةٍ؛ لذا أثنَى الله تعالى على مَن جمَع بينَ الأمرينِ.

٨- تأمَّلْ في قَولِه تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٨٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٧).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٥٦).

كيف قابَلَ سُبحانَه ما أخفَوه مِن قيامِ اللَّيلِ، بالجَزاءِ الَّذي أخفاه لهم ممَّا لا تَعْلَمُه نَفْسٌ، وكيف قابَلَ قَلَقَهم وخَوفَهم واضْطِرابَهم على مَضاجِعِهم حينَ يقومون إلى صَلاةِ اللَّيلِ، بقُرَّةِ الأعيُنِ في الجَنَّةِ[1]! قال الحَسَنُ البَصريُّ: (أخفى قَومٌ عَمَلَهم، فأخفَى اللهُ لهم ما لم تَرَ عَينٌ، ولم يَخطُرْ على قَلبِ بَشَرٍ)[2]، فكما صَلَّوا في اللَّيلِ ودَعَوا وأخفَوُا العَمَلَ، جازاهم مِن جِنسِ عَمَلِهم؛ فأخفَى أجْرَهم[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ هذه الآيةُ أوردَ عليها بعضُ العُلَماءِ إشكالًا، وقال: هل لكُلِّ مَن ذُكِّرَ بآياتِ اللهِ أن يَسجُدَ؟ فإذا قُرِئَ عليه آيةٌ سَجَد، أو إذا ما وعَظْتَه بمَوعظةٍ سَجَد؟

والجوابُ عن هذه الآيةِ: قال بَعضُهم: المرادُ بـ﴿خَرُّوا۟﴾: سَجَدوا في موضِعِ السُّجودِ، يعني: خَرُّوا سُجَّدًا؛ إذا مَرَّت بهم آياتُ سَجدةٍ سجَدوا، أمَّا إذا ذُكِّروا بآياتِ رَبِّهم بدونِ أن تَمُرَّ بهم آياتُ سَجدةٍ فإنَّهم لا يَسجُدونَ.

ولكِنَّ الصَّوابَ خِلافُ ذلك؛ فالصَّوابُ أنَّ المعنى: الَّذين إذا ذُكِّروا بها انقادوا لها، وخَضَعوا لها، ولا يلزَمُ مِن ذلك أن يكونَ السُّجودُ مُباشِرًا للتَّذكيرِ؛ فقَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ يعني: حتَّى في المُستقبَلِ؛ فلا يلزَمُ أن يكونَ جوابُ الشَّرطِ مُباشِرًا له[4].

وأيضًا فهذه الآيةُ وإن تناوَلَت سُجودَ التِّلاوةِ فتَناوُلُها لِسُجودِ الصَّلاةِ أعظَمُ؛

(١) يُنظر: ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) لابن القيم (ص: ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٧٩).

فإنَّ احتياجَ الإنسانِ إلى هذا السُّجودِ أعظَمُ على كُلِّ حالٍ؛ فقد جَعَل الخُرورَ إلى السُّجودِ مِمَّا لا يَحصُلُ الإيمانُ إلَّا به[١]، فقَولُه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ليس يعني بها آياتِ السُّجودِ فقط، بل جميعَ القُرآنِ، فلا بُدَّ أن يكونَ إذا ذُكِّرَ بجَميعِ آياتِ القُرآنِ يَخِرُّ ساجِدًا، وهذا حالُ المصَلِّي؛ فإنَّه يُذكَّرُ بآياتِ اللهِ بقراءةِ الإمامِ، والإمامُ يُذكَّرُ بقراءةِ نَفْسِه، فلا يكونون مُؤمِنينَ حتَّى يخِرُّوا سُجَّدًا، وهو سُجودُهم في الصَّلاةِ، وهو سُجودٌ مُرَتَّبٌ، ينتَقِلونَ أوَّلًا إلى الرُّكوعِ، ثمَّ إلى السُّجودِ، والسُّجودُ مَثْنى كما بَيَّنه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ليَجتَمِعَ فيه خُروران: خرورٌ مِن قيامٍ، وهو السَّجدةُ الأولى، وخرورٌ مِن قُعودٍ، وهو السَّجدةُ الثَّانيةُ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ السُّجودَ مِن الإيمانِ -وهو رَدٌّ على المُرجِئةِ، فإنْ كانت السَّجدةُ فرضًا كانت جزءًا مِن أجزاءِ فَرْضِه؛ وإنْ كانت تَطَوُّعًا فهي مِن أجزاءِ نَوافِلِه[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ فيه سُؤالٌ: كيف قال ذلك مع أنَّ المؤمِنينَ ليسُوا مُنحَصِرينَ فيمَنِ اتَّصَف بهذه الصِّفةِ، ولا أنَّ هذه الصِّفةَ شَرطٌ في تحقُّقِ الإيمانِ؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوجهُ الأوَّلُ: المرادُ بـ﴿ذُكِّرُواْ﴾: وُعِظوا، وبالسُّجودِ: الخُشوعُ والخُضوعُ، والتَّواضُعُ في قَبولِ الموعِظةِ، وذلك شَرطٌ في تحقُّقِ الإيمانِ.

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٣/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٤١).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٣٤).

الوجهُ الثَّاني: أنَّ المرادَ بالمؤمِنِ: الكامِلُ إيمانًا[1].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ استُدِلَّ به على كُفرِ تاركِ الصَّلاةِ، ووجْهُ الاستِدلالِ بالآيةِ أنَّه سُبحانَه نفَى الإيمانَ عمَّن إذا ذُكِّرُوا بآياتِ اللهِ لم يَخِرُّوا سُجَّدًا مُسَبِّحِيْنَ بحَمْدِ ربِّهم -ومن أَعْظَمِ التَّذكيرِ بآياتِ اللهِ التَّذكيرُ بآياتِ الصلاةِ-؛ فمَن ذُكِّرَ بها ولم يَتذكَّرْ، ولم يُصَلِّ؛ لم يُؤمِنْ بها! لأنَّه سُبحانَه خَصَّ المؤمنينَ بها بأنَّهم أهلُ السُّجودِ، وهذا مِن أحسَنِ الاستِدلالِ وأقْرَبِه؛ فلمْ يؤمِنْ بقولِه تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [البقرة: ١١٠] إلَّا مَن التزمَ إقامتَها[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الإيمانَ المُطلَقَ مُستلزِمٌ للأعمالِ؛ فنفى سُبحانَه الإيمانَ عن غيرِ هؤلاء؛ فمَن كان إذا ذُكِّرَ بالقُرآنِ لا يَفعَلُ ما فَرَضَه اللهُ عليه مِن السُّجودِ، لم يكُنْ مِن المؤمِنينَ[3]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ الجَمعُ بيْنَ انتِفاءِ العَيبِ والنَّقصِ عن اللهِ تعالى مع ثُبوتِ الكَمالِ له، ففي التَّسبيحِ تَنزيهٌ، وفي الحَمدِ كَمالٌ[4].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ أنَّ في الجنةِ مِن قُرَّةِ العَينِ في المأكولِ والملبوسِ والمنكوحِ والمسكنِ ما لا يَخطُرُ على البالِ؛ لأنَّ كلَّ هذه الأربعةِ تَقَرُّ بها العَينُ[5].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٥٤).
(٢) يُنظر: ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ٤٩).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٦٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٨٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٩٠).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لِتَقريرِ عَدمِ استِحقاقِ المجرمينَ لإيتاءِ الهُدى، والإشعارِ بعَدمِ إيمانِهم لو أُوتُوه بتَعيينِ مَن يَستحِقُّه بطَريقِ القصْرِ، كأنَّه قِيل: إنَّكم لا تُؤمِنون بآياتِنا، ولا تَعمَلونَ بمُوجَبِها عمَلًا صالحًا، ولو رَجَعْناكم إلى الدُّنيا كما تَدَّعون[١].

- قولُه: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ أفادَتْ (إنَّما) قَصرًا إضافيًّا، أي: يُؤمِنُ بآياتِ اللهِ الَّذين إذا ذُكِّروا بها تَذكيرًا بما سبَقَ لهم سَماعُه، لم يَتريَّثوا عن إظهارِ الخُضوعِ للهِ، دُونَ الَّذين قالوا: ﴿أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة: ١٠]، وهذا تَأييسٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن إيمانِهم، وتَعريضٌ بهم بأنَّهم لا يَنفَعون المُسلمينَ بإيمانِهم، ولا يَغيظونَهم بالتَّصلُّبِ في الكُفرِ[٢].

- وأُوثِرَت صِيغةُ المُضارِعِ ﴿يُؤْمِنُ﴾؛ لِمَا تُشعِرُ به مِن أنَّهم يَتجدَّدون في الإيمانِ، ويَزْدادونَ يَقينًا وَقتًا فَوقتًا؛ وإلَّا فإنَّ المؤمنينَ قد حصَلَ إيمانُهم فيما مَضى؛ ففِعلُ المُضيِّ آثَرُ بحِكايةِ حالِهم في الكلامِ المُتداوَلِ لولا هذه الخُصوصيَّةُ؛ ولهذا عُرِّفوا بالمَوصوليَّةِ والصِّلةِ الدَّالِّ مَعناها على أنَّهم راسِخونَ في الإيمانِ، فعُبِّرَ عن إبلاغِهم آياتِ القُرآنِ وتِلاوتِها على أسماعِهم، بالتَّذكيرِ المُقتضي أنَّ ما تَتضمَّنُه الآياتُ حَقائقُ مُقرَّرةٌ عِندَهم، لا يُفادُونَ بها فائدةً لم تكُنْ حاصِلةً في نُفوسِهم، ولكنَّها تكسِبُهم تَذكيرًا؛ ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٣] [الذاريات: ٥٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ دلَّتِ الجُملةُ الشَّرطيَّةُ على اتِّصالِ تَعلُّقِ حُصولِ الجوابِ بحُصولِ الشَّرطِ وتَلازُمِهما[1].

- قولُه: ﴿وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ التَّعرُّضُ لِعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ بطَريقِ الالْتِفاتِ، مع الإضافةِ إلى ضَميرِهم؛ للإشعارِ بعِلَّةِ التَّسبيحِ والتَّحميدِ، وبأنَّهم يَفعَلونهما بمُلاحَظةِ رُبوبيَّتِه تعالى لهم[2].

- قولُه: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ جِيءَ في نَفْيِ التَّكبُّرِ عنهم بالمُسنَدِ الفِعليِّ ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ لإفادةِ اختِصاصِهم بذلك، أي: دُونَ المُشرِكين الَّذين كان الكِبْرُ خُلُقَهم؛ فهم لا يَرضَون لأنفُسِهم بالانقيادِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ منهم، وقالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾[3] [الفرقان: ٢١].

٢- قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾

- جُملةُ ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ مُستأنَفةٌ لِبيانِ بَقيَّةِ مَحاسِنِهم، وهم المُتهجِّدونَ[4]. وقيل: حالٌ مِن المَوصولِ، أي: الَّذين إذا ذُكِّروا بها خَرُّوا، ومَن حالُهم تَتجافَى جُنوبُهم عن المَضاجِعِ، أو استِئنافٌ، وجِيءَ بالمُضارِعِ؛ لإفادةِ تكرُّرِ ذلك وتَجدُّدِه منهم في أجزاءٍ كثيرةٍ مِن الأوقاتِ المُعَدَّةِ للاضْطِجاعِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٤).

وهي الأوقاتُ الَّتي الشَّأنُ فيها النَّومُ[1].

- و(أل) في ﴿ٱلْمَضَاجِعِ﴾ عِوَضٌ عن المُضافِ إليه، أي: عن مَضاجِعِهم، كقولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤١]. وهذا تَعريضٌ بالمُشركينَ؛ إذ يَمْضُون ليلَهم بالنَّومِ، لا يَصرِفُه عنهم تَفكُّرٌ، بل يَسقُطون كما تَسقُطُ الأنعامُ[2].

- وذكَر الطَّمعَ الَّذي هو الرَّجاءُ؛ لأنَّ الدُّعاءَ مَبْنيٌّ عليه؛ فإنَّ الدَّاعيَ ما لم يَطمَعْ في سُؤالِه ومَطلوبِه لم تَتحرَّكْ نفْسُه لطَلبِه، إذ طلَبُ ما لا يُطمَعُ فيه مُمتنِعٌ[3].

وقيل: عبَّرَ بـ(طَمَعًا) دونَ الرَّجاءِ؛ إشارةً إلى أنَّهم -لِشدَّةِ مَعرفتِهم بنقائِصِهم- لا يَعُدُّونَ أعمالَهم شَيئًا، بل يَطلُبونَ فَضْلَه بغيرِ سَبَبٍ، وإذا كانوا يَرجُونَ رَحمتَه بغيرِ سَبَبٍ، فهم مع السَّببِ أرجى، فهم لا يَيْأَسونَ مِن رَوْحِه[4].

- قولُه: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ لم يَذكُرْ قَيْدَ النَّفَقةِ، ولا المُنفَقَ عليه؛ لِيَدُلَّ على العُمومِ، فإنَّه يَدخُلُ فيه النَّفَقةُ الواجِبةُ، كالزَّكواتِ، والكفَّاراتِ، ونَفَقةِ الزَّوجاتِ والأقارِبِ؛ والنَّفَقةُ المُستحَبَّةُ في وُجوهِ الخَيرِ، والنَّفَقةُ والإحسانُ الماليُّ خَيرٌ مُطلَقًا؛ سواءٌ وافَقَ غَنيًّا أو فقيرًا، قريبًا أو بعيدًا، ولكِنَّ الأجرَ يَتفاوَتُ بتَفاوُتِ النَّفعِ، فهذا عَمَلُهم[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥).

٣- قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ ﴾ رابطةٌ لِلَّاحقةِ بالسَّابقةِ، مُرتِّبةٌ لها عليها تَرتُّبَ الفاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ﴾، وكان الأصلُ: تَتجافَى جُنوبُهم عن المَضاجِعِ، يَدْعون ربَّهم خوفًا وطمَعًا، وممَّا رَزقْناهم يُنفِقون، فلا يَعلَمون ما أُخفِيَ لهم، فيَجزيهم اللهُ الجزاءَ الأَوفَى؛ بشَهادةِ قولِه: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؛ فوَضَعَ النَّفْسَ مَوضعَ الضَّميرِ، ونكَّرَها تَنكيرَ تَفخيمٍ، لو وُصِفَتْ بكلِّ وَصفٍ ما بلَغَ هذا المَبلَغَ، ثمَّ رُوعِيَت المُناسَبةُ في قولِه: ﴿مَّآ أُخْفِيَ لَهُم﴾؛ حيثُ أُبْهِمَ الجزاءُ، ولم يُعيَّنِ الفاعلُ؛ تَعظيمًا له[١]، فالإبهامُ يَدُلُّ على التَّفخيمِ، وفي ذلك دَلالةٌ على عِظَمِ نَعيمِ الجنَّةِ[٢]؛ لِيَذهَبَ الفِكرُ في المَخفيِّ كُلَّ مَذهَبٍ. وقيل: بُني للمَفعولِ؛ للعِلمِ بأنَّه اللهُ تعالى الَّذي أَخْفَوا نوافِلَ أعمالِهم لأجْلِه[٣].

- قولُه: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ ﴾ (نفْسٌ) نَكِرةٌ في سِياقِ النَّفيِ؛ فيَعُمُّ جَميعَ الأنفُسِ ممَّا ادَّخَرَ اللهُ تعالى لأولئك، وأخفاهُ مِن جَميعِ خَلائقِه ممَّا تَقَرُّ به أعيُنُهم، لا يَعلَمُه إلَّا هو، وهذه عِدَةٌ عظيمةٌ لا تَبلَغُ الأفهامُ كُنْهَها، بلْ ولا تَفاصيلَها، ولا مَطمَحَ وراءَها[٤].

- وعبَّرَ عن تلك النِّعمِ بـ﴿مَّآ أُخْفِيَ﴾؛ لأنَّها مُغيَّبةٌ لا تُدرَكُ إلَّا في عالَمِ الخُلودِ[٥].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٤٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٩٠).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٥٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٣٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٠).

- في قَولِه: ﴿أُخْفِىَ لَهُم﴾ بلامِ التَّمليكِ: زيادةُ إكرامٍ؛ لأنَّ مَن قال لِغَيرِه: (اسكُنْ هذه الدَّارَ) يكونُ ذلك محمولًا على العارِيَّةِ، وله استِردادُه؛ وإذا قال: (هذه الدَّارُ لك) يكونُ ذلك محمولًا على نِسبةِ المِلْكيَّةِ إليه، وليس له استِرداده بحُكمِ قَولِه[1].



(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٨).

الآيات (١٨-٢٢)

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿الْمَأْوَىٰ﴾: أي: المَثوى والمَسكَنُ، وأصْلُ (أوى) هنا: يدُلُّ على التَّجمُّعِ[(١)].

﴿نُزُلًا﴾: أي: ثَوابًا ورزقًا، والنُّزُلُ: ما يُعَدُّ للنَّازِلِ مِنَ الزَّادِ، ويُهَيَّأُ للضَّيفِ، وأصلُ (نزل): يدُلُّ على هُبوطِ شَيءٍ ووُقوعِه[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا عدمَ التَّسويةِ بيْنَ المؤمنينَ والكافرين: أفمَن كان مُؤمِنًا باللهِ ورُسُلِه كمَن كان كافِرًا مُكَذِّبًا؟! لا يَستَوونَ.

ثمَّ يُفصِّلُ أحوالَ المؤمنينَ والكافرينَ يومَ القيامةِ، فيقولُ: أمَّا الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ فلَهُم عندَ رَبِّهم جنَّاتٌ يَأْوُونَ إليها، ويُقيمونَ فيها

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٠٩).

أبدًا؛ ضيافةً كريمةً مُعَدَّةً لهم بسَبَبِ ما كانوا يَعمَلونَ في الدُّنيا مِن الصَّالحاتِ.

وأمَّا الَّذين خَرَجوا عن طاعةِ اللهِ بالكُفرِ والعِصيانِ فمَقَرُّهم النَّارُ، كُلَّما أرادوا أن يَخرُجوا منها أُعيدوا فيها مُكرَهينَ، وقيلَ لهم: ذوقُوا عذابَ النَّارِ الَّذي كُنتُم تُكَذِّبونَ بوُقوعِه.

ولَنُصيبَنَّ هؤلاء المكَذِّبينَ بأنواعٍ مِن العَذابِ قبْلَ يومِ القيامةِ دونَ العَذابِ الأكبَرِ في الآخِرةِ؛ لعلَّهم يَتوبونَ إلى اللهِ تعالى.

ثمَّ يُبيِّنُ حالَ مَن يُدْعَى إلى الهُدى فيُعرِضُ عنه، فيقولُ: ولا أحَدَ أظلَمُ ممَّن ذُكِّرَ بآياتِ ربِّه، ثمَّ أعرَضَ عنها استِكبارًا، إنَّا مُنتَقِمونَ مِن هؤلاءِ المُجرِمينَ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ١٨ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى حالَ المجرِمِ والمؤمِنِ، قال للعاقِلِ: هل يَستوي الفَريقانِ؟ ثمَّ بيَّن أنَّهما لا يَستَوِيانِ[1].

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ﴾.

أي: أفمَن كان مُؤمِنًا بآياتِ اللهِ متَّبِعًا لرُسُلِه، فهو مُؤمِنٌ بوَعدِه ووَعيدِه، طائعٌ له في أمْرِه ونَهْيِه: أيَكونُ في حُكمِ اللهِ كمَن كان كافِرًا مُكَذِّبًا، خارِجًا عن دائرةِ الإيمانِ وطاعةِ الرَّحمنِ[2]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٩٢).

كما قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

وقال سُبحانَه: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾.

أي: لا يَستوي المؤمِنونَ والفاسِقونَ عندَ اللهِ يومَ القيامةِ؛ فلِكُلٍّ جزاءٌ مُختَلِفٌ بحَسَبِ ما قدَّموه[١].

﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه تَفصيلٌ لِمَراتبِ الفَريقَينِ في الآخِرةِ، بعدَ ذِكرِ أحوالِهما في الدُّنيا[٢].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ أنَّ المؤمِنَ والفاسِقَ لا يَستويانِ بطريقِ الإجمالِ؛ بيَّنَ عَدَمَ استوائِهما على سَبيلِ التَّفصيلِ، فقال تعالى[٣]:

﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى﴾.

أي: أمَّا الَّذين آمَنوا بما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٢٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٩٢).
قال ابنُ جرير: (قال: ﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾ فجمَع، وإنَّما ذكَرَ قبْلَ ذلك اثنَين: مُؤمِنًا، وفاسِقًا؛ لأنَّه لم يُرِدْ بالمؤمِنِ مُؤمِنًا واحِدًا، وبالفاسِقِ فاسِقًا واحِدًا، وإنَّما أُريدَ به جميعُ الفُسَّاقِ، وجميعُ المؤمِنينَ باللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٢٤، ٦٢٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٥/ ٤٨٧).

بإخلاصٍ للهِ تعالى ومُتابعةٍ لِشَرعِه: فلَهُم في الآخِرةِ جَنَّاتٌ يَأوُونَ إليها، فهم فيها مُقيمونَ، ومنها لا يَخرُجونَ[1].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النجم: ١٣ - ١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

﴿نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

أي: ضِيافةً كريمةً مُهَيَّأةً لهم؛ بسَبَبِ ما كانوا يَعمَلونَ في الدُّنيا مِنَ الإيمانِ باللهِ تعالى وطاعتِه[2].

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾.

أي: وأمَّا الَّذين خَرَجوا عن الإيمانِ باللهِ وطاعتِه، فكَفَروا به وعَصَوه؛ فمَسْكَنُهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٩٤، ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٢).

قال البقاعي: (﴿نُزُلًا﴾ أي: عِدادًا لهم أوَّلَ قُدومِهم، في قَولِ الحَسَنِ وعطاءٍ... فإذا كانت هذه الجنَّاتُ نُزُلًا، فما ظَنُّك بما بعدَ ذلك؟!). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٢٥٩).

وقال ابنُ عاشور: (النُّزُلُ -بضَمَّتَينِ-: مُشتَقٌّ مِن النُّزولِ، فيُطلَقُ على ما يُعَدُّ للنَّزيلِ مِنَ العَطاءِ والقِرَى. قال في «الكشاف»: النُّزُلُ: عطاءُ النَّازِلِ، ثمَّ صار عامًّا، أي: يُطلَقُ على العطاءِ ولو بدُونِ ضيافةٍ... قلتُ: ويُطلَقُ على محَلِّ نُزولِ الضَّيفِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٢).

ومَقَرُّهم الَّذي يأوُونَ إليه، ويُقيمونَ في الآخرةِ فيه: هو النَّارُ[١].

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾.

أي: كلَّما أرادوا أن يَخرُجوا مِنَ النَّارِ أُعيدوا فيها مُكرَهينَ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ * كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢١، ٢٢].

﴿وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾.

أي: ويُقال لهم: ذُوقوا عذابَ النَّارِ الَّذي كُنتُم في الدُّنيا تُكَذِّبونَ بوُقوعِه[٣].

ثم بيَّن أنَّ عذابَ الآخرةِ له مُقدِّماتٌ في الدنيا؛ لأنَّ الذَّنْبَ مُستَوجِبٌ لنتائجِه عاجلًا وآجلًا، فقال[٤]:

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢١﴾.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾.

أي: ولَنُصِيبَنَّ هؤلاء الفاسِقينَ المكَذِّبينَ مِن العذابِ الَّذي يكونُ قبلَ يومِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٩٣).

قال الواحدي: (كلَّما حاولوا الخُروجَ مِن النَّارِ؛ لِما يَلحَقُهم مِن الغَمِّ والكَربِ الَّذي أخَذَ بأنفاسِهم، حتَّى ليس لها مخرجٌ- رُدُّوا إليها بالمقامِعِ. قال المفسِّرون: إنَّ جهنَّمَ لَتَجيشُ بهم فتُلقيهم إلى أعلاها، فيُريدونَ الخُروجَ، فيَرُدُّهم الخُزَّانُ فيها). ((البسيط)) (١٥/ ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٢٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢١/ ١١٥).

القيامةِ، دونَ العذابِ الأكبَرِ في الآخِرةِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٣).

قيل: المرادُ بالعذابِ الأدنى: عذابُ الدُّنيا. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وابن كثير، والعُلَيمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٩)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٣).

قيل: إنَّه ما أصابهم يومَ بَدرٍ، وهو روايةٌ عن ابنِ مسعودٍ، وقولُ قَتادةَ، والسُّدِّيِّ.

وقيل: سِنُونَ أُخِذوا بها، وهو روايةٌ عن ابنِ مسعودٍ، وقولُ النَّخَعيِّ.

وقيل: مصائبُ الدُّنيا، قاله أُبَيُّ بنُ كعبٍ، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، وأبو العاليةِ، والحسَنُ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ.

وقيل: الحدودُ، وهو روايةٌ عن ابنِ عبَّاسٍ.

وقيل: القتلُ والجوعُ، قاله مجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٤٢).

وقيل: المرادُ: ما قبْلَ يومِ القيامةِ؛ فيَشملُ ذلك عذابَ الدُّنيا وعذابَ القبرِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٥/ ٢٦١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٦).

وممَّن قال به مِن السَّلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣١).

قال الشوكاني: (قال الحسَنُ، وأبو العاليةِ، والضَّحَّاكُ، والنَّخَعيُّ: هو مَصائبُ الدُّنيا وأسقامُها. وقيل: الحدودُ. وقيل: القتلُ بالسَّيفِ يومَ بدرٍ. وقيل: سِنينُ الجوعِ بمكَّةَ. وقيل: عذابُ القبرِ. ولا مانِعَ مِن الحَملِ على الجميعِ. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ممَّا هم فيه مِن الشِّركِ والمعاصي بسببِ ما يَنزِلُ بهم مِن العذابِ، إلى الإيمانِ والطَّاعةِ، ويَتوبونَ عمَّا كانوا فيه. وفي هذا التَّعليلِ دليلٌ على ضَعفِ قولِ مَن قال: إنَّ العذابَ الأدنَى هو عذابُ القبرِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٩٣). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٠٧).

وقال السعدي: (أي: ولَنُذيقَنَّ الفاسِقينَ المكَذِّبينَ نموذَجًا مِنَ العذابِ الأدنى، وهو عذابُ البَرزخِ، فنُذيقُهم طَرَفًا منه قبْلَ أن يموتوا؛ إمَّا بعذابٍ بالقتلِ ونَحوِه، كما جرَى لأهلِ بَدرٍ مِن المشركينَ، وإمَّا عندَ الموتِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣]، ثمَّ يُكمِلُ لهم العذابَ الأدنى في بَرزخِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٦). =

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

أي: لعلَّهم يَتوبونَ إلى اللهِ مِن كُفرِهم وعِصيانِهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ (٢٢)﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾.

أي: ولا أحَدَ أظلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بآياتِ ربِّه[(٢)]، ثمَّ أعرَضَ عنها مُستكبِرًا عن

= عن أُبَيِّ بن كعب، في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ قال: «مصائِبُ الدُّنيا، والرُّومُ، والبَطْشةُ، أو الدُّخانُ» شُعْبةُ الشَّاكُّ في البطشةِ أو الدُّخانِ. أخرجه مسلم (٢٧٩٩).

قال ابن عاشور في تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ [الطور: ٤٧] بعدَ أن بيَّن أنَّ كلمةَ ﴿دُونَ﴾ تُطلَقُ على الأقلِّ والسَّابقِ وبمعنى «غير»، فقال: (المرادُ عذابٌ في الدُّنيا، وهو أقلُّ مِن عذابِ الآخرةِ، قال تعالَى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾، وهو أسبقُ مِن عذابِ الآخرةِ؛ لقولِه تعالَى: ﴿دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾، وهو مُغايِرٌ له كما هو بيِّنٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٣).

(٢) قيل: المرادُ بقولِه: ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾: حُجَجُه وعلاماتُه. وممَّن قال بهذا: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٠٨).

وقيل: المرادُ بها: القُرآنُ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والسمعاني، والشربيني، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٥٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٣).

وقيل: المرادُ: الكُتُبُ السَّماويَّةُ، فتَشمَلُ القرآنَ والتَّوراةَ وغيرَهما. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١٠٣، ١٠٤). =

قَبولِها، مُستَنكِفًا عن الانقيادِ إليها[١].

﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾.

أي: إنَّا سننتقِمُ مِنَ الَّذين أعرَضوا، وكَفَروا، وكَذَّبوا، واكتَسَبوا السَّيِّئاتِ[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾ يُنَبِّهُ العُقولَ على ما تقَرَّرَ فيها مِن عَدَمِ تَساوي المتفاوِتَينِ المتبايِنَينِ، وأنَّ حِكمَتَه تقتَضي عدَمَ تساويهما؛ فمَن قد عَمَرَ قَلبُه بالإيمانِ، وانقادت جوارِحُه لشرائِعِه، واقتَضى إيمانُه آثارَه ومُوجباتِه؛ مِن تَركِ مَساخِطِ اللهِ، الَّتي يضُرُّ وُجودُها بالإيمانِ: لا كمَنَ قد خَرِبَ قَلبُه، وتعطَّلَ مِن الإيمانِ، فلمْ يكُنْ فيه وازِعٌ دِينيٌّ، فأسرَعَت جوارِحُه بمُوجباتِ الجَهلِ والظُّلمِ؛ مِن كُلِّ إثمٍ ومَعصيةٍ، وخرَج بفِسقِه عن طاعةِ اللهِ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ أنَّ الإنسانَ يجِبُ أنْ يَقْبَلَ التَّذكيرَ ممَّن يُذكِّرُه أيًّا مَن كان، فالله تعالى لم يَقُلْ: «مِمَّنْ ذَكَّرَهُ الرَّسولُ» أو: «ذَكَّرَهُ فُلانٌ أو فُلانٌ»! فإذا أتاك التَّذكيرُ مِن أيِّ جِهةٍ فالواجِبُ عليك القَبولُ[٤].

= وقال ابن جرير: (وأيُّ النَّاسِ أَظْلَمُ لِنَفْسِه مِمَّنْ وَعَظَه اللهُ بحُجَجِه، وآيِ كِتابِه ورُسُلِه، ثُمَّ أعْرَض عن ذلك كلِّه). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١٠٧).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ أنَّ الإعراضَ بعدَ العِلمِ أقبَحُ منه حالَ الجَهلِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ هذا أعظَمَ الفِسقِ: أن تُذكَّرَ ثمَّ تُعرِضَ، لكِنْ مَن أعرَضَ بدُونِ تَذَكُّرٍ فهو أهوَنُ[1].

٤- المؤمِنُ مأمورٌ بلَومِ نَفْسِه على ما فَعلَتْ مِن الذُّنوبِ الَّتي وَجَد عاقِبَتَها في الدُّنيا، كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، فإذا أصابه في الدُّنيا بلاءٌ رجَع إلى نفْسِه باللَّومِ، ودعاه ذلك إلى الرُّجوعِ إلى اللهِ بالتَّوبةِ والاستِغفارِ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ أنَّ الإيمانَ لا يَتِمُّ إلَّا بالعملِ الصَّالحِ؛ فلا يكفي مجرَّدُ العقيدةِ! بل لا بُدَّ مِن عمَلٍ صالحٍ[3].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ استدَلَّ بعُمومِه مَن قال: إنَّ الفاسِقَ لا يَلي النِّكاحَ[4].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ دَليلٌ على أنَّ اسمَ الفِسقِ واقِعٌ على الكُفرِ والمعصيةِ معًا[5].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أنَّ الجزاءَ مِن جنسِ العملِ[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٩٥).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٠٩).

ومَذهَبُ الشَّافعيَّةِ والحنابلةِ أنَّه يُشترَطُ في الوليِّ أن يكونَ عدلًا. يُنظر: ((مغني المحتاج)) للشربيني (٤/ ٢٥٥)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ٥٤)، ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٣٠/ ٨).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٣٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٩٦).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ﴾ لَمَّا كان الكُفرُ إذا جاء فلا التِفاتَ إلى الأعمالِ، لم يَقُلْ: (وأمَّا الَّذين فسَقُوا وعَمِلوا السَّيِّئاتِ)؛ لأنَّ المرادَ مِن ﴿فَسَقُواْ﴾: كَفَروا. ولو جُعِلَ العِقابُ في مُقابَلةِ الكُفرِ والعَمَلِ، لَظُنَّ أنَّ مُجرَّدَ الكُفرِ لا عِقابَ عليه[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ أنَّ أهلَ النَّارِ يُجْمَعُ لهم بينَ العذابِ الجِسميِّ والعذابِ القلبيِّ للتَّوبيخ[٢].

٧- بيانُ حِكمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ فيما يَبتلي به مِن المصائِبِ؛ تُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾ و﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٣] [الروم: ٤١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ أنَّ عذابَ الدُّنيا لا يُنْسَبُ إلى عذابِ الآخرةِ؛ لِما بيْنَهما مِن الفَرقِ العظيم -فهذا أدنَى، وذاك أكبرُ-؛ يعني: كِلاهما في طَرَفَيْ نقيضٍ، يعني: «أدنى» اسمُ تفضيلٍ، و«أكبرُ» اسمُ تفضيلٍ، ولا يُنْسَبُ أدنَى شَيءٍ إلى أعلَى شَيءٍ[٤]!

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ حُجَّةٌ على عذابِ القبرِ، فإنَّه سبحانَه أخْبَرَ أنَّ له فيهم عذابَينِ «أدنى وأكبر» فأخبَرَ أنَّه يُذيقُهم بعضَ الأدنى لِيَرجِعوا؛ فدَلَّ على أنَّه بَقِيَ لهم مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٧، ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الأدنى بقيَّةٌ يُعَذَّبُون بها بعدَ عذابِ الدُّنيا؛ ولهذا قال: ﴿مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾، ولم يقُلْ: «ولَنُذيقَنَّهُمُ العذابَ الأدنى»! فتأمَّلْه[1].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ قَبولُ التَّوبةِ مِن الكافِرِ[2].

١١- قال الله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآ﴾، قَولُه سُبحانَه ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦٓ﴾ أتَى بالرُّبوبيَّةِ المُقتَضيةِ للانقيادِ؛ لأنَّه ما دام التَّذكيرُ بآياتِ رَبٍّ لك، فأنت مَربوبٌ عَبدٌ، والمربوبُ في تدبيرِ رَبِّه[3].

١٢- قال الله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآ﴾ مِثلُ هذه العبارةِ جاءت في غيرِ هؤلاء، فقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ [البقرة: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٢١، ٩٣] و[هود: ١٨] و[العنكبوت: ٦٨]، وفي السُّنَّةِ: ((ومَن أظلَمُ ممَّن ذهَب يَخلُقُ كخَلْقي))[4]، فكيف نجمعُ بيْنَ هذه النُّصوصِ؟

الجوابُ: أنَّ الجَمعَ بيْنَها يكونُ بأحَدِ وَجهَينِ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ هذه الأشياءَ جميعَها اشتركَتْ في المرتبةِ العُليا مِن الظُّلمِ؛ فكلُّها في مقامِ الأظلميَّةِ، فأفْعَلُ التَّفضيلِ لا يمنعُ التَّساويَ، ولكنَّه يمنعُ الزِّيادةَ. وعلى ذلك فلا مُعارَضةَ ألْبَتَّةَ بينَ النُّصوصِ؛ فهؤلاءِ المذكورونَ لا يُوجَدُ أحدٌ أظلَمُ منهم، وهم مُتساوونَ في مرتبةِ الظُّلْمِ.

والوجهُ الثَّاني: أنَّ هذه المواضعَ تتخصَّصُ بصِلاتِها، أي: أنَّ كُلَّ واحدٍ منها

(١) يُنظر: ((الرُّوح)) لابن القيم (ص: ٧٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٤).

(٤) أخرجه البخاري (٥٩٥٣) واللفظ له، ومسلم (٢١١١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تُفَسِّرُه صِلةُ مَوصُولِه، فكلٌّ واحدةٍ تختصُّ ببابِها، فيكونُ المعنَى: لا أحَدَ مِنَ المُفْتَرِينَ أظلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى على اللهِ كَذِبًا، ولا أحدَ مِنَ المانِعِينَ أظلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مساجدَ الله، ولا أحدَ مِنَ المُعْرِضِينَ أظلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بآياتِ رَبِّهِ فأعْرَض عنها[1].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أنَّ الإعراضَ عن آياتِ اللهِ بعدَ التَّذكيرِ بها إجرامٌ[2].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ جوازُ إضافةِ الانتقامِ إلى اللهِ مُقَيَّدًا، يعني: الإخبارَ عن اللهِ بأنَّه مُنتقِمٌ، إخبارًا مُقيَّدًا[3].

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥١٢، ٥١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٢٢، ١٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قال ابن عثيمين رحمه الله: (قوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ مقيَّدةٌ: أي: مُنتقِمون مِنَ المجرمينَ، وبهذا نَعرِفُ أنَّ المُنتقِمَ ليس مِن أسماءِ اللهِ؛ لأنَّ الاسمَ مِن أسماءِ الله يكونُ مُطْلَقًا دالًّا على المعنَى الأحسَنِ على كلِّ تقديرٍ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فكلُّ كلمةٍ تحتمِلُ هذا وهذا فإنَّها لا تكونُ مِن أسماءِ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، والانتقامُ لا شكَّ أنَّه حسَنٌ في محلِّه؛ وعليه فلا يَصِحُّ أن يوصَفَ اللهُ به على سبيلِ الإطلاقِ، وهو معدودٌ مِن الأسماءِ الحُسْنى المشهورةِ، لكنَّ هذه الأسماءَ الحُسْنى المشهورةَ كما قال شيخُ الإسلام وغيرُه مِن أهلِ التَّحقيقِ رحمهم الله: «ليست ثابتةً عن الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ»؛ لأنَّ فيها أشياءَ مِن الأسماءِ لا تصِحُّ اسمًا لله.
إذَنْ: فهل يوصَفُ اللهُ بالانتقامِ مُطْلَقًا، فيُقالُ: المُنتقِمُ؟
والجوابُ: لا؛ لأنَّه ما ورَدَ إلَّا مُقَيَّدًا، وورَدَ ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤] [المائدة: ٩٥] [إبراهيم: ٤٧] نَكرةً في سياقِ الإثباتِ؛ فلا تدُلُّ على العُمومِ؛ لأنَّ النَّكِرةَ في سياقِ الإثباتِ -كما هو معروفٌ- لا تُفيدُ العُمومَ، وإنَّما تفيدُ العُمومَ إذا كانت في سياقِ النَّفْيِ أو النَّهيِ أو الشَّرطِ أو الاستِفهامِ الإنكاريِّ، كما ذكره أهلُ الأصولِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١٠٥).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ فُرِّعَ بالفاءِ على ما تَقدَّمَ من الآياتِ مِن الوَعدِ للمُؤمنينَ والوعيدِ للكافرينَ: استِفهامٌ بالهَمزةِ، مُستعمَلٌ في إنكارِ المُساواةِ بيْن المُؤمنِ والكافرِ، وهو إنكارٌ بتَنزيلِ السَّامعِ مَنزلةَ المُتعجِّبِ مِن البَونِ بيْنَ جَزاءِ الفَريقَينِ في ذلك اليومِ؛ فكان الإنكارُ مُوجَّهًا إلى ذلك التَّعجُّبِ في معنى الاستِئنافِ البَيانيِّ[١].

- قولُه: ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ التَّصريحُ بعَدمِ المُساواةِ في الشَّرفِ والمَثوبةِ، مع إفادةِ الإنكارِ لِنَفْيِ المُشابَهةِ بالمرَّةِ على أبلَغِ وَجهٍ وآكَدِه؛ لِبناءِ التَّفصيلِ الآتي عليه[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

- أكَّدَ كِلَا الجَزاءَين بذِكرِ مُرادِفٍ لِمَدلولِه، مع زِيادةِ فائدةٍ؛ فجُملةُ ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ ...﴾ إلى آخِرِها، مُؤكِّدةٌ لِمَضمونِ جُملةِ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم ﴾ [السجدة: ١٧] إلى آخِرِها[٣].

- وإضافةُ جنَّاتٍ إلى المَأوى في قولِه: ﴿جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ من إضافةِ المَوصوفِ إلى الصِّفةِ؛ لِقَصدِ التَّخفيفِ، والمعنى: فلَهُمُ الجنَّاتُ المَأْوى لهم، أي: المَوعودونَ بها[٤]. وقيل: أُضِيفَت الجنَّةُ إلى المَأْوى؛ لأنَّها المَأْوى الحَقيقيُّ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣١، ٢٣٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وإنَّما الدُّنيا مَنزِلٌ مُرتحَلٌ عنه لا مَحالةَ. وقيل: المَأْوى جنَّةٌ مِن الجنَّاتِ، وأيًّا ما كان فلا يَبعُدُ أنْ يكونَ فيه رَمزٌ إلى ما ذُكِرَ مِن تَجافِيهم عن مَضاجِعِهم الَّتي هي مَأْواهم في الدُّنيا[1].

٣- قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾

- جُملةُ ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ إلى آخِرِها، مُؤكِّدةٌ لِمَضمونِ جُملةِ ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ إلى ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2] [السجدة: ١٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾، ولم يَقُلْ: (فلَهُمْ نارُ المَأْوى) كما قال قَبْلُ في المؤمنينَ: ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾، والفارقُ: أنَّ النَّارَ كلُّ أحدٍ لا يُحِبُّ أنْ تكونَ مَأْواهُ بخِلافِ الأوَّلِ؛ فالجنَّةُ كلٌّ يُحِبُّ أنْ تكونَ هي المَأْوى، وأمَّا هذا فلا؛ فأتى في ذِكرِ الجنَّةِ بما يُفيدُ الاختِصاصَ -تقديم الخبرِ على المُبتدأِ ﴿فَلَهُمْ﴾-؛ تَشويقًا، وإنْ كان هذا الفَرْقُ قد يَختلِفُ في بعضِ الآياتِ، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ - ٤١]، ولكنْ لكلِّ مَقامٍ مَقالٌ؛ فهنا المَقامُ مَقامُ مُعادَلةٍ ومُوازَنةٍ، فلهذا فرَّقَ بيْنَهما؛ قال: ﴿جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾، وقال: ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾، أمَّا في سُورةِ (النَّازعاتِ) فليس هناك مُعادَلةٌ؛ لأنَّه لَمَّا ذكَرَ أنَّ قومًا يَدَّعون لأنفُسِهم أنَّهم على الحقِّ، فأنكَرَ اللهُ ذلك[3].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١٠٠).



- قولُه: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ﴾ فيه ذِكرُ النَّارِ مُظْهَرًا، ولـمْ يُستَغْنَ بالضَّميرِ لِتَقدُّمِ الذِّكْرِ؛ لأنَّ سِياقَ الآيةِ للتَّهديدِ، والتَّخويفِ، وتَعظيمِ الأمْرِ، وفي ظاهرِ ذِكْرِ النَّارِ مِن ذلك ما ليس في الضَّميرِ[١].

- قولُه: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ استِئنافٌ لِبيانِ كَيفيَّةِ كَونِ النَّارِ مَأْواهم، وكَلمةُ (في)؛ للدَّلالةِ على أنَّهم مُستقِرُّون فيها، وإنَّما الإعادةُ مِن بَعضِ طَبقاتِها إلى بعضٍ[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ...﴾، فذَكَّرَ الوَصفَ والضَّميرَ، فوصَفَ العذابَ، وأعاد عليه الضَّميرَ، وقال في سُورةِ (سَبأ): ﴿عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [سبأ: ٤٢]، فأنَّثَ الوَصفَ والضَّميرَ، فوصَفَ النَّارَ، وأعاد عليها الضَّميرَ.

وبيانُ ذلك مِن ثلاثةِ أوجُهٍ؛ الأوَّلُ: أنَّه خصَّ العذابَ في السَّجدةِ بالوصفِ فقال: ﴿الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾؛ اعتناءً به لما تكرَّر ذِكرُه في قولِه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾. والثَّاني: أنَّه قدَّم في (السَّجدة) ذِكرَ النَّارِ، فكان الأصلُ أن يَذكُرَها بعدَ ذلك بلفظِ الضَّميرِ، لكنَّه جعَل الظَّاهرَ مكانَ المُضْمَرِ، فكما لا يوصَفُ المُضمَرُ لم يوصَفْ ما قام مَقامَه وهو النَّارُ، ووصَفَ العذابَ ولم يَصِفِ النَّارَ. الثَّالثُ -وهو الأقوى: أنَّه امتنَع في السَّجدةِ وصْفُ النَّارِ، فوصَفَ العذابَ، وإنَّما امتنَع وصْفُها؛ لِتَقدُّمِ ذِكرِها، فإنَّك إذا ذكَرْتَ شيئًا ثمَّ كرَّرْتَ ذِكرَه لم يَجُزْ وصْفُه، كقولِك: رأيتُ رجُلًا فأكرمتُ الرَّجُلَ، فلا يجوزُ

(١) يُنظر: ((أمالي ابن الحاجب)) (١/ ١٥٢، ١٥٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٥٠، ٣٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٦).

وصْفُه؛ لئلَّا يُفهَمَ أنَّه غيرُه[١]. وقيل غيرُ ذلك[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ تَعريضٌ بتَهديدِهم؛ لأنَّهم يَسمَعون هذا الكَلامَ، أو يُبلَّغُ إليهم. وهذا إنذارٌ بما لَحِقَهم بعدَ نُزولِ الآيةِ[٣].

- فإنْ قِيل: العذابُ الأدْنَى في مُقابلَته العذابُ الأقْصى، والعذابُ الأكبَرُ في مُقابَلَتِه العذابُ الأصغَرُ؛ فما الحِكمةُ في مُقابلةِ الأدْنى بالأكبَرِ؟

فالجوابُ: أنَّه حصَلَ في عذابِ الدُّنيا أمْرانِ؛ أحدُهما: أنَّه قَريبٌ، والآخَرُ: أنَّه قليلٌ صَغيرٌ. وحصَلَ في عذابِ الآخِرةِ أيضًا أمْرانِ؛ أحدُهما: أنَّه بعيدٌ، والآخَرُ: أنَّه عظيمٌ كثيرٌ، لكنَّ القُرْبَ في عَذابِ الدُّنيا هو الَّذي يَصلُحُ للتَّخويفِ به؛ فإنَّ العَذابَ العاجلَ وإنْ كان قَليلًا قد يَحترِزُ منه بعضُ الناسِ أكثَرَ ممَّا يَحترِزُ من العذابِ الشَّديدِ إذا كان آجِلًا، وكذا الثَّوابُ العاجِلُ؛ قد يَرغَبُ فيه بعضُ النَّاسِ، ويَستبعِدُ الثَّوابَ العظيمَ الآجِلَ، وأمَّا في عذابِ الآخِرةِ فالَّذي يَصلُحُ للتَّخويفِ به هو العظيمُ والكبيرُ لا البَعيدُ؛ لِمَا بيَّنَّا، فقال في عذابِ الدُّنيا: ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾؛ لِيَحترِزَ العاقلُ عنه، ولو قال: (لَنُذِيقَنَّهم مِن العذابِ الأصغَرِ) ما كان يَحترِزُ عنه؛ لِصِغَرِه، وعَدمِ فَهمِ كَونِه عاجِلًا، وقال في عذابِ الآخِرةِ: ﴿ٱلْأَكْبَرِ﴾ لذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٠٦٦، ١٠٦٧)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٠٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٥١)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٤٠٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٧٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٣).

المعنى، ولو قال: (دونَ العذابِ الأبعدِ الأقْصى) لَمَا حصَلَ التَّخويفُ به مِثلَ ما يَحصُلُ بوَصفِه بالكُبْرِ، وبالجُملةِ: فقد اختارَ اللهُ تعالى في العذابَينِ الوَصفَ الَّذي هو أصلَحُ للتَّخويفِ مِن الوَصفينِ الآخَرينِ فيهما لِحِكمةٍ بالغةٍ(١).

- جُملةُ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ لِحِكمةِ إذاقتِهم العذابَ الأدْنى في الدُّنيا بأنَّه لِرَجاءِ رُجوعِهم، أي: رُجوعِهم عن الكُفرِ بالإيمانِ، والمُرادُ: رُجوعُ مَن يُمكِنُ رُجوعُه، وهمُ الأحياءُ منهم. وإسنادُ الرُّجوعِ إلى ضَميرِ جَميعِهم باعتبارِ القَبيلةِ والجَماعةِ، أي: لعلَّ جَماعتَهم تَرجِعُ(٢).

٥- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ بَيانٌ إجْماليٌّ لحالِ مَن قابَلَ آياتِ اللهِ تعالى بالإعراضِ، بعْدَ بَيانِ حالِ مَن قابَلَها بالسُّجودِ، والتَّسبيحِ، والتَّحميدِ(٣).

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ استِفهامٌ إنكاريٌّ(٤).

- قولُه: ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قالَه هنا بـ﴿ثُمَّ﴾، وقال في آيةٍ أُخرى: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف: ٥٧]، والفرْقُ: أنَّ المعنى في

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٨، ١٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٣٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٤).

آيةِ ﴿فَأَعۡرَضَ﴾: أنَّه بادَرَ بالإعراضِ، وفي الثَّانيةِ: بعْدَما فكَّرَ وقدَّرَ أعرَضَ، والنَّاسُ هكذا؛ منهم مَن يُعرِضُ لأوَّلِ وَهْلةٍ، ولا يَلتفِتُ ولا يُفكِّرُ، ومنهم مَن قد يُفكِّرُ، ولكنْ في النِّهايةِ يُعرِضُ[1]، فتكونُ (ثمَّ) على بابِها للتَّراخي الزَّمنيِّ؛ لِيَكونَ المعنى: أنَّ مَن وقَعَ له التَّذكيرُ بها في وَقتٍ ما، فأخَذَ يَتأمَّلُ فيها، ثمَّ أعرَضَ عنها بعدَ ذلك ولو بألْفِ عامٍ؛ فهو أظلَمُ الظَّالمينَ، ويَدخُلُ فيه ما دونَ ذلك مِن بابِ الأَولى؛ لأنَّه أجدَرُ بعَدمِ النِّسيانِ؛ فهي أبلَغُ هنا مِن التَّعبيرِ بالفاءِ -كما في سُورةِ (الكهفِ)- ويكونُ عدَلَ إلى الفاءِ هناك؛ شَرحًا لِمَا يكونُ مِن حالِهم عندَ بَيانِ سُؤالِهم، الَّذي جَعَلوا بَيانَه آيةَ الصِّدقِ، والعَجزَ عنه آيةَ الكَذِبِ. وقيل: لَمَّا بلَغَتْ هذه الآياتُ مِن الوُضوحِ أقْصَى الغاياتِ؛ فكان الإعراضُ عنها مُستبعَدًا بعْدَه؛ عبَّرَ عنه بأداةِ البُعدِ لذلك (ثُم)، فقال: ﴿ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآ﴾، وذلك ضِدُّ ما عَمِله الَّذين لم يَتَمالكوا أنْ خَرُّوا سُجَّدًا؛ فالتَّعبيرُ بأداةِ التَّراخي استبعادٌ وتَعجُّبٌ مِن حالِهم[2].

- وجُملةُ ﴿إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ مُستأْنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا، ناشئًا عن تَفظيعِ ظُلمِ الَّذي ذُكِّرَ بآياتِ ربِّه فأعرَضَ عنها؛ لأنَّ السَّامعَ يَترقَّبُ جَزاءَ ذلك الظَّالمِ[3]. والمرادُ بـ ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ المُشرِكونَ، والكلامُ ذَمٌّ للمُعرِضينَ، وهذا الأسلوبُ أذَمُّ لهمْ مِن ذلك؛ لأنَّه يُقرِّرُ أنَّ الكافرَ إذا وُصِفَ بالفِسقِ والظُّلمِ والجُرْمِ، حُمِلَ على نِهايةِ كُفْرِه وغايةِ تَمرُّدِه؛ لأنَّ هذه الآيةَ كالخاتمةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٣٩، ٤٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٤).

لأحوالِ المُكذِّبينَ القائلينَ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾[1] [السجدة: ٣].

- والجُملةُ الاسميَّةُ ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ تدُلُّ على دَوامِ ذلك عليهم في الدُّنيا؛ إمَّا باطنًا بالاستِدراجِ بالنِّعَمِ، وإمَّا ظاهِرًا بإحلالِ النِّقَمِ، وفي الآخرةِ بدَوامِ العذابِ على مَرِّ الآبادِ[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ عبَّر في الآيةِ بقولِه: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ بَدلًا مِن أنْ يُقالَ: (إنَّا مَنْهُ مُنتقِمون)، أي: مِن المُجرِمِ؛ لأنَّه لَمَّا جعَلَه أظلَمَ مِن كلِّ ظالمٍ، ثمَّ توعَّدَ المُجرمينَ عامَّةً بالانتقامِ منهم؛ فقد دلَّ على إصابةِ الأظلَمِ النَّصيبَ الأوفَرَ مِن الانتقامِ، ولو قالَه بالضَّميرِ لمْ يُفِدْ هذه الفائدةَ. وقيل: عدَلَ عن ذِكرِ ضَميرِ المُجرمينَ، فلمْ يَقُلْ: (إنَّا منهم مُنتقِمون)؛ لزيادةِ تَسجيلِ فَظاعةِ حالِهم بأنَّهم مُجرِمون مع أنَّهم ظالِمون، وقد يُقالُ: إنَّ (المُجرمينَ) أعَمُّ مِن (الظَّالمينَ)؛ فيكونُ دُخولُهم في الانتقامِ مِن المُجرمينَ أُخْرويًّا، وتَصيرُ جُملةُ ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ تَذْييلًا[3]. فقولُه: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ دون أن يقالَ: (إنَّا مَنْهُ مُنتقِمون)، أفاد أنَّ هذا مُجرِمٌ، وأنَّ الحُكْمَ يَعُمُّه وغيرَه من المجرمينَ[4].

- قَولُه: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ عبَّرَ بصيغةِ العَظَمةِ؛ تنبيهًا على أنَّ الَّذي يحصُلُ لهم مِنَ العذابِ: لا يَدخُلُ تحتَ الوَصفِ على مُجَرَّدِ العِدادِ في الظَّالِمينَ، فكيف وقد كانوا أظلَمَ الظَّالمينَ[5]؟!

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١٠٧).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٦٣).

الآيات (٢٢-٢٥)

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿مِرْيَةٍ﴾: أي: شكٍّ، والمِرْيةُ كذلك: التَّردُّدُ في الأمرِ، وهو أخَصُّ مِن الشَّكِّ[1].

﴿أَئِمَّةً﴾: أي: قادَةً في الخيرِ، يُقْتَدَى بهم، ويُهتدَى بِهَدْيِهم، وأئِمَّة جمعُ إمامٍ، والإمامُ الَّذي يُؤْتَمُّ به في خيرٍ أو شرٍّ، وأصل (أمم): الأصلُ والمرجِعُ والجماعةُ والدِّينُ[2].

﴿يُوقِنُونَ﴾: أي: يَعلَمونَ عِلمًا متمكِّنًا في نفوسِهم لا يمكِنُ أن يدخُلَه شكٌّ، وأصلُه مِن: يَقِنَ الماءُ، أي: ثبَت وسكَن، واليقينُ: زوالُ الشَّكِّ، وقيل: هو العِلمُ الَّذي يحصُلُ بعدَ استِدلالٍ ونظرٍ، وقيل: هو سكونُ الفَهمِ مع ثباتِ الحكمِ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ولقد آتَيْنا موسى التَّوراةَ، فلا تكُنْ -يا محمَّدُ- في شَكٍّ مِن لِقائِه، وجعَلْنا التَّوراةَ دَليلًا مُرشِدًا لبني إسرائيلَ إلى الحَقِّ، وجعَلْنا مِن بَني

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٨٦)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨).

إسرائيلَ أئمَّةً يُرشِدونَ النَّاسَ إلى الحَقِّ لَمَّا صَبَروا، وكانوا يُوقِنونَ بآياتِ اللهِ.

إنَّ ربَّك -يا مُحمَّدُ- هو وَحْدَه يَحكُمُ بيْنَهم يومَ القيامةِ فيما كانوا فيه يَختَلِفونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (٢٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى آياتِه الَّتي ذكَّرَ بها عبادَه، وهو: القُرآنُ الَّذي أنزَلَه على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم -على قولٍ في التَّفسيرِ-، ذكَرَ أنَّه ليس ببِدْعٍ مِنَ الكتُبِ، ولا مَن جاء به بغَريبٍ مِنَ الرُّسُلِ؛ فقد آتى اللهُ موسى الكتابَ الَّذي هو التَّوراةُ المصَدِّقةُ للقُرآنِ، الَّتي قد صَدَّقَها القُرآنُ؛ فتَطابَقَ حَقُّهما، وثَبَت بُرهانُهما(١).

وأيضًا لَمَّا جرى ذِكرُ إعراضِ المُشركينَ عن آياتِ اللهِ -وهي آياتُ القُرآنِ، على قولٍ في التَّفسيرِ- في قَولِه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ [السجدة: ٢٢]، استطرَدَ إلى تسليةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ ما لَقِيَ مِن قَومِه هو نظيرُ ما لَقِيَه موسى مِن قَومِ فِرعَونَ، الَّذين أُرسِلَ إليهم(٢).

وأيضًا لَمَّا قَرَّر الأصولَ الثَّلاثةَ: الرِّسالةَ، وبَدْءَ الخلقِ، والمَعادَ؛ عاد إلى الأصلِ الَّذي بَدَأ به، وهو الرِّسالةُ، أي: لسْتَ بِدْعًا في الرِّسالةِ، إذْ قد سَبَق قبْلَك رُسلٌ(٣).

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٤٠).

أي: ولقد آتَيْنا موسى التَّوراةَ[1].

﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾.

أي: فلا تَكُنْ -يا محمَّدُ- في شَكٍّ وتردُّدٍ مِن لِقائِه[2].

﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

أي: وجعَلْنا كِتابَ مُوسى مُرشِدًا ودَليلًا لبني إسرائيلَ إلى الحَقِّ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧١).

قيل: المرادُ: فلا تكُنْ -يا محمَّدُ- في مِريةٍ مِن لقائِك موسى. وممَّن قال بذلك: الزَّجَّاجُ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٠٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: أبو العاليةِ، ومُجاهِدٌ، وقَتادةُ، وابنُ السَّائبِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٤٣).

وقيل: المرادُ: لا تكُنْ مُمتَرِيًا -يا محمَّدُ- في أن يَنالَك ما لَقِيَه موسى مِن أذى قَومِه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عاشور، وذكره ابن عثيمين احتِمالًا. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١٠٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٤٣).

وقيل: يُحتمَلُ أن يكونَ الخِطابُ لموسى على معنَى: ولقد آتَيْنا موسى التَّوراةَ قائلينَ له: لا تكُنْ في مِرْيةٍ مِن لقاءِ الجزاءِ على هذا الكتابِ؛ فلا بُدَّ أن يُحاسَبَ عليه مَن نزَلَ إليهم حتَّى يلاقُوا جزاءَهم. ذكره ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١٠٩).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ١٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٦).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالضَّميرِ في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ عائدٌ إلى الكتابِ: الواحديُّ، وذكر أنَّه قولُ الجميعِ، وذهَب إليه ابنُ كثير، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٩٤). =

كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٥٣].

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟﴾.

أي: وجعَلْنا مِن بني إسرائيلَ قادةً في الخيرِ، يَدُلُّونَ النَّاسَ، ويُرشِدونَهم إلى الحَقِّ بأمرِ اللهِ تعالى[١] حينَ صَبَروا على طاعتِنا، وصَبَروا عن المعاصي وشَهَواتِ الدُّنيا، وتحمَّلوا مَصائِبَها[٢].

= وقيل: الضَّميرُ يعودُ إلى موسى عليه السَّلامُ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٦).

وممَّن قال بهذا القولِ من السَّلفِ: قَتادةُ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٩٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٧).

قال ابنُ عاشور: (ضَميرُ النَّصبِ في ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى﴾ يجوزُ أن يعودَ على الكتابِ، أو على موسى، وكِلاهما سَبَبُ هُدًى). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٦).

(١) قال الشوكاني: (﴿بِأَمْرِنَا﴾ أي: بأمْرِنا لهم بذلك، أو لأجلِ أمْرِنا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٩٦).

وقال ابن جرير: (قولُه: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ يقولُ تعالى ذِكرُه: يَهْدون أتْباعَهم وأهلَ القَبولِ منهم بإذْنِنا لهم بذلك، وتَقويتِنا إيَّاهم عليه). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٧).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿بِأَمْرِنَا﴾ أي: بوَحْينا: السَّمْعانيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٥٣).

وقال ابن عاشور: (والأمرُ يَشملُ الوحْيَ بالشَّريعةِ؛ لأنَّه أمْرٌ بها، ويشملُ الانتِصابَ للإرشادِ؛ فإنَّ اللهَ أمَرَ العُلماءَ أن يُبَيِّنوا الكتابَ، ويُرشِدوا إليه، فإذا هَدَوْا فإنَّما هَدَوْا بأمرِه وبالعِلمِ الَّذي أتاهم به أنبياؤُهم وأحبارُهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٧).

وقيل: الأمرُ هنا شامِلٌ للأمرِ القَدَريِّ الكونيِّ، والأمرِ الشَّرعيِّ. والقَدَريُّ يعني: يَهدُونَ النَّاسَ بقَدَرِنا وتَقديرِنا. والشَّرعيُّ يعني: يَهدون النَّاسَ إلى دينِ الله. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٧، ٦٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٠٩)، ((تفسير =

﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

أي: وكانوا يُوقِنونَ بآياتِ اللهِ بعِلمٍ ثابتٍ مُستَقِرٍّ؛ فهم لا يَشُكُّونَ فيها، ولا فيما دَلَّت عليه مِنَ الحَقِّ[1].

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾ [الحجرات: ١٥].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٢٥﴾.

أي: إنَّ ربَّك -يا مُحمَّدُ- هو وَحْدَه مَنْ يحكُمُ يومَ القيامةِ بينَ جَميعِ خَلْقِه -ومنهم بنو إسرائيلَ- فيما كانوا في الدُّنيا يختَلِفونَ فيه مِن شَأنِ الدِّينِ، فيَجزي كلَّ مُحِقٍّ ومُبطِلٍ بما يَستَحِقُّه[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [النحل: ١٢٤].

= ابن كثير)) (٦/ ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٨)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٣٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٦).

وذكر ابنُ عثيمين أنَّ قولَه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يَشملُ الآياتِ الشَّرعيَّةَ والكَونيَّةَ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٦٦، ٢٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١١٥، ١١٦).

قال البقاعي: (وأمَّا غيرُ ما اختلَفوا فيه، فالحُكمُ فيه لهم أو عليهم لا بيْنَهم، وما اختلَفوا فيه لا على وَجهِ القَصدِ فيَقَعُ في محلِّ العَفوِ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٢٦٧).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال سُفْيانُ بنُ عُيَيْنةَ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾: (لَمَّا أخذوا برأسِ الأمرِ جعَلْناهم رُؤوسًا)[١].

٢- الطَّريقُ إلى اللهِ تعالى خالٍ مِن أهلِ الشَّكِّ، ومِنَ الَّذين يتَّبِعونَ الشَّهَواتِ، وهو مَعمورٌ بأهلِ اليَقينِ والصَّبرِ، وهم على الطَّريقِ كالأعلامِ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[٢].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ فيه أنَّهم نالوا هذه الدَّرَجةَ العاليةَ بالصَّبرِ على التعَلُّمِ والتَّعليمِ، والدَّعوةِ إلى اللهِ، والأذى في سَبيلِه، وكَفُّوا أنفُسَهم عن جِماحِها في المعاصي، واستِرسالِها في الشَّهَواتِ، ووصَلوا في الإيمانِ بآياتِ اللهِ إلى دَرَجةِ اليَقينِ، وهو العِلمُ التَّامُّ الموجِبُ للعَمَلِ، وإنَّما وصَلوا إلى دَرَجةِ اليَقينِ؛ لأنَّهم تعلَّموا تعلُّمًا صحيحًا، وأخَذوا المسائِلَ عن أدِلَّتِها المفيدةِ لليَقينِ؛ فما زالوا يتعلَّمونَ المسائِلَ، ويَستَدِلُّونَ عليها بكَثرةِ الدَّلائِلِ، حتَّى وصلوا لذاك؛ فبالصَّبرِ واليَقينِ تُنالُ الإمامةُ في الدِّينِ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ فضيلةُ الصَّبرِ؛ تُؤْخَذُ مِن الجزاءِ عليه؛ أي: مِن كَونِ الصَّابرِ يكون إمامًا، وهذا دليلٌ على أنَّ الصَّبرَ محبوبٌ إلى اللهِ، ويُجازي عليه بهذا الجزاءِ العظيمِ[٤].

(١) يُنظر: ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) لابن القيم (ص: ٩٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١١٤).

٥- قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ بالصَّبرِ تُترَكُ الشَّهَواتُ، والإراداتُ الفاسدةُ، وباليَقينِ تُدفَعُ الشُّكوكُ، والشُّبُهاتُ[(١)].

٦- الإيمانُ مَبنيٌّ على رُكنَينِ: يقينٍ وصَبرٍ، وهما الرُّكنانِ المذكورانِ في قَولِه تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾، فباليَقينِ يَعلَمُ حَقيقةَ الأمرِ والنَّهيِ والثَّوابِ والعِقابِ، وبالصَّبرِ يُنفِّذُ ما أُمِرَ به، ويَكُفُّ نَفْسَه عمَّا نُهيَ عنه، ولا يَحصُلُ له التَّصديقُ بالأمرِ والنَّهيِ أنَّه مِن عندِ اللهِ، وبالثَّوابِ والعقابِ: إلَّا باليقينِ، ولا يمكِنُه الدَّوامُ على فِعلِ المأمورِ، وكَفِّ النَّفسِ عن المحظورِ إلَّا بالصَّبرِ؛ فصار الصَّبرُ نِصفَ الإيمانِ، والنِّصفُ الثَّاني الشُّكرُ، بفِعلِ ما أُمِرَ به، وبِترَكِ ما نُهيَ عنه[(٢)].

٧- جَعَلَ الله تعالى الإمامةَ في الدِّينِ مَوروثةً عن الصَّبرِ واليقينِ بقولِه: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾؛ فإنَّ الدِّينَ كُلَّه عِلمٌ بالحقِّ وعمَلٌ به، والعملُ به لا بدَّ فيه مِن الصَّبرِ، بل وطلَبُ علمِه يحتاجُ إلى الصَّبرِ[(٣)].

٨- العِلمُ بالمطلوبِ وبطَريقِه لا يُحصِّلانِ المقصودَ إلَّا مع الإرادةِ الجازمةِ، والإرادةُ الجازمةُ لا تكونُ إلَّا مع الصَّبرِ؛ ولهذا قال سُبحانَه وتعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر: ١ - ٣]، وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا

(١) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١٢٠)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ١٠).
(٢) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٠٨).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٣٩).

صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، فاليَقينُ هو العِلمُ الثَّابتُ المُستَقِرُّ، والصَّبرُ لا بُدَّ منه لتَحقيقِ الإرادةِ الجازِمةِ[١].

٩- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ الخِطابُ للنَّبيِّ، والمرادُ أُمَّتُه؛ تحذيرًا مِن ذلك، وإيماءً إلى وُجوبِ تجَنُّبِ الاختِلافِ الَّذي لا يدعو إليه داعٍ في مَصلَحةِ الأمَّةِ، وفَهمِ الدِّينِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾ دَليلٌ على أنَّ الأئمَّةَ يُتَّبَعونَ على الهدايةِ بأمرِ اللهِ لا بآرائِهم، وأنَّ فَضْلَ إمامتِهم لا يُثبِتُ حُجَّةً على غيرِهم إذا لم يَهدوهم بأمرِ اللهِ، وأمرُه كِتابُه -على قولٍ في التَّفسيرِ-، واللهُ أعلَمُ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾ أنَّه سُبحانَه هو الَّذي جَعَل العَبدَ فاعِلًا؛ فهو سُبحانَه الَّذي جَعَل أئمَّةَ الهدى يَهدونَ بأمرِه، وجَعَل أئمَّةَ الضَّلالِ والبِدَعِ يَدْعونَ إلى النَّارِ، كما في قَولِه سُبحانَه: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٤١]، فأخبَرَ أنَّ الإمامةَ والهدايةَ والدَّعوةَ بجَعْلِه، مع كَونِ ذلك كَسْبًا وفِعلًا للأئمَّةِ، فهي مجعولةٌ له، وفِعلٌ لهم[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ أنَّه لا وِفاقَ بيْنَ المؤمنينَ والكافرين، فأيُّ إنسانٍ يُحاوِلُ أنْ يُقارِبَ بيْنَ الإسلامِ والنَّصرانيَّةِ، أو بيْنَ الإسلامِ واليهوديَّةِ؛ فإنَّه أراد أنْ يَرُدَّ اللَّبَنَ في الضَّرْعِ! وهذا غيرُ ممكنٍ؛ فكلُّ كافرٍ مهما

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٣٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٨).
(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٣٩).
(٤) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٥٥، ١٣٦).

كان -سواءٌ انتَسَبَ إلى الإسلام أمْ كان كافرًا مُعْلِنًا كُفْرَه- فإنَّه لا يمكِنُ أن يَتوافَقَ مع المؤمنينَ أبدًا، ومَن زَعَم ذلك فقد أبْعَدَ النُّجْعةَ، وحاوَلَ شيئًا مستحيلًا[(١)].

٤- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ليس مِن هذا الاختِلافِ اختِلافُ أئمَّةِ الدِّينِ في تفاريعِ الأحكامِ، وفي فَهمِ الدِّينِ، ممَّا لا يَنقُضُ أُصولَه، ولا يُخالِفُ نُصوصَه، وإنَّما هو إعمالٌ لأُصولِه ولأَدِلَّتِه في الأحوالِ المناسِبةِ لها، وحَمْلُ مُتعارِضِها بَعضِه على بَعضٍ؛ فإنَّ ذلك كلَّه مَحمودٌ غيرُ مَذموم، وقد اختلفَ أصحابُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في حياتِه، فلم يُعَنِّفْ أحدًا، واختلفوا بعدَ وفاتِه فلم يُعَنِّفْ بَعضُهم بعضًا[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ذكَرَ مُوسَى عليه السَّلامُ؛ لِقُربِ زَمانِه، وإلْزامًا لِمَن كان على دِينِه، ولم يَذكُرْ عيسى؛ لأنَّ مُعظَمَ شَريعتِه مُستفادٌ مِن التَّوراةِ، ولأنَّ أتْباعَ مُوسى لا يُوافِقون على نُبوَّتِه، وأتْباعَ عيسى مُتَّفِقون على نُبوَّةِ مُوسى[(٣)].

وقيل: اختيارُ موسى عليه السَّلامُ لِحكمةٍ، وهي أنَّ أحدًا مِنَ الأنبياءِ لم يُؤذِه قومُه إلَّا الَّذين لم يُؤمِنوا به، وأمَّا الَّذين آمَنوا به فلم يُخالِفوه، غيرَ قَومِ موسى؛ فإنَّ مَن لم يؤمِنْ به آذاه، مِثلُ: فِرعونَ وغَيرِه، ومَنْ آمَنَ به مِن بني إسرائيلَ أيضًا آذاه بالمُخالَفةِ، وطَلَبِ أشياءَ منه، مثلُ: طَلَبِ رُؤيةِ اللهِ جَهرةً، ومِثلُ قَولِهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ [المائدة: ٢٤]! فقيلَ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: تذكَّرْ حالَ موسى ولا تحزَنْ؛ فإنَّه لَقِيَ ما لَقِيتَ، وأُوذِيَ كما أُوذيتَ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١١٦، ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٥٠).

- والكتابُ في قولِه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ هو التَّوراةُ؛ عبَّرَ عنها باسمِ الجِنسِ؛ لِتَحقيقِ المُجانَسةِ بيْنَه وبيْنَ الفُرقانِ، والتَّنبيهِ أنَّ إيتاءَه لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كإيتائِه لِمُوسى عليه السَّلامُ[1]. وقيل: أُرِيدَ بقولِه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾: أرسَلْنا مُوسى؛ فذِكْرُ إيتائِه الكِتابَ كِنايةٌ عن إرسالِه، وإدماجُ ذِكرِ الكتابِ؛ للتَّنويهِ بشَأْنِ مُوسى، وليس داخِلًا في تَنظيرِ حالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بحالِ مُوسى عليه السَّلامُ في تكذيبِ قَومِه إيَّاهُ؛ لأنَّ مُوسى لم يُكذِّبْه قومُه؛ ألَا تَرى إلى قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ...﴾ الآياتِ، ولِيَتأتَّى مِن وَفرةِ المَعاني في هذه الآيةِ ما لا يَتأتَّى بدُونِ ذِكرِ الكِتابِ[2].

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ الخبَرُ مُستعمَلٌ في التَّسليةِ بالتَّنظيرِ والتَّمثيلِ؛ فهذه الجُملةُ وما بعْدَها إلى قولِه: ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة: ٢٥] مُعترِضاتٌ، ومَوقعُ التَّأكيدِ بلامِ القسَمِ، وحَرفِ التَّحقيقِ (قدْ) هو ما استُعْمِلَ فيه الخبَرُ مِن التَّسليةِ، لا لأصلِ الأخبارِ؛ لأنَّه أمْرٌ لا يَحتاجُ إلى التَّأكيدِ، وبه تَظهَرُ رَشاقةُ الاعتِراضِ بتَفريعِ ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ على الخبَرِ الَّذي قبْلَه[3].

- والخِطابُ في قولِه: ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فالنَّهيُ مُستعمَلٌ في طلَبِ الدَّوامِ على انتِفاءِ الشَّكِّ؛ فهو نَهْيٌ مَقصودٌ منه التَّثبيتُ، كقولِه: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [هود:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٣٤).

١٠٩]، وليس لِطَلبِ إحداثِ انكِفافٍ عن المِرْيةِ؛ لأنَّها لمْ تَقَعْ مِن قبْلُ[(١)].

- قولُه: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ قيل: (اللِّقاءُ) مَصدرٌ مُضافٌ إلى فاعِلِه، أي: ممَّا لقِيَ مُوسى مِن قَومِ فِرعونَ مِن تَكذيبٍ، أي: مِن مِثلِ ما لقِيَ مُوسى، وهذا المُضافُ يدُلُّ عليه المَقامُ، أو يكونُ جاريًا على التَّشبيهِ البليغِ، كقولِه: هو البدْرُ، أي: مِن لِقاءٍ كلِقائه. ويجوزُ أنْ يكونَ ضَميرُ ﴿لِّقَآئِهِۦ﴾ عائدًا إلى مُوسى، على معنى: مِن مِثلِ ما لقِيَ مُوسى مِن إرسالِه؛ وهو أنْ كانتْ عاقبةُ النَّصرِ له على قَومِ فِرعونَ، وحُصولُ الاهتداءِ بالكتابِ الَّذي أُوتِيَه، وتَأْييدُه باهتداءِ بني إسرائيلَ، فيَكونَ هذا المعنى بشارةً للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّ اللهَ سيُظهِرُ هذا الدِّينَ. ويجوزُ أنْ يكونَ ضَميرُ ﴿لِّقَآئِهِۦ﴾ عائدًا إلى الكِتابِ، لكنْ على أنْ يكونَ المعنى: فلا تكُنْ في شَكٍّ مِن لِقاءِ الكتابِ، أي: مِن أنْ تَلْقى مِن إيتائِك الكتابَ ما هو شِنْشَنةُ (طَبيعةُ) تلقِّي الكُتبِ الإلهيَّةِ كما تَلقَّاها مُوسى؛ فالنَّهيُ مُستعمَلٌ في التَّحذيرِ ممَّن ظنَّ ألَّا يَلحَقَه في إيتاءِ الكتابِ مِن المَشقَّةِ ما لَقِيَه الرُّسلُ مِن قبْلِه. ويجوزُ أنْ يكونَ الخِطابُ في قولِه: ﴿فَلَا تَكُن﴾ لغيرِ مُعيَّنٍ، وهو مُوجَّهٌ لِلَّذين امْتَرَوا في أنَّ القُرآنَ أُنزِلَ مِن عندِ اللهِ، سواءٌ كانوا المُشركينَ، أو الَّذين يُلَقِّنونَهم مِن أهلِ الكتابِ، أي: لا تَمتَروا في إنزالِ القُرآنِ على بشَرٍ؛ فقدْ أُنزِلَ الكِتابُ على مُوسى، فلا تكونوا في مِريةٍ مِن إنزالِ القُرآنِ على محمَّدٍ؛ فالنَّهيُ مُستعمَلٌ في حَقيقتِه، مِن طَلبِ الكفِّ عن المِرْيةِ في إنزالِ القُرآنِ[(٢)].

- قولُه: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ضَميرُ النَّصبِ في ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٣٥، ٢٣٦).

يجوزُ أنْ يَعودَ على الكِتابِ، أو على مُوسى، فوُصِفَ بأنَّه هُدًى؛ للمُبالَغةِ في حُصولِ الاهتداءِ به، وهو مَعطوفٌ على ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾، وما بيْنَهما اعتِراضٌ. وهذا تَعريضٌ بالمُشركينَ؛ إذ لمْ يَشكُروا نِعمةَ اللهِ على أنْ أرسَلَ إليهم مُحمَّدًا بالقُرآنِ لِيَهتَدوا، فأعْرَضوا، وكانوا أحقَّ بأنْ يَحرِصوا على الاهتِداءِ بالقُرآنِ وبهَدْيِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[١].

- وخَصَّ بني إسرائيلَ بالذِّكْرِ؛ لأنَّه لم يَتعبَّدْ بما فيها وَلَدَ إسماعيلَ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ فيه تَعريضٌ بالبِشارةِ لأصحابِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّهم يَكونون أئمَّةً لِدِينِ الإسلامِ، وهُداةً للمسلمينَ؛ إذ صَبَروا على ما لَحِقَهم في ذاتِ اللهِ مِن أذَى قَومِهم، وصَبَروا على مَشاقِّ التَّكليفِ، ومُعاداةِ أهْلِهم وقَومِهم، وظُلْمِهم إيَّاهم[٣].

- وعلى أنَّ المُرادَ مِن الآياتِ في قولِه: ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ هو ما في التَّوراةِ مِن الشَّرائعِ والمواعظِ؛ فإطلاقُ اسمِ الآياتِ عليها مُشاكلةٌ تَقديريَّةٌ لِما هو شائعٌ بيْنَ المسلمينَ مِن تَسميةِ جُمَلِ القُرآنِ آياتٍ؛ لأنَّها مُعجِزةٌ في بَلاغتِها، خارجةٌ عن طَوقِ تَعبيرِ البَشَرِ[٤].

- وتَقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ على ﴿يُوقِنُونَ﴾؛ للاهتِمامِ بالآياتِ[٥].

٣- قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٦، ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٤١).

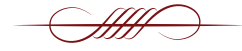
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٣٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٣٧).

- قولُه: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ قولَه تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ يُثيرُ سُؤالًا في نفْسِ السَّامعِ مِنَ المؤمنينَ الَّذين سَمِعوا ما في القُرآنِ مِن وَصفِ اختِلافِ بني إسرائيلَ، وانحرافِهم عن دِينِهم، وشاهَدَ كثيرٌ منهم بني إسرائيلَ في زَمانِه غيرَ مُتَحَلِّينَ بما يُناسِبُ ما قامَتْ به أئمَّتُهم مِن الهِدايةِ، فيَوَدُّ أنْ يَعلَمَ سببَ ذلك؛ فكان في هذه الآيةِ جوابُ ذلك؛ تَعليمًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وللمُؤمنينَ[1].

- وضَميرُ (هو) في قولِه: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ ﴾ ضَميرُ فَصلٍ؛ لِقَصرِ الفَصلِ عليه تَعالى؛ إيماءً إلى أنَّ ما يُذكَرُ في القرآنِ من بَيانِ بَعضِ ما اختَلَفوا فيه على أنبيائِهم، ليس مَطْموعًا منه أنْ يَرتدِعوا عن اختلافِهم، وإنَّما هو للتَّسجيلِ عليهم، وقَطْعِ مَعذرتِهم؛ لأنَّهم لا يَقبَلون الحُجَّةَ، فلا يُفصَلُ بيْنَهم إلَّا يومَ القيامةِ[2].



---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٣٩).

الآيات (٢٦-٣٠)

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾: أي: يُبيِّنْ أو يَتبيَّنْ لهم، وأصلُ (هدي) هنا: التَّقدُّمُ للإرشادِ[١].

﴿الْقُرُونِ﴾: جمعُ قَرْنٍ، والقَرْنُ: القَومُ المُقتَرِنُونَ في زمنٍ واحدٍ، أو الأمَّةُ من النَّاسِ، قيل: مدَّةُ القَرنِ مئةُ سَنةٍ، وقيل: ثمانونَ، وقيل: ثلاثون، وقيل غيرُ ذلك، وقيل: غيرُ مُقَدَّرةٍ بمدَّةٍ مُعَيَّنةٍ، وهو مأخوذٌ مِنَ الاقترانِ، وهو اجتماعُ شيئين أو أشياءَ في معنًى مِن المعاني، وأصل (قرن): يدُلُّ على جَمْعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[٢].

﴿الْجُرُزِ﴾: أي: اليابسةِ الَّتي لا نباتَ فيها، وأصلُ (جرز): القَطعُ؛ كأنَّ الأرضَ الجُرُزَ -وهي الَّتي لا نبتَ بها- قُطِع نَباتُها عنها[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٢٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩١).

﴿ٱلْفَتْحِ﴾: أي: الحُكْمُ، وأصلُ (فتح): يدُلُّ على خِلافِ الإغلاقِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى داعيًا المشركينَ إلى الاعتبارِ بالأُممِ السَّابقةِ: أولَم يَتبيَّنْ لأولئك المُشرِكينَ كَثرةُ مَن أهلَكْنا قَبْلَهم مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ، وهم يَمشونَ في مَنازِلِهم فلا يَرَونَ فيها أحَدًا منهم، قد هَلَكوا جميعًا؟! إنَّ في إهلاكِ أولئك القَومِ لَعِبَرًا لِمُشرِكي قُرَيشٍ وغَيرِهم، أفلا يَسمَعونَ؟!

ثمَّ يُنبِّهُ اللهُ سبحانَه إلى نعمةٍ مِن نِعَمِه الكثيرةِ، فيقولُ: أوَلَمْ يَرَ أولئك المُشرِكونَ أنَّا نَسوقُ بقُدرتِنا الماءَ إلى الأرضِ اليابِسةِ الَّتي لا نباتَ فيها، فنُخرِجُ به زَرعًا يأكُلونَ منه، وتأكُلُ منه مَواشيهم، أفلا يُبصِرونَ؟!

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى ما كان عليه المشركونَ مِنِ استِخفافٍ بالوعيدِ، فيقولُ: ويقولُ أولئك المُشرِكونَ: متى يجيءُ الفَصلُ بيْنَنا وبيْنَكم فيُعَذِّبُنا اللهُ ويَنصُرُكم علينا إنْ كنتُم صادقينَ؟!

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه بالرَّدِّ عليهم، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ-: يومَ الفَصلِ لا يَنفَعُ أولئك الكُفَّارَ إيمانُهم، ولا هم يُمهَلونَ فيُؤَخَّرُ عنهم العذابُ لِيَتوبوا؛ فأعرِضْ -يا محمَّدُ- عنهم، وانتَظِرْ حتَّى يُنزِلَ اللهُ عَذابَه بهم، إنَّهم مُنتَظِرونَ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٢)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٩٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن أعاد اللهُ تعالى ذِكرَ الرِّسالةِ في قَولِه: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ ﴾؛ أعاد هنا ذِكرَ التَّوحيدِ مع ذِكرِ البُرهانِ عليه بما يَرونَه مِن المُشاهَداتِ الَّتي يُبصِرونَها[1].

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ﴾.

أي: أوَلَمْ يَتبيَّنْ للمُشرِكينَ إهلاكُنا كثيرًا مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ قَبْلَهم، كعادٍ وثَمودَ وقَومِ لُوطٍ، وهم يَمشونَ في منازِلِهم فلا يَرَونَ فيها أحدًا منهم، قد أُهلِكوا جميعًا؛ بسَبَبِ ظُلمِهم[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٥، ٤٦].

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾.

أي: إنَّ في ذَهابِ أولئك القَومِ ودَمارِهم وخَلاءِ مَساكِنِهم؛ بسَبَبِ ظُلمِهم وتَكذيبِهم: لَدَلالاتٍ وعِبَرًا وعِظاتٍ لِمُشركي قُرَيشٍ وغيرِهم، أفلا يَسمَعونَ آياتِ اللهِ وأخبارَ الماضِينَ سَماعَ تدَبُّرٍ واتِّعاظٍ؛ فيَتوبوا ويَترُكوا الشِّركَ؛ كيلا يُصيبَهم مِثلُ ما أصاب مَنْ قَبْلَهم مِنَ الهَلاكِ[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٥١)، ((تفسير المراغي)) (٢١/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٩، ٦٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١١٠)، ((تفسير ابن =

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أقام اللهُ تعالى الحُجَّةَ على الكَفَرةِ، بالأُممِ السَّالِفةِ الَّذين كَفَروا فأُهلِكوا؛ أقامها عليهم بإظهارِ قُدرتِه، وتَنبيهِهم على البَعثِ[١].

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾.

أي: أوَلَمْ يَرَ المُشرِكونَ المكَذِّبونَ بالبَعثِ أنَّا نَسوقُ بقُدرتِنا الماءَ -كماءِ المطَرِ والسَّيلِ- إلى الأرضِ اليابِسةِ الَّتي لا نَباتَ فيها[٢]؟!

﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ﴾.

أي: فنُخرِجُ بذلك الماءِ زَرعًا تأكُلُ منه مَواشيهم، وتتغَذَّى به أبدانُهم[٣].

﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾.

أي: أفلَا يَرَونَ كيفَ أحيا اللهُ الأرضَ بعدَ موتِها؛ فيَعلَموا بذلك قُدرةَ اللهِ

= كثير)) (٦/ ٣٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٦٥، ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٢، ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧).

قال الزمخشري: (الجُرُزُ: الأرضُ الَّتي جُرِز نباتُها، أي: قُطِع؛ إمَّا لعدمِ الماءِ، وإمَّا لأنَّه رُعِي وأُزيل، ولا يُقالُ للَّتي لا تُنبِتُ كالسِّباخِ: جُرُزٌ). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧).

تعالى على إحياءِ النَّاسِ بعدَ مَوتِهم[1]؟!

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ الرِّسالةَ والتَّوحيدَ؛ بَيَّنَ الحشرَ بقولِه تعالَى[2]:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٨﴾.

أي: ويَقولُ أولئك المُشرِكونَ: متى يَجيءُ هذا الحُكْمُ الَّذي يَفصِلُ اللهُ به بيْنَنا وبيْنَكم، فيُعَذِّبُنا ويَنصُرُكم علينا إنْ كُنتُم صادِقينَ -أيُّها الرَّسولُ والمؤمِنونَ- في أنَّنا مُعاقَبونَ على شِرْكِنا وتَكذيبِنا[3]؟!

﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝٢٩﴾.

﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ-: يومَ الحُكمِ ومَجيءِ العَذابِ الَّذي تَسألونَ عنه لا تَستفيدون شَيئًا؛ فإنَّه إذا جاء انقَضَى الأمرُ، وحِينَها لا يَنفَعُ الكُفَّارَ إيمانُهم[4]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٤٣، ٦٤٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤٢).
معنَى الفتحِ هو القضاءُ والحُكْمُ عندَ أكثرِ المفسِّرينَ، نسَبَه إليهم الرَّسْعَنيُّ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٩٣).
قال الواحدي: (والقضاءُ بيْنَ الخلْقِ، وهو يوم البعثِ، يَقضي الله فيه بين المؤمنينَ والكافرين). ((الوسيط)) (٣/ ٤٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧). =

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

أي: ولا يُمهَلونَ فيُؤخَّرَ عنهم العذابُ؛ ليتُوبوا(١).

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ۝٣٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت نتيجةُ سَماعِ المُشرِكينَ لهذه الأدِلَّةِ استِهزاءَهم حتَّى بسؤالِهم عن يوم الفَتحِ، وأجابهم سُبحانَه عن تَعيينِه بذِكرِ حالِه، وكان صلَّى الله عليه وسلَّم -لشِدَّةِ حِرصِه على نَفعِهم- ربَّما أحَبَّ إعلامَهم بما طلبوا، وإن كان يَعلَمُ أنَّ ذلك منهم استهزاءٌ؛ رجاءَ أن ينفَعَهم نفعًا ما: سبَّب سُبحانَه عن إعراضِه عن إجابتِهم أمْرَه لهذا الدَّاعي الرَّفيقِ والهادي الشَّفيقِ بالإعراضِ عنهم أيضًا(٢).

وأيضًا لَمَّا بَيَّن المسائلَ وأتْقَن الدَّلائلَ ولم ينفَعْهم؛ قال تعالَى(٣):

= ممَّن اختار أنَّ المرادَ بيوم الفتحِ: يومُ القيامةِ: السمعانيُّ، والبغوي، وابن جزي، والبقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٥٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٠٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٩٨).

وقال ابن كثير: (﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ أي: إذا حل بكم بأسُ الله وسَخَطُه وغضَبُه في الدُّنيا، وفي الأخرى). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٥١).

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾.

أي: فأعرِضْ -يا مُحمَّدُ- عن هؤلاء المُشرِكينَ الَّذين يَستَعجِلونَك بالعَذابِ(١).

كما قال تعالى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ [النجم: ٢٩].

﴿ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾.

أي: وانتَظِرْ حتَّى يُنزِلَ اللهُ عَذابَه بالكافِرين، ويَنصُرَك عليهم؛ إنَّهم مُنتَظِرونَ(٢).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ أنَّ في إهلاكِ الأُمَمِ عِبْرةً وآيةً؛ فهو آيةٌ لِكَونِ اللهِ تعالى أخذَهم وأهلَكَهم مع قُوَّتِهم، وهي عِبرةٌ لأنَّ اللهَ أخَذَهم لِمُخالَفتِه، كما قال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤٣، ٢٤٤).

قيل: المرادُ: إنَّهم مُنتَظِرونَ ما تَعِدُهم مِنَ العذابِ ومجيءِ السَّاعةِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٤٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٧٧٧).

وممَّن قال بنحو هذا القولِ من السَّلَفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٤٦).

وقيل: المرادُ: إنَّهم مُنتَظِرونَ بك حوادِثَ الأزمانِ؛ لِيَستريحوا منك، ويَتَرَبَّصون بكم دَوائرَ السَّوءِ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: الواحديُّ، وابنُ كثير، والسعديُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧).

وقيل: مُنتَظِرونَ الفُرصةَ لِحَربِكم، أو لإخراجِكم. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤٤).

ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ ﴾ [غافر: ٢١]، وقال في الآيةِ الأخرى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [غافر: ٨٢]، وقال في آيةٍ أخرى: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩]، وكلُّ هذا يُفيدُ بأنَّه يجبُ علينا نحن أنْ نَعتبِرَ بهذه الآياتِ، وأن نخافَ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ ﴾ وُجوبُ النَّظَرِ في الآياتِ؛ لأنَّ الاستفهامَ هنا للتَّوبيخِ واللَّومِ لِمَن لم يَنتفِعْ بذلك[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَا يُبۡصِرُونَ﴾ الحَثُّ على النَّظَرِ والتَّبَصُّرِ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۚ أَفَلَا يَسۡمَعُونَ ﴾، في قَولِه تعالى: ﴿يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡ﴾ الاستِدلالُ بالشَّيءِ المحسوسِ على الشَّيءِ المعقولِ، أو بعبارةٍ أخرى: الاستِدلالُ بعينِ اليَقينِ على صِدقِ عِلْمِ اليَقينِ؛ فقَولُه تعالى: ﴿ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ هذا عِلمُ اليَقينِ، وقولُه تعالى: ﴿يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡ﴾ هذا عينُ اليَقينِ[٤].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ نِيطَ الاستِدلالُ هنا بالكَثرةِ الَّتي أفادَتْها (كم) الخَبريَّةُ؛ لأنَّ تكرُّرَ حُدوثِ القُرونِ وزَوالِها: أقوى دَلالةً مِن مُشاهَدةِ آثارِ أمَّةٍ واحِدةٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٩).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ﴾ إثباتُ أفعالِ اللهِ الاختياريَّةِ[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾ نِيطَ الاستِدلالُ هنا بالرُّؤيةِ؛ لأنَّ إحياءَ الأرضِ بعدَ مَوتِها، ثمَّ إخراجَ النَّبتِ منها: دَلالةٌ مُشاهَدةٌ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ﴾ أنَّ الأصلَ فيما نَبَتَ في الأرضِ الحِلُّ، فالأصلُ فيما نَبَتَ في الأرضِ أنه حلالٌ حتَّى يقومَ دليلٌ على التَّحريمِ[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ﴾ أنَّ العذابَ قد يُؤَجَّلُ قبْلَ نُزولِه؛ فظاهِرُ الآيةِ: أنَّه لو كان هذا الإيمانُ قبْلَ نُزولِ العَذابِ، فإنَّ اللهَ تعالى يَرفَعُه بالإيمانِ؛ ولهذا أمَر النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عندَ الكُسوفِ بالصَّلاةِ والدُّعاءِ والاستِغفارِ[٤]، والصَّدَقةِ والتَّكبيرِ[٥]؛ مِن أجْلِ أنْ يُرفَعَ العذابُ الَّذي هذا إنذارٌ به؛ فإنَّ الكُسوفَ إنذارٌ بالعَذابِ، وهو نفْسُه ليس عذابًا، لكنَّه إنذارٌ بأنْ يُعَذَّبَ الخَلْقُ، فإذا فَزِعوا إلى الصَّلاةِ وإلى الذِّكرِ والدُّعاءِ والاستِغفارِ، رُفِعَ عنهم[٦].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١٢٦).

(٤) يُنظر ما أخرجه البخاري (١٠٥٩)، ومسلم (٩١٢) من حديث أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه.

(٥) يُنظر ما أخرجه البخاري (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١) من حديث عائشةَ رضي الله عنها.

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١٢٩).

فِي مَسَٰكِنِهِمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۚ أَفَلَا يَسۡمَعُونَ ﴾ في هذه الآيةِ مُناسَبةٌ حسَنةٌ في المعاني، حيثُ قال اللهُ تعالى في صَدْرِها: ﴿ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ ﴾ وهي موعظةٌ سَمعيَّةٌ؛ لِكَونِهم لم يَنظُروا إلى القُرونِ الهالِكةِ، وإنَّما سَمِعوا بها؛ فناسَبَ أنْ يأتيَ بعْدَها بقولِه: ﴿أَفَلَا يَسۡمَعُونَ﴾، أمَّا بعدَ الموعظةِ المرئيَّةِ -وهي قولُه: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ﴾- فقد ناسَبَ أنْ يقولَ: ﴿أَفَلَا يُبۡصِرُونَ ﴾؛ لأنَّ الزَّرعَ مَرئيٌّ لا مَسموعٌ؛ لِيُناسِبَ آخِرُ كلِّ كلامٍ أوَّلَه[(١)].

- وقولُه: ﴿ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡ ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآ ﴾ [السجدة: ٢٢]، ولَمَّا كان ذلك التَّذكيرُ مُتَّصِلًا كقولِه: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ [السجدة: ١٠]، كان الهَدْيُ -أي العِلمُ المُستفهَمُ عنه بهذا الاستِفهامِ- شاملًا للهَدْيِ إلى دَليلِ البعثِ، وإلى دَليلِ العِقابِ على الإعراضِ عن التَّذكيرِ؛ فأفاد قولُه: ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ مَعنيَينِ؛ أحدُهما: إهلاكُ أُمَمٍ كانوا قبْلَهم، فجاء هؤلاء المُشرِكون بَعْدَهم؛ وذلك تَمثيلٌ للبَعثِ، وتَقريبٌ لإمكانِه. وثانيهما: إهلاكُ أُمَمٍ كذَّبوا رُسلَهم؛ ففيهم عِبرةٌ لهم أنْ يُصيبَهم مِثلُ ما أصابَهم[(٢)].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ[(٣)].

- وقد جُوِّزَ أنْ يكونَ الفاعلُ لـ﴿يَهۡدِ﴾ ضَميرَه تعالى؛ فيكونَ قولُه تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٦٨، ٢٦٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٩).

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا ...﴾ استِئنافًا مُبيِّنًا لِكَيفيَّةِ هِدايتِه تعالى(١).

- اختيرَ فِعلُ الهِدايةِ في هذه الآيةِ في قولِه: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾؛ لإرادةِ الدَّلالةِ الجامعةِ للمُشاهَدةِ، ولِسماعِ أخبارِ تلك الأُمَمِ؛ تَمهيدًا لقولِه في آخِرِها: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾، ولأنَّ كثرةَ ذلك المُستفادةَ مِن (كَم) الخَبريَّةِ إنَّما تَحصُلُ بتَرتيبِ الاستِدلالِ في تَواتُرِ الأخبارِ، ولا تَحصُلُ دَفْعةً كما تَحصُلُ دَلالةُ المُشاهَداتِ(٢).

- ولَمَّا كان الَّذي يُؤْثَرُ مِن أخبارِ تلك الأُمَمِ، وتَقلُّباتِ أحوالِها، وزَوالِ قُوَّتِها ورَفاهيَّتِها؛ أشَدَّ دَلالةً ومَوعظةً للمشركينَ؛ فُرِّعَ عليه ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ استِفهامًا تَقْريريًّا مَشوبًا بتَوبيخٍ؛ لأنَّ اجتِلابَ المُضارِعِ -وهو ﴿يَسْمَعُونَ﴾- مُؤْذِنٌ بأنَّ استِماعَ أخبارِ تلك الأُمَمِ مُتكرِّرٌ مُتجدِّدٌ؛ فيكونُ التَّوبيخُ على الإقرارِ المُستفهَمِ عنه أوقَعَ، بخِلافِ ما بعْدَه مِن قولِه: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾(٣) [السجدة: ٢٧].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ لَمَّا ذكَرَ القُرونَ والمَساكنَ بالجَمْعِ؛ حَسُنَ جمْعُ الآياتِ(٤).

٢- قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾

- اختيرَ في التَّعبيرِ هنا الفِعلُ المُضارِعُ ﴿نَسُوقُ﴾؛ لاستِحضارِ الصُّورةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٩، ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٠٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٧٥).

العَجيبةِ الدَّالَّةِ على القُدرةِ الباهرةِ[1].

- قولُه: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾ الزَّرعُ: ما نبَتَ بسَببِ بَذرِ حُبوبِه في الأرضِ؛ كالشَّعيرِ والبُرِّ، وأكْلُ الأنعامِ غالِبُه مِن الكلأِ، لا مِن الزَّرعِ، فذِكْرُ الزَّرعِ بلَفْظِه، ثمَّ ذِكْرُ أكْلِ الأنعامِ؛ يَدُلُّ على تقديرِ: وكَلَأً...؛ ففي الكلامِ اكتِفاءٌ[2]. والتَّقديرُ: ونُخرِجُ به زَرعًا وكَلَأً تأكُلُ منه أنعامُهم وأنفسُهم، والمَقصودُ: الاستِدلالُ على البَعثِ وتَقريبِه وإمكانِه، بإخراجِ النَّبتِ مِن الأرضِ بعدَ أنْ زالَ فَوْجُه الأوَّلُ. وأُدْمِجَ في هذا الاستِدلالِ امتنانٌ بقولِه: ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾[3].

- وأيضًا في قولِه: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾ خُصَّ الزَّرعُ بالذِّكْرِ -وإنْ كان يُخرِجُ اللهُ به أنواعًا كثيرةً؛ مِن الفَواكهِ والبُقولِ، والعُشبِ المُنتفَعِ به في الطِّبِّ وغيرِه-؛ تَشريفًا للزَّرعِ، ولأنَّه أعظَمُ ما يُقصَدُ مِن النَّباتِ[4].

- وقُدِّمَت الأنعامُ؛ لأنَّ ما يَنبُتُ يَأكُلُه الأنعامُ أوَّلَ فأوَّلَ، مِن قبْلِ أنْ يَأكُلَ بَنو آدَمَ الحَبَّ، أو لأنَّه غِذاءُ الدَّوابِّ، والإنسانُ قد يَتغذَّى بغَيرِه؛ مِن حَيوانٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤١).

(٢) الاكتِفاءُ: هو أنْ يَقتضيَ المَقامُ ذِكْرَ شيئَينِ بيْنَهما تَلازُمٌ وارتباطٌ، فيُكتفَى بأحدِهما عن الآخَرِ؛ لنُكتةٍ بلاغيَّة. ومثالُ ذلك قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]؛ ففي قولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ إيجازٌ بالحذفِ على سبيلِ الاكتفاءِ، إذِ التَّقديرُ: تَقيكُمُ الحَرَّ والبَرْدَ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١١٨)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٥)، ((البلاغة العربية)) للميداني (٢/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٤٢).

وغيرِه، أو بَدَأ بالأدْنى، ثمَّ تَرقَّى إلى الأشرَفِ، وهم بَنو آدَمَ[(١)]. أو قدَّمَها لِمَوقعِ الامتنانِ بها؛ لأنَّ بها قِوامَهم في مَعايشِهم وأبدانِهم، ولأنَّ السِّياقَ لِمُطلَقِ إخراجِ الزَّرعِ، وأوَّلُ صلاحِه إنَّما هو لأكْلِ الأنعامِ، بخِلافِ ما في سُورةِ (عبَسَ)؛ فإنَّ السِّياقَ لِطَعامِ الإنسانِ الَّذي هو نِهايةُ الزَّرعِ؛ حيث قال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ [عبس: ٢٤]، ثمَّ قال: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ [عبس: ٢٧]، وذكَرَ مِن طَعامِه مِن العِنَبِ وغيرِه ما لا يَصلُحُ للأنعامِ[(٢)].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ استِفهامٌ تَقريريٌّ[(٣)].

- ولَمَّا كانتْ هذه الآيةُ مُبصَرةً، وكانتْ في وُضوحِها في الدَّلالةِ على البَعثِ لا يَحتاجُ الجاهلُ بها في الإقرارِ سِوى رُؤيتِها؛ قال: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ مَن رآهَا وتَنبَّه على ما فيها مِن الدَّلالةِ، وأصرَّ على الإنكارِ؛ لا بَصَرَ له ولا بَصيرةَ[(٤)].

٣- قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ حِكايةُ قَولِهم بصِيغةِ المُضارِعِ؛ لإفادةِ التَّعجيبِ منه، مع إفادةِ تَكرُّرِ ذلك منهم، واتِّخاذِهم إيَّاهُ[(٥)].

- واسمُ الإشارةِ في ﴿هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ مع إمكانِ الاستغناءِ عنه بذِكْرِ مُبيِّنِه، مَقصودٌ منه التَّحقيرُ، وقِلَّةُ الاكتراثِ به[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٦٩، ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤٢).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٤٣).

٤- قولُه تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أمَرَ اللهُ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يُجيبَهم على طَريقةِ الأُسلوبِ الحكيمِ؛ بأنَّ يومَ الفتْحِ الحقَّ هو يومُ القيامةِ، وهو يومُ الفصْلِ، وحينَئذٍ يَنقطِعُ أمَلُ الكفَّارِ في النَّجاةِ، والاستفادةِ مِن النَّدامةِ والتَّوبةِ، ولا يَجِدون إنظارًا لِتَدارُكِ ما فاتَهم، مع ما في هذا الجوابِ مِن الإيماءِ إلى أنَّ زمَنَ حُلولِه غيرُ مَعلومٍ للنَّاسِ، وأنَّه ممَّا استأثَرَ اللهُ به؛ فعَلى مَن يَحتاطُ لِنَجاةِ نفْسِه أنْ يَعمَلَ له مِن الآنَ؛ فإنَّه لا يَدْري متى يَحِلُّ به، فـ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]؛ ففي هذا الجوابِ سُلوكُ الأُسلوبِ الحكيمِ مِن وَجهينِ: مِن وَجهِ العُدولِ عن تَعيينِ يومِ الفتْحِ، ومِن وَجهِ العُدولِ بهم إلى يومِ الفتْحِ الحقِّ، وهمْ إنَّما أرادوا بالفتْحِ نَصْرَ المسلمينَ عليهم في الحياةِ الدُّنيا[1].

- وقيل: العُدولُ عن تَطبيقِ الجوابِ على ظاهرِ سُؤالِهم؛ للتَّنبيهِ على أنَّه ليس ممَّا يَنبغِي أنْ يُسألَ عنه؛ لكَونِه أمْرًا بيِّنًا غنيًّا عن الإخبارِ به، وكذا إيمانُهم واستِنْظارُهم يَومَئذٍ، وإنَّما المُحتاجُ إلى البَيانِ عَدمُ نفْعِ ذلك الإيمانِ، وعَدمُ الإنظارِ؛ كأنَّه قِيل: لا تَستعجِلوا؛ فكأنِّي بكمْ قد آمنتُم فلمْ يَنفَعْكم، واستَنْظَرتُم فلم تُنْظَروا[2].

- وقيل: المُناسَبةُ بيْن السُّؤالِ والجوابِ: أنَّه لَمَّا كان سُؤالُهم سُؤالَ تَكذيبٍ واستهزاءٍ بيَومِ القيامةِ، لا سُؤالَ استفهامٍ؛ أُجيبوا بالتَّهديدِ المُطابِقِ للتَّكذيبِ والاستهزاءِ، لا ببَيانِ حَقيقةِ المُوقَّتِ. وإنْ فُسِّرَ الفتْحُ بفَتحِ مكَّةَ أو بيومِ بَدْرٍ، كان المُرادُ أنَّ المُتولِّينَ لم يَنفَعْهم إيمانُهم حالَ القتلِ، كما لمْ يَنفَعْ فِرعونَ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٨).

إيمانُه، بخِلافِ الطُّلَقاءِ الَّذين آمَنوا بعْدَ الأسْرِ؛ فالجوابُ بذلك مُطابِقٌ للسُّؤالِ مِن غيرِ تأويلٍ[١].

- وإظهارُ وَصْفِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ في مَقامِ الإضمارِ، مع أنَّهم همُ القائِلونَ: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾؛ لِقَصدِ التَّسجيلِ عليهم بأنَّ كُفْرَهم هو سَبَبُ خَيبتِهم[٢].

٥- قولُه تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ فُرِّعَ على جَميعِ هذه المُجادَلاتِ والدَّلالاتِ تَوجيهُ اللهِ خِطابَه إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يُعرِضَ عن هؤلاء القائلينَ المُكذِّبين، وألَّا يَزيدَ في الإلحاحِ عليهم؛ تَأييسًا مِن إيمانِ المُجادِلينَ منهم، المُتصَدِّينَ للتَّمويهِ على دَهْمائِهم[٣].

- وحُذِفَ مَفعولُ (انْتَظِرْ) للتَّهويلِ، أي: انتظِرْ أيَّامًا يكونُ لك فيها النَّصرُ، ويكونُ لهم فيها الخُسرانُ؛ ففي الأمرِ بالانتظارِ تَعريضٌ بالبِشارةِ للمُؤمنينَ بالنَّصرِ، وتَعريضٌ بالوَعيدِ للمشركينَ بالعذابِ في الدَّارَينِ[٤].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ تَعليلٌ لِمَا تَضمَّنَه الأمرُ بالانتظارِ مِن إضمارِ العذابِ لهم[٥].

- ومَفعولُ ﴿مُّنتَظِرُونَ﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه السِّياقُ، أي: مُنتظِرون لكمُ الفُرصةَ لِحَرْبِكم، أو لإخراجِكم[٦]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٥٥، ٤٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٤٣، ٢٤٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٤٤).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٤٤).

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ الرَّابعُ والعشرونَ

ويليه المجلدُ الخامسُ والعشرونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الأحزابِ









الفهرس







الفهرس

سورةُ الرُّومِ

سورةُ لُقمانَ

سُورةُ السَّجْدةِ


تم الصف والإخراج في مؤسسة
الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net
٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠